

ويعد أياه وطال انتظار له للشهيرة
 يا ذا الذي الف الشواء وركن - قطع البلاد مغرباً ومشرقاً
 اهدى الملك على الدنوة تجبة - اذ لم من المسك القتيقوى
 اذا ذل العزيز ما برح من مؤمراً
 وظال على العزيز بما الذليل
 ما لم يؤمراً اللدنيا وزينتها
 طوقه كان في اللذات من بها
 ديوان ابي البهر الشيخ جعفر الخطي
 رواية محمد بن نام بن علي الغوي
 فاسلموا وانصروا وان مرغم الأعداء
 في رفة وعز جناب
 ابو الجمر

آهات أوال في شعر جعفر الخطي

جعفر آل طوق



آهات أوال

في شعر جعفر الخَطِّي



مركز أوال للدراسات والتوثيق

AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION



اسم الكتاب: آهات في شعر جعفر الخطي

اسم المؤلف: جعفر آل طوق

الطبعة الأولى، بيروت نوفمبر 2015

© لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال.

التعريف بالمؤلف: جعفر آل طوق، دكتوراه في

اللغة العربية وآدابها من جامعة محمد الخامس

في المغرب 2009 (دلالة الحسي على المجرد في شعر

أبي نواس) له اهتمامات بالشؤون الأدبية واللغوية.

jaffr4321@gmail.com

هذا الكتاب هو رسالة ماجستير قُدمت في جامعة

القديس يوسف عام 2003.

www.awalcentre.com | info@awalcentre.com

ISBN 978 - 9953 - 0 - 3422 - 5

آهات أوال

في شعر جعفر الخٲي

جعفر مهدي عبد المحسن آل طوق



المحتويات

9	الإهداء
11	المقدمة
17	تقويم المصادر والمراجع
18	أولاً: المصادر
21	ثانياً: المراجع
27	خلاصة التقويم
29	جغرافيا البحرين قديماً
29	الحياة السياسية في أيام جعفر الخطي
32	جغرافية البحرين قديماً
37	الحياة السياسية في أيام جعفر الخطي
51	الباب الأول: جعفر الخطي في عصره
53	الفصل الأول: الرجل ونشأته
54	أولاً: اسمه ونسبه ومولده
63	ثانياً: أسرته ووضعها السياسي والاجتماعي
68	ثالثاً: نشأة الشاعر وعلاقته بحياة عصره الثقافية
78	الفصل الثاني: الشاعر ونشاطه الاجتماعي
78	تمهيد
79	أ. علاقته برجال عصره
101	ب - رحلاته
105	ج - عقيدته
108	د - وفاته

111	الفصل الثالث: ديوانه
111	أولاً: مخطوطات الديوان وأماكن وجودها
125	الباب الثاني: أغراضه الشعرية
127	الفصل الأول: المديح
127	المديح:
127	أولاً: مقام قصائد المديح في الديوان
130	ثانياً: الممدوحون
146	ثالثاً: تركيب قصيدة المدح
153	رابعاً: معانيه المدحية
171	الفصل الثاني: الحنين إلى الوطن والفخر
171	أولاً: الحنين إلى الوطن
187	ثانياً: الفخر
202	الفصل الثالث: أغراضه الشعرية الأخرى
202	أولاً: الرثاء
228	ثانياً: الوصف
237	ثالثاً: الغزل
247	رابعاً: العتاب
251	خامساً: الاعتذار
257	سادساً: الشكر
263	سابعاً: الهجاء
269	الباب الثالث: المستويات الدلالية
271	الفصل الأول: المستوى العروضي
272	مدخل
273	أولاً: الأوزان العروضية المستعملة عند أبي البحر
283	ثانياً: القافية
285	ثالثاً: عيوب القافية
286	رابعاً: الموسيقى الداخلية
292	الفصل الثاني: المستوى الصرفي والتركيب

294	أولاً: المستوى الصرفي
317	ثانياً: المستوى التركيبي
345	الفصل الثالث: المستوى المعجمي
346	أولاً: حقل الطبيعة
350	ثانياً: حقل اللون
358	ثالثاً: حقل النور
360	رابعاً: حقل الشجاعة والبطولة
364	خامساً: حقل الجود والكرم
368	سادساً: حقل الوطن
370	سابعاً: حقل الحزن والأسى
373	ثامناً: الحقل الديني
377	تاسعاً: حقل الصفات البشرية
380	عاشراً: حقل الحرف والمهن
383	الفصل الرابع: المستوى البلاغي
384	أولاً: الصورة الشعرية
401	ثانياً: الألوان البيانية
411	ثالثاً: الألوان البديعية
419	الخاتمة
425	قائمة المصادر والمراجع
435	الفهارس العامة

الإهداء

إلى من رباني صغيراً وحرص على تربيتي وتنشئتي
وتعليمي...

إلى من شاطرني عناء هذا البحث، وضحّى من أجله
ابتداءً من رفيقة دربي وانتهاءً بأبنائي الثلاثة:

زينب وكوثر ومحمد، وصبرهم معي

لهم جميعاً أهدي هذه الرسالة...

المقدمة

عاشت بلدان الجزيرة العربيّة منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حياة مضطربة سببها التقسيم السياسي، إذ انهار كيان المدينة ممّا أثر سلباً على الحياة الفكرية. وأخذ البدو يُسيطرون على القسم الواقع في هذه الجزيرة، والأعاجم يسيطرون على الجزر الواقعة في الخليج.

وسار الزمن، والحركة الأدبيّة والشعريّة تتفاعل بين شعوب الجزيرة، والخليج، حتى أطلّ القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي إذ بدأت شواطئ الخليج تستقبل الجيوش التركيّة، وسيطر البرتغاليون على الجزر وبعض الموانئ، وساد الركود الثقافي فيها إلّا قلاعاً غدت منارةً للفكر والأدب أنعشت الحياة الفكرية، وبرز فيها عدد من العلماء المبرزين في العلوم العقليّة والفلسفيّة والحديث وغيرها. وكذلك انتعش الأدب وبدأ يأخذ مكانته التاريخيّة، ونشطت محافل الأدب، ولمع نجمٌ أحد الشعراء في هذا، ألا وهو جعفر بن محمد الخطّبيّ الموسوم «بأبي البحر». وقد كان ظهور هذا الشاعر في فترة تعدّد من أخرج الفترات الزمنية التي مرّت بها منطقة الخليج حيث تكالب البرتغاليّون والعثمانيّون على المنطقة.

وأبو البحر الخطّبيّ هو أحد شعراء المنطقة في أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وأوائل القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. وهو من الذين لم ينالوا

حظهم من العناية والدرس المستفيض، إلا عند القليل من الدارسين المحدثين.

وممّا دفعني لاختيار أبي البحر الخطبي موضوعاً لرسالتي أمور متعدّدة منها:

أولاً: أنه كان يمثل ظاهرة لافتة في عصره من حيث التجديد والابتكار وإحياء الشعر القديم، في الوقت الذي كان فيه الشعراء يغلب على شعرهم التكلف والزخارف اللفظية والمحسّنات البديعية. فكان ذلك بحقّ ظاهرة تستحق الدراسة والاهتمام.

ثانياً: الحاجة إلى الكشف عن شعراء مغمورين في منطقة الخليج، فقصدت شاعراً يعدّ من مشاهير القرن الحادي عشر الهجري/السادس عشر الميلادي. فأكون قد ساهمت في إلقاء الضوء على قصائده وإشهارها لعلّ ذلك يعوّض شيئاً ممّا أصابه من ظلم الدارسين وإجحافهم له، بُغية تقديمه للقارئ.

ثالثاً: إبراز بعض تراث المنطقة وواحدٍ من أدبائها للعالم، وهذا واجب أبناء المنطقة ذاتها.

رابعاً: قلّة اهتمام الباحثين بدراسته، ولعلّ ذلك يعود إلى نقص المصادر، والمراجع الكافية للدراسة.

كانت تلك هي أهمّ البواعث على الكتابة عنه، ولا سيّما عندما قرأت ديوانه. فدفعني ذلك كلّهُ إلى الكشف عن مكانة هذا الشاعر. وقد اتّبع في دراستي لأبي البحر الخطبي منهجين:

أ - المنهج الخارجي، وهو المنهج التاريخي الذي يستمدّ عناصره من خارج الأثر الأدبي، ومن مزايا هذا المنهج إلقاء الضوء على النّصّ من خارجه، وبواسطته درستُ حياة الشاعر، وما أحاطها من ظروف في حلّه وترحاله، لذلك بدأت البحث بتمهيد تاريخي عن الشاعر وعصره حتى وفاته سنة (1619/1028) وقد أفادني هذا المنهج في دراسة قصائده الشعرية، وجعلني

أعالج في الفصل الأول من الباب الأول عصر الشاعر، فتعرّفت أولاً على العصر الذي نشأ فيه وتأثر به، وتناولت بيئته السياسيّة والاجتماعيّة والعلميّة لأستطيع تحديد الموقف الذي سار عليه، ثمّ أفادني في عرض حياته بشيءٍ مِنَ التفصيل.

ب - أمّا المنهج الداخلي: فقد درست نتاجه الشعري مستلهماً المناهج الحديثة كالبنوي، على سبيل المثال، فأفادني في دراسة قصائد الشّاعر، وتحليلها بعد الإحصاء الذي أجرته في الديوان مما ساعدني في إرجاع كل نصّ إلى غرضه، كما أنّه أفادني في دراسة الخصائص الأسلوبية من خلال دراسة المستويات في الباب الثالث.

أمّا خطة البحث فقد جاءت في مقدّمة وتقويم لأهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث وثلاثة أبواب شاملة عشرة فصول وخاتمة، ثم ثبت بالمصادر والمراجع ومجموعة من الفهارس الفنيّة. وتأسيساً على المنهجية المتبعة في مثل هذه الدّراسات بدأت الباب الأوّل بثلاثة فصول. الأوّل: عن الرجل ونشأته. أمّا الفصل الثاني فكان للحديث عن الشاعر ونشاطه الاجتماعي، وتطرّقت فيه إلى رحلاته. أمّا الثالث، فقد خُصّ للحديث عن ديوانه (مخطوطاته)، وأماكن وجودها.

أمّا الباب الثاني، فقد عالجت فيه الأغراض الشعرية حسب أهميّتها في الديوان. فقد جاء الفصل الأوّل منه خاصاً بالمدح ومقامه في الديوان، والممدوحين من الأمراء ورجالات عصره، ومدائحه لإخوانه وأصدقائه وكذلك مدائحه لآل البيت النبوي، دارساً تركيب قصيدة المدح عنده. أمّا الفصل الثاني فقد اشتمل على أغراض الحنين والفخر ومقامها في الديوان، ومن ثمّ معانيها. ويطرح الفصل الثالث من هذا الباب الأغراض الشعريّة الأخرى

وهي: الرثاء، فالوصف، فالغزل، فالعتاب، فالاعتذار، فالشكر، ثمَّ الهجاء.

وأخيراً كان الباب الثالث، وقسمته إلى أربعة فصول فحاولت فيه استلهاً طرق المنهج البنوي كمنهج تحليلي في النقد الحديث، كما أنني أقمت التحليل بحسب المستويات، فكان الفصل الأول للمستوى الصوّتي والعروضي، وأمّا الفصل الثاني فقد جاء خاصاً بالمستوى الصرفي، والمستوى التركيبي، وأمّا الفصل الثالث فقد تناول المستوى المعجمي (دراسة ألفاظه)، ثمَّ جاء الفصل الرابع، ودار حول المستوى البلاغي.

وأجملت في الخاتمة أهمّ النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث. ومنّ المصادر التي عوّلت عليها في دراسة الشاعر كثيرة منها: خلاصة الأثر للمحبّي، وأمل الآمل للعالملي⁽¹⁾، وسلافة العصر لابن معصوم، وأنوار البدرين لعلي البلادي، فقد أعانتني هذه وغيرها في دراسة الشاعر وعصره.

أمّا الدراسات الحديثة عن حياته وشعره فهي قليلة مختصرة، وهي منشورة في بعض الكتب والمجلّات، أو مبنوثة في بعض البحوث التي تركّز على جانبٍ واحدٍ من شعره. وأهمّ ما كتب عن الشاعر نذكره على النحو التالي: ما جاء في دراسة لعز الدين التّوخي في مجلّة المجمع العلميّ العربيّ (دمشق)، ودراسة أخرى لحاجم الربيعي في مجلّة الخليج العربيّ الصّادرة عن مركز دراسات الخليج العربيّ (جامعة البصرة). ودراسة ثالثة بعنوان «الشاعر المغمور» لخالد الفرج في مجلّة المنهل⁽²⁾. فضلاً عن بعض الكتب والمقالات الأخرى التي أفادتني في دراستي هذه، ومنّها النقد الأدبي الحديث لمحمّد غنّيمي

(1) وهو كتاب مختصّ بتراجم العلماء ومؤلفاتهم، وإجازاتهم.

(2) سوف أعرض لهذه الدراسات الثلاث بالنقد في تقويم المصادر والمراجع.

هلال، وقرءات أسلوبيّة في الشعر الحديث لمحمّد بن عبد المطلب،
والشافي في العروض والقوافي لهاشم صالح مناع، وغيرها.
وكنْتُ أشعر بالمتعة وأنا أدرس نتاج أبي البحر الخطي، واستمتعت
بصحبه التي جمعت بيني وبينه طوال فترة البحث، إلا أنني واجهتُ
في أثناء إعداد بحثي هذا صعوبات كثيرة منها:

1. عدم وجود ديوان محقق تحقيقاً علمياً فديوانه لم يحظَ بعناية
علمية كافية إذ كان مخطوطاً بحوِّزة أشخاص من المهتمين
بالتراث الأدبي في منطقة الخليج، منذ فترة طويلة، وكان هؤلاء
شحيحين لا يسمحون لأحد بالاقتراب من تلك المادة التراثية
التي بحوزتهم، إلى أن حصلت على نسخة الديوان المطبوع
الوحيد الذي أخرجه الخطيب علي بن الحسين الهاشمي (عضو
جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف) سنة (1373
/1953)⁽¹⁾، فتفضّل بها عليّ الأديب السعودي السيد عدنان
العوامي من القطيف بالمملكة العربية السعودية.

2. قلّة المعلومات المتعلقة بحياة الشاعر في المصادر والمراجع
وأغلبها تتشابه في طرحها حتى تكاد تكون متكرّرة. كما أنني
تعبت في البحث عن المصادر والمراجع التي تعينني في
كتابة مادّة البحث، فقامت بزيارات متعدّدة لبلدان مجاورة
لبلدي البحرين، وأخرى بعيدة بغية البحث عن معلومة أو
كتاب يفيدني، مثل: المملكة العربية السعودية، وبالخصوص
المنطقة الشرقية، وكذلك جامعة الرياض ودولة الكويت
وبخاصّة مكتبة جامعة الكويت، وقد ظفرت بنسخة من ديوان
الشاعر إلا أنها طبق الأصل للنسخة المتوافرة لديّ، وجمهورية

(1) حُقِّق مؤخراً على يد الدكتورة أنيسة المنصور وعبد الجليل العريض بدعم من
مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري.

مصر العربيّة متجولاً بين مكّتابها الخاصّة والعامّة، بالإضافة إلى مكّتبتيّ جامعة القاهرة والإسكندريّة، وكذلك مكتبة الجامعة الأردنيّة بعمّان، وإيران، وبالتحديد مكتبة المرعشي النجفي بقمّ، والجمهوريّة العربيّة السوريّة قاصداً مكتبة الأسد والمكتبة الظاهريّة، والمملكة المغربيّة باحثاً عمّا يفيدني من معلومات وكتب في جامعة محمّد الخامس في الرباط. وكانت حصيلة ذلك أنّني ظفرت بكتب ومقالات لم تكن متوافرة في بلدي البحرين فضلاً عن زيارات للشخصيّات المهتمّة بتراث المنطقة في البحرين، والسعوديّة.

3. لم يكن بوسعي التعريف ببعض الشخصيّات التي أشار إليهم الشاعر في بعض قصائده، إذ خلت المصادر التاريخيّة التي تحدّثت عن تلك الحقبة حتى من الإشارة إليهم.

وفي الختام أتمنّى أن أكون قد قدّمت جزءاً من واجبي نحو عَلم من أعلام الأدب في منطقة الخليج العربي ليكون محطّ أنظار محبّي التراث الأدبيّ. ولا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لكل من أولاني العناية والتشجيع، وأخصّ بالذكر الدكتورة هبة شبارو سنو أستاذة النحو العربي والأدب بجامعة القديس يوسُف، والمشرفة على رسالتي، والبروفسور أهيف سنو مدير معهد الآداب الشرقيّة، القارئ الثّاني اللذين كان لتوجيهاتهما وملاحظتهما الأثر البالغ في إخراج هذا البحث بالصّورة التي هو عليها. كما أنّني أشكر كل من سهّل لي الحصول على المصادر والمراجع سواء في البحرين أم في خارجها، وكل من وقف بجانبني وأعطاني من جهده ووقته.

وأخيراً فإنني أقرُّ بأنّ هذه الرسالة ليست منزّهة عمّا يعتري أيّ جهد إنسانيّ من نواقص، وأمل أن تكون نواةً لدراسات لاحقة عن الشاعر أبي البَحر الخطّي.

تقويم المصادر والمراجع

لا بدّ لكلّ باحث أو دارس أن يلجأ إلى عدد من المصادر والمراجع يستقي من خلالها المعلومات والأفكار لهدف تحليلها وتنظيمها ليخرج بعد ذلك بنتائج مثمرة تكون هي الهدف الأساس من البحث.

بيد أنّ تلك المصادر والمراجع تختلف في درجة الفائدة، فمنها ما تكون فائدته كبيرة، ومنها ما يكون تكراراً لمعلومات من مصادر سابقة، تجعل القيمة الأدبية قليلة، أو تكاد تكون مجرد نقل حرفي بلا زيادة أو نقصان. لذا يكون تقويمها أمراً ملحاً، وذلك لبيان قيمتها العلمية، وفائدتها الأدبية.

وسأقدم فيما يلي تقويماً لأهم المصادر والمراجع التي شكّلت الأساس الذي استندت إليه رسالتي. وفي هذا التقويم عرض مختصر للفائدتين الخاصة والعامة اللتين أفدتهما في الرسالة من كل مصدر أو مرجع اعتمدت عليه.

وفي هذه الدراسة سأعرض لخمسة مصادر، وأربعة مراجع كانت هذه وتلك مهتمة بدراسة جعفر بن محمد الخطي من حيث نشأته، وعلاقاته، وشعره. من هذا المنطلق سأعتمد المنهج المألوف في ترتيب المصادر تاريخياً من الأقدم إلى الأحدث مشيراً إلى سني وفيات أصحابها.

أمّا المراجع فقد رتبها ألفبائياً بحسب أسماء أصحابها.

أولاً: المصادر

أ - ديوانه المطبوع

لقد طبع الديوان لأول مرة بجهد قام به الخطيب علي بن الحسين الهاشمي - عضو جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف - وكان ذلك في مطبعة الحيدري بطهران سنة (1953/1373).

وعلى الرغم من أنها الطبعة الوحيدة التي جمعت أشعار أبي البحر بين دفتين، فإنها تبدو قاصرة، إذ طُبِعَ الديوان على ما هو عليه من تعداد أبيات القصائد، ولم يتصرّف بشيء منه، غير ترتيبه على الحروف الهجائية، وإضافة مقدّمة تعريفية تناول فيها ولادة الشاعر، ونشأته، وما قيل فيه، والحديث عن ديوانه ثم وفاته، إذ لم تتعدّ هذه المقدّمة الصّفحتين. بيد أن عمله هذا يحتاج إلى المزيد من الجدّية، والدقّة، والضبط؛ ولم يكن تخريج الأبيات بأوفر حظاً من شروحا وتوثيقها؛ إلاّ أنّه أفادني إفادةً عظيمة في توضيح جوانب كثيرة من سيرة أبي البحر من حيث ثقافته، وعلاقاته برجال عصره ورجال الحكم، والقضاء، وعلماء الدين. وأفادني في التعريف برحلاته إلى البحرين وفارس، كما أنّه أسعفني في تحديد بعض الحوادث التاريخية وبالخصوص رحلته الأولى من موطنه القطيف إلى البحرين، وكذلك رحلته من البحرين إلى فارس.

ويتّضح ممّا سبق أنّ ديوانه ساهم مساهمةً فعّالة في كتابة سيرته بشكل شبه متكامل، بالإضافة إلى مجموع شعره، وهو موضوع الدّراسة. فالإفادة جاءت من خلال المقدّمة والشّعر. إلاّ أنّ طابع الديوان لم يشر إلى سنة ولادته، ولم يتعرّض لها، بل اكتفى بذكر شيءٍ من سيرته وديوانه وسنة وفاته (1619 / 1028). وأهمّل التعريف ببعض الأعلام الوارد ذكرها في قصائد الشاعر. بيد أنّ

الديوان يعدُّ أهمَّ مصدر اعتمدت عليه، ولولاه لما كان باستطاعتي إخراج هذا البحث بهذه الصورة.

ب - خلاصة الأثر، لمحمد المحببي (ت 1061/1650)

وهو كتاب تراجم من أربعة أجزاء، اقتصر في تراجمه على أعيان القرن الحادي عشر الهجري. وقد شمل المحببي شاعرنا الخطبي في جزئه الأول، إذ جاءت ترجمته بذكر اسمه وكنيته ونسبه ووفاته، ثم ذكر له قصيدةً واحدةً هي التي عارض الشاعر فيها بهاء الدين العاملي حينما دخل أصبهان. وقد اعتمد في معلوماته على كتاب سلافة العصر لابن معصوم، إذ نقل حرفياً بعض ما ورد في السلافة من أخبار وتعليقات عن الشاعر حتى وفاته. وبذلك تكون أهمية هذا المصدر قليلة جداً، لأنه لم يضيف شيئاً جديداً، بل كان ناقلاً، ومعتمداً في معلوماته على كتاب سابق.

ج - أمل الآمل، محمد بن الحسن (الحر العاملي)، (ت 1692/1104)

هو كتاب تراجم من جزئين، اقتصر في ترجمته للشاعر الخطبي في قسمه الأول على ذكر اسمه، ووسمه بأنه أديب، شاعر معاصر، يروي عن الشيخ البهائي، كما ذكر بأن له ديوان شعر حسن، وأثنى عليه بالفضل والعلم والأدب. لم يذكر شيئاً من شعره. فالقيمة الأدبية ضعيفة جداً، لأنه لم يأت بجديد يذكر.

د - سلافة العصر⁽¹⁾، السيد علي صدر الدين المدني المعروف بابن معصوم (1119/1707)

يعدُّ هذا أقدم مصدر وأهمه بعد الديوان، وقد اعتمد عليه طابع الديوان والمقدم له وهو علي بن الحسين الهاشمي كمصدر

(1) وردت أخبار أبي البحر الخطبي في الصفحات 532 - 545.

أساس في مقدمته عن الشاعر. وقد نهج ابن معصوم في ترجمته لأبي البحر الخطي بذكر كنيته أولاً ثم اسمه، وشهرته، ومن ثم لقبه، وأصله، وكذلك مكانته، وما بلغ ديوانه من الشهرة. وقد كان المترجم معجباً به ممّا جعله يسهب في نعته بطريقة مسجّعة كقوله: «ناهج طرق البلاغة والفصاحة، الزّاهر الباحث الرّحيب المساحة، البديع الأثر والعيان، الحكيم الشّعْر، الساحر البيان، تُقّف بالبراعة قداحه، ودار على السامع كؤوسه وأقداحه...».

هـ – أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين،
لعلي بن حسن البلادي (1921 / 1340)

هو من المصادر المهمّة التي يعوّل عليها في تراجم علماء البحرين والقطيف والأحساء، وكانت الفائدة منه كبيرة، إذ أمّني بمادة لم تكن متوافرة في المصادر الأخرى. أمّا عن أبرز النقاط التي تناولها في ترجمته للشاعر فقد قال عنه: إنّه عالم، وشاعر، وأديب، ثم ذكر اسمه ونسبه ولقبه، بالإضافة إلى مسكنه، وهي قرية التّوبي - قرية من قرى القطيف - كما ذكر أنّ له عقباً فيها، وأنّه كثير السفر إلى البحرين. وقد تحدث عن شعره، وصلاته بالعلماء، وصحبته لهم في أسفارهم، وكان المترجم معجباً بشعره، إذ ذكر أنّه أديب، وشيخ له ديوان تهش الأسماع إلى استماعه، وتلتذ الطّباع إلى محاسن إبداعه. كما أنه ذكر مقطّعات من سبع قصائد للشاعر، مع بعض التعليقات النقدية من معاصري الشاعر. وأخيراً أثبت أنّ وفاته كانت سنة (1619/1028). وتمّت الاستفادة من هذا المصدر من حيث تراجم أغلب الشخصيات التي ورد ذكرها في شعر أبي البحر الخطي، مع أنّ بعضها لم أجد لها ترجمة إلّا فيه.

ويلاحظ أنّ قيمة الكتاب العامّة كبيرة سواء فيما يتعلق بتاريخ البحرين، أم بالحركة العلميّة فيها، أو فيما يتعلّق بالرجل ونشأته،

وكذلك الشاعر ونشاطه. ومع ذلك فإنَّ القيمة الأدبيَّة لهذا المصدر تكاد تكون متوسّطة.

ثانياً: المراجع

أ - «أبو البحر الخطي دراسة في شعره»، لأحمد حاجم الربيعي، في مجلة الخليج العربي، المجلد الحادي والعشرون (1989/ 1409)⁽¹⁾

ربّما كان هذا المرجع الأهمّ فيما كُتِبَ حول أبي البحر الخطي، إذ تكمن فائدته في ما اتبعه الكاتب من منهج علمي دقيق. فقد قسّم دراسته عدّة أقسام:

القسم الأول: وقد ضم مقدمة مختصرة، تحدث فيها عن تاريخ منطقة الخليج العربي حتى أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي معللاً إهمال المؤرخين لها.

القسم الثاني: تحدّث فيه عن حياة الشاعر شاملاً اسمه، وكنيته، ونسبه مع تعليل كنيته بأبي البحر، إذ قال عنه: «أنّ كنيته أبا البحر جاءت من كثرة أسفاره، وركوبه البحر. كما أنّ الباحث اجتهد وقدّر عمر الشاعر، وذكر سنة ولادته بقوله: «إنّ ولادته كانت ما بين عام (1564/972)، وعام (1566/974) تقريباً. ثمّ تحدّث عن بداياته الشعريّة، وتلاميذه، ورحلاته، ثمّ وفاته سنة (1619/1028)، كما حدّد مكان الوفاة، وهي مدينة «شيراز» الإيرانيّة. وتلك فائدة كبرى قدّمها الباحث لي في الباب الأول وتحديد الفصول الأولى والثاني.

القسم الثالث: تعرّض الباحث إلى شعر الخطي محدداً الأغراض التي تناولها مبتدئاً بالمدح، وخاتماً بالأغراض الأخرى كالشكوى والاعتذار. وكان الباحث في ذلك كلّ شارحاً ومحلّلاً، ومبدياً رأيه الشخصي

(1) وردت الدّراسة في الصّفحات 154 - 202.

في كلِّ غرضٍ مِنَ الأغراضِ الشعريَّةِ المطروقة. وأفادني في الباب الثاني بأكمله (أغراضه الشعريَّة).

القسم الرابع: تحدّث فيه عن الخصائص الفنيَّة مِنْ حيث الشكل والمضمون مردفاً ذلك بأمثلة توضيحية من أبيات الشاعر. وقد شمل فيه الصورة الشعريَّة ووصفها بأنها تقليدية، إلاَّ أنَّ بعضها لا يخلو مِنْ الجدَّة. وكذلك الأسلوب الذي قال بأنَّه أسلوب يتفاوت بين العفويَّة المرغوبة، والتكلّف المقيت. وقد أفدت من هذا القسم حينما تعرّضتُ للمستوى البلاغي في الفصل الأخير من الباب الثالث.

القسم الخامس: بحث فيه المظاهر التاريخيَّة والاجتماعية في شعر أبي البحر، وقد دُلل بها على سعة ثقافة الشاعر التاريخيَّة، ذاكراً مجموعة من الأمثلة التوضيحيَّة. وأفدت من هذا القسم في الباب الثالث خصوصاً الفصل الثالث منه (المستوى المعجمي).

وقد جاءت القيمة العامة لهذه الدراسة كبيرة للغاية لما قدمه الباحث من معلومات عن الشاعر، ودراسة وافية لشعره، بالإضافة إلى القيمة المصدريَّة التي اعتمدها. وكذلك لاشتمالها على التفصيل الدقيق الذي أفادني بعضه في عملية الإحصاء التي أجريتها في الباب الثالث لدراسة المستويات الخمسة. كما أنَّ القيمة الأدبية لها عالية، فالباحث اعتمد اعتماداً كلياً على الديوان، وكذلك رأيه الشخصي فيما يتعلّق بالنقد الداخلي لشعر أبي البحر الخطّي، وإيراد بعض الأبيات الدّالة على الغرض المدروس.

ذلك كلّه أفادني إفادة بالغة في إخراج هذا البحث إلى ما وصل إليه.

ب - «الشاعر المغمور، الشيخ جعفر بن محمد الخطي القطيفي»،
لخالد بن محمد الفرّج، في مجلة المنهل، السنة العاشرة،
الجزء الثاني، (1369/1949)⁽¹⁾

لقد أفدت من هذه الدراسة في معرفة جوانب من حياة جعفر بن محمد الخطي، مثل ولادته، ونسبه، وألقابه، وعمره، وعقيدته، ومكانته بين شعراء عصره، ورحلاته، وبعض من علاقاته بالوزراء والعلماء، والقضاة. فالكاتب ممن قدّروا عمر الشاعر بقوله: «فلا يبعد أنه قد تناول الخمسين أو الستين من عمره، فتكون ولادته سنة (1562/970) أو (1572/980) مع التعليل وكذلك وفاته سنة (1619/1028)، ثم أشار إلى فقره بذكر رواية خرافية - نقلها من أنوار البدرين الأنف الذكر من دون تمحيص وتوخي الدقة - مدّلاً بها على فقر الشاعر مدعومة بأبيات من الديوان. ثم ذكر أبيات قليلة من غرض الحنين والشوق، وبيتين يتيمين من غرض الوصف. كما أنه بيّن أهمية شعر أبي البحر فيما خلفه من أسماء المأكّل، والأسماك والحرف، والعادات، والملابس، والأماكن، والتواريخ، كما أشار الباحث إلى أنّ ديوانه ضاع منه الكثير، ونستدل على ذلك من قوله: «والخلاصة أنّ ديوانه على قلة ما بقي منه...».

فالقيمة العامّة تنبثق من كونه ألقى الضوء على حياة الشاعر، أمّا القيمة الأدبيّة فتمثّلت فيما جاء به الباحث من رأي نقدي حول الشاعر ونتاجه، وأمّا الناحية المصدريّة فإنّها معدومة، إذ إنّ الكاتب لم يذكر لنا مصدراً غير أنوار البدرين لعليّ البلادي.

(1) وردت الدّراسة في الصّفحات 90 - 98.

ج - عصر الدول والإمارات، لشوقي ضيف⁽¹⁾

صنّف المؤلف أبا البحر الخطّي ضمن شعراء المرثي إلى جانب الشاعر أبي الحسن التهامي، وعرف بقبيلته، وكنيته، ونشأته، ذاكراً رحلته إلى البحرين مادحاً وزراءها وقضاتها، ثم رحلته إلى إيران، ونزوله في شيراز، متردداً بينها وبين أصفهان، والتقاؤه في الأخيرة ببهاء الدين العاملي صاحب كتاب الكشكول، ثم وفاته سنة (1619/1028). بعد ذلك عرض رأي ابن معصوم في الشاعر. واقتصرت دراسته في صفحتين وتسعة أسطر وثلث السطر، مضمناً نماذج من شعر أبي البحر، خاتماً دراسته بحكم نقدي جائر، بأن شعره رديء ظاهر التكلف.

وفي المقابل قال في ختام دراسته: إن أبا البحر أهمّ شاعر ظهر في زمنه بالقطيف والأحساء - أو بعبارة أخرى - بالبحرين، وهو بلا ريب أشعر من ترجم له والمحبّي في نفحة الريحانة، وابن معصوم في سلافة العصر وبالقياس إلى مواطنيه. فالقيمة العامة لهذه الدراسة ضعيفة جداً كونها لم تكشف لنا معلومات وافية عن الشاعر، سواء عن حياته أو عن شعره، بل تحامل على الشاعر كثيراً. وأمّا القيمة الأدبيّة فهي ضعيفة أيضاً لكون الباحث أصدر حكماً قاطعاً مانعاً على أن شعره رديء، في الوقت الذي لم يستكشف الخصائص الأدبيّة لشعره، وإنّما اكتفى بحكمه على ثلاثة نماذج من شعره. لذلك فإنّ دراسته لم تشكّل رافداً مهماً يمكن التعويل عليها لبيان أهميّة الشاعر وشعره، إلا أن هناك فائدة لا أنكرها وهي ذكره المصادر القديمة التي تناولت الشاعر بالترجمة.

(1) وردت أخباره في الصفحات 133 - 135.

د - «الأدب في البحرين في فاتحة القرن الحادي عشر»، لعز الدين آل علم الدين التنوخي، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق

نشر هذه الدراسة على ثلاثة أقسام، فجاء القسم الأول في الجزء الأول من المجلد الثامن الصادر في شهر كانون الثاني سنة (1928/1347)، ونشر القسم الثاني في المجلد الثامن الصادر في شهر شباط من العام نفسه، وختمها بقسم ثالث في المجلد نفسه في شهر آذار من العام نفسه. وجاءت مقالاته الثلاث خاصة بشعر أبي البحر جعفر بن محمد الخطي دون غيره من شعراء تلك الفترة. إذ إنه كان متحاملاً على الشاعر وبقسوة شديدة، مما جعله بمقالاته تلك يخرج عن جادة المنهج العلمي للنقد، وربما أن السبب في ذلك هو اعتماده على مخطوطة كثيرة الأخطاء، جمّة التصحيفات كتبها رجل قليل المعرفة بقواعد الإملاء كما عبّر عنه السيّد العوامي. إلا أنني حينما تعرضتُ لنقد المقالات الثلاث لم أجد أفضل من النقد الذي وجهه السيد عدنان العوامي حينما تصدّى للدفاع عن أبي البحر عند تحقيقه للديوان⁽¹⁾.

هـ - أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين (ت 1372/1952)

لقد أفدت كثيراً منه في معرفة جوانب كثيرة عن حياة الشاعر وشعره وذلك من حيث ألقابه، واسمه، ونسبه، ووفاته، ومكانته، ورحلاته، وعلاقاته. وأشار إلى أن له ديوان شعر كبيراً حاوياً لجميع فنون الشعر جمعه في حياته راويته، ومنشده الحسن بن محمد الغنوي الهذلي بأمر من السيد الشريف جعفر بن عبد الجبار بن الحسين العلوي. إلا أنه لم يذكر شيئاً عن ولادة الشاعر.

(1) انظر: مجلة الواحة، العدد السابع (1997/1417)، ص 118 - 140.

واعتمد صاحب الأعيان في منهجه على النقل من الديوان مباشرة، وكذلك من سلافة العصر لابن معصوم، وأمل الآمل للحر العاملي (ت1692/1104)، كما بين في قوله: «وفي أمل الآمل، الشيخ أبو البحر جعفر بن محمد...».

فالفائدة العامة جاءت من حيث إضائه حياة الشاعر من جوانب متفرقة، وفائدة ضئيلة من الناحية المصدرية، أما القيمة الأدبية فقد تركزت في ذكره أغلب شعره مرتباً على الأبواب، إذ بدأ بالمديح والتهناني، فالرثاء، فالهجاء، فالحنين إلى الأهل والأوطان، فالوصف، فالخمريات، فالكتب والرسائل، فالاعتذار، فالملح والنوادر، فالمواعظ والمناجاة، ثم الأغراض الأخرى. فقد كانت الفائدة مركزة في الفصل الثالث من الباب الأول (ديوانه)، والباب الثاني بفضوله الثلاثة. كما بين رأيه النقدي في الشاعر بقوله: «كان فاضلاً مشاركاً في العلوم، أديباً شاعراً جزل اللفظ والمعنى فخم الأسلوب قوي العارضة».

لذا سأعرض شيئاً من ذلك النقد، وذلك لاتفاقي معه فيما عرضه من رأي نقدي يتصف بالموضوعية والإقناع. فقد تعرض العوامي للمقالات الثلاث بالنقد المفصل، إذ قال: افتتح التنوخي مقالاته بعرض وصف فيه المخطوطة، فذكر اسم مالکها، ولونها، ومقاس ورقها، ثم عرض مقدمتها لكي يعطي القارئ صورة عن الأدب في البحرين في ذلك التاريخ. وبعد أن عرض شيئاً من أحوال الشاعر، وعلاقته ببعض معاصريه، وأقوالهم فيه ليدل بذلك على فساد الأدب في البحرين في عصر الخطي، انتقل إلى مقياس الشعر عند العرب، فسرد رأي أحد أعمدة النقد العربي القديم علي بن عبد العزيز الجرجاني، وبعد ذلك خلص إلى نتيجة مفادها: فإذا ما حدونا شعر أبي البحر الخطي على هذا المقياس رأينا أنه يحاول تجويده، وأن حسنه بشرف

المعنى غير خلاب. فإنَّ حكمه هذا مرتبط بذوق شخصي انطباعي دون مرجعية نقدية معتبرة.

خلاصة التقويم

تلك هي أهم المصادر والمراجع التي تناولت الشاعر أبا البحر الخطبي بالترجمة والدراسة، إلا أنه كما تبين فإنَّ أغلب المصادر تلك اعتمدت على النقل المباشر ممن سبقها من دون تقديم جديد يذكر، اللهم إلا جملة أو جملتين تتعلق بشأن الشاعر، أو شعره فلا يجد الباحث فيها بغيته كاملةً. أمَّا المراجع فقد كانت أحسن حالاً من سابقتها، إذ عبّدت الطريق أمامي للولوج إلى دراسة الشاعر، مع اعتمادي على ديوان الشاعر لمعرفة ما يتعلّق بحياته وشعره. ونخلص بعد ذلك إلى أنّ المصادر والمراجع والآثار أضاءت حياة الشاعر، ومكّنت من دراسة شعره بالصورة التي جاء البحث عليها.

**جغرافيا البحرين قديماً
الحياة السياسية في أيام جعفر الخطي**

تميّزت البحرين عبر تاريخها الطويل بعناصر متعدّدة جعلتها تحتلّ موقعاً استراتيجياً مهماً بين القارّات القديمة الثلاث: (آسيا، وأوروبا، وأفريقيا). وعلى رأس تلك العناصر الموقع الجغرافي، إذ إنّها كانت مركزاً متميّزاً كطريق رئيسة للملاحة البحرية وممر مائي للتجارة العالمية بين الشرق والغرب على سواحل السفن التجاريّة، هذا من جانب، ولاعتدال مناخها وتوافر المياه فيها ولجمال طبيعتها وهدوء أجوائها من جانب آخر. لذا أصبحت البحرين موضع اهتمام المستعمرين والطامعين الذين تسابقوا للانقضاض عليها منذ فجر التاريخ حتى مطلع العصر الحديث. وكان الاستعمار البرتغالي من أوائل الدول التي تنبّهت إلى أهمية الخليج الاستراتيجيّة. وهي فترة مليئة بالأحداث السياسيّة، وكان لها تأثيرها المباشر على الشاعر، وذلك يُلاحَظ من خلال ديوانه، وأخباره المتفرّقة. ولا أريد أن أسهب في سرد أحداث هذا العصر، واستقصاء تاريخه، بل سأحاول رسم صورة موجزة تساعدني على كشف الظروف والملابسات التي أحاطت بالشاعر فأثّرت فيه وتأثّر بها.

آثرتُ أن أقفَ وقفَةً قصيرةً للتعريف بموطن الشّاعر، وأهمّيته؛ لأنّ المسمّى الجغرافي للبحرين بالأمس ليس هو المسمّى ذاته اليوم، بل تغيّر جغرافياً. وكذلك تسليط الأضواء على الناحية السياسيّة لأهمّيته وتأثيرها على الشاعر، وشعره.

لهذه الأسباب لا بدّ لنا من وقفه قصيرة مع موقع البحرين الجغرافي وأهمّيته، والحياة السياسيّة في أيام الخطي.

جغرافية البحرين قديماً

للبحرين مصطلح تاريخي قديم يختلف عما يعرف اليوم بالبحرين تلك الدولة الصغيرة، إذ إنها قديماً تعرف بعدة مسميات تشكل بمجملها مسمى «البحرين»، وتدخل مجموعة في تلك التسمية منها جزيرة أوال، والقطيف، وهجر أو الأحساء، والخط وغير ذلك. و«البحرين هي الخط، والقطيف، والآرة»⁽¹⁾، وهجر⁽²⁾، وبينونة⁽³⁾، والزارة⁽⁴⁾

(1) الآرة: بلد بالبحرين. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة: (آ، ر، ة)، 52/1.
(2) هَجْر: مدينة وهي قاعدة البحرين، وقيل ناحية البحرين كلها هجر. وهي قسبة البحرين، وقيل سميت باسم هجر بنت المكف الجرمقية، وقال أحد شعراء القرن الرابع الهجري (الشيخ عبد الله بن علي آل عبد القادر الأنصاري):

لَقَدْ غَادَرْتُ فِي هَجْرٍ فُؤَادِي وَإِنْ أُمْسَيْتُ فِي بَلَدٍ سِوَاهَا
انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة: (ه ج، ر)، 393/5؛ محمد الأنصاري، تاريخ الأحساء، 30/1.

(3) بينونة: في الصحاري الواقعة بين عمان والأحساء، بينهما وبين الأحساء ستون فرسخاً وهوؤها شديد الحرارة، وفيها يقول الشاعر:

يَا رِيحَ بَيْنُونَةَ لَا تَدْمِينَا جِئْتِ بِسَارُوحِ الْمُصْفِرِينَا
انظر: الأنصاري، تحفة المستفيد، 10/1.

(4) الزارة: مدينة مشهورة في التاريخ الإسلامي، وكانت حاضرة القطيف، وتقع بالقرب من العوامية وقد خربها أبو سعيد الجنابي نكاية بأهل القطيف المعارضين لحكمه ومبادئه، وهي بلدة ساحلية. محمد بن عبد الله الأنصاري، م. ن، 15/1؛ محمد سعيد المسلم، القطيف، ص 27.

وجواثا⁽¹⁾، والسَّابور⁽²⁾، ودارين، والغابة⁽³⁾.

وهذه كلها أسماء لمناطق صغيرة في إقليم القطيف. وتلك المسميات باقية إلى اليوم. وقد ذكر الخطي في شعره بعض هذه المسميات مثل قوله:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَيَا بَلَدَ الْخَطِّ اعْتَرَاكَ لِفَقْدِهِ

مَدَى الدَّهْرِ كَسْرٌ لَا يُرَامُ لَهُ جَبْرٌ⁽⁴⁾

وقال أيضاً:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَوْلَا وَجُوهٌ فِي الْقَطِيفِ أَخَافُهَا

لَمَا طَالَ بِالْبَحْرَيْنِ عَنَّا نُؤَائِي⁽⁵⁾

وقديماً تمتد البحرين من البصرة وما تلاها شمالاً إلى عُمان وانتهاءً بحدودها الشرقية عند الساحل الغربي للخليج العربي مع ما تضمه هذه المنطقة من جزر كانت لها أهمية استراتيجية على طول

(1) جواثا: بالضمّ ورواه بعضهم جواثا «بالهمز»، وقال ابن الأعرابي: مدينة الخط، والمُشَقَّرُ مدينة هجر. قيل شعراً:

قَدْ شَرِبْتُ مَاءَ جَوَاثَا وَهَجَرَ أَكْوِي بِهَا حَرًّا أَمْ أَوْسٍ بِنِ حَجَرَ
وقيل: أول موضع جمعت فيه الجمعة المدينة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 174/2.

(2) السَّابور: بلد بالبحرين فتحه العلاء بن الحضرمي في خلافة أبي بكر الصديق سنة (633/12)، وقال البلاذري: فُتِحَ فِي أَيَّامِ عَمْرِ. ياقوت الحموي، م. ن، 168/3؛ الأنصاري، تحفة المستفيد، 15/1.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 347/1.

(4) الديوان، ص50.

(5) م. ن، ص3.

الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية. وهذا التحديد هو ما ذكره المؤرخون مع اختلاف يسير. فقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه: «أنَّ البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان»⁽¹⁾، وأورد ذلك البكري بقوله: «البحرين بلاد واسعة شرقيها ساحل البحر، وغربيها متصل باليمامة، وشمالها متصل بالبصرة، وجنوبها متصل ببلاد عُمان»⁽²⁾. ويؤكد ذلك ابن خلدون⁽³⁾ بقوله: «البحرين بلاد واسعة على بحر فارس من غربيه، وتتصل باليمامة من شرقيها، والبصرة من شمالها وبعمان من جنوبها».

وكانت البحرين في القرون الأولى، التي سبقت عصرنا هذا، وسط السَّاحل العربي من الخليج، وكان اسمها قبلاً «هجر» على اسم مقاطعتها الرئيسيَّة التي شملت مدناً وقرى صغيرة، وقد عرفت أهمَّها فيما بعد باسم «هجر» وقد شملت أيضاً المقاطعة التي تعرف الآن بالأحساء⁽⁴⁾.

وقد أشار حسن الأمين: «إنَّ هذا الإقليم الممتد من البصرة إلى عُمان يطلق عليه في القديم ثلاثة أسماء، كلُّ واحد منها يشمل ما يشمله الآخر. وهذه الأسماء هي البحرين، والخطُّ، وهَجَرَ. هذه الأسماء الثلاثة كانت أمس مترادفة تهدف إلى معنى واحد. أمَّا اليوم فكل اسم اختص بمعنى ووحدة مستقلة عن الأخرى. فاختصَّت أوال بالبحرين، واختصَّت الأحساء بهجر كما اختصَّت القطيف بالخطُّ»⁽⁵⁾.

«وقد كان العرب يضمُّون إلى هذا الشَّاطئ الممتدَّ بقية مدن

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 72/1.

(2) حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، 213/1.

(3) ابن خلدون، العبر ديوان المبتدأ والخبر، 92/4.

(4) أرنولدت. ويلسون، الخليج العربي، ص 157.

(5) حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، 226/3.

هجر الدّاخلية وجزائر الخليج العربيّة، ويطلقون على الجميع اسم البحرين، ويعتبرونها منطقة مستقلّة من مناطق الجزيرة العربية الخمس: الحجاز، ونجد، واليمن، وعمّان، والبحرين»⁽¹⁾.

ويعتبر هذا الشريط السّاحلي الممتدّ من البصرة حتّى عمان ذا أهميّة جغرافيّة منذ القدم، «إذ كان النشاط التجاري مزدهراً في الخليج العربي منذ الألف الثالث قبل الميلاد، واعتبار الخليج ممراً مائياً عالمياً منذ ذلك الوقت حتّى كانت السيطرة البرتغاليّة على تجارة الخليج العربي، ومن ثمّ غربت شمس كمرکز تجاري مهمّ من بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي حتّى النصف الثاني من القرن العشرين عندما ظهر البترول في أراضي دول الخليج»⁽²⁾.

والبحرين جزء لا يتجزأ من الجزيرة العربيّة كأحد أقاليم الجزيرة العربيّة، مثل اليمن، والحجاز، وتهامة، واليمامة، والبحرين.

«وكان العرب يسمّون الشّاطئ الممتدّ بين البصرة وعمّان بـ «الخَطّ»، وهو يضاف أحياناً فيسمّى خَطّ عبد القيس. وبالتحديد فإن السّهول السّاحليّة الممتدة من كاظمة شمالاً حتى رأس مسندم هي البحرين. لهذا يمكننا القول: إنّ إقليم البحرين كان همزة وصل للتجارة بين الشرق والغرب، إذ انتشرت على شواطئه المراكز الملاحيّة العالميّة.

إذاً فمصطلح البحرين لم يكن يطلق قديماً على ما يعرف اليوم في الاصطلاح الدولي «بالبحرين» تلك الجزيرة الصغيرة، بل كان يطلق على الأحساء (هجر) والقطيف (الخَطّ) وما جاورهما. كما تجدر الإشارة إلى أنّ عاصمة إقليم البحرين آنذاك هي «القطيف»

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 449/3.

(2) محمّد متولّي ورفيقه، جغرافية الخليج، ص 22 - 23.

إذ إنّها أعظم مدن هذا الإقليم، وأهم موانئه حسب تعبير أبي عبيد البكري في كتابه الممالك والمسالك»⁽¹⁾.

ويرى قدرى قلعجي «أن للخليج أهميةً استراتيجية لا تقلّ عن أهمية حوض المتوسط، بل لقد نافسه فترة غير يسيرة من الزمن، ولهذا كان على مدار التاريخ يستدرّ لعاب الفاتحين ويحرّك شهوات الطامعين»⁽²⁾.

(1) أبو عبيد البكري، جزيرة العرب، ص 135.

(2) قدرى قلعجي، جغرافية الخليج، ص 25.

الحياة السياسية في أيام جعفر الخطي

لابدّ قبل الشروع في الحديث عن حياة أبي البحر الخطي، من إلقاء الضوء على الحياة السياسيّة في عصر الشاعر، وذلك في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وأوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي والتي كان لها الأثر البالغ في شعره.

عاش جعفر الخطي في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي والثالث الأوّل من القرن الحادي عشر/ السابع عشر الميلادي، أي في الفترة التي شهدت الناحية السياسيّة أحداثاً كثيرة أثّرت في مستقبل هذه المنطقة، وتميّزت بالوجود البرتغالي في البحرين، وسيطرته على منطقة الخليج عامّة. لأنّ التغلغل الأجنبي في هذه المنطقة من العالم كان يستهدفها ككلّ، ولا يستهدف دولة واحدة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى «كان يسود المنطقة ترابط، جعل من حدودها خطوطاً متحرّكة امتداداً، وانكماشاً بصورة مستمرة تحت تأثير العوامل السياسيّة والعسكريّة والتغيّرات التي تطرأ على موازين القوى العالميّة والمحليّة»⁽¹⁾.

ذكرت المصادر كلّها⁽²⁾ التي تناولت تاريخ البحرين أنّ البرتغاليين

(1) عبد الله بن خالد الخليفة، البحرين عبر التاريخ، ص 129.

(2) وأقصد بالمصادر تلك التي تناولت الفترة التاريخيّة بالدرس في عصر الشاعر مثل: أنوار البديين للبلادي، وعقد اللال في تاريخ البحرين لمحمّد علي التاجر، وغيرهما من المصادر التاريخيّة.

بسطوا نفوذهم على أغلب مدن خليج فارس ومن ضمنها البحرين سنة (1515/931). وكان العرب في منطقة عُمان والبحرين أسياد التجارة في الشرق في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وكانت مسقط و«هرمز» مفاتيح المحيط الهندي من جهة الخليج العربي. كما أنّها وقتذاك شكّلت محطة لتجارة الرّق، ومركزاً للعرب على ساحل الخليج لا تقلّ أهميّة عن البندقية على شواطئ الأبيض المتوسط.

ومن الأسباب التي جعلت أقطار الوطن العربي موضع اهتمام البرتغاليين في عصر توسّعهم الاستعماري في نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وخلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، هو وقوع تلك الأقطار على طريق التجارة العالمية آنذاك في البحر المتوسط. وكان أشد ما يخشاه البرتغاليون هو أن يستمرّ العرب بالدور الحضاري نفسه في نقل التجارة التي أصبحت الحلم الذي يراود أذهان البرتغاليين. كما أنّ البحرين تعتبر نقطة تجارة مهمّة في الوقت الذي كانت هرمز الثقل المركزي السياسي للخليج، إذ تتبع المناطق القريبة كمسقط، والبحرين، والقطيف. وقد لفت انتباه البرتغاليين ذلك الازدهار الاقتصادي والموارد الطبيعيّة التي تتمتع بها البحرين آنذاك. وكانت جزر البحرين غنية بمغاصات اللؤلؤ الذي كان يرسل إلى هرمز، وجوا⁽¹⁾.

وتنبّه البرتغاليون إلى الأرباح الطائلة التي يجنيها التجار البحرينيون من تجارة اللؤلؤ. وإلى أنّ البحرين جوهرة لا يمكن تركها في أيدي العرب المسلمين⁽²⁾. لذلك توجه البرتغاليون بأطماعهم للاستيلاء عليها بعد أن تمكّنوا من السيطرة على الهند. وما إن حلّ القرن العاشر الهجري/

(1) جوا: مستعمرة برتغالية في الهند.

(2) عادل أحمد سركيس، شخصيات بحرينية، ص 7.

السادس عشر الميلادي حتّى كان البرتغاليون يسيطرون على الطرق التجارية البحرية ما بين الشرق والغرب من دون منازع، وانتهجوا في هذا المضمار الأساليب المختلفة لاحتكارها. ومن ذلك أنّ البرتغاليين أصبحوا يأمّلون بعد افتتاح الطرق البحرية إلى الهند مروراً برأس الرجاء الصالح، أن يتحوّل مجمل التجارة الشرقية إلى أيديهم وكانت الخطوة الأولى التي قاموا بها هي التمركز في سواحل الهند، ثمّ قرّروا القيام بمراقبة حركة النقل التجارية في الخليج العربي حيث أنشأوا عدداً من القلاع الحربية في هرمز والبحرين وعمان⁽¹⁾.

وقد قال أحد الباحثين العرب: «إنّ البرتغاليين ظلّوا أكثر سني القرن السادس عشر أسياد الموقف في الخليج لا ينازعهم فيه منازع، وقد أنشأوا على جانبيه قلاعهم الحصينة التي تحمي أملاكهم التي شادوها، وتمكن من سيادتهم على البحر... كما أنّهم أقاموا لهم مركزاً في البصرة. وبهذا هيمنوا هيمنة كاملة على الطريق التجارية الممتدّة من جزر أندونيسيا والهند حتى أوروبا مروراً بالخليج العربي ورأس الرجاء الصالح»⁽²⁾.

اتّجه البرتغاليون عندئذٍ بأنظارهم نحو الخليج، فاتّبع «البوكيرك» القائد البرتغالي المعروف بوحشيته سياسة إنهاء دور الموانئ عن طريق نهبها أو تدميرها نهائياً، وقد راح ضحية هذه السياسة كل من «قلهات وقريات»⁽³⁾، ومسقط على الساحل العماني في حدود عام (1507/913). «وأشرف البرتغاليون إشرافاً مباشراً على صيد اللؤلؤ وتجارته فبدأ إنتاج

(1) طارق نافع الحمداني. «دور الرحالة البرتغاليين في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر»، الوثيقة، العدد 15 السنة الثامنة، ص 160.

(2) قدري قلججي، الخليج العربي، ص 367.

(3) قريّات: مدينة على الساحل الشرقي لمنطقة الحجر الشرقي في سلطنة عُمان، وتتكون من اثنتي عشرة قرية صغيرة، تمتد ثلاث منها على طول ساحل البحر، والباقية على سهل يبلغ اتساعه ميلين. وهي جمع تصغير القرية، من منازل طيء. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 393/4؛ لوريمر، دليل الخليج، 1913/5.

اللؤلؤ وتجارته في البحرين يتأثر بشكل كبير حتى انخفض إلى الثلث ... وكان صيد اللؤلؤ حرفة يشتغل بها أكثر من ثلاثين ألف عامل، ويستخدمون حوالي أربعة آلاف وخمسمائة سفينة، ويرتبطون بحوالي 60 % من بيوت البحرين. وقد ترتب على ذلك انخفاض مستوى دخل الفرد والمعيشة بشكل عام، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل تمكّن البرتغاليون بعد ذلك من احتلالها، عام (1527/934)»⁽¹⁾.

«وتوحد هؤلاء بحكم البحرين لا ينازعهم عليها أحد فرتبوا أمورهم وأصلحوا شؤونها وكل ما من شأنه أن يعود عليهم بالدخل الوافر والخير الكثير، وحسنوا حالة مفاص اللؤلؤ وسهلوا أسباب إخراجها، ورتبوا أوزانها، وقدروها وأصلحوا الأراضي، وشجعوا الزراعة فزرعوا فيها القطن، والحنطة، والشعير، والرز، وشادوا فيها القصور العالية، والحدائق الغناء الناظرة، وجلبوا إليها أنواع الفواكه. وقد أدخلوا على البحرين حالة لم تعهدها من سياسيّة وإداريّة وعمران»⁽²⁾.

أما بدء تعرفهم على منطقة الخليج فيرجع إلى سنة (1506/912) حينما استولوا على جزيرة هرمز، وهي جزيرة صغيرة على مقربة من جزيرة «قشم»⁽³⁾ حيث اتخذوها قاعدة لسيطرتهم على الخليج العربي⁽⁴⁾.

(1) طارق الحمداني، «التحدي البرتغالي للوطن العربي ووسائل التخلص منها»، الوثيقة، العدد 28، ص 88.

(2) محمد علي التاجر، عقد اللآل في تاريخ أوام، ص 94.

(3) جزيرة قشم، وتطلق جشم، ويعرفها العرب بالجزيرة الطويلة، وهي أضخم جزيرة في الخليج، وتقع خارج ساحل منطقتي بستك والشميل الإيرانية وتمتد من لنجة حتى بندر عباس تقريباً، ويفصلها عن البر الرئيسي قناة يتراوح عرضها ما بين 1 - 15 ميلاً، تعرف لدى التجار البريطانيين باسم مضيق كلارنس. لوريمر، دليل الخليج، 1893/5.

(4) محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص 170.

فقد بسط البرتغاليون نفوذهم، وسيطروا على أغلب موانئ الخليج طيلة القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. وكان أول وصولهم إلى البحرين عام (1514/919)، لكنّ الفتح البرتغالي لها لم يتمّ إلاّ بعد سبع سنوات من هذا الاكتشاف إذ حمل البرتغاليون عليها بقوة بحريّة كبيرة تتألّف من سبع سفن برتغالية عليها أربعمئة محارب، ومئتي مركب عليها ثلاثة آلاف من العرب، وأهل المنطقة بقيادة «أنطونيو كوريا Antonio Correa»⁽¹⁾.

«وفي عام (1517/922) استولى البرتغاليون على جزيرة المنامة، ولا يزال إلى اليوم في البحرين قلعة من آثارهم»⁽²⁾. «كان ذلك في أثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل في مكة لأداء فريضة الحجّ، فتولّى إدارة المقاومة قريبه ونائبه الشيخ حميد إلى أن عاد السلطان فتولّى المقاومة بنفسه. وحدثت المعركة وأصيب الشيخ مقرن ووقع اليأس في صفوف الجنود فأخذوا يستسلمون لقوّات البرتغاليين، وما أن حلّ الليل حتّى كان البرتغاليون قد حقّقوا نصراً كاملاً، وبدأ من ذلك اليوم في منتصف شهر يونيو (1512/918) احتلال البرتغال للبحرين»⁽³⁾.

ويذكر محمّد سعيد المسلم «أنّه في سنة (1521/927) استولى البرتغاليون على بلاد البحرين، وقتلوا حاكمها مقرن بن أجود بن زامل الجبّري، وسيطروا على اقتصاديّات البلاد، واحتكروا تجارة اللؤلؤ»⁽⁴⁾. فسبب الوجود البرتغالي هو سبب اقتصادي بحت، إلاّ أنّ إحدى الباحثات البحرينيّات ترى أنّ السبب أعمق من ذلك إذ تقول: «قد كان للوجود البرتغالي أهداف عسكريّة وسياسيّة، فهو لم يستهدف التجارة أو النشاط

(1) سيد نوفل، الخليج العربي - الحدود الشرقية للوطن العربي، ص 24.

(2) حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، 41/2.

(3) محمّد العزب، صفحات من تاريخ البحرين، 112/2.

(4) محمّد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، 169؛ محمّد العزب، م. س.، ص 112- 113.

الاقتصادي ولهذا انحصر في محطات ساحليّة، هي عبارة عن حصون تتزوّد فيها بالمؤن في سواحل الجزيرة العربية، وفي مثل هذه الأحوال لا بدّ وأن تكون البحرين بحكم وضعها كجزر أكثر إغراءً للبرتغاليين»⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى بدأ العثمانيون يتطلّعون إلى الخليج العربي منذ فتحهم العراق سنة (1534/940). وقد ظهر هذا التنافس واضحاً عندما أنكر العثمانيون على البرتغاليين تدخّلهم في شؤون الخليج، ونهضوا لردّ عاديّتهم، إلّا أنّ الصراع لم يبدأ بين الجانبين إلّا بعد أن استولى العثمانيون على مصر، ونزلت سفنهم في البحر الأحمر واتّجهت إلى الخليج العربي⁽²⁾. «وحينما سقطت بغداد في أيدي الأتراك عام (1534/940) بعث ملك الأحساء، وشيخ البحرين بوفد ليقدم التّهانى والمودّة لولي العهد العثماني، وكان ذلك الاتّصال هو أول اتّصال بين البحرين وتركيا، ويرجع الأتراك ادّعاءهم بالسيادة على البحرين إلى هذا الحادث كأقدم أساس قانوني لذلك الادّعاء»⁽³⁾.

«وفي العام نفسه بعث السلطان سليمان القانوني العثماني أسطولاً مؤلفاً من 70 سفينة تحمل أكثر من 20 ألف محارب لقتال البرتغاليين، وقد أحرزت هذه القوآت فوزاً موضوعياً في منطقة البحرين، فاستولت على المنامة، والقّطيف، وقطر، وكان حاكم القّطيف العربي آنذاك ممّن استجار بخليفة المسلمين السلطان (سليمان القانوني) الذي أمر واليه في مصر (سليمان باشا) بالتوجّه إلى الخليج العربي لطرد البرتغاليين، واستطاعت قوّاته أن تحررّ سواحل عدن، واليمن، ومسقط واستولت على منطقة البحرين، وقّطر، والأحساء، والقّطيف، وأصبحت هذه المناطق ضمن ممتلكات

(1) أمل الزباني، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، ص 42.

(2) خالد العربي المحامي، الخليج العربي في ماضيه وحاضره، ص 39.

(3) أحمد العناني، «البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين السادس عشر

والسابع عشر»، الوثيقة، العدد الرابع، ص 101.

الإمبراطورية العثمانية في سنة (1555/963)، بينما بقيت المراكز الأخرى كموقع هُرمُز ومياه الهند تحت النفوذ البرتغالي»⁽¹⁾.

«إلا أنه في نهاية القرن السادس عشر، اشتدت بمساعدة الفرس أعمال الانتفاض على البرتغاليين»⁽²⁾.

«وتبدأ مرحلة جديدة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، إذ تضافرت عوامل متعددة في إضعاف البرتغاليين، وفي تقليص نفوذهم في الخليج العربي، أبرز تلك العوامل ازدياد التذمر في البحرين نتيجة تعسف البرتغاليين، وأن حاكم البحرين وقتئذ كان من أقارب ملك هرمز، وكان يعامل الناس معاملة في غاية الشراسة والابتزاز فقد قتل تاجراً بحرينياً ثرياً من خيرة وجهاء البلد ووضع يده على ثروة القليل من اللؤلؤ النادر الثمين. وكان للتاجر أخ يدعى «ركن الدين» أخذ يتقرب للحاكم القاتل حتى كسب ثقته فقتل الحاكم، وأعلن نفسه حاكماً للبحرين فأيدته معظم سكان البحرين فتغلب الأهالي على حامية القلعة البرتغالية، واحتلوها عام (1600/1009)»⁽³⁾.

كان شاعرنا الخطي حاضراً ومراقباً للأحداث، فيتضح ذلك من خلال قصيدته التي هُتأ بها وزير البحرين ركن الدين محمود بن نور الدين بن شرف الدين بمولود له أنشده إياها بعيد الفطر سنة (1600/1009) وبدأها بمقدمة طويلة منها:

[من الخفيف]

حَازَ أَوْفَى السَّهَامِ حَظًّا مِّنَ الْمَجْدِ
سِدِّ فَسَائِلٍ بِهِ مُجِيلِ الْقِدَاحِ

(1) خالد العربي المحامي، م. س.، ص 39.

(2) سيد نوفل، الخليج العربي، ص 24.

(3) عبد الله بن خالد الخليفة، البحرين عبر التاريخ، 166/2.

كَسْرَوِي الْعَدَالَةَ اسْكَنْدَرِي
 الْفَتْحَ وَالْعَزْمَ رُسْتَمِي الْكِفَاحِ
 أَسَدُ الْفَنكِ أَجْدَلُ الْخَطْفِ ذَيْبُ الْـ
 مَكْرِ فَهْدُ الْوُثُوبِ كَبْشُ النَّطَاحِ
 أَحَنْفُ الْحِلْمِ أَكْثَمُ الرَّأْيِ زُبَيْرُ الثُّـ
 ثَأْرُ قِسُّ الْبَيَانِ كَعْبُ السَّمَاحِ
 مَا شَكَى الْحَيْفَ عِنْدَهُ أَعْرَلُ الثُّـ
 صُرَّةٌ إِلَّا وَعَادَ شَاكِي السَّلَاحِ⁽¹⁾

وبعد أربع سنوات توجه وفد من البحرين لمقابلة الشاه عباس
 الصفوي⁽²⁾ وذلك عام (1604/1013) طلباً للمساعدة لتخليصهم من
 البرتغاليين فوردتهم نجدة من أمين شيراز، ولما انكشف للبرتغاليين
 أن إيران تساعد الثوار في الجزر لتضع يدها على البلاد، ردّ الإيرانيون
 أنهم لم يستولوا على جزيرة يحكمها البرتغاليون، وإنما كان يحكمها
 قريب لملك هرمز العربي متجاهلين النفوذ البرتغالي فيها⁽³⁾.

والجدير ذكره أن الشاعر الخطي كان ضمن الوفد المذكور سابقاً
 وهو من أعيان البحرين، وأنشد قصيدةً يتشوق فيها إلى أهله وهو

(1) الديوان، ص 20.

(2) الشاه عباس الصفوي: لُقّب بالكبير، ونودي به ملكاً في خراسان ثم سار إلى
 مدينة مشهد التي كانت قد احتلتها قبائل الأzbek فاستخلصها منهم، وانتصر
 عليهم بقرب مدينة «هرات» سنة 1597/1006، ثم حارب الترك واستخلص
 منهم الولايات التي سبق أخذها من مملكة العجم، واحتلّ مدائن بغداد
 والموصل وديار بكر، ثم اتحد مع شركة الهند الإنجليزية، وطرد البرتغاليين
 من ثغر هرمز. وتوفي سنة 1628/1037، بعد أن حكم البلاد بغاية الحكمة
 والسداد مدة ثلاث وأربعين سنة. محمد فريد المحامي، تاريخ الدولة العلية
 العثمانية، ص 119.

(3) عبد الله بن خالد الخليفة، البحرين عبر التاريخ، ص 116.

في طريقه مع الوفد لمقابلة الحضرة الشاهية بناحية «شماخير» سنة (1605/1013)، مطلعها:

[من البسيط]

يَا نَازِلِينَ عَلَى نَأْيِ الْمَحَلِّ بِهِمْ
 بِحَيْثُ يُجْمَعُ شَمْلُ الْجِسْمِ وَالرُّوحِ
 لَوْ كَانَ فِي وَسْعِ جُهْدِي أَنْ أُبْتَكِّمَ
 شَوْفِي وَأَشْكُو لَكُمْ وَجْدِي وَتَبْرِيحِي
 أَصَفْتُ مُتَّسِعَ الْأُورَاقِ عَنْهُ وَلَوْ
 حَمَلْتُهُ الرِّيحُ أَوْهَى قُوَّةَ الرِّيحِ (1)

والشاه عباس الصفوي منذ أن تولى عرش الدولة الصفوية (1629/1587) بادر إلى محاولة سياسة توسعية، وأراد أن يطرد البرتغاليين من مياه الخليج العربي ليحل محلهم، وبدأت محاولاته الأولى في عام (1616 / 1025)، عندما اتفق مع وكلاء شركة الهند الشرقية الإنجليزية لمساعدته في ذلك. واستجاب هؤلاء، واستطاعت سفنهم تحطيم مجموعة من السفن الحربية البرتغالية في عام (1620/1029) واستطاعوا بمساعدة المشاة الفرس السيطرة على القلعة البرتغالية في جزيرة «قشم» وبهذا أنهوا الوجود العسكري البرتغالي في المنطقة (2).

غير أن وجودهم طوال قرن من الزمان لم يكن مستقرًا، إذ قام أهالي البحرين بثورات متعددة للتخلص منهم بسبب سياستهم المرفوضة من حيث فرض الضرائب والقتل ونهب الثروات كما تقدم في حادثة قتل أحد تجار اللؤلؤ الأثرياء من أهالي البحرين طمعاً في ثروته عام (1602/1011).

(1) الديوان، ص18.

(2) مصطفى النجار وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص18.

ومن ناحية أخرى، ذكر صاحب (التحفة النبهانية) أن سبب استيلاء الدولة الصفوية في إيران على البحرين حصول خلاف شديد بين أمراء البحرين، وكان أكثرهم من الشيعة فرفعوا شكاوهم إلى الشاه عباس الأول، فجهّز جيشاً غزا البحرين فصارت تابعة للدولة الصفوية⁽¹⁾.

وليس بمستغرب أن هذه الأحداث السياسية أثرت تأثيراً كبيراً في الناحية الأدبية، «إذ اتفق مؤرّخو الآداب على تسمية الفترة التي تبدأ منذ سقوط الخلافة العباسية في بغداد وحتى قيام النهضة الحديثة بعصور الانحطاط في الحركة العلمية والأدبية، فقد ندر في هذه الفترة نبوغ العلماء والمفكرين، إذا قيسوا بكثرة من تقدّمهم، وكذلك آداب اللغة. فالنثر غلب عليه السجع والتألق المبتذل، والشعر ساد فيه التقليد والعبث بالألوان البديعية، وأصبحت عناية الكاتب والشاعر مقتصرة على الألفاظ والتلاعب بها دون النظر إلى المحتوى والمضمون، فأصبح الأثر الأدبي لا يعبر عن واقع أو تجربة»⁽²⁾.

ومن ناحية أخرى «عندما سيطر البرتغاليون على جزر البحرين، وموانئها، انتعشت الحياة الفكرية، وبرز من العلماء المبرزين في العلوم العقلية والفلسفية والحديث وغيرها، منهم ابن أبي جمهور الأحسائي صاحب «غوالي اللآلي»، وشرف الدين يحيى بن عز الدين البحراني، وإبراهيم بن سليمان القطيفي. وفي هذا القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي استعاد الأدب مكانته التاريخية، ونشطت محافل الأدب، وكثر الشعراء وجوّدوا في شعرهم إلى حدّ الابتكار»⁽³⁾.

(1) محمّد النبهاني، التحفة النبهانية، ص 73.

(2) محمّد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص 279.

(3) عبد الرحمن العبيد، الأدب في الخليج العربي، ص 17.

وذكر محمد علي التاجر في كتابه «عقد اللآل»: «كانت البحرين في القرون الوسطى ذات معارف عالية، وسوق العلم فيها رائجة، وفطاحل العلماء وجدوا فيها بكثرة متناهية، فلا تكاد تخلو بلدة أو قرية من وجود عدّة منهم، ولكلّ واحد منهم مدرسة ملاصقة للمسجد الذي يصلي فيه يلقي فيها الدروس، والأبحاث على تلاميذه وقد تخرّج من هذه المدارس الجَمّ الغفير من العلماء الفضلاء الذين سارت بذكرهم الركبان، وكان يقصدها الطلاب من أقاصي البلدان، وكانت تدعى بدار العلم كما دعيت به «شيراز»⁽¹⁾، ولكن استحوذ الشقاء بعد ذلك على البحرين وتلت قرون الأمن والأمان قرون الغزو والسلب والظلم والإرهاق فطارت العلم والعلماء وأخت منهم الديار وشتّتهم في الأمصار إلى مثل فارس والهند والعراق، وبقيت مواضع العلم تندب قاطنيها لوحشتها بعدهم»⁽²⁾.

على أننا نلاحظ أنّ سيطرة البرتغاليين، ومن بعدهم الفرس على تلك الجزر مهّد للحياة الفكرية، وانبعثها من جديد بحكم اتّصالها بالعالم الإسلامي و خروجها من عزلتها. فقد كتب ابن معصوم المدني في سلافته قسماً خاصاً لشعراء البحرين، فترجم لأحد عشر شاعراً، وأثبت لهم مختارات وقصائد مطوّلة، وقد كان ينظر إلى بلاد البحرين حتّى ذلك التاريخ على أنّها وحدة إقليمية، فمن الصعوبة جداً أن تميّز مسقط رأس الشاعر إلا ما ندر أو تنسبه إلى بلد معين من مدن البحرين الثلاث، الخط «القطيف»، وهجر «الأحساء»، وأوال «البحرين»⁽³⁾.

(1) شيراز: بالكسر، مدينة في جنوب غربي إيران، قاعدة إقليم فارس، فتحها أبو موسى الأشعري وعثمان بن أبي العاص في أواخر خلافة عثمان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة الشين والياء وما يليهما، 380/2.

(2) محمد علي التاجر، عقد اللآل في تاريخ أوّال، ص 25 - 26.

(3) محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص 280.

«ولعلّ قلة المعلومات وعدم اتّضح تأريخ هذه الفترة لدى المؤرخين، أضفى عليها اسم (الفترة المظلمة)، يضاف إليه الركود الذي ساد العالم العربي بأسره والجمود الثقافي إلاّ قلاعاً بقيت على سالف عهدها مناراً للفكر والثقافة، وهي المدارس الدينية المبنوثة في العالم العربي والإسلامي»⁽¹⁾.

إلاّ أنّ الأدب في هذه المنطقة استعاد مكانته، ونشطت محافل الأدب، وكثر الشعراء وجوّدوا في شعرهم إلى حدّ الابتكار، وفي مقدّمهم أبو البحر جعفر بن محمّد الخطّبي، وهو من المجدّدين في الشعر، إذ أنّه يعتبر مظهرًا رائعاً للحياة الأدبيّة التي انتعشت أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر في منطقة البحرين. يرسل قصيدة من بلاد نائية - شيراز - إلى أهله وخلّانه في البحرين فيقول:

[من الطويل]

أَسَلِّمُ مِنْ بُعْدِ الدِّيَارِ عَلَيْكُمْ
 عَلَى أَنْ مَا بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبُ
 وَإِنْ خَانَ فِي الْوُدِّ أَمْرُؤُ
 عَلَيْهَا لَكُمْ طَوْلُ الزَّمَانِ رَقِيبُ
 فَإِنْ جَفَّ مَاءُ الْقُرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 زَمَانًا فَهَذَا عَوْدُ الْوَقَاءِ رَطِيبُ⁽²⁾

وحياة الخطّبي سلسلة من الآلام والأحزان نهّبت إحساسه المرهف، وأقلقت نفسيّته، وجعلته حادّ العاطفة، وكثيراً ما غيرت الأيام حياة الإنسان بما تحمله من مشكلات وحوادث، يُظهر الشاعر

(1) عبد العلي يوسف آل سيف، القטיפ وأضواء على شعرها المعاصر، ص 85.

(2) الديوان، ص 12.

من خلالها عواطفه الجياشة. وهكذا عاش الخطي حياته من اضطراب في الحياة، وخشونة في العيش. ومن يقرأ شعر الخطي يحس بمرارة الحياة وقساوة العيش⁽¹⁾.

والخلاصة أنني استعرضت فيما تقدّم الناحية الجغرافية للبحرين قديماً، وبيّنت الدلالة القديمة للمسمّى المذكور من حيث سعته وشموليّته، وأنه يختلف عمّا يُعرّف اليوم بالبحرين تلك الجزيرة الصغيرة. ثمّ تحدّثت عن الحياة السياسيّة التي غمرت المنطقة بالاضطرابات، وعدم الاستقرار السياسي، وما فعله البرتغاليون في البحرين من ظلم وتعسف. وكذلك استنجد أهل البحرين بالدولة الصفوية لإنقاذهم من البرتغاليين، كما ذكرت دور البحرين (أوال) في الحركة العلميّة والأدبيّة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وأوائل القرن الحادي عشر/السابع عشر الميلادي. كلّ ذلك كان له أثره على حياة الشاعر أبي البحر الخطي، لذا سأحدّث في الباب الأوّل عن نشأة الشاعر ونشاطه، وديوانه.

(1) الدّيون، ص12.

الباب الأول

جعفر الخطي في عصره

الفصل الأول: الرجل ونشأته

تلمّسنا فيما سبق الحالة السياسيّة المريرة والمتقلّبة في وطن الشاعر، وفي ذلك الإطار الزمني الذي أحاط بالشاعر ومجتمعه، وكيف كانت البلاد نهباً في أيدي الأجنبي الغاصب لها والناهب لخيراتها، والظالم أهلها. تلك هي البيئة التي عاش في وسطها أبو البحر الخطّي، وتفاعل مع أحداثها.

وإثر ذلك التفاعل العملي «برزت شخصيته كشاعر كبير يشار إليه بالبنان، وصارت له مكانة مرموقة في الأوساط الاجتماعيّة والسياسيّة في عصره»⁽¹⁾. وقد ذكره المحبّي (ت1699/1111) بقوله: «آثار قلمه زينة الصحائف، وأخبار أدبه جليّة الثّحائف، وهو أحد الجلّة المشاهير، وأوحد أولئك الجماهير»⁽²⁾.

منّ هنا سأحاول وسع جهدي خلال الفصل هذا فيما يتعلق بحياة الشاعر ونشأته، أن أعرض ثلاثة محاور علّني أجمل حياة الشاعر ونشأته.

وتلك المحاور هي:

أولاً: اسمه ونسبه ومولده.

ثانياً: أسرته ووضعها الاجتماعي، ودورها السياسي.

ثالثاً: نشأته وعلاقته بحياة عصره الثقافيّة.

(1) محمّد سعيد المسلم، القطف، ص 368.

(2) المحبّي، نفة الريحانة، 204/3.

أولاً: اسمه ونسبه ومولده

على الرَّغم من شهرة الشيخ جعفر الخَطِّي في ساحة الأدب،
واتِّفاق مَنْ ترجموا له مِنَ الأقدمين، وبعض المحدثين على أَنَّهُ
كان شاعراً وأديباً ماهراً، فإنَّ أخباره قليلة لا تتَّفِق ومكانته الأدبيَّة،
فطفولته خفيَّة شديدة الخفاء.

وما قدَّمه لنا الرُّواة والمؤرِّخون من أخبار تكاد تكون ضئيلة
بالنِّسبة إلى شاعرٍ في مكانته الأدبيَّة. وقد أشار الشَّاعر إلى شهرته،
واعتداده بنفسه حين قال:

[مِن الطَّويل]

أَنَا الرَّجُلُ الْمَشْهُورُ مَا مِنْ مَحَلَّةٍ
مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا قَدْ تَخَلَّلَهَا ذِكْرِي
فَإِنْ أُمْسِ فِي قُطْرٍ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّ لِي
بَرِيدَ اشْتِهَارٍ فِي مَنَاكِبِهَا يَسْرِي⁽¹⁾

وقد اتَّفَق أصحاب التَّراجم ونُسخ ديوانه، وبعض المعاصرين مِنَ
الباحثين في اسمه ولقبه وكنيته، وفي ترتيب أسماء آبائه مع اختلافٍ
يسير. ولكن ما رجَّحناه، مطمئنِّين إليه أنَّ شاعرنا هو «أبو البحر شرف
الدِّين جعفر بن محمَّد بن حسن بن علي بن ناصر بن عبد الإمام الشهير
بالخَطِّي» العبدي أحد بني عبد القيس بن شَنِّ بن أفصى بن دُعَمَى بن
جديلة بن ربيعة بن نزار بن مَعَد بن عدنان»⁽²⁾.

واعتمدنا في هذا - إلى حدِّ كبير - على رواية تلميذه، وجامع ديوانه
الحسن بن محمد الغنَّوي في مقدمته لديوان الشاعر. فالغنوي معاصر
للشَّاعر الخَطِّي، وملزم له في حلِّه وترحاله.

(1) الدِّيوان، ص 48.

(2) م، ن، ص و.

وأقدم من ترجم له من أصحاب التراجم والسير ابن معصوم (ت 1681/1092) في سلافته إذ يقول: هو «أبو البحر جعفر بن محمد بن علي بن ناصر بن عبد الإمام الشهير بالخطي البحراني العبدى أحد بني عبد القيس بن شن بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان»⁽¹⁾.

أمَّا المجلسي (ت 1698/1110) في البحار فقد اعتمد اعتماداً كلياً على ترجمة ابن معصوم في السلافة فلم يزد ولم ينقص «هو أبو البحر جعفر بن محمد بن حسن بن علي بن عبد الإمام الشهير بالخطي البحراني العبدى أحد بني عبد القيس... ابن معد بن عدنان»⁽²⁾.

وذكره المحبي (ت 1699/1111) في خلاصة الأثر معتمداً في ترجمته على السلافة، إذ إنه لم يزد ولم ينقص ما نصه: «أبو البحر جعفر بن محمد بن حسن بن علي بن ناصر بن عبد الإمام الشهير بالخطي البحراني العبدى أحد بني عبد القيس ابن شق⁽³⁾ بن قصي بن دعمة⁽⁴⁾ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان⁽⁵⁾. كما أنه أشار إلى اسمه ثلاثياً ولقبه وكنيته وقبيلته في «نفحة الريحانة»⁽⁶⁾.

كما ترجم للشاعر صاحب أنوار البدرين (ت 1921/1340)،

(1) ابن معصوم، سلافة العصر، 524.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، 141/106. مِنَ الملاحظ في هذه الترجمة أنه أسقط اسم جدّه الثالث (ناصر) وربّما سقط سهواً في أثناء الكتابة.

(3) في سلافة العصر «شن».

(4) في السلافة «دعمي» بالألف المقصورة وليست بالتاء المربوطة.

(5) المحبي، خلاصة الأثر، 483/1.

(6) المحبي، نفحة الريحانة، 204/3.

وأضاف إلى التسمية السابقة، إذ يقول: «العالم الكامل الشاعر الأديب المصقح الماهر الشيخ جعفر بن محمد بن حسن بن علي بن ناصر بن عبد الإمام، أحد بني عبد القيس من تميم الخَطِّي»⁽¹⁾.

والجدير ذكره أنّ هؤلاء المؤرخين اتَّفَقوا في كنيته (أبو البحر) - هذا من ميله إلى الشعر وحبّه له كان يكتنّى بأبي البحر؛ لأنّ الجعفر، وهو النهر مصبه البحر - واسم شهرته الخَطِّي»⁽²⁾.

كما ترجم له حسن الأمين في «أعيان الشيعة» ما نصّه: «الشيخ أبو البحر شرف الدين جعفر بن محمد بن حسن بن علي بن ناصر بن عبد الإمام العبدي من عبد القيس بن شنّ بن أفصى بن دُعَمَى بن جذيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الخَطِّي البحراني الشهير بالشيخ جعفر بالخَطِّي»⁽³⁾.

وقد ترجم له خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام⁽⁴⁾ وأحال بترجمته على كتاب خلاصة الأثر للمحبّي.

(1) علي البلادي، أنوار البدرين، ص 288.

(2) الخَطُّ: بفتح أوله، وتشديد الطاء، في كتاب العين: الخَطُّ أرض تنسب إليها الرّماح الخَطِّيّة، وهو خَطُّ عُمان، وقال أبو منصور: وذلك الخط كله يسمى الخط، ومن قرى الخَطُّ: القطيف، والعقير وقطر؛ قلت أنا: وجميع هذا في سيف البحرين وعمّان، وهي مواضع كانت تُجلب إليها الرماح القنا من الهند فتقوم فيه وتباع على العرب. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادّة: (خ، ط، ط)؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 378/2. وترجع كنيته هذه نسبةً إلى الخَطُّ بفتح أوله وتشديد الطاء أرض تُنسب إليها الرماح الخَطِّيّة، وهو خَطُّ عُمان. وفي القاموس مرفأ السفن بالبحرين. والخَطِّي: الرّماح، نسبة إلى الخَطُّ وهي جزيرة بالبحرين ترفأ إليها سفن الرماح». ياقوت الحموي، م. ن. 378/2؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة «الخَطُّ»؛ المحبّي، نفحة الريحانة، 204/3؛ علي البلادي، أنوار البدرين، ص 20.

(3) حسن الأمين، أعيان الشيعة 157/4.

(4) الزّرْكلِي، الأعلام، 124/2.

كما ترجم للشاعر أيضاً سالم النويدري في أعلام الثقافة الإسلامية⁽¹⁾ معتمداً على المصادر المذكورة آنفاً وليس فيها جديد يذكر فيما يتعلق باسمه ونسبه وكنيته.

إضافة إلى ذلك أن الشاعر الخطي كان يكتنّى بأبي حسان، وقد ذكر تلك الكنية في إحدى قصائده التي يمدح فيها أحد ممدوحيه سنة (1600/1008) إذ يقول:

[مِنَ البسيط]

لَقَدْ رَفَعْتَ أَبَا حَسَّانَ مَنزِلَةً

شَمَاءَ يَحْسَأُ عَنُ إِذْرَاكِهَا الْبَصْرُ⁽²⁾

وقد أسماه حساناً تفاؤلاً منه بأن يكون شاعراً، وقد جنّ من الفرح حين كتب حسان بيتين من الشعر وأرسلهما إلى أبيه في غربته.

لعلّ ما قدمناه يدلّ دلالة واضحة على أنّ هناك تشابهاً واضحاً في ترجمته عند الأقدمين والمحدثين من أصحاب التراجم والسير، والباحثين مما يجعلنا نرجح أن بعضهم ينقل عن بعض حتّى نصلّ إلى المصدر الرئيسي وهو الديوان، واعتماداً على ترجمة الغنوي في مقدمته لديوان الشاعر.

كما تُعتبر ترجمة الشاعر في سلافة العصر أقدم ترجمة بعد ترجمة الغنوي، لهذا اعتمد من جاء بعد ابن معصوم (ت 1681/1092) على هاتين الترجمتين.

وقد تبين من خلال ما تعرضنا له من ترجمة للشاعر أنّ الخطي ينحدر في أرومته العربية من قبيلة عبد القيس العدنانية ذات الأمجاد

(1) النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية، 405/2.

(2) الديوان، ص46.

الذائعة الصَّيت في الجاهلية والإسلام. «وقد جاءت عبد القيس إلى البحرين من تهامة وانتشرت بطونها في أكثر أطراف البحرين، ونزلوا أهمَّ مدنها، وسواحلها، ولذلك عَدَّ بعض المؤرخين البحرين لعبد القيس. وقد كان أشهر زعماء البحرين الذين وفدوا على الرَّسول ﷺ ينتمون إلى عبد القيس. وكان العرب يُسَمُّونَ الشاطئَ الممتد من البصرة إلى عُمان بالخطِّ أو خَطَّ عبد القيس»⁽¹⁾.

وقد أشار إلى ذلك شوقي ضيف بقوله: «إنَّه ينتمي إلى عبد القيس التي نزلت في الأحساء والقطيف وبواديها منذ العصر الجاهلي»⁽²⁾. «وفي عهدهم تقدمت الحياة الفكرية، وأنجبت شعراء وخطباء بارزين كانوا دعامة في الحركة الفكرية الأدبية في العصر الجاهلي، وكان منهم أصحاب المعلقات الشهيرة في الأدب العربي»⁽³⁾.

ومِنَ الملاحظ أنَّ تاريخ منطقة الخليج يزخر بتراث أدبي وشعري ثرٍ يمتدُّ من العصر الجاهلي وصولاً إلى الأدب الحديث. ولأهل هذه المنطقة محبَّةٌ خاصَّةٌ للشعر منذ الجاهليَّة، وما تبعه من عصور.

ومِنَ شعراء الجاهلية الذين استوطنوا منطقة البحرين الكبرى، عمرو بن قميئة⁽⁴⁾، وسعد بن مالك⁽⁵⁾، وهو جدُّ طرفة بن

(1) فاروق عمر، الخليج العربي، ص 25.

(2) شوقي ضيف، عصر الدَّول والإمارات، ص 133.

(3) محمَّد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص 81.

(4) جدُّه ذريح بن سعد بن مالك أحد بني ضبيعة، وكان عمرو بن قميئة شاعراً فحلاً مقدماً من قدماء الشعراء في الجاهلية وهو أقدم من امرئ القيس، وسمته العرب عمراً الضائع لموته في غربة، وفي غير مأرب ولا مطلب، وكان في حداثة سنه شاباً جميلاً حسن الوجه مديد القامة عفيفاً ومات أبوه وخلفه صغيراً فكفله عمُّه مرثد بن سعد. التبريزي، شرح ديوان الحماسة، 10/2.

(5) أحد سادات بكر بن وائل، وفرسانها في الجاهلية، وكان شاعراً مجيداً، وله

أشعار جياذ ماثورة في كتب الأدب، ومن شعره قصيدة قالها في حرب البسوس =

العبد⁽¹⁾، والمثقب العبدي⁽²⁾ (ت 1126/520) والمرقش الأكبر⁽³⁾ (ت 75 ق.هـ/550)، والمرقش الأصغر⁽⁴⁾، والمتلمس⁽⁵⁾ (ت 1184/580)، وغيرهم. وأكثرهم ينتسبون إلى قبائل البحرين بني عبد القيس. ومن شعراء صدر الإسلام، على سبيل المثال لا الحصر، الصلّتان العبدي⁽⁶⁾، والأعور الشنّي⁽⁷⁾، وغيرهما الكثير.

التي هاجت بين بكر وتغلب. التبريزي، م. ن، 192/1. =
 (1) جدّه سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة. طرفة لقب غلب عليه، واسمه عمرو، وهو شاعر جاهلي مكثّر مجيد، وهو أشعر الشعراء بعد امرئ القيس، ومرتبته تلي مرتبة. قال الشعر وهو غلام يفع، وقتل وهو ابن ست وعشرين سنة. قتله عمرو بن هند على يد عامله بهجر. التبريزي، م. ن، 180/2.
 (2) هو محصن بن ثعلبة، وهو جاهلي قديم، كان في زمن عمرو بن هند، وسُمّي بالمتقّب بقوله:

رَدَدَنَّ تَحِيَّةً وَكَنَّنَ أُخْرَى وَتَقَبَّنَ الوَصَاوِصَ لِلْعِيُونِ
 ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 88.

(3) عوف (أو عمرو) بن سعد بن مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل: شاعر جاهلي، من المتيمين الشجعان، وشعره من الطبقة الأولى، ولد باليمن، ونشأ بالعراق. الزركلي، الأعلام، 95/5.
 (4) يقال إنه أخو المرقش الأكبر، ويقال إنه ابن أخيه، واختلفوا في اسمه، فقال بعضهم: هو عمرو بن حرملة، وقال آخرون هو ربيعة بن سفيان، وهو من بني سعد بن مالك بن ضبيعة، وأحد عشاق العرب المشهورين، وصاحبته فاطمة بنت المنذر. ابن قتيبة، م. س، 142/1.

(5) هو جرير بن عبد المسيح من بني ضبيعة، وأخواله بنو يشكر، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو الذي كُتِبَ له إلى عامل البحرين مع طرفة بقتله، وكان دفع كتابه إلى غلام ليقرأ قال: أنت المتلمس؟ قال: نعم قال النجاة. فقد أمر بقتلك فبذ الصحيفة في نهر الحيرة. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 28.

(6) اسمه قُتْمٌ بن خبيثة، شاعر إسلامي من بني عبد القيس، اشتهر بشعر الهجاء، وكان معاصراً للفرزدق وجرير في العصر الأموي. ابن قتيبة، م. ن، 408/1.

(7) مِنْ فحول الشعراء في الإسلام، ينتسب إلى قبيلة شَنْ بن أفضى من عشائر عبد القيس. من قادة عسكر المهلب بن أبي صفرة. انظر: م. ن، 534/2.

وَمِنْ أَشْهَرِ شِعْرَاءِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ فِي الْخَلِيجِ عَلِيُّ بْنُ الْمُقْرَبِ الْعَيُونِيِّ (1)
 (ت 1292/692)، كما تجدر الإشارة إلى أَنَّ الشَّيْخَ مَيْثَمَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ مَيْثَمَ (2)
 (ت 1299/699)، فهو من أبرز علماء البحرين في العصر الإسلاميِّ فهو فقيهه،
 وفيلسوفه، متكلمه، وأديب ذاع صيته في العالم الإسلاميِّ.

وقد أشار الخطبيُّ إلى نسبه وانتمائه إلى هذه القبيلة في
 قصيدته المدعاة بالسببِطية التي يشكو فيها إلى أهله ما أصابه من
 جروحٍ وألمٍ أحدثتها سمكة البحر. إذ يقول:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَوَيْلٌ لِّبَنِي شَنَّ بْنِ أَفْصَى وَمَا الَّذِي
 رَمَتْهُ بِهِ أَيِّدِي الْحَوَادِثِ مِنْ وَثْرِ

إلى أن قال:

أَلَا أَبْلِغُوا الْحَيِّينَ بَكْرًا وَتَغْلِبًا
 فَمَا الْعَوْتُ إِلَّا عِنْدَ تَغْلِبٍ أَوْ بَكْرٍ
 أَيَّرِضِيكُمَا أَنَّ امْرَأً مِنْ بَيْنِكُمَا
 وَأَيَّ امْرَأٍ يَدْعَى إِلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ
 يُرَاقُ عَلَى غَيْرِ الضُّبَا دَمٌ وَجْهِهِ
 وَيَجْرِي عَلَى غَيْرِ الْمُتَّقَفَةِ السُّمْرِ (3)

(1) ابن المقرب العيوني: هو الحسن علي بن المقرَّب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز بن ضَبَّار... العيوني البحراني الأحسائي الشاعر بالبحرين، ومولده في سنة (1176/572)، بالأحساء من بلاد البحرين، وقيل إنه توفي في سنة (1231/629). الأنصاري، تحفة المستفيد، القسم الأول، ص 275.

(2) ميثم بن علي بن ميثم البحراني، كمال الدين: عالم بالأدب والكلام، من فقهاء الإمامية. من أهل «البحرين». زار العراق، وتوفي في بلده. له تصانيف، منها «شرح نهج البلاغة»، و«شرح المئة كلمة»، و«القواعد في علم الكلام»، وغيرها. الخوانساري، روضات الجنات، 752 - 754.

(3) الدِّيوان، 47.

وعلى أية حال فإن الشاعرَ الخَطِّيَّ وُلِدَ في إحدى قرى القطيف⁽¹⁾ وتدعى بـ «التوبي»⁽²⁾ وقد سكتت المصادر العربية القديمة عن تاريخ مولده، فلم تذكر لنا شيئاً عن تاريخ ولادته. إلا أن تلك المصادر أشارت إلى أنه عاش في أواخر (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر/ السابع عشر الميلادي).

ولم تختصّ المصادر القديمة الشاعرَ الخَطِّيَّ مفرداً بهذا الإهمال، فقد كان ذلك ديدنهم مع الكثير من الشعراء. فقد كانوا لا يُلقونَ اهتماماً بحياة الشاعر ونشأته، ولا يكلفون أنفسهم بتوضيح البيئة التي نشأ وتربى وترعرع فيها طفلاً وشاباً وكهلاً. كما أنهم يتناسون المدارس الثقافية وحلقات العلماء، وما أفاده منهما، ناهيك عن مصادر المعرفة التي أوكدت الإحساس الشعري المرهف الجميل.

وحينما نرجع إلى ديوان الشاعر نجد أن أقدم قصيدة مؤرخة

(1) القطيف: بلد تاريخي قديم، ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان تحت لفظة «القطيف»، وذكره تحت لفظة «الخَطُّ»، وتحت لفظة «البحرين» كما ذكر لها قرى تحت مواد مختلفة. ولم تهمل المعاجم العربية ذكر «القطيف» إن مستقلة وإن منضوية تحت البحرين أو الأحساء؛ لأن اسم البحرين كان في القديم يطلق على الإقليم كله الممتد من البصرة إلى عمان. وإن كل من ذكر القطيف ذكر أنها قاعدة الإقليم - إقليم البحرين - وأعظم مدنه، ولا سيما في القرن السابع الهجري. انظر: ياقوت الحموي، م. ن، 346/1، 378/2، 378/4؛ حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية، 319/3.

(2) التوبي: بضم التاء مشربة بفتح، ويظهر من لفظها الغريب أنها من الأسماء القديمة جداً كسيهات وتاروت، وهي قرية تقع إلى الغرب من مدينة القطيف على مسافة ميل تقريباً، وهي تقع بين سيحتي الخويلدية والبحاري، وتحيط بها البساتين من كل جانب وكانت قرية مسورة صغيرة. وتعتبر سيحتها من أجود الأراضي الزراعية، وفيها عدد من العيون أشهرها عين القصير. وقد أنجبت عدداً من الشعراء منهم الشيخ جعفر الخطي، والسيد محمد الفلفل. محمد سعيد المسلم، القطيف، ص 41.

كانت عام (1584/992) - كما جاء في الديوان - وبجانبيها تعليق يشير إلى أنه كتبها في ريعان شبابه. ممّا حدا بعض الباحثين المحدثين إلى تقدير سنة ولادته، إذ جاء في دراسة حاجم الربيعي «ولا نعلم متى ولد على وجه الدقّة، ولكننا بعد اطلاعنا على ديوانه وجدنا له شعراً نظمه عام (1584/992)، وهو في ريعان شبابه وهذا يعني أنه نظمه ما بين سن الثامنة عشرة إلى العشرين، وهي سنّ تنضج فيها القريحة الشعريّة، ويصبح المرء قادراً على الإجابة في النظم، وهذا يعني أنّ ولادته كانت ما بين عام (1564/972) وعام (1566/974) تقريباً»⁽¹⁾. ويقول «خالد الفرّج» وهو كاتب معاصر ما نصّه: «وإذا كان عمره في تنقلاته ثلاثين عاماً (1028/999)، وهو في أشعاره قد تشكّى من الكبر، والشيب فلا يبعد أنه قد تناول الخمسين أو الستّين من العمر، فتكون ولادته سنة (1562/970) أو (1572/980)»⁽²⁾.

كما جاء في (مجلّة الموسم) ما نصّه: «إنّ الخطّي ولد في حدود سنة (1572/980)»⁽³⁾. وأشار سالم النويدري في أعلام الثقافة⁽⁴⁾ إلى السنة نفسها أيضاً.

ولكننا مع ذلك يمكننا الاطمئنان إلى أن الشاعر الخطّي عاش في الثلث الأخير (من القرن العاشر الهجري والثلث الأول من القرن الحادي عشر الهجري/السادس عشر الميلادي).
وحيثما نلقي نظرةً فاحصةً على البيتين اللذين قالهما وهو في

-
- (1) أحمد حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطّي، دراسة في شعره»، مجلّة دراسات الخليج العربي، العدد 11، ص 155 - 156.
- (2) خالد الفرّج، «الشاعر المغمور»، مجلّة المنهل، السنة العاشرة، 92/2.
- (3) محسن المعلم، «التعريف بمصادر البحث عن علماء القطيف»، مجلّة الموسم، العدد 9 - 224/10.
- (4) سالم النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية، 406/3.

ريعان شبابه عام (1584/992)، نجد أن هذين البيتين لا ينمّان عن بداية للشاعر بل إنهما يدلّان على ثقافة واسعة، وممارسة مسبقة للشعر، ومعرفة متقنة - نوعاً ما - لأدوات الشعر. إذ إنّ الشاعر كان مقلّداً لغيره من الشعراء الذين سبقوه، ومثال ذلك أخذه معنى بيتي الشاعر العرجي في قوله:

[من البسيط]

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْكَاشِحِينَ تَتَّبَعُوا
هَوَانَا وَأَبَدُوا دُونَكُمْ نَظْرًا شِزْرًا
جَعَلْتُ وَمَا بِي مِنْ حَسُودٍ وَلَا قَلِي
أَزُورُكُمْ يَوْمًا وَأَهْجُرُكُمْ شَهْرًا⁽¹⁾

فقال الخطي:

[من البسيط]

لَمَّا رَأَيْتُ وَشَاةَ الْحَيِّ تَرْضُدُنَا
بِأَعْيُنٍ لَا عَدَاهَا غَائِلُ الرَّمِدِ
جَعَلْتُ لَا مِنْ قَلِي مِثِّي أَزُورُكُمْ
أَنَا وَأَهْجُرُكُمْ بَضْعًا مِنَ الْأَبَدِ⁽²⁾

لهذا نظنّ أنّ ما قاله الخطي من شعر قبل عام (1584/ 992) ربّما أنّه ضاع في خضم الأحداث السياسيّة قبل سفره إلى البحرين، أو أنه لم يرض عنه فحذفه من ذاكرته حينما أشرف على تدوين أشعاره في البحرين.

ثانياً: أسرته ووضعها السياسي والاجتماعي

لا يكاد المتتبع لحياة الخطي في المصادر القديمة والحديثة،

(1) أبو تمام، ديوان الحماسة، 124/3.

(2) الديوان، ص 42.

يظفر بشيء عن أسرته، إذ بإمكاننا القول: إنّ الفترة الأولى من حياته حتّى نزوحه إلى جزيرة أوال تكاد تكون مجهولة. ذلك لأنّ كتب التراجم أغفلت الحديث عن هذه الفترة من حياته، فلم تقدّم لنا شيئاً ينير جوانب حياته، ويشفي غليل الباحث معرفياً.

ولكن حينما نستقرئ تاريخ المنطقة قبل ولادة الشاعر الخَطّي - القطيف بالتحديد - نجد أنّ أهل القطيف في مقدّمة المقاومين للاحتلال البرتغالي، وتأكيداً لذلك: «وفد منهم جماعة إلى بغداد حاملين معهم رسائل الترحيب بالسلطان العثماني سليمان القانوني سنة (1535/941)⁽¹⁾ وطلبوا تطهير بلادهم من البرتغاليين الكفّار.

وبالفعل استجاب السلطان العثماني، وأمر واليه في مصر ببناء أسطول في البحر الأحمر... وحين وصوله قام أهل القطيف بطرد البرتغاليين من بلادهم واستخلصوا القلاع والحصون، ولكنهم - أي البرتغاليين - ما لبثوا أن جهّزوا حملة عسكريّة، فهاجموا القطيف واحتلّوها ودكّوا قلاعها حتّى ساووا بها الأرض، وقد أحفظت الأتراك هذه الأعمال، فصمّموا العزم على تطهير الخليج من البرتغاليين، فجهّزوا قوّة بحريّة كبيرة استطاعوا من خلالها طرد البرتغاليين من سواحل القطيف»⁽²⁾.

(1) سليمان القانوني: لُقّب هذا الشاه الكبير، ونودي به ملكاً في خراسان ثم سار إلى مدينة مشهد التي كانت قد احتلتها قبائل الأzbek فاستخلصها منهم، وانتصر عليهم بقرب مدينة «هرات» سنة (1597/1028) ثم حارب الترك واستخلص منهم الولايات التي سبق أخذها من مملكة العجم، واحتل مدائن بغداد والموصل، وديار بكر. طرد البرتغاليين من ثغر هرمز. توفي سنة (1628/1037) بعد أن حكم البلاد مدة ثلاث وأربعين سنة. محمّد فريد المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة، ص 119.

(2) محمّد سعيد المسلم، القطيف، ص 225 - 226.

وهكذا أتصور أنّ أسرة الخطي كانت على قيد الحياة، وقد عانت ما عاناه أهل المنطقة من وضع سياسيٍّ مريعٍ مفاده الظلم والتعسف والإذلال، أثر ذلك تأثيراً مباشراً على الحياة الاجتماعية في المنطقة بشكلٍ عام. وهذا يشكل بوضوح انعكاس الحياة السياسيّة على الحياة الاجتماعيّة.

وتدليلاً على ذلك، أنّه في عام (1550/958) حينما احتل الأتراك العثمانيون القطيف والأحساء «أرهبوا المواطنين بالضرائب الباهظة، مما أدّى إلى ارتفاع الأسعار، وارتكبوا أعمالاً تعسفية فادحة ضدّ الأهالي. والأنكى من ذلك أنّهم أثاروا النعرة الطائفية، فتردّت الأوضاع من سيئٍ إلى أسوأ، وأدّت إلى نشوب ثورات أهليّة، استمرت طيلة عهدهم، وإلى نزوح بعضٍ من الشّخصيات المهمة مع عوائلهم إلى الخارج»⁽¹⁾.

لهذا نزح كثير من أشرف المنطقة ورؤسائها إلى جزيرة أوال وعلى رأسهم آل مقلّد من بني وائل، ومنهم شيخ القطيف الأكبر أبو علي عبد الله بن ناصر بن حسين بن مقلّد المتوفى (1591/999) حيث دُفن هناك. وكان الخطي مشاركاً لزعماء القطيف في فرارهم من جور الأتراك إلى جزيرة أوال. إذ إنه كان برفقة شيخ القطيف الأكبر أبي علي آل مقلّد، وقد رثاه بقصيدةٍ رائعةٍ عندما توفاه الله... قال فيها:

[مِن الطويل]

ويا بَلَدَ الخَطِّ اغْتَرَاكَ لِفَقْدِهِ
مَدَى الدَّهْرِ كَسْرٌ لَا يُرَامُ لَهُ جَبْرٌ
مِنَ الآنَ بَدَأَ الشَّرُّ فِيكَ وَإِنَّهُ
لَمُتَّصِلٌ بَاقٍ وَأَخِرُهُ الحَشْرُ⁽²⁾

(1) محمّد سعيد المسلم، م. ن، ص 226.

(2) الديوان، ص 50.

بيِّن الشَّاعر المكانة السَّامية التي يتسَمَّها الفقيه في منطقة القطيف، وأنَّ البلاد سيكون مآلها إلى الخراب حينما خسرت تلك الشخصية.

مما تقدم يتبيَّن لنا أنَّ الأحداث التي تكالبت على القطيف من جانب البرتغاليين والعثمانيين، جعلت أهل المنطقة يعانون وضعاً سياسياً مريعاً لا يستطيعون من خلاله مقاومة الغزاة؛ لأنهم قليلو العدد والعدة، مما جعل أشرف القبائل ورؤساءها ينزحون إلى جزيرة أوال المجاورة لهم؛ لأنها أكثر أماناً من القطيف.

إلاَّ أنه وعلى ما يبدو أنَّ أسرة الخَطِّي عاشت في وسط الأحداث السياسيَّة التي اكتنفت منطقة البحرين بشكلٍ عام في أثناء تلك الفترة من الغزو البرتغالي والعثماني المشار إليهما آنفاً في المنطقة وما تعرَّض له أهلها من تدمير وقتلٍ وكبتٍ للحريَّات.

في حين أنَّ الشاعر لم يذكر لنا بيتاً واحداً يُشيرُ به إلى دور أحد أفراد أسرته سياسياً أو اجتماعياً أو أدبياً.

وقد ورد في منتظم الدرِّين أنَّ الخَطِّي خَلَّف من الأبناء ثلاثة وهم: الشيخ عبد الله وكان من العلماء⁽¹⁾، والشيخ أحمد تتلمذ على يد العلامة السيد ماجد الجدحفصي⁽²⁾، والشيخ حسان من العلماء أيضاً⁽³⁾.

(1) توقِّي في البحرين ودُفن في مقبرة أبي عنبرة بالبلاد القديم في جزيرة أوال، م. ن، ص 49.

(2) هو السَّيد ماجد بن هاشم بن علي بن مرتضى بن علي بن ماجد الحسيني البحراني الجدحفصي، نسبة إلى جدحفص بتشديد الدال: قرية من قرى البحرين، وكان هذا السيد شاعراً، أدبياً، له مع أبي البحر الخَطِّي صداقة واتحاد ومجارة في الشعر، وهو أوَّل من نشر الحديث في شيراز، وله مصنفات عديدة. يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص 136.

(3) محسن الأمين، أعيان الشيعة، 170/4؛ النويدري، معالم الثقافة الإسلامية، 413/2.

وقد سمى ابنه حسّاناً تفاؤلاً منه بأن يكون شاعراً، وقد جنّ من الفرح لمّا قال حسّان الشعر وأرسله إلى والده في الغربية، إذ صدرّ بها كتاباً بعثه لولده أبي الفرج حسّان جواباً عن كتاب بعثه إليه فيه بيتان أنشأهما ولم يكن له أنس بالنظم قبل ذلك وهو يومئذ بشيراز سنة (1614/1022).

وهي أبيات قليلة منها:

[مِنَ الرَّمْلِ]

يَا مَنْ يَيْلُ بِمَا يَقُولُ أُوَامِي
وَتَبُوحُ نَارِ صَبَابَتِي وَعَرَامِي
بَيْتَانِ جَاءَا مِنْكَ كَانَا نِعْمَةً
رَجَحَتْ بِمَا عِنْدِي مِنَ الْأَنْعَامِ⁽¹⁾

وقد ورد ذكر الشاعر لأبنائه، وخوفه عليهم من الأعداء وهم بعيدون عنه في قصيدة يعاتب فيها بعض السّادة سنة (1617/1027). قال:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَفْلَادُ أَكْبَادٍ تَلُوذُ عَلَيْهِمْ
وَرَاءَ دُمُوعِي قِطْعَةً مِنْ فُؤَادِيَا
يَنَالُ الْجَفَا وَالضُّرُّ مِنْهُمْ مُرَادُهُ
وَهَانَ لَوْ أَنِّي نَلْتُ مِنْكَ مُرَادِيَا⁽²⁾

كما أورد الشاعر ذكراً لابنته وكريمته في إحدى قصائده يتشوّق من خلالها لرؤية أهله في البحرين، وبالتحديد في قرية «بوري»⁽³⁾ إذ يقول:

(1) الديوان، ص 112.

(2) م، ن، ص 122.

(3) قرية بوري: هي قرية صغيرة من قرى البحرين، تقع قرب قرية عالي وهي تابعة إلى المنطقة الوسطى تبعاً للتقسيم الجغرافي الإداري في البحرين، وهي تقع جنوب غرب العاصمة المنامة. وهي أيضاً مشهورة بمدارسها الدينيّة منذ =

[مِنَ الكَامِلِ]

إِنْ يُصْنِي ذِكْرُ الدَّيَارِ فَإِنَّهُ
لِإِنَاثِ أَصْيَةِ بِهَا وَدُكُورِ
وَجَدِي الصَّغِيرُ بِهَا لِأَصْغَرِ صَبِيَّتِي
وَكَبِيرُ أَشْوَاقِي بِهَا لِكَبِيرِي
وَكَرِيمَةُ الطَّرْفَيْنِ جُرَّ عَلَى التُّقَى
وَالدَّيْنِ فَاضِلٌ ذَيْلُهَا الْمَجْرُورِ
وَمُهْمَهْفُ زُرْتُ غَلَاثَلَهُ عَلَى
غُضْنِ يَمِيلُ بِهِ النَّسِيمُ نَضِيرِ⁽¹⁾

ثالثاً: نشأة الشاعر وعلاقته بحياة عصره الثقافية

نشأ الشيخ جعفر الخطي نشأة عادية من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وتلقى العلوم الدينية وما ي صاحبها من العربية لغةً وأدباً كما يتلقاها أي طالب للعلم في عصره.

نشأ الخطي في قرية صغيرة من قرى القطيف، وبالتحديد قرية «التُّوبي».

كما أنه قضى أيام صباه في دراسة العلم والأدب والعلوم الجعفري على ما فيه من غموض في التأليف والتعليم، لا يتبحر فيه إلا من قضى السنين الطوال في سهر الليالي حتى يدرك ما أدركه أبو البحر فيتأهل لأن يجيزه البهاء العاملي عالم زمانه في إيران، والعالم الشيعي أجمع⁽²⁾.

= القدم، ومن أبرز رجالها الشيخ أيوب بن عبد الباقي البوري (ت 1601/1010).

النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، 439/1.

(1) الديوان، ص 51.

(2) خالد الفرج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص 92.

ومِنَ الممكن اعتبار الفترة الأولى من حياته، أي منذ ولادته وحتى بلوغه الثلاثين من عمره، فترةً مجهولةً في كتب التاريخ؛ لأنَّ كتب التاريخ والتراجم تغفل الحديث تماماً عن هذه الفترة من حياته وقد ذكر شوقي ضيف «أنه نشأ في القطيف، وفيها حفظ القرآن وتلقَّن على الشيوخ مبادئ الكتابة والقراءة والعربية وسال ينبوع الشعر على لسانه»⁽¹⁾.

كما ذكر البلادي (ت1921/1340) في الأنوار: «كان مسكنه قرية التوبي، إحدى قرى القطيف، وله عقبٌ فيها إلى الآن...»⁽²⁾.

إذن يتضح من خلال ذلك أنَّ الخطي وُلد في منطقة القطيف ونشأ وتربَّى فيها، كما أنَّه تلقَّى تعليمه الأساسي في المنطقة نفسها.

ويشير خالد الفرج إلى فقره وفاقته بقوله⁽³⁾: «إِنَّ الْخَطِيَّ نَشَأَ فِي بَيْتَةٍ كَلُّهَا فَقْرٌ وَكُلُّهَا إِرْهَاقٌ وَمِظَالِمٌ، وَكُلُّهَا خَوْفٌ، أَمَّا فَقْرُهُ فَقَدْ نَمَّ عَنْهُ شَعْرُهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَيَصَوِّرُهُ لَنَا بَيْتُهُ الْمَشْهُورُ الْمَتَدَاوِلُ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَصِيحُ الْمَقَالِي فِي بُيُوتٍ كَثِيرَةٍ
لأَصْحَابِهَا لَدَاتُهَا وَلَنَا الشَّمُّ

وقوله:

[مِنَ الْكَامِلِ]

طَابَ الْجَوَافُ وَطَابَ رِيحُ شِوَاهُ
مَا لَدَّ فِي سَمَكِ الْقَطِيفِ سِوَاهُ⁽⁴⁾

(1) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص133.

(2) علي البلادي، أنوار البدرين، ص288.

(3) خالد الفرج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص93.

(4) م.ن، ص93 - 94. البيتان المذكوران هنا لم يكن لهما وجود في الديوان.

والجُوفُ المشويُّ كانَ ولا يَزَالُ أرخَصَ الأشياءَ، ولا تأكله إلاَّ
الطبقات الفقيرة. وقوله:

[مِنَ الكامل]

أَصْبَحْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ ضَيْقَةً يَدِي
فَابَعْتُ إِلَيَّ وَلَوْ بَعَثْتَ بِدَرَهُمْ⁽¹⁾

وقوله:

[مِنَ الطويل]

لَكَ الْخَيْرُ بَيْتٌ أَفْقَرْتُ حُجْرَاتُهُ
مِنَ التَّمْرِ يَسْتَهْدِيكَ شَيْئاً مِنَ التَّمْرِ
فَبَادِرْ بِهِ فَالْوَقْتُ كَادَ لِقُرْبِهِ
يُرِيكَ عَلَى قِنُونِهِ يَانِعَ الْبِسْرُ⁽²⁾

وأرخصُ شيء في القطيف هو التَّمْر.

ويُروى أنَّ سبب هجرته من وطنه إلى (أوال) عجزه عن وفاء
ديونه على ضالتها.

ويضيف فرج العمران حينما تحدث عن نشأته فقال: «نشأ
الشيخ الحطّبي في وطنه القطيف، وكان ميّالاً للأدب وقرض الشعر
الذي هو تراثه القديم الذي ما زال يورثه الجدّ الكريم إلى ولده
والولد الحفيد، وقد أسعفه النبوغ الطبيعي الذي خصّ الله به بني
هذا الوطن وكان لما يحوطه من جمال الطبيعة واعتدال الهواء
وما كان يزخر به من العلماء والأدباء ذلك الحين الأثر الجميل
تربية ذوقه وتغذية شاعريته الفدّة وكان للبؤس الذي مُني به هذا

(1) الدِّيوان، ص105.

(2) الدِّيوان، ص47.

الشاعر البئيس أثر كبير في صقل روحه الحساسة فوق أثر البيئة والطبيعة»⁽¹⁾.

ومن الجدير ذكره أن الدارس لشعره، ومظاهر ثقافته يكاد يجزم بأنه قد نال قسطاً وافراً من العلم والمعرفة في فترة شبابه الأولى وبخاصة في اللغة العربية والأدب وعلوم الدين.

إذ كانت ثقافة عصره ثقافة دينية تهتم بشؤون القرآن والحديث، وما يتبعهما من أدب وتاريخ.

«والقطيف في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كانت حاضرة علمية يطلق عليها النجف الصغرى؛ وذلك لكثرة العلماء والحلقات العلمية.

ولم يكتف أبو البحر بما أخذه من المساجد والمدارس، وإنما اعتمد على مطالعته الخاصة، فاطَّلَعَ على دواوين الشعراء وتأثر بهم، وضمن بعض أبياته، منهم امرؤ القيس، والشَّنْفَرِي، وحسَّان بن ثابت، والعرجي، وأبو نواس، وأشجع السلمي⁽²⁾، وأبو تمام⁽³⁾، والبحتري، وابن المعتز، وأبو فراس الحمداني، والمتنبّي، والشَّريف الرُّضِي⁽⁴⁾، وشعراء آخرون⁽⁵⁾ لم تذكر أسماءهم. وكتب الأمثال⁽⁶⁾.

فقد اجتمع في فترة زمنية واحدة أكثر من أربعين مُجْتَهِدًا من القطيف والأحساء يُمارسون البحث العلمي»⁽⁷⁾.

(1) فرج العمران، الأزهار الأرجية، 4/176.

(2) ديوانه حسب تسلسل الشعراء، ص2، 74، 82، 94، 118.

(3) م. ن، ص25، 86، 119.

(4) الديوان، ص40، 91، 95، 98، 116.

(5) م. ن، ص9، 90، 96.

(6) م. ن، ص58، 71، 106.

(7) عبد المجيد المحيشي، «الحياة العلمية في القطيف» مجلة الواحة، العدد السابع، ص61.

وعلى ما يبدو أنه أتقن بعضاً من تلك العلوم جامعاً بين الأدب والعلمية؛ إذ كان أكثر الشعراء في تلك الفترة من رجال الدين.

ويؤكّد ذلك محمد سعيد المسلم في كتابه «القطيف»: «أنّه نشأ في القطيف وتلقّى تعليمه وبرزت شخصيته كشاعرٍ يُشارُ إليه بالبنان، وصارت له مكانة مرموقة في الأوساط الاجتماعية والسياسية في عصره»⁽¹⁾.

ولا أظنُّ أنّ شاعرنا الخطي كان بعيداً عن هذه الحركة العلمانية، إذ كان أحد أدباء تلك الفترة وشاعرها في منطقة القطيف.

ومصادقاً على نشأته في القطيف نسوق أبياتاً يتشوق من خلالها إلى الأماكن التي ألفها في صباه في المنطقة المذكورة، ويحنُّ إلى تلك الربوع، ويستعيد صورة طفولته في قوله:

[مِنَ الكامل]

هَلَا سَأَلْتَ الرَّبْعَ مِنْ سَيِّهَاتٍ⁽²⁾
عَنْ تَلْكُمْ الْفَتِيَانِ وَالْفَتِيَاتِ
وَمَجْرُ أَرْسَانِ الْجِيَادِ كَأَنَّهَا
فَوْقَ الصَّعِيدِ مَسَارِبُ الْحَيَاتِ
وَمَجْدَفَاتِ السُّفْنِ أَدْنَى بَرِّهَا
مِنْ بَحْرِهَا وَمُبَارِكِ الْهَجَمَاتِ
حَيْثُ الْمَسَامِعُ لَا تَكَادُ تَفِيْقُ مِنْ
تَرْجِيحِ نَوْتِي وَرَجْرِ⁽³⁾ حُدَاةِ

(1) محمّد سعيد المسلم، القطيف، ص368.

(2) سيّهات: بفتح السّين، وهو من الأسماء القديمة، وهي تقع على الساحل مباشرة على طريق الدّمّام، وعلى بعد 8 كم من مدينة القطيف. محمّد سعيد المسلم، م. ن.، ص 32 - 33.

(3) في أعيان الشيعة «صوت» بدلاً من «زجر»، مج 161/4.

إِنَّ الْقَطِيفَ وَإِنْ كَلِفْتُ بِحُبِّهَا
 وَعَلْتُ عَلَى اسْتِطَانِهَا زَفْرَاتِي
 إِذْ أَيْنَ جِزْتُ رَأَيْتُ فِيهَا مَدْرَجِي
 طِفْلاً وَأَتْرَابِي بِهَا وَلِدَاتِي
 لِأَجْلِ مُلْتَمَسِي وَغَايَةِ مُنْيَتِي
 أَنِّي أَقِيمُ بَيْنَكُمْ السَّاحَاتِ
 فَسَقَى الْعَمَامُ إِذَا تَحَمَّلَ رُكْبَهُ
 تِلْكَ الرُّحَابَ الْفِيحَ وَالْعَرَصَاتِ
 وَاجْتَازَتِ الْمُزْنَ الْعِشَارُ فَطَبَّقَتْ
 بِالسَّفِي مِنْ «عُنْكَ»⁽¹⁾ إِلَى نَبْكَاتِ⁽²⁾

وهكذا فإن «سيهات» و«القطيف» و«عنك» و«نبكات» هي مطمع أنظاره ومثار هواه، ومرابح الخليج وما فيها من حياة بحرية وبرية تلتقي فيها أصوات الحداء بأصداء النوتية، وتمتزج مجاديف السفن بأرسال الخيل، إن حياة الخليج هذه يشغف بها شاعر الخليج فيصورها لنا، ويحدثنا عنها فنرى شعره صورة لوطنه.

ولا عجب ففي الخليج درج طفلاً، وجال يافعاً وشاباً بين الأتراب واللذات كما يحدثنا هو في هذا الشعر الذي نحسُّ

(1) عنك: مدينة قديمة تقع على ساحل البحر مباشرة، وتحيط بها الواحة من جميع جهاتها الأخرى، كانت تتمتع بشهرة تاريخية، ذكرها المسعودي في كتابه «التنبية والإشراف» فوصفها بأنها من مدن القطيف. كما توجد بها قلعة برتغالية على البحر، اتخذها الأتراك مقراً لحاميتهم ومركزاً للضبضية تعزيراً لحاميتهم في القطيف. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 162/4؛ لوريمر، دليل الخليج، 1880/5؛ محمد سعيد المسلم، القطيف، ص 36 - 37.

(2) الديوان، ص 16.

أنَّه شعر «خليجي» بكل ما في الخليج من طبيعة وإحياء وحياء»⁽¹⁾.

والواقع أنني أقرّر أنه لم أجد في كتب الأقدمين من الأخبار ما يكشف جوانب نشأته في الحياة طفلاً وفتىً، وما كان لقبيلته من أثر في فصاحته، وما أفاده في قريته قبل أن يرتحل عنها، وما أفاده من حلقات العلماء هناك وجلسات المعلمين - رجال الدين - التي كان يتردد عليها، إلاّ النزر اليسير في نمو معارفه وتكوين شخصيته العلميّة والأدبيّة.

ذلك أنّ الشاعر الخطّي عاصر الفترة التي ضعف خلالها الحكم البرتغالي، والسيطرة العثمانية على البلاد، وما تمخّض من تلك السيطرة من الظلم والاستبداد، وفساد استشرى على الحياة بكامل أشكالها، فالمنطقة مرّت بأدوار سياسية واجتماعية عدّة على امتداد تاريخها، تعرّضت خلالها إلى الاحتلال والظلم والقهر الاجتماعي وضيق فيما يتعلق بالأحوال المعيشية. لهذه الأسباب ثارت حمية الشاعر فأصبحت حياته سلسلة من الآلام والأحزان، نبّهت إحساسه وأرهفت شعوره، وتغيّرت نفسيته من هدوء إلى اضطراب، وأصبحت حياته خشونة وعدم استقرار ناهيك عن القلق الدائم على أهله ووطنه.

وهكذا من يقرأ شعر الخطّي يحسُّ بمرارة الحياة وقساوة العيش. فلم يكن الشاعر الخطّي هو المعني بهذا الإهمال وحده، بل كان ذلك شأن المؤرّخين مع أكثر الشعراء⁽²⁾، رغم أنه أكثر شهرةً، وصيناً من الشعراء

(1) حسن الأمين، «شاعر الخليج»، مجلة العربي، العدد 125، ص 102.

(2) مثال على ذلك الشاعر علي بن المقرب العيوني، شاعر سياسي شهير أرخ لتاريخ دولة كاملة هي دولة العيونيين التي حكمت البحرين لأكثر من 150 عاماً، وقد كشف من تناوله بالدراسة والبحث أنه لم يلقَ عنايةً من أصحاب التراجم من حيث الإخبار عن نشأته وحياته، ولولا ديوانه لما عرّف الناس دولة العيونيين معرفةً واضحة. انظر ترجمته، ص 35.

الذين عاصروه، فقد كانوا لا يهتمون ولا يلقون بالألحاح حياة الشاعر ونشأته، وربما مرد ذلك إلى الظروف السياسيّة في تلك الفترة، أعطتهم المبرر لتجاهل أخبار الشاعر من حيث نشأته وحياته.

وحيثما نريد الحديث عن مكونات الشاعر الثقافيّة، ينبغي أن نلجأ في تكوين ملامح شخصيته، وتكوينه الثقافي إلى ما كتبه المؤرّخون عنه مضافاً إلى ذلك البيئة الثقافيّة التي عاش فيها. وعلينا كذلك أن نتعرف إلى شيوخه الذين تتلمذ عليهم.

إنّ المؤرّخين الذين ترجموا لأبي البحر الخطي لم يذكروا شيئاً ذا بالٍ عن ثقافته، بل كانت عبارات يسيرة تتصف بالشمولية: فابن معصوم وصفه بوصف مسجّع طويل. إذ يقول: «ناهج طرق البلاغة والفصاحة، الزاخر الباحث الرحيب المساحة، البديع الأثر والعيان، الحكيم الشعر الساحر البيان، تُفّ بالبراحة قداحة...»⁽¹⁾.

وثمة وصف آخر لصاحب أنوار البدرين: «أنه من الأدباء الكاملين، والشعراء المفلقين، وله يدٌ في العلوم أيضاً... وله الإجازة من شيخنا البهائي»⁽²⁾.

هاتان العبارتان اللتان أوردتهما المؤرّخون فيما يتعلّق بثقافته. ولكننا نتساءل من هم أساتذة هذا الشاعر؟ وما هي العلوم التي وقف عليها؟ سؤالان مطروحان ولكن لا نجد ما يسعفنا في الإجابة عنهما.

فأساتذة الشاعر مجهولون، فلم يصرح أحد من المؤرّخين القدماء أو المحدثين عن هؤلاء الأساتذة.

أمّا أبو البحر الخطي نفسه فقد أقرّ بالفضل في شاعريته لاثنين كانا يجاريانه في ميدان الشعر. وهما رفيقاه حسن الغنوي

(1) ابن معصوم، سلافة العصر، ص 532.

(2) حسن البلادي، أنوار البدرين، ص 289.

راوية شعره، والسيد ماجد الصادقي الجدحفصي، ونحسب أنه أخذ شيئاً من أدبه، وشاعريته عنهما. إذ قال:

[مِن الطَّوِيلِ]

إِذَا شِئْتُ جَارَانِي بِمُضْمَارِ مَدْحِكُمْ
جَوَادَانِ لَا يَشَاهُمَا الدَّهْرَ طَارِدُ
إِذَا رَكَضًا كَانَ الْمُصَلِّي مِنْهُمَا الـ
فَتَى حَسَنٌ وَالسَّابِقُ الْفَحْلُ مَا جِدُ
هُمَا أَرْضَعَانِي دُرَّةَ الْمَجْدِ يَافِعًا
وَهَا أَنْدَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَاشِدٌ⁽¹⁾

ويشكك أحد الكتاب المحدثين في صحة دراسته عليهما؛ لأنَّ شعره الَّذِي فِي الْقَطِيفِ قَبْلَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يُبْنَى عَنِ اكْتِمَالِ شَخْصِيَّتِهِ الْأَدْبِيَّةِ⁽²⁾.

وأية ذلك أنَّ شاعرنا أخذ العلم والأدب عن مشايخ عصره، ففي المسجد تلقى علوم عصره، فوعى علوم اللغة، والأدب والتاريخ، والدين، وحصل كمًّا لا بأس به من المعارف. «إذ كانت القطيف في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي حاضرة علمية يطلق عليها النجف الصغرى؛ وذلك لكثرة العلماء، والحلقات العلمية، فقد اجتمع في فترة زمنية واحدة أكثر من أربعين مجتهداً من القطيف والأحساء يمارسون البحث العلمي»⁽³⁾.

أمَّا ما يتعلق بالبيئة الثقافية في البحرين «فإن فيها مدارس بحسب الأيام فمنها (مدرسة الاثنين)، وهي في البلاد العامرة في

(1) الديوان، ص 39.

(2) عدنان العوامي، «دفاع عن أبي البحر»، مجلة الواحة، ص 118.

(3) عبد الحميد المحيشي، «الحياة العلمية في القطيف»، م. ن، ص 62.

ذلك الزمان تسمى (جِدْحَفَص)⁽¹⁾ التي خرجت منها فحول العلماء، وصارت مثوى تقصد كالماء، وخرج منها جماعات منهم العالم الأديب الشيخ جعفر أبو البحر الخطي⁽²⁾.

ومجمل القول إنّ ثقافة الإنسان امتداد من بيئته يستمدّها من شيوخه وأساتذته مضاف إليها نتاج عقله في تمثيل ما يلقي إليه وبكورتته على النحو الذي يتناسب واستعداده.

وينبئنا ديوانه أنه كثير السفر، والترحال، والتنقل بين القطيف، والبحرين، وفارس، إذ التقى بكثير من الأدباء، والشعراء في كل قطر من هذه الأقطار مما جعله على إمام بأحوال البلاد المجاورة من حيث الثقافة، والأدب، ورواج الشعر⁽³⁾.

(1) جدحفص: قرية من قرى البحرين، تقع غرب العاصمة المنامة، (الباحث).

(2) حسن البلادي، أنوار البدرين، صح.

(3) عبد الله أحمد الشباط، مجلة الفيصل، العدد 195، ص 100.

الفصل الثاني: الشاعر ونشاطه الاجتماعي

تمهيد

إنَّ الإنسان يكتسب خبرات الحياة من طريق الوسط الاجتماعي المعاش، فيتعلَّم منه معارف مختلفة، وتنطبع عليه - ربما - سلوكيات ذلك المجتمع، كل ذلك من خلال تعايشه، ومشاركته في الحياة الاجتماعية. وبهذا المنطق يمكننا القول: إنَّ الإنسان ليس منفصلاً عن الحياة الاجتماعية بوصفه يتفاعل حتماً مع كل مَنْ حوله، يتفاعل بنشاطه مع أهله في المنزل، ومع أقرانه ورفاقه في الحي، ومع الآخرين في القرية والمدينة، ويتفاعل كذلك مع البيئة العامة في وطنه بشكل خاص، ومع البيئات الأخرى إنْ كان مهاجراً، أو مسافراً.

والإنسان بوصفه إنساناً يُحِبُّ أن يُنشئ ويبنى علاقات مع الآخرين حسب ميوله، ومصالحه واتجاهاته مع مَنْ يتَّفَقون وتلك الميول والمصالح المشتركة، والاتجاهات سواءً أكانت فكريّة، أم أدبيّة، أم دينيّة، أم سواها.

وإذا كان هذا هو شأن الإنسان العادي؛ فالشاعر أحقُّ وأجدر بأن يكون هذا شأنه؛ لأنَّ الشاعر يملك الإحساس المرهف، والتعبير الجميل، والذوق الرفيع. هذه العوامل تؤهله للدخول إلى أوساط مختلفة من شرائح المجتمع سواءً أكان حاكماً أم وزيراً أم أديباً أم وجيهاً أم غيرهم.

أ. علاقته برجالات عصره

وحيثما نتبين ديوان شاعرنا الخطي نجد أنه اتصل بمختلف شرائح المجتمع تقريباً؛ ليكتسب الكثير من المعارف بغية زيادة خبرته الحياتية والمعرفية، وإفادة الآخرين مما كسبه. إذ إنه اتصل بالأمراء، والحكام، والوزراء، والقضاة، والأدباء، والشعراء، ورجال الدين، ومنهم الفقهاء، فضلاً عن اتصالاته ومصاحبته ومسامرته مع الناس العاديين من أبناء وطنه، وغيرهم.

ولسوف نحاول فيما يلي أن نذكر بعض هذه الصداقات التي جمعنا أشخاصها من شعره، وعدنا إلى كتب التاريخ، والتراجم لمعرفة شيء عنها، ومدى ما كان بينها وبين الشاعر الخطي من صلات مستأنسين في ذلك بما ذكره عنها.

1. علاقته بشيخ القطيف الأكبر عبد الله آل مقلد

إنَّ أوَّل مَنْ كانت للشاعر معهم صلة مِنْ أعيان القطيف هم عائلة آل مقلد⁽¹⁾ وكان الشيخ أبو علي عبد الله بن ناصر بن حسين بن مقلد من بني وائل شيخ القطيف الأكبر وحاكمها في تلك الفترة.

(1) أمراء القطيف يومئذ آل مقلد من ذرية قرواش بن مقلد العقيلي أحد المتغلبين في العراق على الدولة العباسية. وكانت البحرين من ملحقات ولايتهم العراقية، فلما ذمبت دولتهم في العراق، انسحبوا منها إلى القطيف، وأسسوا إمارتهم فيها رداً من الزمن إلى أن انقرضت على يد الأتراك في ختام القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. في هذه الفترة كانت بلاد البحرين ممزقة قطعاً، فكانت جزيرة أوال (البحرين) مستعمرة للبرتغال تديرها بوساطة الملتزمين من أعيان العرب مستعينة على إضعافهم ببعض الأعراب، ولم يقل لنا التاريخ من هم أولئك الأعراب؟ وقد احتل الترك الأحساء سنة (1543/950) وألحقوا بها القطيف. انظر: خالد الفرج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص92.

وكانت علاقة الخطي بهذا الأمير قوية. ولها قصة أظن أنها خرافية مزعومة نستوضح من خلالها بدء علاقة الخطي الحميمة مع هذا الأمير. وهذه القصة يستوجب ذكرها لأهميتها في بيان صلة الشاعر بالأمير. وهي:

«إن أبا البحر أصابه دين في بلاده بحيث أوجب له الخروج منها، وكان في مُسَوَّرَةِ القطيف عازماً على الخروج، والسفر؛ فدخل المسجد المعروف بالمسهلة من مساجدها الواقع شرقاً من باب الشمال فأنشد هذه الأبيات عن قلب محترق:

[مِنَ الكامل]

مَوْلَايَ لَوْ قَرَعَ امْرُؤٌ بَابَ امْرِئٍ
يَيْدِ الرَّجَاءِ وَآبَ بِالْخُسْرَانِ
لَرَحِمْتَهُ وَدَمَمْتَ ذَاكَ لِجُلِيهِ
وَالْبُخْلُ قُلْتَ سَجِيَّةَ الْإِنْسَانِ
فَعَلَامَ أَرْجَعُ خَائِباً مِنْ بَعْدِ مَا
تَعَبْتُ يَدِي دَقّاً وَكَلَّ لِسَانِي

فلما أكملها نزلت على رأسه من السماء صرة دنانير في خرقة سوداء بقدر دينه بلا زيادة، ولا نقصان، ولكنه تشاءم من سواد الخرقة ففرقها على الفقراء والمساكين⁽¹⁾. هذه القصة يوردها البلادي صاحب أنوار البدرين دون تعليل، أو دليل منطقي على صحتها، مما يجعلنا نشك في صحتها. كما يتبين من خلاله أن المجتمع الذي عاش فيه الخطي تسيطر عليه الحكايات الخرافية، والأوهام الخيالية مما يجعل تناقلها سهلاً في ذلك المجتمع.

في حين أن الكاتب خالد الفرج حاول إيجاد تبرير وأحسبه

(1) علي البلادي، أنوار البدرين، ص294.

واهيأً للقصة السابقة خوفاً على نفسه من سلطة المجتمع لعدم تصديقه لمثل هذه الكرامات. خلاصة قوله: «نستطيع أن نفسر لغز هذه الصرة السماوية متى علمنا أن هذا المسجد مجاور لبيت آل مقلد الأمراء، وهو قصر مُنيف⁽¹⁾ على المسجد، ولا يفصلهما إلا طريق ضيق فلا يبعد أن شاعرنا دخل في غيبوبة المناجاة... فعلا صوته بتوسلاته في هدوء الليل، ولا يبعد أن شكايًا الدائنين قد وصلت إلى الأمير ابن المقلد، فعلم مقدارها فرق له، وأحب أن يخفف ما به، ويصون وجهه فرماها من القصر؛ فوقعت على رأسه، ولقلتها لم تضره»⁽²⁾.

وخير تفنيد ارتضيته لهذه الرواية ما ذكره السيّد العوّامي في مقال له حول الشاعر، وإنني أتفق معه فيما ذكر من نقد تلك الرواية وتفنيدها، إذ إنّه شكك في صحة الرواية ونقد من حاول تعليلها، وتبريرها⁽³⁾. إذ قال: «وكان هيمنة الأساطير وجبروت الخرافة قد مدّا رعبهما حتى إلى قلوب متنوّرة عصرها فتجنبوا تفنيدها إلا بالاحتيال عليها بالتعليل، والتبرير، فهذا الشاعر خالد محمّد الفرج مثلاً يخشى أن يجاهر بإنكار الحكاية فيلتمس لها تعليلاً مؤداه أن المسجد مجاور لمنازل آل مقلد، وللشاعر بهم وثيق صلة فربما أتيح لزعيمهم الشيخ عبد الله أن يصغي لمناجاته فرمى له بالصرة، وفي تقديري أن التعليل أوهى من الحكاية ذاتها، وليت أن منشئ الرواية تنبّه إلى ما فيها من إساءة لذمة الشاعر حين يتهرب من أداء حقوق الناس حتى يعد أن قدر على أدائها، وهو الفقيه المتعفف... إلى أن قال: ومع ذلك فلدينا إلى تفنيد المعجزة قرائن:

(1) مُنيف: مُشرف. ناف الشيء نوافاً: ارتفع وأشرف. وفي حديث عائشة تصف أباها: ذاك طودٌ مُنيفٌ أي عالٍ مُشرف. ابن منظور، لسان العرب، مادة (ن، و، ف)، 342/9.

(2) خالد الفرج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص 93 - 94.

(3) إشارة إلى الكاتب خالد الفرج.

الأولى: تقول الحكاية: إن الصرة على مقدار دينه بلا زيادة، ولا نقصان. فكيف عَلم الشيخ عبد الله بن مقلد بمقدار ذلك الدين؟

الثانية: أن أبا البحر أشرف بنفسه على عمل الغنوي في جمع ديوانه، ومعظم الديوان ضمّ مقدمات تبين مناسبة كل قصيدة، فلو وقع له مثل هذه الكرامة فما هو مبرره لعدم ذكرها؟

الثالثة: إن المعلومات التي اشتمل عليها ديوانه المخطوط تحمل من الإشارات والإيماءات ما يكفي للقطع بأن الرجل له شأن غير ما ذكره مترجموه، وأنّ خروجه من القطيف لم يكن دافعه الديون»⁽¹⁾.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى عندما اشتدت الأزمة السياسية في بلاد القطيف عزم آل مقلد على الرحيل من بلادهم، ورحل الخطي معهم إلى جزيرة (أوال).

ويذكر خالد الفرّج «أنّ الخطي جلا إلى البحرين سنة 999/1590) وهي السنة نفسها التي جلا فيها آل مقلد إلى (أوال) البحرين. ولا يبعد أن يكون أبو البحر شاعر دولتهم، ومن المنقطعين إليهم فأصابه ما أصابهم»⁽²⁾.

ونستدل على عمق تلك العلاقة الوطيدة، وصدق المحبة والصحبة من خلال القصيدة الرثائية حين فجع الشاعر بفقد الأمير في سنة هجرته الأولى إلى (أوال) عام (1590/999). يقول فيها:
[من الطويل]

خَلِيلِيٍّ مِنْ أَبْنَاءِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ⁽³⁾
قِفَا وَأَنْدُبَا شَيْخًا بِهِ فُجِعَتْ بَكْرُ

(1) عدنان العوّامي، «دفاع عن أبي البحر»، مجلة الواحة، ص118.

(2) خالد الفرّج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص94.

(3) بكر، وائل: قبيلتان عربيتان، وهما فرع من قبيلة ربيعة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة، بكر.

وَبَدْرًا تَرَأَى لِلنَّوَاطِرِ فَاهْتَدَى
بِهِ بُرْهَةً ثُمَّ اخْتَفَى ذَلِكَ الْبَدْرُ
وَعَضْبًا⁽¹⁾ ثنّت أَيْدِي النّوَابِ حِدَّةً
فَهَلَّا اعْتَرَاهَا مِنْ مَضَارِيهِ عَقْرُ⁽²⁾

ومنها:

أَوَّلُ سُقَيْتِ صَوْبٍ كُلِّ مُجَلَّلٍ
مِنَ الْمُزْنِ هَامٍ لَا يَجِفُّ لَهُ قَطْرُ⁽³⁾
وهي معانٍ مطروقة، ولكنّ الشاعر أحسن صياغتها.

وهذه القصيدة الرثائية تتضمّن عاطفة أسى الشاعر وألمه وحررقته لفقده ذلك الأمير. كما أنه استطاع أن يخلق الجوّ الحزين الذي يتلاءم وطبيعة الموقف، وطبيعة المأساة. ومنها لمسنا مشاعر الإخلاص، وعواطف الوفاء، وحسن الرعاية.

وحينما طُلبَ من الشاعر الخطي أن ينظم أبياتاً في رثاء الشيخ عبد الله بن ناصر بن مقلّد كي تنقش على قبره سنة (1595/1004) أي بعد وفاته بخمس سنوات قال:

[من الكامل]

يَا قَبْرُ إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ بِمَنْ تَوَى⁽⁴⁾
فِيكَ اسْتَطَلَّتْ عَلَى الْقُصُورِ فَخَارًا

- (1) العَضْبُ: السيف القاطع . لسان العرب ، مادة: ع ، ض ، ب .
- (2) عَقْرُ: قطع، وعقر النخلة عقراً وهي عَقْرَةٌ: قطع رأسها فيبست. ابن منظور، م. ن،، مادة(عقر).
- (3) الدِّيوان، ص 49 .
- (4) ثوى: ثوى المكان: نزل فيه، وبه سمي المنزل مثوى، والمثوى: الموضع الذي يقام به، وجمعه المثاوي، ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ث، و، ي)، 125/14.

وَأَرَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ فَاسْمٌ فَإِنَّمَا
وَأَرَيْتَ يَعْرُبُ سُؤْدَدًا وَنَزَارًا
إِنْ أَظْلَمْتَ سُدُفٌ⁽¹⁾ الْمَقَابِرِ فَاسْتَتِرِ
مِنْ بَيْنِهَا فَلَقَدْ حَوَيْتَ نَهَارًا
فَسَقَاكَ نَائِلُهُ⁽²⁾ فَلَسْنَا بَعْدَهُ
يَا قَبْرُ نَسْتَسْقِي لَكَ الْأَمْطَارًا⁽³⁾

وقد تطرّق أبو البحر في هذه المراثية إلى المشكلة التي عصفت بالبلاد جرّاء الغزو الأجنبي لها والتنكيل بأهلها مما اضطر رجالا البلدان النزوح عنها إلى البحرين. وقد اضطر هو الآخر للخروج من القطيف مسقط رأسه مع شيخها الأكبر عبد الله من آل مقلّد للأسباب الآتفة الذكر.

لهذا كان لرفقة الخطي لهذه الشخصية - إلى البحرين سنة (1590/ 999) أثرها الكبير في تكوين المملكة الأدبية وإشباع رغبته في الاطلاع على مصادر الثقافة ومجالسة رجالاتها وعلمائها وأدبائها. إذ كانت جزيرة البحرين آنذاك أهلة بأساطين العلم وجهابذته. كما أنّ للبحرين أثراً كبيراً في تكوينه الأدبي بحكم هجرته إليها، وأخذ العلم من علمائها وأدبائها. فلا نستغرب عندما يدفعه الحنين إلى تلك الأرض من وقت إلى آخر.

2. علاقة الشاعر بوزير البحرين ركن الدين محمود⁽⁴⁾

ولمّا حطّت رجلا الشاعر على أرض جزيرة (أوال) «برزت شخصيته

(1) السدف: بالتحريك: ظلّمة الليل، ابن منظور، م. ن.، مادة: (س، د، ف)، 146/9.

(2) نائله: عطاؤه، ابن منظور، م. ن.، مادة: (ن، و، ل)، 682/11.

(3) الدّيوان، ص68.

(4) ركن الدين محمود: لم يذكر أحد من المؤرخين لتاريخ البحرين القديم والحديث =

كشاعر كبير يشار إليه بالبنان، وصارت له مكانة مرموقة في الأوساط الاجتماعية والسياسية في عصره، وكان من جملة من غادروا القطيف من الشخصيات تبرماً من الأوضاع التي سادت في العهد التركي، وأدت إلى ثورات أهلية، بالإضافة إلى النعرة الطائفية التي أثارها حكام الأتراك بسبب توتر العلاقات بينهم، وبين الدولة الصفوية فغادرها إلى البحرين»⁽¹⁾.

كنا نود قبل أن ندخل في موضوع العلاقة بين الخطي والأمير ركن الدين أن نذكر شيئاً عن حياة الأمير، ومدى سلطته الداخلية، لكننا في الواقع لا نملك شيئاً من التفاصيل عن هذه الحياة، فكل المراجع سكتت عن ذكر هذه الإمرة، ومدى سلطتها، ولهذا فإننا لا ندري من أحداثها السياسية إلا بعض الإشارات الضئيلة حسب ما أورده المترجمون للشاعر، وما ورد في شعر أبي البحر عنها.

ففي سنة (1592/1001) التقى الشاعر الخطي بأحد رجالات البحرين ووزيرها آنذاك؛ وهو ركن الدين محمود بن نور الدين بن شرف الدين وليس هناك ما يشير إلى اتصاله به قبل هذه الفترة. إذ تقرب إليه ولاذ به شاكياً همومه للوزير علّه يحصل على ما يريد، ومن ثمّ مدحه بقصائد عبّر من خلالها عن مدى إعجابه بالوزير، وبشجاعته، وكرمه.

ولدينا في مدح هذا الوزير أربع قصائد نختار بدايةً قصيدته الأولى، والتي تعتبر أول قصيدة قالها في المدح وهو في ريعان شبابه. وقد بدأها بمقدمة طلية وضح من خلالها ما آلت إليه بلاده

= شيئاً عن هذه الشخصية، إذ إننا نستنتج شيئاً ضئيلاً عنها في مدائح شاعرنا الخطي لها، بأنه كان وزيراً ذا سلطة، يدير من خلالها شؤون الدولة في بدايات القرن الحادي عشر/ السادس عشر الميلادي وفي أثناء تفهقر البرتغاليين.

(1) محمد سعيد المسلم، واحة على ضفاف الخليج، ص 368.

القطيف من سوء على أيدي الأتراك، وما أصابه وأهلها من الهموم على ضياعها. وهو بهذه القصيدة يتابع الثورة التواسية على مطالع القصيدة التقليدية، فهذه الديار الخربة لا تعي الكلام ولا تفهمه:
إذ قال:

[مِنَ الكَامِلِ]

مَاذَا يُفِيدُكَ مِنْ سُؤَالِ الْأَرْبَعِ (1)
وَهِيَ الَّتِي إِنْ حُوْطِبَتْ لَمْ تَسْمَعِ
سَفَهُهُ وَقُوفُكَ فِي رُسُومِ رَثَّةٍ (2)
عَجَمَاءَ لَا تَدْرِي الْكَلَامَ وَلَا تَعِ (3)
لُدُّ بِالْوَزِيرِ ابْنِ الْوَزِيرِ فَإِنَّمَا
تَأْوِي إِلَى الْكَنْفِ الْأَعَزِّ الْأَمْنَعِ (4)
مَلِكًا (5) رَقَى دَرَجَ الْفَخَارِ فَلَمْ يَدَعْ
فِيهَا لِرَاقٍ بَعْدَهُ مِنْ مَطْمَعِ
وَتَنَاوَلَتْ (6) كَفَاهُ أَشْرَفَ رُثْبَةٍ
لَوْ قَامَ يَلْمُسُهَا السُّهَى (7) لَمْ يَسْطَعِ

- (1) الأربيع: مفردهما «الربيع»، وهو المنزل أو الوطن. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ر، ب، ع)، 102/8.
- (2) رَثَّةٌ: قديمة. ابن منظور، م. ن.، مادة: (ر، ث، ث)، 151/2.
- (3) لا تع: الصحيح «لا تعي» لأن لا نافية لا عمل لها.
- (4) الأمتنع: كنف الأعز، الأمتنع ابن الأمتنع. ابن معصوم، السلافة، ص 49.
- (5) مَلِكًا: جاء في كتاب نفحة الرياحانة للمحبي «مَلِكًا». وأرى أن الصواب مَلِكٌ بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، وأن توجيه رواية النصب كما جاء في الديوان فهي على تقدير الفعل المحذوف «أخص».
- (6) وتناولت: في أعيان الشيعة «وتناولت» بدلاً من تناولت.
- (7) السهَى: السها كويكب صغير خفي الضوء، ابن منظور، م. س.، مادة: (س، هـ)، 408/14، (ا).

أَنْدَى مِنَ الْغَيْثِ الْمُلْتِّ⁽¹⁾ إِذَا اجْتُدِي
أُحْمَى مِنَ اللَّيْثِ الْهَزْبِرِ⁽²⁾ إِذَا دُعِي

ويذكر شجاعة الوزير إذ قال:

التَّارِكُ الْأَبْطَالَ صَرَعَى فِي الْوَعَى
فَكَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِ⁽³⁾
يَدْرُ الْجَمَاجِمَ فِي الْمَكْرِّ سَوَاقِطًا
سَقَطَ الثَّمَارِ مِنَ الْمَهَبِّ الرَّعْزَعِ⁽⁴⁾

وأخذ يستطرد في ذكر صفات الوزير إلى أن ختم القصيدة بمدحه لنفسه، جرياً على عادة المتنبي في قصائده حينما يقف أمام ممدوحيه: إذ قال:

مِنَ شَاعِرٍ دَرَبِ اللِّسَانِ مُفَوِّهِ
طَبُّ بَتْرَكِيْبِ الْقَوَافِي مُصْقِعِ
فَاضْمٌ عَلَيْهِ يَدِيكَ تَحْظُ بِأَحْرِ
أُدْكَى مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَبْرَعِ
فَلِيَسْمَعَنَّكَ إِنْ بَقِيَ لَكَ بَعْدَهَا
مَا تَسْتَبِينُ لَدَيْهِ ذُلُّ الْأَشْجَعِ⁽⁵⁾

(1) الملتئ: المتتابع، ابن منظور، م. ن، مادة: (م، ل، ث)، 192/2.

(2) الليث الهزبر: الأسد الضخم، ابن منظور، م. ن، مادة: (هـ، ز، ب، ر)، 262/5.

(3) منقع: المنقلع من أصله، ابن منظور، م. ن، مادة: (ن، ق، ع)، 358/8.

(4) الززعع: الزرععة تحريك الشيء ومعناه حركه ليقلعه، ابن منظور، م. ن، مادة: (ز، ع، ز، ع)، 141/8.

(5) الأشجع: هو أشجع بن عمرو السلمي (811/195)، شاعر فحل كان معاصراً لبشار. ولد باليمامة، ونشأ في البصرة، وانتقل إلى الرقة، واستقر ببغداد. مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه للرشيدي، فأعجب الرشيد به. انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 758/2. وانظر: الديوان، ص74.

وقد وصف صاحب سلافة العصر هذه القصيدة بأنها من بديع
قصائده⁽¹⁾ سنة (1593/1002) وفي السنة الثانية مدحه بقصيدة
يستنجده ويستصرخه لنجدة بلاده القطيف لما عاث فيها الأجنبي
الفساد، والظلم.

وقال مهنتاً الوزير بمولود له وأنشده إياها بعيد الفطر في
سنة (1600/1009) قال فيها:

[مِنَ الخفيف]

مَا تَرَى الدَّهْرَ كَيْفَ رَقَّتْ⁽²⁾ لِيَالِيهِ
هُ فَشَقَّتْ⁽³⁾ عَنْ أَوْجِهِ الأَفْرَاحِ
كَفَلَا بِالضِّيَاءِ حَتَّى أَعَادَا الـ
لَيْلِ أبْهَى مِنْ مُسْتَنِيرِ الصَّبَاحِ

إلى أن قال:

كِسْرَوِي العِدَالَةَ اسكَنْدَرِي أَلـ
فَتَحِ والعَزْمِ رُسْتَمِي الكِفَاحِ
مَا شَكَى الحَيْفُ⁽⁴⁾ عِنْدَهُ أَعَزَلَ النُّصـ
رَةَ إِلَّا وَعَادَ شَاكِي السَّلَاحِ⁽⁵⁾

وكذلك قوله:

[مِنَ البسيط]

إِنَّ الوَزِيرَ أَدَامَ اللّهُ دَوْلَتَهُ
لِوَاحِدٍ مَا لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ ثَانِ

(1) ابن معصوم، سلافة العصر، ص 29.

(2) الفعل «رقت» ورد في كتاب أعيان الشيعة «راقت» بدلاً من «رقت».

(3) فشقت: وردت هذه الكلمة في الأعيان «فشقت».

(4) الحيف: الميل في الحكم، والجور الظلم، ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح، ي، ف)، 60/9.

(5) الديوان، ص 19 - 20.

أَهَابَ بِي جُودُهُ مِنْ بَعْدِ مَا وَقَرَّتْ

عَنْ اسْتِمَاعِ مُنَادِي الْعُرْفِ آذَانِي (1)

وَمِنْ الْمَلَاظِحِ أَنَّ قِصَائِدَ الشَّاعِرِ الْمَدْحِيَّةِ الْأَرْبَعِ السَّابِقَةَ قَدْ التَزَمْتَ الشَّكْلَ التَّقْلِيدِيَّ لِلْقَصِيدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، مِنْ حَيْثُ الْوُقُوفُ عَلَى الْأَطْلَالِ، إِلَى الْغَزْلِ، إِلَى الْوَصْفِ، ثُمَّ الْإِنْتِقَالَ إِلَى غَرَضِ الْقَصِيدَةِ الْأَصْلِيِّ؛ وَهُوَ الْمَدْحُ.

ويبدو لي أنه لولا قصائد الشاعر الخطي لضاعت ملامح شخصية هذا القائد الكبير، إذ لم أجد له ترجمة في أي كتاب من كتب التاريخ العام ولا آخر من كتب التراجم.

3. علاقته بالسيد عبد الرؤوف الحسيني

وممن اتصل بهم شاعرنا الشيخ جعفر الخطي في البحرين، وكانت له معهم علاقة وثيقة السيد عبد الرؤوف الحسيني (2)، إذ كما يبدو مما تضمنه الديوان أن علاقته بالسيد المذكور بدأت منذ السنوات الأولى من قدومه إلى البحرين. ومن دلائل هذه الصلة المتينة بينهما اصطحاب السيد للشاعر في سفراته إلى شيراز وأصفهان، كما أن شاعرنا كُلف من قبل السيد عبد الرؤوف أن ينظم على لسانه قصيدة في الأمير الشريف السيد بدر ابن السيد

(1) الديوان، ص 117.

(2) هو أبو جعفر السيد عبد الرؤوف بن الحسين الجدحفصي ابن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن إسماعيل بن علي بن الحسين بن موسى بن إبراهيم المجاب ابن الإمام موسى الكاظم. أسرته من سادات البحرين المعروفين بالوجاهة العلمية والاجتماعية في القرن العاشر الهجري/الخامس عشر الميلادي وما تلاه من القرون. وهو من عظماء البحرين في عصره. فكان قاضي القضاة فيها، توفي سنة (1597/1006) وقيل (1607/1016) على رواية أخرى. انظر: البلادي، أنوار البدرين، ص 102؛ الطهراني، الذريعة، 685/9؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، 459/7؛ جواد

شبر، أدب الطف، 61/5 - 67. (3)

مبارك خان⁽¹⁾ وكان بينه وبين السيد عبد الرؤوف من روابط المحبة، وأواصر الصحة ما يوجب ذلك فنظم قصيدة سنة (1599/1008) مطلعها:

[مِن الطويل]

إلى المَلِكِ الوَهَّابِ مَا فِي يَمِينِهِ
وَلَكِنَّهُ بِالْعَرَضِ جِدُّ بَخِيلُ
يَمُتُ إِذَا اسْتَنْسَبَتْهُ بِأَبْوَةٍ
تَمُدُّ بِبَاعٍ فِي الْفَخَارِ طَوِيلِ⁽²⁾

وكان للشريف العلوي أبي جعفر عبد الرؤوف الحسيني من حسن الصنيع لدى الخطي ما يوجب الشكر فقال يشكره، ويثني عليه ويعتذر إليه من تأخير مدحه سنة (1600/1009) مطلعها:

[مِن الكامل]

حَتَّامَ أَمَطَلُ سَيِّدِي شُكْرَ الْيَدِ
وَأِلَامَ يمهَلِنِي التَّقَاضِي سَيِّدِي
فَلَأَشْكُرَنَّ لَهُ وَأَشْكُرُ بَعْدَهُ
دَهْرًا أَرَانِيهِ وَبَلَّ بِهِ يَدِي⁽³⁾

كما أشار صاحب أنوار البدرين إلى «أن الخطي كان مصاحباً للسيد عبد الرؤوف الحسيني - قاضي القضاة - وأبنائه بعده،

(1) هو السيد بدر ابن السيد مبارك خان ابن السيد عبد المطلب المشعشي. كان حياً سنة (1651/1024). وهو من أهل بيت جليل منهم الأمراء والحكام والعلماء، ويعرفون بالمشعشعيين وبالموالي وبحكام الحويزة. كانوا حكامها من قبل ملوك إيران الصفوية. والمترجم كان حاكماً في الدورق في أوائل المائة الحادية عشرة. وهو بلد بخوزستان. انظر: محسن الأمين، م. س، 546/3.

(2) الدِّيوان، ص98.

(3) م. ن، ص27؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، 4 / 159.

وله فيهم المدائح والمراثي، ويصحبهم في أسفارهم إلى شيراز وأصفهان»⁽¹⁾

ويمكننا القول إن الخطي كان صديقاً محبباً صادقاً في حبه، وصدافته، حتى لقد كانت وفاة السيّد فاجعة قصمت ظهره وأطارت عقله، فرثاه بقصيدة رائعة، أنشدها في اليوم السابع لرحيله. وهي تنبئ عن عمق العلاقة بينهما. منها:

[مِنَ الكامل]

يَا فَجَعَةً مَلَأْتُ صُدُورَ أَوْلِي النُّهَى
حُزْنًا يَدُكَ شَوَامِخُ الْأَطْوَادِ⁽²⁾
أَوْسَعَتْ أَجْفَانُ البُكَاءِ مَدَامِعًا
وَأَعَصَّتِ مَاءَ البَحْرِ ذِي الْأَزْبَادِي⁽³⁾

4. علاقته بالسيّد ماجد الصادقي

ولم تقتصر علاقة أبي البحر الخطي بالسيّد عبد الرؤوف، بل امتدت إلى عالم البحرين وأديبها السيّد ماجد الجدحفصي البحراني⁽⁴⁾. إذ ارتبط به شاعرنا الخطي بصدّاقة مخلصّة «وهو العالم

(1) علي البلادي، أنوار البدرين، ص289.

(2) الأطواد: الجبال العظيمة. ابن منظور، لسان العرب، مادة (ط، و، د)، 270/3.

(3) الديوان، ص39؛ البلادي، م. س، ص105؛ جواد شبر، أدب الطف، 5/ 67.

(4) هو السيّد ماجد البحراني أبو علي بن هاشم بن علي بن المرتضى بن علي بن ماجد الحسيني البحراني الجدحفصي، نسبه يؤول إلى النبي، نشأ بالبحرين، وولي بها القضاء، ثم انتقل إلى شيراز، فطالت به على العراق، والحجاز، ولُقّب بالجدحفصي بتشديد الدال مأخوذة من جدحفص وهي قرية من قرى البحرين - وكان محققاً، شاعراً وأديباً. وهو أول من نشر الحديث في شيراز، وله مصنّفات منها: «سلاسل الحديد» و «الرسالة اليوسفية». توفي بشيراز سنة (1618/1028) وهي السنة نفسها التي توفي فيها الشاعر الخطي.

انظر: ابن معصوم، سلافة العصر، ص85؛ المحبي، نفحة الريحانة، 3/ 186؛ =

الأديب الذي اختص به وحصلت بينهما الألفة، والمودة وجمعتهما رابطة الأدب. ومطارحاتها ومساجلاتها الارتجالية المدرجة في الديوان تدل على ما للسيد المذكور من رسوخ قدم وعلو كعب في الأدب والشعر»⁽¹⁾.

وأشار البحراني في لؤلؤته أن «له مع أبي البحر الخطي صداقة واتحاداً ومجاراة في الشعر»⁽²⁾.

وكانت حصيلة اجتماعهما مجالس فن، وأدب، ومساجلات، ومطارحات أدبية ومن مساجلاتهما الشعرية ما ورد في الديوان. منها ما قاله الخطي: «كنت عنده ليلةً والسماء دكناء الجلباب كاسية السحاب فأخذ في الأدب فقلت:

[من الوافر]

تَوَشَّحَتِ السَّمَاءُ بِبُرْدِ غَيْمٍ
فَأَجْمِلْ بِالْمُوشِحِ وَالْوَشَّاحِ
فقال الشريف العلامة:
فَقُمْ وَأَنْهَضْ إِلَى فُرْصِ التَّصَابِي
فَلَيْسَ عَلَيْكَ فِيهَا مِنْ جَنَاحِ
إلى آخرها...⁽³⁾.

ولعمق العلاقة بينهما نقتطف شيئاً مما قاله الشاعر جعفر الخطي في السيد ماجد الصادقي:

= الخوانساري، روضات الجنات، 6/ 72.

(1) خالد الفرغ، «الشاعر المغمور»، المنهل، ص 94.

(2) يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص 136.

(3) الديوان، ص 21؛ ابن معصوم، سلافة العصر، ص 544؛ يوسف البحراني، الكشكول، ص 182؛ البلادي، أنوار البدرين، ص 293. كلمة «فُرْص» لا تناسب المعنى، والصحيح «فُرْص».

[مِنَ البسيط]

أَهْدِي ثَنَاءَ مَتَى فَصَّتْ لَطَائِمَهُ
صَاعَتَ فَصَّاعَ ذَكِيِّ الْمِسْكِ وَالْعُودِ
لِسَيِّدٍ لَوْ دَعَتْنِي بَعْضُ أَنْعَمِهِ
لَشُكْرِهَا ضَاقَتْ عَنْهُ وَسِعَ مَجْهُودِي⁽¹⁾

ولسنا ندري كثيراً من تفاصيل تلك الصداقة التي ربطت بين الشاعر، والسيد ماجد، غير أننا نعلم أنها مخلصه، وعميقة يعبر عن مداها شاعرنا الخطي بقوله:

[مِنَ الخفيف]

قُلْ لِكَنْزِي فِي النَّائِبَاتِ وَذُخْرِي
وَجَمَالِي بَيْنَ الْأَنْامِ وَفَخْرِي
وَلِسَانِي الَّذِي أُرِيقُ إِذَا مَا
جَمَدَ الْقَوْلُ مِنْهُ نَظْمِي وَشِعْرِي⁽²⁾

والشاعر جعفر الخطي في مدحه وعلاقته بالشخصين السابقين «السيد عبد الرؤوف الحسيني، والسيد ماجد الصادقي» لا يثبت عليه صفة التكبس⁽³⁾، وإن كان يستعين بهما أحياناً في حل أزماته المالية. لقد كانت علاقته بهما علاقة، صداقة وعلم وأدب، وكان ملازماً لهما، ولأفراد عائلتيهما، وله فيهما المدائح، والمراثي، وأحسب أن السبب في ذلك أنهما كانا من وجوه العلويين في البحرين، لهذا اتصل بهم جميعاً لأنهم أصحاب علم وأدب. وهو في مدحه لهم إنما

(1) الديوان، ص 32.

(2) م. ن، ص 55.

(3) لقد ذهب شوقي ضيف إلى اتهام الشاعر بالتكبس بشعره، ولم يكن مصيباً في قوله، إذ لم يثبت في سيرته أنه من ذوي التكبس بشعره. انظر: شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 133.

يمدح آل البيت في أشخاصهم. ولعلّ الذي جمع أبا البحر بالسيّدين هو حب العلم، والرغبة فيه، فتولّدت الألفة وحسنت الصّحة بينهم. وقال في مكانٍ آخر:

[مِنَ الخفيف]

طَوْدٌ حِلْمٍ خِصْمٌ عِلْمٍ لَطَى فَهْ
 مِ صَحَى شُهْرَةَ يَلْنَجُوجُ⁽¹⁾ ذِكْرِ
 الشَّرِيفُ الَّذِي أَرَانَا بِرَاضِي
 هَدْيِهِ سِيرَةَ النَّبِيِّ الطُّهْرِ⁽²⁾

5. علاقته بالسيد جعفر بن عبد الرؤوف الحسيني

وَمَنْ كَانَ عَلَى صِلَةِ بِهِمْ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ فِي الْبَحْرَيْنِ السَّيِّدُ
 جَعْفَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّوُوفِ الْحُسَيْنِيِّ⁽³⁾ وَفِي حَدِيثِ الْبِلَادِيِّ عَنِ السَّيِّدِ
 قَالَ: «كَانَ شَيْخَ الْإِسْلَامِ بَعْدَ أَبِيهِ، كَمَا إِنَّ شَاعِرَنَا الْخَطِيَّ كَانَ مِنْ
 الْمُقَرَّبِينَ لَهُ، وَكَانَ يَصْحَبُهُ فِي أَسْفَارِهِ إِلَى شِيرَازَ وَغَيْرِهَا. وَلَهُ فِيهِ
 مَدَائِحُ كَثِيرَةٌ. وَمِنْ هَذِهِ الْمَدَائِحِ مَا قَالَهُ فِي قَصِيدَتِهِ الرَّائِيَةِ الَّتِي
 أَنْشَدَهَا فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ لِرَحِيلِ وَالِدِهِ»⁽⁴⁾:

(1) اليلنجوج: هو عودٌ يُتَبَخَّرُ بِهِ وَكَذَلِكَ يَلْنَجُجُ وَالنَّجَجُ. الجوهري، الصّاح، مادة (ل، ج، ج)، 355/2.

(2) الدِّيوان، ص55.

(3) هو السيد جعفر بن عبد الرؤوف الحسيني، أبو عبد الله ابن قاضي القضاة السيد عبد الرؤوف بن الحسين الحسيني الموسوي الجدحفصي. وُلِّيَ مَنْصِبَ والده في القضاة بعد رحيل والده. وهو من علماء القرن الحادي عشر الهجري/السادس عشر الميلادي. من بيت علم ووجاهة، وأدب وفضل. البلادي، أنوار البدرين، ص 105؛ جواد شبر، أدب الطف، 67/5؛ النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية، 445/1.

(4) البلادي، م. س.، ص105.

[مِنَ الكَامِلِ]

فَلَمَّ مَضَى عَبْدَ الرَّؤُوفِ لِشَأْنِهِ
وَالْمَوْتُ لِلْأَحْيَاءِ بِالْمِرْصَادِ
فَلَقَدْ أَقَامَ لَنَا إِمَامًا هَادِيًا
يَقْفُوهُ فِي الإِصْدَارِ وَالْإِيرَادِ
يَزْهُو بِهِ دَسْتُ الْقُضَاةِ كَأَنَّهُ
بَدْرٌ تَعَرَّى عَنْهُ جُنْحُ الْهَادِي (1)

6. علاقته بالسيد جعفر بن عبد الجبار الحسيني

ونشأت صداقة وثيقة بينه وبين السيد جعفر بن عبد الجبار الحسيني (2) وهو الذي أمر راوية الشاعر الخطي الحسن بن محمد الغنوي بجمع ديوانه. وهذا يدل على أن السيد في موقع يؤهله أن يأمر ويطاع (3). وقال فيه شاعرنا مهنتاً، ومادحاً ومعاتباً ومن ذلك ما قاله مهنتاً له بزفافه:

[مِنَ البَسيطِ]

هُنَاكَ رَبُّكَ مَا أَوْلَاكَ مِنْ نَعَمٍ
يَا خَيْرَ مَنْ أَنْبَتَتْ جُرْثُومَهُ الْكِرَمَ (4)

(1) الدِّيوان، ص41.

(2) هو السيد جعفر ابن السيد عبد الجبار بن الحسين الحسيني الموسوي البحراني، والده السيد عبد الجبار بن الحسين التوبلي، أخو العلامة قاضي القضاة في البحرين السيد عبد الرؤوف بن الحسين الحسيني الجدحفصي. وكانت وفاته بعد أخيه المذكور بمدة يسيرة، البلادي، أنوار البدرين، ص105؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، 4/114.

(3) الحسن بن محمد بن ناصر بن علي بن غنيّة، ويُلقَّب بالغنوي نسبة إلى عائلته؛ وهو راوية الشاعر ومنشده وصديقه. وهو شاعر أيضاً وقد احتوى الدِّيوان على بعض من شعره، وهو كاتب مقدمة الدِّيوان.

(4) الدِّيوان، ص105.

وقال في مدحه أيضاً:

[مِنَ الكَامِلِ]

العَالِمُ العَلَمُ البَعِيدُ المُرْتَقَى
وَالْمَوْرِدُ العَذْبُ وَالْقَرِيبُ المُسْتَقَى
شَمْسُ العُلَا نَجْمُ الهُدَى طَوْدُ النُّهَى
بَحْرُ النَّدَى رُكْنُ الرَّجَا كَنْزُ التُّقَى (1)

7. علاقته بالسيد ناصر بن سليمان القاروني

كان أبو البحر الخطي ذا علاقة حميمة مع السيد ناصر بن سليمان القاروني (2) ولكننا في الواقع لا نملك شيئاً من تفاصيل هذه العلاقة، ولم تذكر لنا المصادر شيئاً ذا أهمية عن مضمون تلك العلاقة. إلا أننا نستلهم شيئاً منها من خلال قصائد الشاعر الثلاث التي لا يخفى على قارئها مدى حب الشاعر للممدوح وإخلاصه إليه. فقد قال أبو البحر الخطي في السيد ناصر معاتباً، وشاكراً، ومادحاً. ومما قاله في شكره:

[مِنَ البَسِيطِ]

لَقَدْ رَفَعْتَ أَبَا (حَسَّانَ) مَنزِلَةً
شَمَاءَ يَخْسَأُ عَن إدْرَاكِهَا البَصْرُ

(1) الديوان، ص 80.

(2) هو السيد ناصر بن سليمان الشهير بالقاروني، وذكر صاحب السلافة بأنه فاضل عالم، أديب شاعر. وأسرة (آل قارون) من الأسر العلمية العريقة في البحرين، كانت وفاته عام (1011 / 1602). وقال شاعرنا الخطي في عائلته: آل قَارُونَ لَا كَبَا بِكُمْ الدَّهْرُ رُوًى وَلَا زَلَيْتُمْ رُوًوسَ الرُّؤُوسِ المحبي، نفحة الريحانة، 3 / 199؛ ابن معصوم، سلافة العصر، ص 514؛ البلادي، أنوار البدرين، ص 107؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، 134/2؛ النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية، 1 / 580.

لَوْلَا تَقَدَّمَ آبَاءٌ تَمَّتْ بِهِمْ
لَكُنْتَ أَكْرَمَ مَنْ أَوْلَى بِهِ مُضْرٌ
فَشَكَرَهُ لَكَ مَوْضُولٌ يَمُدُّتَهُ
لَا يَنْتَهِي الشُّكْرُ حَتَّى يَنْتَهِيَ العُمُرُ⁽¹⁾

وأعتقد أنَّ صلة أبي البحر الخطي بالسيّد ناصر كانت قبل عام (1593 / 1002)، إذ إن أبا البحر عاتب السيّد بقصيدة تنبئ عن مدى العلاقة الحميمة بينهما عام (1593/1002). كما أنَّ للشاعر قصيدة رثاء في أخ الممدوح⁽²⁾، وكانت عام (1599/1008)، وهذه دلالة واضحة على استمرارية هذه العلاقة بين الشاعر وعائلة آل قارون في البحرين.

8. علاقته بإبراهيم بن محمد الخواجه البحراني

واتصل أبو البحر جعفر الخطي بإبراهيم بن محمد الخواجه البحراني⁽³⁾، وكانت بينهما وبين الشريف ناصر بن عبد الجبار بن الحسين العلوي الموسوي من الألفة، والصحة، والأنس، والخلطة⁽⁴⁾. ولقد ربطت الصداقة بينه وبين الخواجه إبراهيم برباط وثيق، تدل عليه هذه الأبيات التي قالها في مدحه بمقرنة بصديقهما ناصر الموسوي. منها:

[مِنَ الكامل]

لِي إِنْ تَحَامَا نِي أَخٌ وَحَمِيمٌ
أَخْوَانٍ فَضْلُهُمَا عَلَيَّ عَظِيمٌ

(1) الدِّيوان، ص46.

(2) الدِّيوان، ص84.

(3) هو الخواجه إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن تقي، كاتب السلطنة بأوال من بلاد البحرين ويصفونه بالمنشئ الصغير، والخطاط القدير. الدِّيوان، ص106؛ محمد الديهي، موسوعة شعراء البحرين، 35/1.

(4) الدِّيوان، ص106.

كَهْفَانَ آوِي فِي الْخُطُوبِ إِلَيْهِمَا
 وَعَلَى النَّصِيرِ يُعَوَّلُ الْمَظْلُومُ
 رُكْنَانِ ظَهْرِي إِنْ تَمَطَّى حَادِثٌ
 لِيُطِيحَنِي بِهِمَا مَعَاً مَدْعُومٌ⁽¹⁾

9. علاقته بالسيد خلف بن عبد المطلب ملك الدورق

واتَّصل الخَطِّي بالسيد خلف بن عبد المطلب⁽²⁾ ملك الدورق⁽³⁾ وتبيَّن العلاقة بينهما من خلال حادثة سمل عينيه من قبل أخيه. ويذكر محسن الأمين في أعيانه نقلاً عن الديوان: «أنه قبل حدوث تلك المصيبة عليه من سمل عينيه أرسل إلى الخطي البحراني عدة كتب يستقدمه إليه فأجابه يعتذر إليه عن التوجه بشعر على طريقة أهل تلك الأطراف يُسمى «المواليا»⁽⁴⁾. فلما جرى عليه ذلك كتب إلى الخطي من الهند جان يشكو ما جرى عليه، ويستقدمه إليه ويعاتبه في عدم تعزيتة عما جرى عليه، فعرض للخطي السفر

(1) الديوان، ص 106.

(2) هو السيد خلف بن عبد المطلب، ويقال ابن مطلب بن حيدر ابن السلطان محسن بن محمد الملقب بالمهدي ابن فلاح الموسوي المشعشي الحويزي والي الحويزة والدورق توفي سنة (1074 / 1663) والمشعشي نسبة إلى أحد أجدادهم الملقب بالمشعشع بلفظ اسم المفعول. و(الحويزي) نسبة إلى الحويزة بالتصغير اسم للقطر واسع قصبته تسمى الحويزة. انظر: محسن الأمين، أعيان الشيعة، 6 / 331؛ جواد شبر، أدب الطف، 5 / 134.

(3) كان أبوه ملك الدورق من قبل ملوك إيران الصفوية، ثم ملكها بعده أخوه السيد مبارك ابن السيد عبد المطلب فاتهم أخاه حلفاً بأنه يريد الاستيلاء على ملكه. فسمل عيني أخيه خلف جرياً على تلك العادة السيئة التي كان يستعملها الأمراء، والملوك في أقربائهم الذين يخافون منهم على ملكهم وفي غيرهم من الذين لا يريدون قتلهم فانتقل خلف إلى الهند جان من أرض فارس، وكان ذلك سنة 1604/1013. محسن الأمين، م. س.، 6/331.

(4) المواليا: الموال.

إلى فارس، فأنشأ قصيدة واستصحبها معه فالتقيا بشيراز فأنشده إياها وذلك سنة (1607/1016). والقصيدة من ستة وخمسين بيتاً مطلعها :

[مِنَ الطويل]

أَبَا هَاشِمٍ أَنُهَي إِلَيْكَ تَحِيَّةً
يُجِيئُكَ رِيَّاهَا بِرَائِحَةِ الْعِطْرِ⁽¹⁾

10. علاقته ببهاء الدين العاملي

سافر الشاعر الخطي إلى فارس سنة (1607 / 1016). ولما دخل أصفهان اجتمع بإمام عصره بهاء الدين العاملي⁽²⁾، ورأى الشاعر من البهائي احتفاء يليق وشأنه. فعرض عليه أدبه، ثم اقترح عليه الشيخ البهائي مجارة قصيدته المسماة «بروح الجنان في مدح صاحب الزمان». التي مطلعها:

[مِنَ الطويل]

سَرَى الْبَرْقُ مِنْ نَجْدٍ فَهَيَّجَ تَذْكَارِي
عُهُوداً بِحَزْوَى وَالْعَذِيبُ وَذِي قَارِي⁽³⁾
فنظم الخطي في الوقت نفسه قصيدة طويلة أولها:

(1) الديوان، ص59.

(2) الشيخ البهائي: هو بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمداني، من أكبر علماء القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وأشهرهم. ولد سنة (1546 / 953) ببعلبك، وانتقل به والده إلى إيران فنزل أصفهان. وولاه الشاه عباس الصفوي رئاسة العلماء، فأقام مدة ثم سافر إلى مصر وزار القدس ودمشق وحلب وعاد إلى أصفهان، توفي بأصفهان سنة (1621 / 1031). المحبي، خلاصة الأثر، 3/440؛ الخوانساري، روضات الجنات،

54/7؛ الزركلي، الأعلام، 6/334 - 335؛ جواد شبر، أدب الطف، 5 / 95 - 97.

(3) حزوى بالحاء المهملة والعذيب بالعين المهملة أيضاً وذو قار كلها مواضع في جزيرة العرب. الديوان، ص63.

[مِنَ الطويل]

هِيَ الدَّارُ تَسْتَسْقِيكَ مَدَمَعَكَ الجَارِي

فَسَقِيًّا فَأَجْدَى الدَّمْعَ مَا كَانَ لِلدَّارِ (1)

وهنا - كما يبدو - اختبار لشاعرية أبي البحر الخطي، نتج عنه إعجاب بالشاعر وبشعره أيما إعجاب ومن ثم أجازه.

أما القصيدة فهي طويلة (2)، مدح فيها الشيخ البهائي وقبيلته من همدان، ثم انتقل إلى الإمام المهدي بن الحسن آخر الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية (3).

وألفت المودة بينهما حتى لنحس بأنه محاط برعاية، وحفاوة بالغتين ويظهر ذلك جلياً فيما مدحه به من شعر.

هذه هي الصداقات التي استطعنا العثور على أشخاصها بين أبي البحر ومعاصريه، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على سعة صداقاته التي شملت عليّة القوم من أصحاب السلطة، وعلماء وأدباء المنطقة التي عاش فيها والبلاذ التي زارها واستقر فيها. كذلك هي تدل على نوع هؤلاء الأصدقاء الذين أحب أن يرتبط بهم، وكلهم، كما رأينا، من الوجهاء والعلماء والأدباء المرموقين.

(1) الديوان، ص63؛ يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص136، 137.

(2) وفي أنوار البدرين: أنه لما اقترح البهائي عليه معارضته قال له: «قد أجلتك شهراً فقال له الشيخ جعفر: يوماً بل في مجلسي هذا، واعتزل ناحية في المجلس، وأنشأها ارتجالاً. فلما أتمها وأنشدها راويته وجامع ديوانه (الغنوي) وقعت عند الشيخ البهائي موضع القبول... انظر: البلاذري، أنوار البدرين، ص290، 291.

(3) الشيعة الإمامية: هم القائلون بإمامة علي بن أبي طالب بعد النبي نصاً ظاهراً وتعييناً من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين، وهي فرقة من فرق الشيعة ومن عقائدهم عصمة الأئمة، ويُعرفون أيضاً بالاثني عشرية نسبة إلى اعتقادهم باثني عشر إماماً. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، 1 / 163 وما بعدها.

على أنه لا تزال هناك بعض الأسماء مما ورد ذكرها في شعر أبي البحر لم نستطع العثور على ترجمة وافية لها. وهذه الشخصيات بعضها مهم - حسب اعتقادي - ولكن المصادر التي بين أيدينا لم تذكر شيئاً ذا بالٍ بصدها رغم ما قمنا به من محاولات دائبة للكشف عنها.

ب - رحلاته

لقد ابتعد أبو جعفر الخطي عن وطنه لا حباً بالغربة، ولا قلى للأوطان، بل بسبب الاضطرابات، والقلقل السياسية مضافاً إليها النعرة الطائفية التي أثارها الأتراك في بلده لسوء العلاقة بينهم، وبين الدولة الصفوية. فلم تعد الحياة تحلو لمثله وأظن أنه كان يعيش حالة اغتراب مع واقعه المعاش إذ إنه لم يكن قادراً على التكيف مع ذلك الواقع ولم يكن بوسعته تغييره، لذلك رحل من القطيف برفقة أميرها وشيخها من آل مقلد تعبيراً عن عدم رضاه لما يحدث، وابتعاداً عن الضيم، والذل، وطلباً للحرية، قاصداً البحرين وطالباً الملاذ من وزيرها ركن الدين محمود الذي أحسن وفادته وقرّبه مما حدا بالشاعر إلى مدحه.

والشاعر نفسه يؤكد ذلك بقوله:

[مِنَ الكامل]

يَا مَنْ يَقْرُ مِنْ الْخُطُوبِ وَصَرَفَهَا
 إِنِّي أَرَاهُ يَفِرُّ عَنْهَا يُتْبِعُ
 لُدُّ بِالْوَزِيرِ ابْنِ الْوَزِيرِ فَإِنَّمَا
 تَأْوِي إِلَى الْكَنْفِ الْأَعَزِّ الْأَمْعِ⁽¹⁾

وكانت أولى رحلاته خارج بلده القطيف إلى البحرين سنة

(1) الديوان، ص 73.

(1590/ 999) برفقة سادة بلده وشيوخها. ومكث في البحرين فترة من الزمن، وهو يرقب ما يحدث في بلده من ثورة عارمة قام بها أهالي الأحساء، والقطيف، ولم يعد إليها إلا بعد أن تخلصت من السيطرة التركية سنة (1598/1007) وقال في هذه السنة وهو في القطيف معترفاً بعد أن عوتب من قبل أحد أصدقائه: منها:

[مِنَ الخفيف]

فَلَعَمْرِي لَقَدْ مُنِيتُ بِأَمْرٍ
شَابَ رَأْسِي لَهُ أَوَانَ شَبَابِي
قَسَمًا بِالرَّكَابِ تَهْفُو إِلَى الْبَيْتِ
سِتِ بَرَكِبِ تَرَاهُقُوا لِلشَّوَابِ
حَلْفَةً إِنْ كَذَبْتَ فِيهَا رَمَانِي الـ

لَّهُ مِنْ عِنْدِهِ بِسَوِّطِ عَدَابِ (1)

وبقي الشاعر يتردد على القطيف حتى أحكم الأتراك قبضتهم عليها وغادرها بهمومه وأحزانه قاصداً البحرين مكان هجرته الأولى، التي استوطنها وأصبحت ملاذه، واتخذ من أهلها أحبباً له تلك البلد التي أكسبته التعرّف على رجال العلم، والأدب والتردد على مجالسهم مع نخبة من الشعراء والأدباء والعلماء. لهذا نستطيع القول إن الخطي لم يكن بمعزل عن الحركة الأدبية السائدة في البحرين آنذاك.

ومكّنه شعره من أن يفد على وزرائها وقضاتها، وتكوين صلات متينة معهم - كما مرّ بنا سابقاً - ويبدو من ذلك أن أبا البحر الخطي عاش أسعد أيامه في ربوع البحرين.

وهو يقول حينما ابتعد عنها متوجهاً إلى خُراسان سنة (1603/1012):

(1) الديوان، ص 11.

[مِنَ الرَّجْزِ]

لَا تَحَسَبُ الْبَحْرَيْنِ أَنِّي بَعْدَهَا
مُسْتَوْتِوْطُنُّ دَارًا وَلَا أَصْحَابَهَا
مَا أَصْبَحَتْ شِيرَازُ وَهِيَ حَيْبَةُ
عِنْدِي بِأَبْهَجٍ مِنْ أَوَالِ جَنَابَا⁽¹⁾

ويشير خالد الفرج في دراسته إلى أن أبا البحر أقام في (أوال) مدة من الزمن إلى أن افتتحها العجم بقيادة الأمير كمال الدين بن يحيى الكردي الفيروز آبادي حوالي سنة (1601/1010) بعد أن أوقفوا متحدين مع الإنجليز والبرتغاليين وأخرجوهم من موانئ الخليج، ومنها البحرين.

فذهب أبو البحر صحبة الوفد الذي توجه إلى شيراز العاصمة فطاب له المقام هناك ولا نعلم السبب لكنه يفسر ذلك بقوله:
[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِلَادٍ أَقَامَ الْقَلْبُ فِيهَا وَلَمْ يَزَلْ
وَإِنْ طَمَحَتْ بِالْجِسْمِ عَنْهَا طَوَامِحُهُ

فطوامح الجسم على ما يبدو وهي الداعي الوحيد لإقامته هناك، وليس ثمة إلا المادة فنظن أنه وجدها هناك أدرك عليه وأوفر⁽²⁾.

أمَّا السيّد العوامي فيبين كيفية وصول شاعرنا الخطي إلى الشيخ البهائي والشاه عباس الصفوي بقوله: «إن الخطي خطب ودّه أمراء الحويزة المشعشعيون (آل المشعشع) فتوطدت صلته بهم، وقد أوصلته هذه الصلة إلى الشيخ البهائي، ثم إلى الشاه عباس الأول الصفوي الملقب بالكبير وعن طريق هذه الصلات أفاد وجهاء

(1) الدِّيوان، ص8.

(2) خالد الفرج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص95.

البحرين في الاستعانة بالشاه عباس في إجلاء البرتغاليين من البحرين سنة (1602/1011)، إذ رافقهم في رحلة طويلة إلى «شماخي» حيث يقيم الشاه»⁽¹⁾.

ويشير المسلم⁽²⁾ إلى أن الخطي اجتمع في شيراز بالشيخ البهائي، ثم ذهب إلى أصفهان لمقابلة الشاه، فأخبر بأنه في إقليم الكرج، فذهب إليه واجتمع به في مدينة شماخة، ولم يعرف ماذا تم في المقابلة. ولكن كما يبدو أن مهمة الوفد هي الاستنجاد بالدولة الصفوية لما بينهما من وشائج قرى وعرض ما آلت إليه البحرين على أيدي الغزاة البرتغاليين.

ويمكننا القول إن هذه الرحلات أكسبت أبا البحر الخطي شهرة وصيتاً ذائعاً، وشهد له أئمة الأدب والعلم في البحرين، وفارس كما أنه كسب معرفة أعلام عصره والاستفادة منهم من حيث الأدب والعلم. ومما أفاده في رحلاته إلى البلدان المختلفة من حيث تردده إلى مجالس العلم، ومحافل الأدب، والتعرّف على بيئة ربما مختلفة عن البيئة التي عاشها في صباه. كل ذلك كان له أثره البالغ على شاعريته.

وَمِنَ الْمُلَاحِظِ أَنَّ الْمُدَّةَ الَّتِي قَضَاهَا الْخَطِيُّ فِي تَنْقَلَاتِهِ تَعْدُ ثَلَاثِينَ عَاماً (999 - 1590/1028 - 1618). وكانت هذه السنوات التي قضاها في أسفاره كفيّلة بأن تعلمه أنماطاً مختلفة.

وكان طبيعياً أن يلجأ الأحرار من المثقفين، وغيرهم إلى الهجرة هرباً من الظلم والاستبداد ينشدون الحرية، والكرامة الإنسانية، إذ إنّ هذه الفئة التي هاجرت كان الأذى والضميم يصيبها إنّ عبّرت عن عواطفها وما يختلج في نفسها، ومن جانب آخر يقتل الصمت

(1) عدنان العوامي، «دفاع عن أبي البحر»، مجلة الواحة، ص 119.

(2) المسلم، القطيف، ص 368.

بانطوائها على نفسها. لهذين السبيين رحلت عن الأوطان وابتعدت عن الأهل والأصحاب وكان شاعرنا الخطي من هذه الفئة المهاجرة، حيث وطئت قدماه أرض فارس سنة (1607/1016). ولكن هل اطمأنت نفسه وانتهت آلامه، وتحققت أمانيه؟ كلاً بل كان في مهجره الأول رسولاً يحمل آلام بلده ومنطقته إلى مَنْ في استطاعته مساعدتهم، وتخليص بلدهم من أعباء الاحتلال الظالم. ثم إنه كان يمتلك إحساساً مرهفاً وشاعرية متمكّنة استطاع توظيفها في إيصال مظلوميّة شعبه إلى الشاه عبّاس الصفوي، وطلّب المساعدة وقد تحقّق ذلك فعلياً بعد فترة وجيزة من وفاة الخطي.

ج - عقيدته

ما من شكّ أنّ المذهب العقائدي له أثره البالغ في إبداعات الشاعر، وانعكاسات تفكيره، وأظنّ أنّ مذهب أبي البحر من الأهميّة لما هو واضح في مدائحه، وراثته لمن اتّصل بهم من أمراء، وقضاة، وعلماء، وكذلك لمن كانت له معهم وشائج قرّبي. كما أن معتقده هذا خير ما تمثل في شعره حيث موقفه من الحياة، والإنسان فرداً، وجماعة. كان أبو البحر جعفر الخطي شديد الإيمان بالله، صحيح العقيدة في الدين إذ يتبين القارئ لشعره وضوح تلك العقيدة. كما أننا لا نعثر على عبارة شك، أو ريبية، بل على عكس ذلك أنه كان حريصاً على الدعوة إلى الثقة بالله، والتوكل عليه، والتمسك بأمور الدين، والإيمان الراسخ بالقضاء. يعرّز ذلك قوله في المناجاة:

[من الكامل]

يَا مَنْ إِذَا وَقَفَ الْوُفُودُ⁽¹⁾ بَبَابِهِ
وَلَوَا أَكْفَهُمْ عَلَى أَسْبَابِهِ

(1) الوفود: مفردتها وافد وهو الزائر. ابن منظور، لسان العرب، مادة (و ف د)، 464/3.

رَجَعُوا وَقَد مَلَأُوا حَقَائِبَ عَيْسِهِمْ⁽¹⁾
 مَا لَا يَهُمُّ الْفَقْرُ أَنْ يَحْطَى بِهِ
 اِرْحَمْ غَرِيباً أَفْرَدَتْهُ يَدُ النَّوَى
 فَشَكَا إِلَيْكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا بِهِ⁽²⁾

وقال في موضع آخر:

[مِنَ السَّرِيعِ]

لَا أَتَعَاطَى مَا يُنَافِي التُّقَى
 فِي خَلْوَتِي، لَا، وَحَيَاتِي قَسَمٌ
 مَا حَصَلَتْ كَفِّي عَلَى رَبِيَّةٍ
 إِلَّا وَرَاحَتْ مِنْ يَمِينِي سَلَمٌ
 زُمَّتُ⁽³⁾ بَتَقْوَى اللَّهِ نَفْسِي وَمَا
 غَايَةُ نَفْسٍ بِالتُّقَى لَا تُزَمُّ⁽⁴⁾

وقد ورد في كتاب الأزهار الأرجية أنه «أحج المشاهير علامة فاضل من الصلحاء الأبرار وكان من وفور تقواه أديباً رقيقاً...»⁽⁵⁾، وقيل عنه أيضاً: «إنه أحد أعلام عصره المشاهير، ومن فقهاء الشيعة الإمامية».

أمّا المذهب فلقد كان أبو البحر الخطي يتمذهب بمذهب الشيعة الإمامية. إذ جُلّ المصادر التي تناولته أشار أصحابها إلى

(1) العيس: كرام الإبل. ابن منظور، م. ن، مادة (ع ي س)، 152/6.

(2) الديوان، ص 12.

(3) زُمَّتُ: زَمَ الشيءَ يَزُمُهُ زَمًّا فَانزَمَ: شَدَّهُ. والجمع أَرْزَمَةٌ، ابن منظور، لسان العرب،

مادة: (ز، م، م)، 272/12.

(4) الديوان، ص 104.

(5) فرج العمران، الأزهار الأرجية، 40/3.

تشيُّعه وعدُّوه مِنْ أَكْبَرِ شِعْرَائِهِمْ فَضلاًّ عَنْ كِتَابِ تَرَاجِمِ أَدْبَاءِ الشُّعْبَةِ، وَعِلْمَائِهَا.

وخير دليل على ذلك مرثيته لأبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب شهيد كربلاء⁽¹⁾ ومنها قوله:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَأَيُّ فَتَى ظَلَّتْ خِيُولُ أُمِّيَّةٍ
تُعَادِي عَلَى جُثْمَانِهِ وَتُطَارِدُ
وَأَعْظَمُ شَيْءٍ أَنْ شَمْرًا⁽²⁾ لَهُ عَلَى
جَنَاحِنِ⁽³⁾ صَدْرِ ابْنِ النَّبِيِّ مَقَاعِدُ
فَسَلَّتْ يَدَاهُ حِينَ يَفْرِي بِسَيْفِهِ
مُقَلِّدٌ مَنْ تَلَقَى إِلَيْهِ الْمَقَالِدُ
وَأَنَّ قَتِيلًا أَحْرَزَ الشَّمْرُ شُلُوهُ⁽⁴⁾
لَأَكْرَمُ مَفْقُودٍ يَبْكِيَنَّ فَاقِدُ⁽⁵⁾

ويقول عنه خالد الفرج: «إنه قضى أيام صباه في دراسة العلم، والأدب، والعلوم الجعفري على ما فيه من تعقيد وغموض في

(1) كربلاء: بالمدّ وهو الموضع الذي قُتِلَ فيه الحسين بن عليّ، في طرف البريّة عند الكوفة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 445/4.

(2) الشمر: (686/66) هو شمر بن ذي الجَوْشَن، واسمه «شَرْحَبِيل» بن قرط الضبابي الكلابي، من كبار قتلة الحسين بن علي. شهد يوم صفّين مع الإمام علي، ثم أقام في الكوفة، قُتِلَ على أيدي رجال الحجاج. الزركلي، الأعلام، 254/3.

(3) جَنَاحِنِ: عظام الصدر، وقيل رؤوس الأضلاع، لسان العرب، مادة: (ج، ن، ن)، 92/13.

(4) الشُّلُو: العضو من أعضاء الجسم، وجمعه أشلاء، ابن منظور، لسان العرب، ماد: (ش، ل، ا)، 442/14.

(5) الدِّيوان، ص37.

التأليف، والتعليم، ولا يتبحر فيه إلا من قضى السنين الطوال من سهر الليالي حتى يدرك مقدار ما أدركه أبو البحر فيتأهل بأن يجيزه البهاء العاملي عالم زمنه في إيران بل والعالم الشيعي أجمع»⁽¹⁾.
لعلنا بعد كل ما سبق نستطيع التأكيد أن الشاعر الخطي كان شيعياً يدين بمبادئ الشيعة الإمامية قولاً، وعملاً.

د - وفاته

بعد هذه التنقلات، والرحلات المستمرة لشاعرنا التي بدأها من القطيف لا بد أن تقف به رحلة أخيرة لا يملك من شأنها سوى الاستسلام لإرادة الله، وفي فارس وعلى أرض «شيراز» لفظت روحه أنفاسها الأخيرة موفورة بما بذله من جهد وأبدع من قول في مواضع كثيرة.

ومن المعروف في حياة السابقين الاتفاق على سنة وفاتهم، والاختلاف في تاريخ ولادتهم. فقد اتفق الرواة والمؤرخون على سنة وفاته، ومكانها، إذ إنه توفي في «شيراز» سنة (1618/1028).

وبما أن فارس منتجع أدباء الشيعة، وعلمائها... رحل إليها الشاعر رحلة البهاء العاملي وذلك سنة (1607/1016) وقطن بها حيناً من الدهر، وفيها كانت وفاته كما يظهر من عبارة السلافة: «كان قد دخل الديار الأعجمية فقطن منها بفارس، ولم يزل بها وهو لرياض الأدب جان وغارس حتى اختطفته أيدي المنون. ولعله توفي في شيراز سنة (1618/1028)»⁽²⁾.

فنحن نجد ابن معصوم ينص صراحة على تاريخ وفاته ويجعله

(1) خالد الفرج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص92.

(2) عز الدين التنوخي، «الأدب في البحرين»، مجلة المجمع العلمي العربي،

سنة ثمانٍ وعشرين وألف (1618/1028)⁽¹⁾. وقد اعتمد عليّ بن حسين الهاشمي جامع الديوان التاريخ ذاته، وزاد عليه: «إنّه دُفِنَ في شيراز عند مرقد السيد أحمد ابن الإمام موسى الكاظم⁽²⁾»⁽³⁾. وكذلك اعتمد محسن الأمين في أعيانه التاريخ نفسه، وأكّد على مكان دفنه بفارس⁽⁴⁾.

في حين أشار أحد الكتّاب المحدثين ما نصّه: «وبعد ذلك ألقى عصا الترحال في شيراز وبها توفي عام (1619 / 1029)»⁽⁵⁾. ولم يشر حقيقة إلى المصدر الذي اعتمد عليه في هذا التاريخ. وكذلك الأنصاري في ترجمته المقتضبة للشاعر⁽⁶⁾. وهذا كما أعتقد أنّه سهو من الأوّل، اعتمده الثاني دون أن يقدّم دليلاً واحداً على الأقلّ يثبت صحّة ما جاء به.

وإذا كانت مدّة عمره في تنقلاته ثلاثين عاماً (1028/999)، وهو في أشعاره قد تشكّى من الكِبَر والشَّيب فلا يبعد أنّه قد تناول الخمسين أو الستّين من عمره⁽⁷⁾.

وقد أجمل الربيعي القول: بأنّ أبا البحر الخطّي توفي عام

(1) ابن معصوم، سلافة العصر، ص532.

(2) السيّد أحمد ابن الإمام موسى الكاظم: هو أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن أبي طالب. مدفون في شيراز، ومزاره معروف بشاه جراح، والشيعة تبرّك بقبّره، وتكثر من زيارته. الخوانساري، روضات الجنّات، 42/1 - 44.

(3) الديوان، ص5.

(4) محسن الأمين، أعيان الشيعة، 157/4.

(5) محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص280؛ المؤلف ذاته، القطيف، ص368.

(6) محمد جابر الأنصاري، لمحات من الخليج العربي، ص140.

(7) خالد الفرّج، «الشاعر المغمور»، «مجلة المنهل»، ص92.

(1619/1028) بشيراز، وهو العام الذي ارتحل فيه إليها، ودفن عند مرقد السيّد أحمد بن موسى الكاظم، وهو بعيد عن أهله وإخوانه ووطنه بعد أن عانى من الغربة والوحدة⁽¹⁾.

لقد عاش أبو البحر في هذا الإطار التاريخي السياسي، وشهد ما آلت إليه أوضاع الخليج بشكل عام من اضطراب سياسي، وثورات ضدّ العدو المستعمر، وكذلك واكب ما طرأ على الحياة الاجتماعيّة من مستجدّات ومعوّقات، كما كانت له أهمّيته البارزة في الحركة الأدبيّة والشعريّة.

ومجمل القول إنّ شاعرنا الخطّي قضى فترة الخصب أو العطاء من حياته متنقلاً بين القطيف - مسقط رأسه - والبحرين، والعراق، وفارس، قضى في الأخيرة البقية من عمره الحافل بالتطواف حتى وافاه الأجل المحتوم سنة (1618 / 1028).

تلك هي حياة الشاعر ونشأته وما أحاط بها من ظروف صعبة سواء فيما يتعلّق به أو بالحياة السياسية أو الاجتماعيّة السائدة في بلده. وبعد التعرّف على حياته ونشأته لا بدّ لنا من التعرّف على ديوانه من حيث مخطوطاته وطبعاته وتوثيقه، وذلك للأهميّة البالغة في دراسة الشاعر.

(1) أحمد حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطّي»، مجلة الخليج العربي، ص 165.

الفصل الثالث: ديوانه

أولاً: مخطوطات الديوان وأماكن وجودها

لمَّا كان شعر أبي البحر الخَطِّي لم يحقَّق بعد، وجب على الدَّارس لشعره أن يقفَ وقفه متأنيَّةً على مجموع شعره في ديوانه المطبوع، متتبِّعاً مصدر ذلك المجموع من خلال مخطوطات الديوان في مظاهرها، ومن ثمَّ الانتقال بعدها إلى الديوان المطبوع وتوثيقه. ونردف بشيء ممَّا جاء في أعيان الشَّيعة، إذ ضمَّ قسماً لا بأس به من شعر الشَّاعر، بالإضافة إلى ما ذُكر من بعض القصائد والمقطوعات في كتب التَّراجم والسَّير كسلافة العصر لابن معصوم؛ وذلك للاطمئنان على صحَّة ما جاء منسوباً للشَّاعر.

وهذه كلُّها ليست على سبيل التَّحقيق، وإنَّما هي ذكر وتبيان لأهميَّة ديوان الشَّاعر، وإبراز قيمته. على الرِّغم من أنَّا على علم بأنَّ أحد المهتمِّين بالتُّراث الأدبيِّ ولا سيَّما الشُّعريِّ في منطقة الخليج، وهو السَّيِّد عدنان العوَّامي⁽¹⁾ قد شرَّعَ في تحقِّيق الديوان منذ

(1) السَّيِّد عدنان العوَّامي: شاعر معروف، بدأ رحلته الأدبيَّة بكتابة المقالة الاجتماعيَّة ثمَّ اتَّجه نحو الشُّعر، ونشر في دوريات متعددة محليَّة وعربيَّة كالمنهل السُّعوديَّة، والقلم السُّودانيَّة، والموسم البيروتيَّة. له ديوان شعر اسمه شاطئ الياب. قام بجمع ما تبقى من شعر صديقه الرَّاحل عبد الوهَّاب حسن المهديس تحت عنوان بقايا الرِّماد. كما أنَّه يعمل على تحقِّيق ديوان أبي البحر الخَطِّي. والسَّيِّد عدنان شاعر بارز حتَّى في شعر المناسبات. مجلَّة الموسم، 200/15.

فترة، وأنهى تحقيقه إلا أن هذا الديوان المحقق لم يرَ النور حتى وقتنا هذا، لذا يجدر بنا - قبل استعراض أغراضه الشعرية ودراستها - التعرف على ديوانه من النواحي التالية:

أ - مخطوطات الديوان وأماكن وجودها

تشير الأخبار الواردة في كتب التراجم والسير أن لأبي البحر ديواناً ضمَّ أغلب شعره. كما أن لديوانه مجموعة من النسخ، المخطوطة والخطية موزعة على عدد من المكتبات مثل: المكتبة الظاهرية في دمشق، ومكتبة المرعشي النجفي بقم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومنها نسخة في العراق بمكتبة الشيخ محمد عليّ اليعقوبي في النجف الأشرف، ومركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، وجامعة الكويت. فضلاً عن المخطوطات الخطية التي بحوزة أشخاص من رجال الدين⁽¹⁾ وغيرهم من أبناء المنطقة.

قبل التعرض لهذه النسخ المخطوطة أرى من الأجدر التحدث عن المحاولة الأولى لجمع الديوان؛ لأن هذه المحاولة هي الأساس لمجموع النسخ التي سنذكرها لاحقاً.

ولعلَّ المحاولة الأولى لجمع شعر أبي البحر كانت في حياته، إذ أمر السيد الشريف جعفر بن عبد الجبار الموسوي الحسن بن محمد الغنوي تلميذ الشاعر وراويته بجمع أشعار الخطي. فقام الغنوي بتلك المهمة وصدر الديوان - بعد جمعه - بمقدمة مسجوعة، ومجنسة - على عادة أهل عصر الشاعر -؛ أشاد فيها بما للشعر من مكانة رفيعة. ذكراً فيها منزلة فطاحل الشعراء القدماء أمثال: حسان بن ثابت، والمتنبي والحسن بن هاني، ثم تأسى على حال

(1) مثل: عبد الله بن منصور أبو السعود من أعيان القطيف (1318 / 1900). مجلة

الشُّعر، واضمحلاله في العصور اللاحقة التي لم يظهر فيها شاعر كبير بارع، ومن ثمَّ أشاد بمنزلة الشَّاعر الخطي وقيمة شعره.

لذا ارتأيت من الصُّرورة ذكر بعض ممَّا جاء في تلك المقدِّمة لتبيان مرتبة الإنشاء، وأسلوبه في البحرين في عهد المترجم، وهو عهد انحطاط الآداب في العالم العربي، إذ إنَّ السَّجع كان شائعاً في عصره. وممَّا قاله: «لم تزل الجاهليَّة يجيلون فيه قدام المفاضلة، وينثرون من كنانته المناصلة... ولمَّا جاء الإسلام لم يستحلِّ دمَه ولم ينتهك حرمه. على أنَّه شديد الحرص على نقض مرايرهم المستمرة، وافر الرغبة في هدم قواعدهم المستقرة. ناهيك بإعداده - صَلَّى اللهُ عليه - حسان كذلك شاهد صدق أنَّه في الإسلام غير وعر المسالك، ولا مهجور الجوانب هنالك، ولقد كان في أيَّام الدَّولتين، وإبَّان الخلافتين معروف الموسام، مشهود الموسام يتنزَّل به جود الجود... ويتنحل به أبو الطَّيب أطايب المزيد. ثمَّ طارت بتلك الغضارة عنقاء مغرب، ورمى بعدهم باللُّكنة اللُّسن المعرب. وهدأت بعدهم فورة المهدر المشقشق، وأوضع خلافهم المخبَّب المعنَّق. وأغار فيلق الزَّمان على الشَّاعر المفلق، وأسلمه الدَّهر إلى قوم لا يعيشون إلى قبسٍ ساطع ولا يعضُّون على الأدب بضرس قاطع...»⁽¹⁾.

ويتبيَّن لنا بوضوح أنَّ المخطوطة التي مرَّ ذكرها جُمعت في حياة ناظمها وتحت إشرافه؛ ومن ثمَّ تتابعت تلك المخطوطات اعتماداً على النسخة السَّابقة رغم ما أصابها من تحريفٍ، وتصحيفٍ، وتلفٍ.

وسوف أتكلَّم الآن واصفاً كلَّ ما وقع بين يدي من مخطوطات الدِّيوان بشيءٍ من التَّفصيل.

(1) مقدِّمة الدِّيوان. إذ يتَّضح من خلالها أنَّ غاية العنوي هي إبراز محاسن شعر أبي البحر مقارنةً بشعر عصره.

أولاً: ديوان أبي البحر شرف الدين جعفر بن محمد.. بخط صلاح بن إبراهيم بن محمد بن سعيد التحلي (20 ربيع الثاني سنة 1674/1085) صححه وقابله عبد الصمد بن عبد القادر بن عبد الصمد الحسيني الموسوي البحراني (1).

ثانياً: صورة عن مخطوطة بمكتبة الأسد بدمشق رقم 3365 شعر. وتتكوّن هذه المخطوطة من 216 صفحة في 108 ورقات؛ أمّا مقاسها فهو 25 × 15 سم، وتشتمل على خمسة عشر سطراً في المتوسط. والخط نسخ متوسط الجودة، لكنها كثيرة الأخطاء، ولم يذكر كاتبها اسمه، ولم يشر إلى تاريخ تحريرها، لكن أحد ممتلكيها، وهو الشيخ محمد بن صالح بن جار الله الصيمري (2) أرخ تملكه لها في ليلة السبت 24 ذي القعدة سنة 1721/1134.

وقد وصف التّوخي تلك المخطوطة بقوله: «مخطوط على ورق صقيل ضارب إلى الصّفرة بخط النّسخ الواضح، يشتمل على 216 صفحة»، ويظهر من صفحة عنوانه أنّه انتقل بالشراء الشرعي إلى خمسة رجال، وأقدم تاريخ عليه سنة 1721/1134 تحت صيغة هبة الديوان وهي بنصّها: «بعد الحمد والصلاة لأهليهما، فقد وهبني هذا الديوان الجامع لأنواع البلاغة والفصاحة الحاوي لمستطرف البداعة والملاحاة، من نتائج أبحاث أفكار البحر الزّاهر، والحبر السّاحر، الأديب البارع، الأديب السّاطع أبو البحر جعفر بن محمد بن حسن بن علي الخطّي البحراني... هبة صحيحة شرعيّة الشّيخ العالم الرّباني عمّي الشّيخ أحمد بن جار الله الصيمري... وكتب هذه الحروف محمد بن صالح بن جار الله عفي عنهم

(1) مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الرابع، 254/2.

(2) نسبة إلى صيمرة، ناحية بالبصرة، بها عدد من القرى، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 439/3؛ جواد شبر، أدب الطّف، 15/5.

ليلة السبت الرَّابِعَ والعشرين مِن شهر ذي القعدة الحرام سنة 1721/1134 والحمد لله أولاً وآخراً»⁽¹⁾.

وقد تميّزت هذه النسخة بذكرها مجموعة مِن مقدمات القصائد، يبيّن ناسخها مناسبة القصيدة، وسنة إنشائها، في الوقت الذي لم نجد لتلك المقدمات ذكراً في نسخة الهاشمي، على الرّغم ممّا أوضحه الهاشمي مِن ذكر مقدمات كثيرة، ومناسبات القصيدة في نسخة الديوان المطبوع، إلاّ أنّ الهاشمي لو استكملها بما ذكر مِن تلك المقدمات والإيضاحات في النسخة الظاهرية لكان أفضل للقارئ وأيسر له. على الرّغم مِن تماثل النّسختين مِن حيث المحتوى مع بعض الاختلافات اليسيرة، إلاّ أنّ النسخة الظاهرية مرتّبة حسب الأغراض الشّعريّة.

ثالثاً: نسخة عن مخطوطة مكتبة آية الله المرعشي النجفي بِقُمّ في إيران. رقمها 4969، قسم كتب خطيّة، بخطّ محمّد الدّلبزي، وقد فرغ مِن كتابتها في يوم الجمعة سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين للهجرة الموافق ألف وثمانمائة وستّ وعشرون للميلاد، ولم يذكر الشّهر.

وتتكوّن هذه المخطوطة مِن 156 صفحة في 78 ورقة. المقاس: 21 × 15 سم، وتضمّ الصّفحة 21 بيتاً في المتوسط. أمّا الخطّ فهو بين الرّفعة والنّسخ، رديء، لكنّها مقروءة، وكثيرة الأخطاء.

رابعاً: مجموع في مكتبة الشّيخ محمّد عليّ اليعقوبيّ بخطّ الشّيخ لطف الله بن عليّ بن لطف الله الجدحفصي البحراني⁽²⁾.

(1) عزّ الدّين التّنوخي، «الأدب في البحرين»، مجلّة المجمع العلمي العربي، المجلّد الثّامن، 38/2.

(2) عاش في آخر القرن الثّاني عشر، وأوائل القرن الثّالث عشر الهجري. شاعر جيّد أنيق الخطّ، أثبت لنفسه في هذا المجموع سبع قصائد طوال، وترجم له =

المقاس: 22.5 × 16 سم، وتشتمل على خمسة عشر سطرًا (بيتًا). الخطُّ: ثلث، وتخلَّله بعض حروف الخطِّ الرِّحاني، وهو جميل جدًّا والقوائد مؤطَّرة بإطار ذي خطَّين أحمرين مستقيمين داخل خطِّ ثالثٍ كحليٍّ حول حوافِّ الورقة.

خامسًا: مخطوط مصوَّر بمركز الوثائق التَّاريخيَّة بديوان وليِّ عهد البحرين على مايكروفيلم Microfilm تحت رقم 3065/14 شعر. كما أنَّه توجد نسخة طبق الأصل لذلك المخطوط في دار الكتب بمكتبة جامعة الكويت.

سادسًا: مخطوطة حديثة نسبيًّا، وهي بخطِّ رضوان بن حسن بن عبد الله المقاببي القطيفي، فرغ من كتابتها في العاشر من شعبان سنة 1900/1318. وتتكوَّن هذه المخطوطة من 146 صفحة خلاف الفهرست، فقد خصَّص له خمسة أعمدة شغلت ثلاث صفحات.

مقاسها: 17 × 24 سم، تشتمل على 20 سطرًا من المتوسِّط. الخطُّ: نسخ متوسِّط الجودة إلاَّ أنَّها كثيرة الأخطاء، حتَّى أنَّ بعض القوائد قد تداخل في بعضها الآخر، وأسوأ ما في هذه المخطوطة مقدِّمتها، فهي مبتورة، وبها حذف كثير، وتصحيف شنيع. فمنَّ الأمثلة أنَّها تبدأ بعبارة تقول: «يضعون أقدامهم إلاَّ حيث وضع، مستبق فرسان البراعة ومنتضل رماة الأعراض»⁽¹⁾ من ذوي البلاغة إلى

= السَّيِّد جواد شبرِّ على أنَّه حفيد الشَّيخ لطف الله بن محمَّد بن عبد المهدي، ولم يذكر سنده. أمَّا هو نفسه فقد أثبت لهذا الشَّيخ قصيدة في المجموع، ولم يشر إلى أنَّه جدُّه. وأمَّا المجموع فيبدو أنَّه نسخة منَّ المجموع الموجود بمكتبة الشَّيخ محمَّد عليِّ اليعقوبيِّ في النَّجف بالعراق المؤرَّخ فراغه من تحريره يوم 12 رجب سنة 1786/1201. انظر: جواد شبرِّ، أدب الطفِّ، 255/5 و359.

(1) لعلَّ صوابها: الأغراض.

غير ذلك منَ الجملِ المبعثرة والمفكَّكة غير المترابطة مثل: «ويناظ به على المرعش رعاث الأمانى، ويهنى به، وواحد عند اعتذاره المحسن والمسيء والسقيم و... وسواء لو أراد المجون الراهب والمنسك والماجد» وما شابه ذلك ممَّا يجعل تجبيرها عبثاً لا طائل منه⁽¹⁾.

بالإضافة إلى ذلك ما ذكره صاحب أعيان الشيعة من أنه عثر على نسخة مخطوطة قديمة في «جبل عامل» بלבناں قد ذهب منها أول الخطبة ويسير من آخر الديوان لكنَّها مغلوطة⁽²⁾.

كما أن عليّ خان (ت 1707/1119) ذكر في السلافة ما نصّه: «وقفت على فرائده التي جمعت فرأيت ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت»⁽³⁾. ولم يزد على ذلك في كلامه عن الديوان، إذ إنه لم يذكر ناسخ الديوان، ولا سنده ولم يقدّم وصفاً موجزاً عن النسخة المذكورة. إلا أننا نستنتج أنه من غير المستبعد من أن النسخة الأصليّة لمجموع شعر الخطي وقعت بين يديه، وذلك لتقارب العهد نسبياً بينه، وبين الشاعر.

وما يجدر التّنويه به في هذا المقام؛ هو أن النسخ المذكورة آنفاً

(1) اعتمدت في وصف المخطوطات على أمرين، أولهما: زيارات ميدانيّة للمكتبات التي وجدت فيها المخطوطة، وهي على التّوالي مكتبة المرعشي النجفي في قم المقدسة بإيران، والمكتبة الظاهريّة في سورية، ومركز الوثائق التاريخيّة بدولة البحرين. وثانيهما: الاطلاع على فهراس المخطوطات من خلال الكتب والمجلّات. من ذلك، فهرس مخطوطات البحرين لعليّ أبا حسين 181/1. ومجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجلّد الرابع، 254/2. فضلاً عن الزيارات المختلفة لمنطقة القطيف للسؤال وطلب المعرفة. بالإضافة لورقات ثلاث تفضّل بها عليّ الأديب السيّد عدنان العوامي الذي يعمل على تحقيق الديوان، فيها وصف لأغلب مخطوطات الديوان.

(2) محسن الأمين، أعيان الشيعة، 157/4.

(3) ابن معصوم، سلافة العصر، ص 532.

تتقارب كثيراً، وتعتمد على النسخة الأصلية، إلا أن الخلل الحاصل في نسخة أو أخرى كالتصحيح أو سقوط كلمة، أو بيت راجع إلى أخطاء النساخ في أثناء نقل نسخة عن أخرى، بالإضافة إلى عدم الاهتمام بالنسخة، والاحتفاظ بها جعل المخطوطة تتعرض لتلف بعض أجزائها.

ب - طباعته

من الأساسيات المتبعة في تحقيق النصوص، أن يبحث المحقق عن مخطوطات الديوان جميعها، ثم يختار منها المخطوطة الجيدة التي ينبغي أن تتخذ أساساً ليستطيع المحقق تقديم مطبوع سليم لا غبار عليه، وتقديم مادة صحيحة أقرب ما يكون لما تركه المؤلف، وأحسب أن ما فعله الهاشمي في هذا المجال قريب لذلك.

لما تبين لنا من مخطوطات الديوان، وما اعتورها من أخطاء وتصحيّف وتلف، كان جُلُّ اهتمامنا منصّباً على الجهد الذي بذله السيّد الهاشمي في جمع الديوان والتعليق عليه، وكذلك إخراجه. وهو بذلك يعتبر أهمّ مصدرٍ لشعر أبي البحر الخطّي إذ ضمّ أغلب شعره - إن لم يكن كلّه - أمّا ما ورد من أشعار قليلة في ثانيا التّراجم فهذا لا يعوّل عليه كثيراً باستثناء مصدرين هما: سلافة العصر، وأعيان الشيعة. إذ ضمّ الأول قسماً لا بأس به من شعر الشّاعر. وزاد الثّاني على الأوّل بذكر مجموعة كبيرة من قصائد أبي البحر معنوناً إيّاها حسب الأغراض الشعرية لدى الشّاعر.

ويجدر بنا أن نثبت ما ذكره صاحب أعيان الشيعة، إذ قال: «ها نحن نختار من شعره القسم الأوفر ناقلين له من ديوانه⁽¹⁾ الذي عندنا مرتّباً على الأبواب»⁽²⁾.

(1) لم يذكر محسن الأمين أي شيء يفيدنا عن هذه النسخة من حيث زمنها، واسم ناسخها، ولا وصف للمخطوط المعتمد عنده.

(2) محسن الأمين، أعيان الشيعة، 157/4.

وقد رتبته على النحو التالي: المديح والتَّهاني، فالرِّثاء، فالهجاء، فالحنين إلى الأهل والأوطان، فالصفات، فالخمريات، فالكتب والرسائل، فالاعتذار، فالملح والنوادر، ثمَّ المواعظ والمناجاة.

إلاَّ أنه لم يبرز كلَّ القصائد في الغرض الذي يتحدث عنه، كما أنه لم يشرْ إلى القصائد المماثلة لها في الغرض، ولا يحيل القارئ إلى الديوان المعتمد لديه.

طُبِعَ الديوان لأول مرة بمطبعة الحيدريِّ بطهران سنة 1953/1373. وهذه الطبعة خالية من الشرح، والضبط، بالإضافة إلى أنها غير محقَّقة، لذا اكتنفها كثير من الأخطاء المطبعية حيناً، والأخطاء الإملائية حيناً آخر.

ولعلَّ من المناسب في هذا المقام أن نذكر قصَّة حصول الهاشميِّ على نسخة من ديوان الشَّاعر أشبعت نهمه، وكانت دافعاً قوياً لطبع الديوان، وإخراجه إذ قال: «في أوَّل سفراتي إلى ربوع إيران سنة 1941/1360 جئت إلى خراسان، وكنت أرتاد سوق الورَّاقين على عادتي في النَّجف وبغداد، وكلُّ بلدٍ أحلُّ به، فجاء ذات يومٍ رجلٌ يحمل على صدره طائفة من الكتب، وقد عرضها للبيع فصرت أقلبها فعثرت على ديوان الشَّعر، كُتِب على صفحة الجلد منه - أبو البحر - وإذا به أنشودتي فابتعته بما سامه، وكان قد زهد به حيث إنَّ الشُّعر عربيٌّ؛ فتأبطته وجئت أكاد أن أطيِّر فرحاً به، وصرت أقلبُه وأطالعه بإمعانٍ، ففي الصفحة الأولى من الأعلى قرأت كتابهً دقيقةً - نسخ تعليق - ما هذا نصُّها: «دخل بنوبة الأقلِّ، وأنا العبد المذنب العاصي طالب الرِّشاد فرهاد⁽¹⁾ في 15 شهر جمادى الثاني من شهور سنة

(1) يظهر أنَّ النسخة كانت من خزانة كتب الأمير العلَّامة فرهاد مرزَه المتوفَّى سنة 1887/1305 عمَّ السُّلطان ناصر الدِّين شاه القاجاري المقتول في 17 ذي القعدة سنة 1895/1313. الديوان، ص.د.

1845/1261 على هاجرها ألف ألف سلام في دار الخلافة طهران - صانها الله عن الحدثنان - الختم (نائب الإيالة). ويظن الهاشمي أنها كانت بحيازة العلامة السيد عبد الصمد بن عبد القادر الحسيني البحراني فيقرؤها ويعلق عليها بخطه. والنسخة نُقلت من على نسخة الغنوي لقرب العهد بينهما. وكاتبها هو صلاح بن إبراهيم بن محمد بن سعيد البخيلي سنة 1674/1085»⁽¹⁾.

أما عن طباعته للديوان فقد قال: «طُبِعَ على ما هو عليه من تعداد أبيات القصائد، ولم أتصرف بشيء منه قط غير أنني رتبته على الحروف الهجائية»⁽²⁾.

وحيثما اطمأن الهاشمي للنسخة المذكورة التي وجدها في إيران، عمل على طبع الديوان، إذ بدأ بكلمة الغنوي كمقدمة للديوان، ثم أردفها بترجمة قصيرة للشاعر ضمَّنَها الحديث عن الديوان، ومجموع النسخ الخطية التي عثر عليها، ووصفها بأنها رديئة باستثناء النسخة الأخيرة التي اعتمدها في طباعته الوحيدة التي أربت أبياتها على ألفين وثلاثمائة وأربعة وثلاثين بيتاً وقصائدها التي وصلت إلى مائة وتسع وثلاثين قصيدة.

وتشير الدلائل السابقة أن ديوان شاعرنا الخطي جُمع في عصره، وبإشرافه وظلت هذه النسخة المخطوطة متداولة بين رجال الأدب والعلم في المنطقة، حتى وصلت إلى إيران، ودمشق، ولبنان، والعراق. ولعل أهم ما تمتاز به هذه النسخة المخطوطة التي قال عنها الهاشمي، واعتبرها أصلاً لطبعته، أنها تبعد عن وفاة الشاعر بـ «57» سنة فقط.

(1) الديوان، ص.د.

(2) م. ن.، ص.د.

كما أنَّ الهاشمي يُشير أحياناً إلى عنوانة القصيدة، وذكر مناسبتها، إلا أنَّ كثيراً مِنَ القصائد في طبعته بقيت بلا عنوان، ويكتفي الهاشمي بقوله: «قال رحمه الله» أو «وقال أيضاً..».

وكان حرِّي به أن يتحرَّى ذكر المناسبة مِنْ نسخته الأصل - كما اعتبرها - أو مِنَ النُّسخ الأخرى.

والقارئ للديوان المطبوع يلاحظ أنَّه مرَّتْب على أحرف الهجاء لا على أساس الموضوع بالإضافة إلى أنَّ الكلمات غير مضبوطة بالحركات. أمَّا شرح الكلمات في الحاشية فهو قليل جداً، كما أنَّه لم يذكر مناسبة عدد مِنَ القصائد في الديوان.

وغاية ما يمكن قوله عن هذه الطَّبعة، أنَّها خالية مِنَ الضُّبط، والشرح، والتَّعريف بالشخصيات الواردة في الديوان التي لها صلة بالشاعر إلاَّ النَّزر اليسير. في حين أنَّه أهمل الكثير مِنَ قواعد تحقيق النُّصوص إلاَّ في بحثه عن المخطوطات جميعها، واختياره المخطوطة الجيدة التي ينبغي أن تُتخذ أساساً ليقدم مطبوعاً لا غبار عليه. ولكن مهما تكن مِنْ نسخ أخرى لن تكون أكثر مِنَ النُّسخة المطبوعة، لأنَّها حوت جُلَّ شعر الخطي. فشعره لم يتناثر في المصادر والمراجع، بل كان مخطوطاً، وبقي كذلك، حتَّى ظهر إلى النُّور على يد الهاشمي، ونأمل أن تكون الجهود متواصلة في تحقيق الديوان ليقف القارئ على حقيقة هذا الديوان بشكل واضح. ومهما يكن في هذه الطبعة مِنْ عيوب ونواقص فإنَّ عمل الناشر هذا ظلَّ هو الأساس لكلِّ باحثٍ، أو دارسٍ لأبي البحر وشعره.

ج - توثيقه

ضمَّ ديوان أبي البحر الخطي معظم شعره المنقول عن النُّسخ

الخطيئة المتداولة بين رجالات العلم وحملة التراث. ف جاء في (139) قصيدة، بلغت عدتها جميعاً (2334) بيتاً.

وَمِنْ خِلالِ البَحْثِ وَالتَّقْصِي فِي كِتابِ السَّيْرِ وَالتَّرَاجِمِ الَّتِي اِهْتَمَّت بِذِكْرِ أَعْلَامِ القَرْنِ الحادِي عَشْرِ الهِجْرِي / السَّادِسِ عَشْرِ المِيلادِي، لَمْ نَعَثِرْ عَلى مَنْ يَشْكُكُ فِي نِسْبَةِ الدِّيوانِ للشَّاعِرِ. إِذْ وَجَدنا أَنَّهُم مَتَّفِقونَ عَلى نِسْبَتِهِ لهُ، كَما أَنَّهُم عَلى وِثامٍ مِنْ حَيْثُ جامِعُهُ، وَهُوَ العَنَوِيُّ تَلْمِيزُ الشَّاعِرِ وَرِوايَتِهِ، وَذَلِكَ بِأَمْرٍ مِنَ السَّيِّدِ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ الجَبَّارِ المَوْسَوِيِّ صَدِيقِ الشَّاعِرِ⁽¹⁾.

ويجدد بنا أن نشير إلى أن النسخة الخطيئة التي عثر عليها الهاشمي هي الأقرب إلى النسخة الأصلية لمجموع شعره. ونرجع ذلك إلى أمرين: أولهما: أن الشاعر كان كثير السفر إلى إيران والتنقل في مدنها. والأمر الثاني: أن الشاعر عاش أيامه الأخيرة في إيران، حتى قضى نحبه فيها. لذا بقت نسخة الديوان المخطوط التي كانت بحوزة الشاعر في إيران فترة من الزمن، ومنها انتقلت إلى الديار الأخرى، وأصابها ما أصابها من تلف، وتصحيف جراء قدمها، وتنقلها من يد إلى أخرى، وكذلك نسخها.

وقد تحدثنا مسبقاً عن إسناد تلك النسخ وروايتها بما لا يدع مجالاً للشك في جملته⁽²⁾.

لذلك بحثت طويلاً عن نسخة خطيئة بخط الشاعر، أو مقروءة عليه فلم أوفق، ولكنني تمكنت بعد التحري المتواصل من الاطلاع على أكثر من نسخة خطيئة منقولة عن النسخة الأصل، ولكنها رديئة، وصعبة القراءة، بالإضافة إلى أنها ناقصة ومبتورة، ولم تكن مكتملة

(1) كما تقدّم القول سلفاً في الصفحة 95 من هذا الفصل.

(2) انظر: الصفحات: 96، 97، 98، 99 من هذا الفصل.

مقارنةً بنسخة الديوان، ولا تصلح بأن تعتبر الأصل الذي يعتمد عليها الدّارس لشعر أبي البحر الخطّي.

ولمّا كان شعر أبي البحر لم يُطبع إلاّ طبعةً واحدةً فريدةً - نوعاً ما - وجدت من الأفضّل الإشارة إلى ما أثبتته محسن الأمين في أعيان الشّيعه، إذ ضمّ كثيراً من شعر الشّاعر إذ تبين لي من خلال المطالعة والفحص أنّ الأمين في أعيانه اعتمد على نسخة خطيّة غير التي اعتمدها الهاشمي، ومردّد ذلك إلى بعض الاختلافات الواردة بين ما أثبتته الهاشمي في نسخة الديوان المطبوع وما أورده محسن الأمين في أعيانه.

وموضوعي ليس مقارنة بين النّسختين، بل وجدت لزاماً عليّ التّنويه والإشارة إليه.

وتجدد الإشارة إلى أنّ الهاشمي لم يكن على علم بالنسخة التي اعتمدها محسن الأمين في أعيانه. وكذلك محسن الأمين لم يكن على دراية بالنسخة الأصل التي اعتمدها الهاشمي حسب ما تبين مسبقاً في الحديث عن مخطوطات الديوان.

ومردّد ذلك ما وجدته من اختلاف بين النّسختين من حيث ترتيب القصائد، وعدد أبيات القصيدة الواحدة، وبعض الاختلافات في الألفاظ والكلمات والجمل في القصيدة الواحدة أيضاً.

فمن حيث التّرتيب وجدت أنّ الهاشمي رتبّ قصائد الديوان على حروف المعجم مبتدئاً في كلّ حرف بالمضموم ثمّ المفتوح ثمّ المكسور فالساكن.

أمّا محسن الأمين في أعيان الشّيعه، فقد رتبّ قصائد الشّاعر - اعتماداً على نسخته - على حسب الأغراض الفنيّة وليس على حسب حروف المعجم.

ولمَّا كان أعيان الشيعة كتاب تراجم وسير، فإنَّه لم يعنَ بذكر كل قصائد الشَّاعر كاملة، إذ ركَّز الأيمن على مقتطفات وافية لكلِّ أغراض الشَّاعر المتناولة سابقاً، وذكر في بداية حديثه عن أبي البحر: «ها نحنُ نختار من شعره القسم الأوفر ناقلين له من ديوانه الَّذي عندنا مرتباً على الأبواب»⁽¹⁾.

ولم أجد قصيدة ذكرت في النسختين إلَّا وفيها اختلاف سواء من حيث عدد الأبيات، أو بعض ألفاظ القصيدة. وربما يكون هذا الاختلاف في الألفاظ راجع إلى أخطاء النُّسخ في أثناء النُّسخ عن الأخرى.

وخلاصة القول إنَّ أهمية ديوانه تنبع ممَّا تضمَّه من معاني الحياة فهي تحمل حياة الشَّاعر الاجتماعيَّة والأدبيَّة بتنوع تجاربه طوال سنوات حياته.

قبل أن أختم هذا الفصل وجب عليَّ أن أنوِّه بصدور تحقيق جديد للديوان بطبعة جديدة، وكانت تلك على يد الكتورة أنيسة المنصور، والدكتور عبد الجليل العريض بدعم من مؤسَّسة جائزة البابطين للإبداع الشعري⁽²⁾.

(1) محسن الأيمن، أعيان الشيعة، 157/4.

(2) تناول المحقِّقان في المطبوع الجديد، بعد المقدِّمة، عصر الشاعر في ناحيتين هما الحياة السياسيَّة والحياة الثقافيَّة، ثمَّ تناولا التعريف بالشاعر ومراحل حياته في القطيف والبحرين، ثمَّ وفاته وشعره. بعدها عرَّجا على قراءات في شعر أبي البحر، استعرضا فيها بعضاً ممَّن كتبوا عن الشاعر. أمَّا القسم الثاني فقد خُصَّص للديوان، حيث رتَّباً الديوان حسب الأغراض. فبَدِئَ بباب المديح وانتهى بباب العتاب. وألحقاه بمجموعة من الفهارس.

الباب الثاني

أغراضه الشعرية

الفصل الأول: المديح

طرق أبو البحر أكثر الأغراض الشعريّة المعروفة عند شعراء العرب قبله، من مديح ورثاء وفخر وغزل ووصف وحنين وشكوى وغيرها، مع تفاوت كلّ غرض منها في شعره، إذ أكثر من المدح والرتاء وقلّ في بعضها.

لهذا سأبحث في هذا الفصل أغراض أبي البحر الخطّي الشعريّة مبتدئاً بالمديح لكثرة عنده قياساً بالأغراض الشعريّة الأخرى في الديوان. وسأتناول مقام هذا العرض في ديوان الشاعر، ثم الممدوحين، وبعد ذلك تركيب قصيدة المدح، ومن ثمّ معانيه المدحيّة حسب ورودها في قصائد المدح.

المديح:

المديح ضرب من ضروب الشعر العربي المعروفة، وهو فن يقصد إلى إبراز الثناء والإكبار والاحترام للممدوح، كما يرصد ويدوّن المزايا الحسنّة لعلّيّة القوم من ملوك، وأمراء، وقادة، وعلماء، وغيرهم ممن لهم شأن عند قومهم.

أولاً: مقام قصائد المديح في الديوان

من خلال دراستنا لديوان الشاعر وتتبعا لقصائده المدحيّة وجدنا أن المديح يشغل حيزاً ملحوظاً قياساً على قصائده الأخرى.

وقد بلغت مدائحه المثبتة في **الدَّيوان** ثلاثاً وعشرين قصيدة ما بين قصيدة طويلة ومقطوعة مفارقة على من خصَّهم بمدحه من أمراء، ووزراء، وقضاة، وعلماء دين، وشعراء، وقد صمَّن بعضها الشكر والثناء. وأطول مدائحه نفساً ما نظمه في صديقه السيّد ماجد الصادقي البحراني. وهي قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها مائة وخمسة أبيات. مطلعها:

[من الخفيف]

قُلْ لِكَنْزِي فِي النَّائِبَاتِ وَدُخْرِي
وَجَمَالِي بَيْنَ الْأَنَامِ وَفَخْرِي
وَلِسَانِي الَّذِي أُرِيقُ إِذَا مَا
جَمَدَ الْقَوْلُ مِنْهُ نَظْمِي وَشِعْرِي (1)

وأقصر قصيدة في المدح كانت في صديق له من أعيان أصفهان. يقول فيها:

[من الكامل]

إِنَّ الثَّنَاءَ وَإِنْ تَعَاظَمَ قَدْرُهُ
لِيَهُونَ فِي قَدْرِ الْعَظِيمِ وَيَحْقُرُ
فَإِذَا أَطْلُتُ الْقَوْلَ فِيهِ رَأَيْتُهُ
فِي جَنْبِ مَا يَرِضَاهُ قَدْرَكَ يَفْضُرُ
فَإِنْ افْتَصَرْتُ عَلَى الْقَلِيلِ مِنَ الَّذِي
أُنْتَبِي عَلَيْكَ بِهِ فَإِنِّي أُعْذَرُ
وَمَتَى يَقُلْ ثَنَائِي أَنْ تَحِيَّتِي
أَبْدَاءً وَتَسْلِيمِي عَلَيْكَ لِيَكْثُرُ (2)

(1) الدَّيوان، ص55.

(2) الدَّيوان، ص51.

وقد اختطَّ أبو البحر الخطِّي لنفسه منهجاً يصونه عن مدح اللئام والترُّفُّع بشعره عنهم، ولا يمدح إلا مَنْ يستحق المدح، وسلك هذا النهج في شعره المدحي وعبر عنه بقوله:

[مِنَ الكامل]

فَأَنَا وَإِنْ عَصَّ الرَّمَّانُ بِعَارِبِي
أَوْ قَلَّتِ الْأَيَّامُ حَدَّ شَبَاتِي
لَأُصُونُ عَنْ مَدْحِ اللَّئَامِ تَرْفُوعاً
شِعْرِي وَأُقْصِرُ دُونَهُمْ خَطَوَاتِي (1)

كما كان له نهج خاص في الوفاء مع أصدقائه، وقد أشار إلى ذلك في قوله:

[مِنَ الطويل]

فَأِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ وَالشَّعْرُ حِرْفَتِي
وَكُنْتُ امْرَأَةً مِنْ سَائِرِ الشُّعْرَاءِ
لَأَسْلُكَ نَهْجاً فِي الْوَفَاءِ يُرِيكَ مَنْ
تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَرَأَيْي
ووفاءؤه باقٍ في قربه وبعده لمن أخلص له الود.
فَلَسْتُ امْرَأَةً إِنْ غَابَ غَابَ وَفَاؤُهُ
وَلَكِنِّي إِنْ أَنَا يَدُنْ وَقَائِي (2)

لهذه الأسباب صاغ الخطِّي شعر المديح توافقاً مع أحاسيسه ومشاعره معبراً فيه عن وجدانه ومعتقده، وقد ابتعد فيه عن المصلحة الدنيويَّة وارتفع به عن طموح الشعراء الماديَّة، ومن خلاله استطاع أن يصبغه بصبغة روحيَّة.

(1) الديوان، ص17؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، 4 / 161.

(2) م. س.، ص3.

ثانياً: الممدوحون

في أثناء تقصي هذا الفن في الديوان وجدته ينقسم إلى أربعة أقسام: مدائحه للأمرء، ومدائحه لرجال عصره، ومدائحه لإخوانه وأصدقائه، ثم مديحه لأهل البيت النبوي.

أ - مدائحه للأمرء

ويشمل كل من مدحهم من الأمرء والوزراء، ولم يكن كثيراً في الديوان، إذ تمثّل في سبع قصائد، أربع منها في وزير البحرين ركن الدين محمود بن شرف الدين وواحدة في الأمير الشّريف بدر ابن السيّد مبارك خان، وأخرى في السيّد خلف ابن السيّد عبد المطلب ملك الدورق، ثم مديحه لسلطان صحار مهنا بن هديف.

أ - 1. ركن الدين محمود

أمّا مدحه لركن الدين محمود، فقد قال فيه ثلاث قصائد⁽¹⁾ أولها سنة (1592 / 1001). ومطلعها:

[مِنَ الكامل]

مَاذَا يُفِيدُكَ مِنْ سُؤَالِ الْأَرْبَعِ

وَهِيَ الَّتِي إِنْ حُوْطِبَتْ لَمْ تَسْمَعْ⁽²⁾

هذه القصيدة أولى قصائده المدحيّة، إذ قالها في صباه، وأول عهده بالبحرين (أوال) وكان ذلك يوم عيد الفطر المبارك ووصفها ابن معصوم «أنها من بديع قصائده»⁽³⁾. وهذه تبرز جانباً مهماً من حياة أهل القطيف السياسيّة. إذ اعتبر شاعرنا الخطّي ركن الدين

(1) ورد في الباب الأول - الفصل الثاني - 86، 89، 146.

(2) الديوان، ص72.

(3) ابن معصوم، سلافة العصر، ص535.

محمود هو المأوى والكنف الأعز للفارين من ظلم الأتراك الغزاة طلباً للحماية والنصرة والاستنجاد.

وتعتبر هذه القصيدة وثيقة تاريخية أرخ الشاعر من خلالها فرار أعيان القطيف وأشرافها من ظلم الأتراك العثمانيين.

[مِنَ الكامل]

بَلَدٌ تَهَيَّنَ الْأَكْرَمِينَ لِلْوَمَهَا

شَرَوْى (1) الزَّمَانِ وَتُكْرِمُ الْأَوْعَادَا (2)

فوصف بلاده القطيف بأنها أهانت الأكرمين وكَرَمَتِ الأوغاد. والثانية كانت سنة (1593/1002) أولها:

لَعَبَتِ بِعِطْفِيهِ (3) الشَّمُولُ (4) فَمَادَا

كَالْغُصْنِ حَرَّكَهُ الْهَوَى فَنَادَا (5)

وقال فيها أيضاً:

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّ الْمَكَارِمَ يَافِثُ (6)

لَهُمْ وَأَسَّسَ مَجْدَهُمْ وَأَشَادَا

مَا سُرِّرَتْ رَأْيَاتُهُ فِي مَوْكِبِ

إِلَّا رَجَعْنَ وَقَدْ مَلَكَنَ بِلَادَا

(1) الشَّرَوْى: المِثْل، ويكون بلفظ واحد في الجميع؛ فيقال: «هو وهي وهم وهن شرواك» أي مثلك. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ش، ر، ي)، 428/14.

(2) الدِّيوان، ص44.

(3) العِطْفُ: جمعه أَعْطَافٌ وَعِطَافٌ وَعُطُوفٌ. وَعِطْفًا الرجل: جانباه أو ناحيته عنقه. انظر: ابن منظور، م. س، مادة: (ع، ط، ف)، 248/9.

(4) الشَّمُولُ: الخَمْرُ أو الباردة منها. سُمِّيَتْ بذلك لأنها تجمع شمل شاربها، أو لأنها تشتمل على العقل فتملكه وتذهب به. انظر: م. ن، مادة: (ش، م، ل)، 364/11.

(5) الدِّيوان، ص43.

(6) يَافِثُ: مِنْ أَبْنَاءِ نُوْحٍ.

يَقْتَادُ مِنْ أُمَّلَاكِهَا مَا شَاءَهُ
 قَسْرًا وَلَا يُعْطِي الْمُلُوكَ مَقَادًا
 تُثْنِي مَعَاظِفَهَا الْمَنَابِرُ بِاسْمِهِ
 وَتَهْزُ مِنْ طَرَبٍ بِهِ الْأَعْوَادُ⁽¹⁾
 وأما الثالثة فكانت سنة (1009 / 1600) ومطلعها:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

عَاطِنِيهَا قَبْلَ ابْتِسَامِ الصَّبَاحِ
 فَهِيَ تُغْنِيكَ عَن سَنَا⁽²⁾ الْمِصْبَاحِ⁽³⁾
 وقال أيضاً في قصيدة أخرى:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَشَدَّ أُرِّي بِمَا صَاقَ الثَّنَاءُ بِهِ
 دَرَعًا فَفَهَّهِنِي عَجْزًا وَعَيَانِي
 يُثْنِي الْعَفَاءَ عَلَى عَيْسٍ وَقَفَّنَ بِهِمْ
 عَلَى نَدَى أَرِيحِيٍّ غَيْرِ مَنَانِ
 لَمْ يَرْضَ بِالْمَجْدِ مَوْرُوثًا فَأَحْرَزَهُ
 كَسْبًا وَأَوْلَهُ يُغْنِي عَنِ الثَّانِي⁽⁴⁾

وأتصور أن مدحه هذا كان يستهدف منه الشكر والثناء لا منحة أو عطاء من ممدوحيه، بل ردّ جميل وإعجاب نتيجة ما فعله ذلك الوزير تجاه أهل القطيف حين فرارهم من بلدهم قاصدين البحرين

(1) الدِّيوان، ص44.

(2) السَّنَاء: الضوء. بقصر الممدود للضرورة الشعريّة.

(3) م. ن.، ص19.

(4) م. ن.، ص117.

حيث أمن لهم المأوى والأمن والعيش الكريم. وهذا يعتبر أقل ما يقدمه الإنسان لمن لجأ إليه وأحسن لجوءه.

لهذا قال:

[مِنَ الخفيف]

لَأَقَارِقَنَّ الخَطَّ غَيْرَ مَعْوِلٍ

فِيهَا عَلَى مَنْ صَنَّ أَوْ مَنْ جَادَا⁽¹⁾

وما انفك شاعرنا يردّد النعمة، والشّجاعة، والبأس، والكرم، والجدود في قصائده الأربع، وأسبغ عليه نعوتاً يكاد الشّاعر يكون مبالغاً فيها.

أ - 2. أمراء الحويّزة المشعشعيين

امتدح أبو البحر الخطّي من أمراء الحويّزة - المشعشعيين - اثنين كان لهما الفضل على الشّاعر، وأهل البحرين عامة، «إذ أفاد وجهاء البحرين عن طريقهما الاستعانة بالشاه عباس الصفوي في إجلاء البرتغاليين من البحرين»⁽²⁾. هما الأمير بدر بن مبارك خان والسيد خلف بن عبد المطلب ملك الدورق⁽³⁾.

وقد نظم الشّاعر في الأول قصيدة واحدة مكوّنة من ثلاثين بيتاً، وكانت بتكليف من السيد عبد الرؤوف الحسيني، لما كان بين السيد والأمير من روابط الصّحبة والمحبة ما يوجب ذلك. فنظم الخطّي على لسان السيد عبد الرؤوف قصيدته سنة (1599 / 1008).
منها:

(1) الديوان، ص44.

(2) عدنان العوامي، «دفاع عن أبي البحر»، مجلّة الواحة، 7 / 119.

(3) وردت ترجمة بدر بن مبارك والسيد خلف ملك الدورق في الباب الأول -

الفصل الثاني - ، ص151، 155 على الترتيب.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

سَلَامٌ كَمَا افْتَرَّتْ مَبَاسِمُ رَوْضِهِ
فَجَاءَ بِرِيَّاهَا نَسِيمٌ قُبُولِ
نَزَلْتُ بِهِ وَالْدَّهْرُ حَرْبٌ كَأَنَّمَا
تُطَالِبُنَا⁽¹⁾ أَحْدَانُوهُ بِدُخُولِ
فَكَانَ نَزُولِي بِابْنِ عَمٍّ وَوَالِدِ
وَصَنُو وَمَوْلَى صَالِحٍ وَخَلِيلِ⁽²⁾

أما السيد خلف ابن السيد عبد المطلب فقد امتدحه شاعرنا بقصيدة واحدة - سبق أن تحدثنا عن مناسبتها⁽³⁾ - إذ بلغ عدد أبياتها سبعة وخمسين بيتاً. كان ذلك سنة (1016 / 1607). قال في آخرها:

ظَلِيمٌ⁽⁴⁾ رَعَى حِينًا فَأَوْجَسَ خَيْفَةً⁽⁵⁾
فَأَفْحَمَ يَغْلُو نَشْرَ أَرْضٍ إِلَى نَشْرِ
وَمَا حُمَّلَتْ مِنْ مِدْحَةٍ عَرَبِيَّةٍ
تُرِيدُ إِذَا مَا أَنْشَدَتْ عَمَلَ السَّحْرِ
لَأَنْتَ عَلَى قُرْبِ الْمَكَانِ وَبُعْدِهِ
إِلَى الْقَلْبِ أَدْنَى مِنْ سِحَابٍ⁽⁶⁾ إِلَى نَحْرِ⁽⁷⁾

(1) في الديوان «تطالبنا»، والأصح «تطالبني» لتناسب المعنى.

(2) م. ن.، ص 98.

(3) انظر: الباب الأول - الفصل الثاني - ص 65.

(4) الظليم: الذكر من النعام. والجمع أظلمة، ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ظ)، ل، م،، 373/12.

(5) تضمين للآية القرآنية: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾، طه، 20 / 67.

(6) السحاب: قِلادة من القرنفل ونحوه. ليس فيها لؤلؤ ولا جواهر. والجمع سُحُب.

انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: (س، خ، ب)، 460/1.

(7) الديوان، ص 62.

وقد بعث شاعرنا كتاباً للسيد خلف ضمنه أبياتاً ثلاثة وهو يومذاك في أصفهان:

[من البسيط]

لَمَّا تَفَكَّرْتُ فِي شَيْءٍ أُسِيرُهُ
لِصَفْوَةِ الْهَاشِمِيِّنَ الْفَتَى خَلْفِ
وَجَدْتُ أَنَّ سَلَامَ اللَّهِ يَعْقِبُهُ
بَعْضُ النَّشَاءِ عَلَيْهِ أَجْمَلُ التُّخَفِ
فَشَاعَهُ حَيْثُ مَا أَلْقَى مَرَّاسِيهِ
سَلَامٌ مُثْنٍ عَلَيَّ نَعَمَاهُ مُعْتَرِفٍ (1)

وثمة قصيدة أخرى قالها في سلطان صحار (2) مهنا بن هديف (3) وكانت هذه المدحة حينما ذكر له أن مهنا بن هديف ينتمي إلى بني تغلب من نسل عمرو بن كلثوم (4). وهذه القصيدة

(1) الديوان، ص 76.

(2) صُحَار: قصبه عُمان ممَّا يلي الجبل، وتؤام: قصبها ممَّا يلي السَّاحل، وهي مدينة طيِّبة الهواء والخيرات، وإنما سُمِّيت بَصْحَار بن إرم بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَام. وهي حالياً مدينة ومرفأ في ساحل عمان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 393/3.

(3) هو مهنا بن محمد الهديفي، من قبيلة تغلب بن وائل. كان سلطاناً لصحار. وفي عهده تحرك العجم لاحتلال صحار منه. وفي هذه الأثناء استجاش سليمان بن مظفر، فلَبَّاه سليمان بجيش جَرَّار، وعسكر ضخَم، ونزل معه صحار، فوصلت العجم بعدها وعديدها عن طريق البحر، فنشبت الحرب بين الفريقين ودارت الدائرة على العجم، فانهزموا شرَّ هزيمة. لم نتمكن من الوصول إلى تاريخ ولادته أو وفاته. سالم السَّيَّابِي، عمان عبر التاريخ، 3 / 149.

(4) عمرو بن كلثوم: (40 ق هـ) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتَّاب، من بني تغلب، شاعر جاهلي من الطَّبقة الأولى وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة. ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة. وتجوَّل فيها وفي الشَّام والعراق ونجد. ساد قومه (تغلب) وهو فتى، وعمرٌ طويلاً، وهو الَّذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلَّفته. توفي نحو (584 / 1188). ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 157/1 - 160.

قالها رعاية لجانب النسب، إذ أرسلها من القطيف إلى صحار سنة
(1017 / 1608) منها:

[مِنَ الكامل]

مَوَالِي مَوَالِي تَغْلَبَ ابْنَةَ وَاِئِلٍ
وَحُسَامُ يُمْنَاهَا الْفَتَى ابْنُ هَدَيْفِ
وَسَبِيكَةُ النَّسَبِ الَّتِي لَمْ تَرَمِ فِي
دِينَارِهِ أَيَدِي الْوُصُومِ (1) بِزَيْفِ
مَنْ لِي بَحَضْرَتِهِ الَّتِي مَنْ زَارَهَا
فَكَأَنَّهَا قَدْ زَارَ وَادِي الْخَيْفِ (2)
يَا رَبُّ إِنْ لَمْ تَقْضِ لِي بِلِقَائِهِ (3)
فِي يَفْظَةٍ قَامُنٌ بِهَا فِي الطَّيْفِ (4)

ومما تقدّم نلاحظ أن مدح الشاعر للأمرء لم يكن غرضه التسوّل
«إذ لو كان شاعرنا من أهل التسوّل بالشعر لما أعوزه طلبه على
أبواب الأمرء والملوك. فمدحه لركن الدين محمود هو أقلّ ما يجب
على الشاعر لهذا الأمير، جرّاء ما قدمه من حماية وأمان للشاعر،
وأهل بلدته الفارين من وجه التعسف التركي» (5).

كما أننا نستشّف من خلال مدحه لأميري آل المشعشع إشارات

- (1) الوُصُوم: الوَصْمُ: العَيْبُ فِي الْحَسَبِ، وَجَمْعُهُ وُصُومٌ. انظر: ابن منظور، لسان
العرب، مادّة: (و، ص، م)، 638/12.
- (2) الْخَيْفُ: ما ارتفع عن موضع مجرى السَّيْلِ وَمَسِيلِ الْمَاءِ، وَاِنْحَدَرَ عَنْ غَلِظِ
الْجِبَلِ، وَالْجَمْعُ أَخْيَافٌ، وَمِنْهُ مَسْجِدُ الْخَيْفِ بِمَنْى لَأَنَّهُ فِي خَيْفِ الْجِبَلِ. ابن
منظور، م. ن، مادّة: (خ، ي، ف)، 101/9.
- (3) هَذَا الْبَيْتُ الْأَخِيرُ وَرَدَ فِي أَعْيَانِ الشَّيْخَةِ، وَلَمْ يَرِدْ فِي الدِّيَّوَانِ. انظر م. ن،
ص76؛ محسن الأمين، م. س، 4 / 161.
- (4) الدِّيَّوَانُ، ص76.
- (5) عدنان العوامي، «دفاع عن أبي البحر»، مجلّة الواحة، ص137.

واضحة المقصد على أنّهما أسدياً خدمات جليلة لأهل البحرين، لهذا بإمكاننا أن نستنتج أن مدحه لهؤلاء لم يكن غرضه المال أو العطيّة.

ب - هدايحه لرجالات عصره

أكثر الشّاعر من قصائده في المديح، وكان أغلب هذه القصائد نظمت في أمراء الإقليم والوزراء والأشراف والعلماء والأدباء ممّن كان الشّاعر يأوي إلى كنفهم، أو يتزوّد من زادهم سواء كانوا في القطيف أم في جزيرة (أوال) البحرين⁽¹⁾.

وقد أوردنا جملة وافرة فيما قاله فيهم في الفصل الذي تحدثنا فيه عن صلاته الشخصية وصدقاته⁽²⁾.

ولئن أردنا تتبّع علاقة الخطّي بمن امتدحهم من الأشراف العلويين وكذلك أسرة آل قارون⁽³⁾، سنجد جُلّ شعره فيهم، إذ كانوا أسياداً في قومهم وعلماء دين وأدباء على درجة من الشهرة. ومن قوله في العلويين:

[مِنَ البسيط]

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ أَعْمَاماً وَأَخْوَالاً

وَأَحْسَنَ النَّاسِ أَقْوَالاً وَأَفْعَالاً⁽⁴⁾

وقد امتدح شاعرنا الخطّي عدداً غير قليل من العلويين كما مرّ بنا سابقاً.

ونستدلّ على سبيل المثال لا الحصر قول أبي البحر في أحد أقطاب العلويين في جزيرة أوال (البحرين) قاضي القضاة عبد الرؤوف الحسيني:

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطّي»، مجلّة دراسات الخليج العربي، ص 166.

(2) انظر: الباب الأول - الفصل الثاني - ، ص 51.

(3) انظر: الباب الأول - الفصل الثاني - ، ص 63 - 64.

(4) الدّيوان، ص 94.

[مِنَ الكَامِلِ]

وَأَجْلَوْنَ عَلَيْهِ كُلَّ خَرِيدَةٍ
عَذْرَاءَ تَهْرَأُ بِالْعَذَارَى الْخُرْدِ
وَلَأْفِرَّعَنَّ عَلَيَّ مُقْلِدِ مَجْدِهِ
دُرْرًا يَهْشُّ لَهُنَّ كُلُّ مُقْلِدٍ (1)

كذلك قوله شاكراً ناصر بن سليمان الحسيني القاروني:

منها:

[مِنَ البَسيطِ]

وَدَوْحَةٌ مَا زَكَّتْ أَعْرَافُهَا وَنَمَتْ
إِلَّا وَقَدْ طَابَ مِنْهَا الظُّلُّ وَالثَّمَرُ
مَاذَا عَسَى يَبْلُغُ الْمُثْنِي بِمِدْحَتِهِ
عَلَى أَمْرِيءِ أَبَوَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (2)

ولم يقف أبو البحر الخطي في مدحه على أعيان منطقته، بل تعداها إلى فارس، إذ امتدح أمراء الحويزة - المشعشعيين - وعن طريقهم وصل إلى عالم زمانه فقيه الشيعة - آنذاك - بهاء الدين العاملي وامتدحه وأثنى عليه.

ومما قاله في بهاء الدين العاملي:

[مِنَ الطَّويلِ]

سَمِيَّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَأَمِينُهُ
عَلَى الدِّينِ فِي إِيْرَادِ حُكْمٍ وَإِصْدَارِ (3)

(1) الدِّيوان، ص 27.

(2) م. ن.، ص 45.

(3) م. ن.، ص 63.

ج - مدائحه لإخوانه وأصدقائه

كان شاعرنا الخَطِّي قد غادر بلاده القطيف إلى أوال (البحرين) طلباً للطمأنينة والعيش الكريم. وفي أثناء مكوثه في البحرين اتصل بالعلويين وقويت علاقته معهم. ومما قوّى الصلة، وزاد الألفة حب هذه العائلة للأدب وتذوقهم للشعر وقرضهم له فضلاً عما يتمتعون به من علم في دين. من هنا استطاع الخَطِّي توثيق علاقته بهؤلاء العلويين، إذ صار نديماً لبعضهم، وصفيّاً من خلص أصفيائهم. ناهيك عما وجدته من رعاية واهتمام حبّب له الإقامة جنبهم حقبة من الزمن.

من هؤلاء السيّد ماجد بن هاشم الصادقي العريضي، وخير ما نستدل به على عمق هذه الصداقة سمر الشّاعر مع السيّد، وما كان بينهما من مساجلة شعرية، إذ قال الخَطِّي: سَمَرَت لَيْلَةٌ عِنْدَ الشَّرِيفِ
العلامة والسماء دكناء الجلباب بالسَّحَابِ فَقَلَّتْ:

تَوَشَّحَتِ السَّمَاءُ بِبَرْدِ غَيْمٍ
فَأَجْمَلُ بِالْمَوْشَّحِ وَالْوَشَّاحِ

فقال السيّد:

[مِنَ الوافر]

فَقُمْ وَأَنْهَضْ إِلَى فَرَضِ التَّصَابِي

فَلَيْسَ عَلَيْكَ فِيهَا مِنْ جَنَاحٍ⁽¹⁾

وقال: وقد سَمَر مع صديقه أبي ماجد بن هاشم العريضي، وأبي عبد الله الحسيني الموسوي:

[مِنَ المنسرح]

يَا لَيْتَ أَرْوَاحَنَا الثَّلَاثَ تَجَّ

مَعَّنَ جَمِيعاً وَصَمَّهَا جَسَدُ

(1) الديوان، ص21.

كَمِثْلِ أَهْوَانِنَا الثَّلَاثَةِ قَدْ
 أَلْفَهَا لِاتِّحَادِهَا كِبِدُ
 أَوْ مِثْلِ أَجْسَامِنَا الثَّلَاثَةِ إِذُ
 صَمَّهَا لِاتِّتْلَافِهَا بَلَدُ⁽¹⁾

وللصلة الوثيقة التي تربطه بالشخصيتين السابقتين أثر واضح في جعل مديحه لهما نابغاً من الحبِّ والوفاء، بعيداً عن الأغراض المادية. ومن أصدقائه وخلانه السيّد جعفر بن عبد الجبار الموسوي⁽²⁾.. ومن جملة ما قاله الشاعر فيه:

[من الخفيف]

يَا سَمِيٍّ وَلَا سَبِيلَ إِلَى نَضْرٍ
 ي وَلَكِنْ يَدْعُو الصَّدِيقُ صَدِيقًا
 أَوْلَمْ يَأْنٍ لِلَّذِي أَسْكَرْتُهُ
 حَادَقُ الْبَيْضِ سَاعَةً أَنْ يَفِيقَا⁽³⁾

كما أنه امتدح راويته وزميله في الآداب حسن بن محمد بن علي بن غنيّة، وخصّه بخمس قصائد⁽⁴⁾:
 من ذلك قوله:

[من الطويل]

جَزَى اللَّهُ عَنِّي ابْنَ الْعَنِيَّةِ ضَعْفَ مَا
 جَزَى مُحْسِنًا مِنْ خَلْقِهِ بِفَعَالِهِ

(1) الديوان، ص34.

(2) السيّد جعفر بن عبد الجبار بن حسين العلوي الموسوي. وهو ممن استنسخ ديوان الشاعر سنة (1024 / 1056) سبق وأن ترجمنا له. انظر: الباب الأول، الفصل الثّاني، ص63.

(3) الديوان، ص81.

(4) م. ن.، ص54، 72، 94، 104، 121.

لَعَمْرِي لَقَدْ أَوْلَى الْجَمِيلَ تَبْرُعًا

وَبَادَرَ بِالْمَعْرُوفِ بَعْدَ (1) سُؤَالِهِ (2)

وَمِنْ خِلَانِهِ أَيْضًا عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنِ عَبْدِ الرَّؤُوفِ، وَنَاصِرُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ الْمَوْسَوِيِّ، وَالخَوَاجِةُ إِبْرَاهِيمَ - كَاتِبُ السُّلْطَنَةِ (بِأَوَالِ) وَهَؤُلَاءِ مِنْ جَمَلَةِ صِدَاقَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ - كَمَا أَسْلَفْنَا. وَقَدْ أَشَارَ أَبُو الْبَحْرِ الْخَطَّيُّ إِلَى صَدِيقَيْنِ آخَرَيْنِ هُمَا الشَّيْخُ خَمِيسُ بْنُ سَالِمِ بْنِ أَبِي سُرُورِ التَّمِيمِيِّ وَأَخُوهُ إِبْرَاهِيمَ (3).

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَرَدَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي شِعْرِهِ، وَاسْتَطَعْنَا مَعْرِفَةَ بَعْضِهِمْ لِشَهْرَتِهِمْ أَوْ بِمُسَاعَدَةِ الْمَرَاجِعِ الْآخَرَى حَسَبَ مَا وَرَدَتْ تَرَاجُمُهُمْ فِي حَاشِيَةِ هَذَا الْبَحْثِ.

وَبَقِيَ جُزْءٌ مِنْ شِعْرِهِ فِي الْمَدْحِ لَا نَعْلَمُ مَمْدُوحِيهِ فِيهِ. وَرَبْمَا الْمَقْطُوعَاتُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي كَانَ يَنْظُمُهَا شَاعِرُنَا أَبُو الْبَحْرِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ بِذِكْرِ اسْمِ مَمْدُوحِيهِ فِيهَا.

وَالْمَهْمُ فِي الْأَمْرِ، وَالَّذِي نُرِيدُ اسْتِخْلَاصَهُ، أَنَّ أَبَا الْبَحْرِ الْخَطَّيَّ كَانَ كَثِيرَ الصِّدَاقَاتِ وَالصَّلَاتِ الشَّخْصِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا أَنْفَاءً. وَالَّذِي نَعْتَقِدُهُ أَنَّ إِخْوَانَ أَبِي الْبَحْرِ جَمَاعَةٌ عَلَى شَاكِلَتِهِ عِلْمًا وَأَدْبَاءً. وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنْ مَا أوردناه مسبقاً، إن دل على شيء فإنما يدل على الصلة القوية والرابطة المتينة العفوية التي جمعت بينه وبين هؤلاء الأصدقاء. ويندرج شعره في هذا المجال تحت مسمى «الإخوانيات» (4) وهو في صياغته لما يوجهه إلى أصحابه وأصدقائه

(1) وردت كلمة «قبل» بدلاً من «بعد» في أعيان الشيعة.

(2) م. س.، 94.

(3) الدِّيوان، ص 114.

(4) الإخوانيات: «هي رسالة شعرية يبثها الشاعر إلى أهله وذويه وأحبابه وأصدقائه ومعارفه، تتناول العلاقات الأخوية والاجتماعية في شتى الظروف والمناسبات =

تشعّ منه ألوان الصفاء في المعنى واللغة. فهو حين يتحدث إلى أحد أصدقائه في مداعبة أو عتاب أو مدح يفتح قلبه، وكأنه يتحدث إلى نفسه.

ومن ذلك قوله معاتباً الخواجة إبراهيم بن محمد بن عبد الله:

[مِنَ الوافر]

لِإِبْرَاهِيمَ خَالِصَتِي وَوَدِّي
وَصَفْوُ سَرِيرَتِي وَوَفَاءُ عَهْدِي
فَتَى مَا زَالَ مُدْ نِيَطْتُ عَلَيْهِ
تَمَائِمُهُ يُعِيدُ نَدَى وَيُبْدِي (1)

«فالودّ الذي يبديه تجاه خُلصائه وأصحابه، لا تكلف فيه، وهو يظهر في هذه الأشعار إنساناً يحب أكثر مما يكره، ويتمسك بالوفاة نحو خلّائه، فهو يشاركهم إن كان حاضراً معهم ويراسلهم على البعد في غيابه، ولا ينقطع عنهم وعن أخبارهم وأحوالهم. وحينما ينقطعون عنه يعاتبهم، أو يلومهم على ذلك. فإن حالت بينه وبين مراسلتهم ظروف قاهرة فإنه يقدّم لهم اعتذارات شعرية رقيقة يأنسون بها» (2). وفي ظل هذه الأجواء جاء شعره خالياً من التكلف، والتصنّع.

د - مدائحه لآل البيت النبوي

«إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول لصفاته ونبوّته فقد امتدحوا آله وبيته لمقامه، ورفعته بين البيوت» (3).

= بما فيها من شوق ووداد واحترام وعتاب وفراق وتهنئة واعتذار ومزاح وزيارة وحنين». انظر: عبد الرحمن اللامي، الأدب العربي في الأحواز، ص 238.

(1) م. س.، ص 23.

(2) تقي البحارنة، «أبو البحر»، مجلّة المواقف، 18/1211.

(3) سامي الدّهان، المديح، ص 84.

وفي أثناء تقصينا لمدائحه في آل البيت النبوي لم نجد سوى قصيدتين خصهما بهم. وقد تمثلت هاتان القصيدتان في مرثيته لأبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب - شهيد كربلاء - القصيدة الأولى التي مطلعها:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

مَعَاهِدُ بِالْأَبْرَقِيْنَ هَوَامِدُ
رُزْقَنَ عِهَادَ⁽¹⁾ الْمُرْنَ تَلَكَ الْمَعَاهِدُ⁽²⁾

والشاعر في هذه القصيدة ينقل انطباعاته وأحاسيسه باللوعة والأسى لما أصاب الحسين وأهل بيته وأصحابه. وأبو البحر يتخيّل مصابهم في واقعة الطّف، فيبدي توجّعه الشديد لذبح مهاب:

فَمَا اللَّيْثُ ذُو الْأَشْبَالِ هِيَجُّ عَلَى طَوَى
بِأَشْجَعٍ مِنْهُ حِينَ قَلَّ الْمُسَاعِدُ⁽³⁾

أمّا الثانية فهي التي مدح فيها الشيخ البهائي وقبيلته من همدان، ثم تخلّص إلى مدح إمام العصر والزمان⁽⁴⁾ في قوله:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِمَامٌ هُدَى طَهْرٌ نَقِيٌّ إِذَا انْتَمَى
إِلَى سَادَةِ غُرِّ الشَّمَائِلِ أَطْهَارِ

وقال فيها أيضاً:

- (1) الْعِهَادُ: عَهْدُ الْمَكَانِ: أَصَابَتَهُ الْعِهَادَةُ. الْعَهْدُ وَالْعَهْدَةُ وَالْعِهْدَةُ جَمْعُهُ عِهَادٌ. وَالْعِهَادَةُ: أَوَّلُ مَطَرِ الرَّبِيعِ. ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانِ الْعَرَبِ، مَادَّةٌ: (ع، هـ د)، 310/3.
- (2) الدِّيوان، ص 36.
- (3) م. ن.، ص 36.
- (4) المقصود بالإمام هنا هو الإمام المهدي بن الحسن، الإمام الثاني عشر من أئمة الشيعة الإمامية.

وَمُنْتَضِرٌ مَا أَخَّرَ اللَّهُ وَقْتَهُ

لِشَيْءٍ سِوَى إِبْرَازِ حَقِّ وَإِظْهَارِ⁽¹⁾

ويتجلى في هذه القصيدة نموذج لعاطفة جياشة تتدفق
بإيمانٍ وحبٍّ صادقين.

وقد تمثل مدح الشاعر لأهل البيت النبوي عموماً في قصائده
المدحية للعلويين من أبناء البحرين والقطيف وفارس. فلا تكاد
تخلو قصيدة من قصائده في مدحهم أو رثائهم إلا ولأهل البيت
حضور واضح وجلي. من ذلك قوله:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

يَا أَحَا هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ

طَالَمَا اسْتَصْرَخَ الْأَسِيرُ الطَّلِيْقَا⁽²⁾

وقوله في مكان آخر:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

شَهَادَةُ اللَّهِ فِي التَّنْزِيلِ كَافِيَةٌ

فِي فَضْلِهِمْ عَن رَوَاهُ جَابِرٌ⁽³⁾ وَحَكِي⁽⁴⁾

وقوله في مرثيته لإحدى العلويات:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

جَمَعَنَ إِلَى عَقْلِ عَلٍّ جَابَ فَمَصَّهَا

لَهُنَّ عَلِيٌّ ذُو الْعُلَا وَعَقِيْلُ

(1) الديوان، ص65.

(2) م.ن.، ص82.

(3) أراد جابر بن عبد الله الأنصاري، وهو صحابي جليل روى عن رسول الله.

(4) م. ن.، ص84.

وَأَثْرَيْنَ مِنْ هَدْيِ الْبَتُولِ⁽¹⁾ وَرِاثَةً
فَمَنْ شِئْتَهَا مِنْهُنَّ فَهِيَ بَتُولُ⁽²⁾

وقوله أيضاً:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يَضُمُّ عَلِيًّا فِي الْفِخَارِ وَطَالِبًا
إِلَى جَعْفَرٍ⁽³⁾ أَكْرَمَ بِهِ وَعَقِيلٍ⁽⁴⁾

وكثير من قصائده المدحية والرائية على تلك الشاكلة. وأحسب أن كثيراً من شعر أبي البحر قد فقد - ومن ضمنه شعره في آل البيت النبوي - جراء ما تعرضت له بلاده من اضطرابات سياسية في عصره.

ويستغرب خالد الفرج أحد الكتاب المحدثين من قلة شعر أبي البحر الخطي في أهل البيت، ويرد ذلك في نهاية مقولته إلى نزوح الشاعر إلى الابتكار والتجديد والنأي بشعره عن التقليد المكرر. إذ قال: «ومن الغريب أن يكون شاعر ينتمي إلى العلم والدين في ذلك الوسط الشيعي الذي ديدنه البكاء على آل البيت آناء الليل

(1) البتول: البتول من النساء المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم. وقيل أيضاً: هي العذراء المنقطعة عن الأزواج، ويُقال هي المنقطعة إلى الله عن الدنيا. والمقصود في الأبيات هي فاطمة الزهراء بنت رسول الله، إذ جاء في الأثر أنه سئل أحمد بن يحيى عن فاطمة لما قيل لها البتول فقال: لانقطاعها عن نساء أهل زمانها ونساء الأمة عفاً وفضلاً ودينياً وحسباً. وقيل أيضاً: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله عز وجل، وقيل للسيدة مريم العذراء البتول. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ب، ت، ل)، 42/11.

(2) م. س.، ص 92.

(3) هو جعفر بن أبي طالب وعقيل بن أبي طالب، وهما أخوا علي بن أبي طالب ابن عم الرسول محمد.

(4) م. ن.، ص 98.

وأطراف النهار، ثم لا نجد له إلا قصيدة واحدة في رثاء الحسين، وثانية في معارضة قصيدة العاملي في مدح صاحب الزمان، مقترح عليه إنشاؤها، وما ذلك إلا لنزوعه إلى الابتكار، وعزوفه عن التقليد، وطرق المواضيع المطروقة..»⁽¹⁾.

ثالثاً: تركيب قصيدة المدح

نهج أبو البحر جعفر الخطي في قصائده المدحية منهج الشعراء السابقين له والمتقدمين عليه، وذلك في أغلب قصائد المدح. فالدارس لتلك القصائد يتبين ما يلي:

أ - المطلع التقليدي

ففي القصائد التي كانت تجري على النهج القديم⁽²⁾ كان المطلع التقليدي شائعاً في عصره، والعصور التي سبقتة، وقد ظل هذا التقليد ينتقل من عصر إلى آخر دون رفض أو اعتراض عليه من قبل الممدوحين أو نقاد وأدباء هذه العصور، مما جعل بعض الشعراء يعتقدون بضرورته في القصيدة، وهذا المطلع إما أن يدور حول الوقوف على الديار أو الخمر أو الغزل أو الشكوى، ثم الانتقال بعد ذلك إلى الغرض المقصود؛ هو المدح⁽³⁾.

ومن أمثلة وقوفه على الديار قوله شعراً في وزير البحرين ركن الدين محمود سنة (1592/1001):

[من الكامل]

مَاذَا يُفِيدُكَ مِنْ سُؤَالِ الْأَرْبُوعِ
وَهِيَ الَّتِي إِنْ حُوطِبَتْ لَمْ تَسْمَعْ

(1) خالد الفرّج، «الشاعر المغمور»، مجلة المنهل، ص 97.

(2) الديوان، ص 9، 19، 24، 43، 60، 63، 72، 81، 115، 118.

(3) حاتم الربيعي، «أبو البحر الخطي»، مجلة دراسات الخليج العربي، ص 62.

سَفَهُ وَوُقُوفَكَ فِي رُسُومِ رَثَّةٍ
 عَجَمَاءَ لَا تَدْرِي الْكَلَامَ وَلَا تَع
 فَذَرِ الْوُقُوفَ عَلَى مَحَانِي مَنَزِلِ
 عَافٍ لِمُخْتَلَفِ الرِّيَّاحِ الْأَرْبَعِ
 وَأَمْسِكْ عِنَانَ الدَّمْعِ عَن جَرِيَانِهِ
 فِي دُمْنَةٍ لَا تَحْمِدُنَكَ وَمَرَبَعِ⁽¹⁾

وهو في القصيدة يتابع ثورة أبي نواس⁽²⁾ على مطالع القصيدة التقليدية في الوقوف على الديار، فهذه الديار الخربة لا تعي الكلام ولا تفهمه⁽³⁾. ولكن شاعرنا الخطي كغيره من الشعراء لم يستطع التخلص من الوقوف على الديار في بعض شعره، فهو يدعو صاحبيه للوقوف على الديار والبكاء على ما بقي من معالمها؛ لأنها تذكره ببعض صباباته وأحزانه. وخير دليل على ذلك قوله:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

يَا صَاحِبَيَّ أَلِمَّا بِي عَلَى دَمَنِ
 أَقْوَتُ مَعَالِمَهَا مِنْ أُمَّ عُنْمَانَ
 عَلَى الْوُقُوفِ وَلَوْ لَوْتُ الْإِزَارَ بِهَا
 يَزِيلُ بَعْضَ صَبَابَاتِي وَأَشْجَانِي

- (1) حاجم الربيعي «أبو البحر الخطي»، مجلة دراسات الخليج العربي.
 (2) أبو نُوَاس (814/146) الحسن بن هاني بن عبد الأول بن صباح الحكمي، المعروف بأبي نواس: شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز (من بلاد خوزستان)، وأمه أهوازيّة. ونشأ بالبصرة، اتّصل بالخلفاء من بني العبّاس، ومدح بعضهم وخرج إلى دمشق ومنها إلى مصر، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن تُوفّي فيها. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 680/2؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 95/2.
 (3) حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطي»، مجلة دراسات الخليج العربي، ص 166.

وَأَوْقَفَانِي فِيهَا ثُمَّ لَا تَسَلَا
لَهَا السَّحَابُ الْعَوَادِي بَعْدَ أَجْفَانِي
فَوَقَّفَتِي فِي مَحَانِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ
خَيْرٌ لَهَا مِنْ مُلْتِ الْوَدْقِ هَتَّانِ⁽¹⁾
ثمَّ ينتقل إلى غرضه بكلِّ سلاسة وانسياب.

ب - الاستهلال بالخمرة

لقد عوّض بعض الشعراء عن المطلع التقليدي بمطلع آخر في بعض قصائدهم، كالبدء بوصف الخمرة، واشتهر من ذلك الأخطل⁽²⁾ وأبو نواس وكذلك فعل المتأخرون، ومنهم الخطي. وكانت له قصائد أخرى في الخمرة تأتي منفردة، فهو لا يتعرض إلى تأثيرها في جلب السرور، وإبعاد الهم عن شاربها كما فعل في قصائد المديح، وإنما يتعرض إلى ذكر أوصافها من لون وإشعاع وحفاظ على عذريتها على الرغم من امتدادها في الزمن، والمساومة مع بائعيها يجري فيها مجرى أبي نواس⁽³⁾.

ومن أمثلة ذلك قول أبي البحر في همزيته، وهو يجاري أبا نواس سنة (1591/1000):

(1) الديوان، ص116.

(2) الأخطل (19 - 90 / 640 - 708) غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو، ويكنى أبا مالك. من بني تغلب: شاعر، مصقول الألفاظ. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر في مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. نشأ على المسيحية. اتصل بالأمويين فكان شاعرهم، مدح معاوية ويزيد ومن بعدهم من خلفاء بني مروان. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 393/1.

(3) الديوان، ص2، 13، 21؛ حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطي»، مجلة دراسات الخليج العربي، ص168.

[مِنَ البسيط]

وَلَيْلَةٌ بُتُّ تَجْلُونِي حَتَادِ سَهَا⁽¹⁾
 مَدَامَةٌ كَدَمَ الْمَذْبُوحِ حَمْرَاءُ
 كَالنَّارِ وَالْمَاءِ إِنْ شِيَمْتُ وَإِنْ لُمِسْتُ
 وَفِي الْحَقِيقَةِ لَأَنْارٌ وَلَا مَاءٌ⁽²⁾

وقد استهمل الخَطْبِيُّ بعض قصائده المدحية بالغزل⁽³⁾ ابتعاداً
 عن الوقوف على الديار، أو ذكر الخمرة. كما في قصيدته التي مدح
 بها صديقه الشريف جعفر بن عبد الجبار بن حسين العلوي:

[مِنَ الخفيف]

بَعَثْتُ طَيْفَهَا فَرَارَ طَرُوقًا
 فَشَجَا وَامِقًا وَهَاجَ مَشُوقًا
 زُورَةٌ مَا شَفَّتْ مَرِيضًا شَكَ الْهَجْرَ
 زَمَانًا وَأَسْتَوْخَمَ التَّفْرِيقًا⁽⁴⁾

وصف زائرتة وصفاً يكاد يكون حسيّاً، فهو يصف أعضاء
 جسدها عضواً عضواً، فكأنما جاءته حقيقة، وعندما ينتهي من
 تغزله يذكر الشيب، ويشكو جوره، وتماديه في غيّه، فقد سرق
 العمر اختلاساً، فأفقدته نضارة وجهه لا يضاويه وجه آخر في نضارته
 وجماله.

إلى أن قال:

(1) الحَنَادِس: تطلق على ثلاث ليالٍ مظلمة في آخر كل شهر. انظر: ابن منظور،
 لسان العرب، مادة: (ح، ن، د، س)، 58/6. والمقصود هنا: الليل الشديد الظلمة.

(2) الدِّيوان، ص2.

(3) م. ن، ص24، 43، 81.

(4) م. ن، ص81.

يَا جَزَى الشَّيْبِ مَا جَزَاهُ وَأَثْوَا
هُ مَكَانًا مِنَ الْبَلَادِ سَحِيقًا
سَرَقَ الْعُمْرَ مِنْ يَدَيَّ اخْتِلَاسًا
فَقُصَّارَايَ أَنْ أَقْصَّ السَّرُوقَا

ثمَّ ينتقل إلى الممدوح ويصفه بأنَّه قد زاد على ما بنى آباؤه
منَّ المجد، وحمى ما حموه من الديار، وأعطى فوق ما أعطوا.
وهو في كُُلِّ هذا لم يعقه عائق حتَّى جاز الأفق سعيًا مستخدمًا
«العيوق»⁽¹⁾:

إِنَّ أَوْلَى الْوَرَى بِخَالِصِ وِدِّي
جَعَفَرٌ قَدْ غَدَا بِذَاكَ خَلِيقَا

وبعد بيتين قال:

سَارَ مَا سَارَ أَوْلُوهُ فَأَعْلَى
السَّمَكِ مِمَّا بَنَوْا وَسَدَّ الْفُتُوقَا
وَحَمَى مَا حَمَوْا وَزَادَ وَأَعْطَى
فَوْقَ مَا قَدْ أَعْطَوْا وَادِي الْحَقُوقَا

ثمَّ قال:

قَسَمًا لَمْ يَعْقُهُ شَيْءٌ وَجَازَ الـ
أَفْقَ سَعِيًّا وَاسْتَحْدَمَ الْعِيُوقَا⁽²⁾

كما أنَّ شاعرنا أبا البحر استهل قصائده بالشكوى. ومن ذلك
قوله:

(1) العيوق: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال، ويطلق قبل
الجوزاء، سُمِّي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا. ابن منظور، لسان
العرب، مادّة: (ع، و، ق)، 1/279.

(2) الدّيون، ص82.

[مِنَ الوافر]

بَثَّ بِي أَرْضُكُمْ فَرَحَلْتُ عَنْهَا
فَخَيَّرُ مِنْ إِقَامَتِي الرَّحِيلُ
إِذَا ذَلَّ الْعَزِيْزُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
وَطَاوَلَ لِلْعَزِيْزِ بِهَا الدَّلِيْلُ⁽¹⁾

وقوله في موضع آخر حين امتدح السيّد خلف بن عبد المطلب ملك الدورق:

[مِنَ الطّويل]

وَأَشْكُو لَكَ الدَّهْرَ الَّذِي عَضَّ جَاهِدًا
فَأَذَمِّي وَسَامَ الْعَظْمِ نَازِلَةَ الْكَسْرِ⁽²⁾

وتتجلى براعة أبي البحر الخطّبي في حسن تخلصه، وانتقاله من غرض إلى آخر⁽³⁾ دونما إحساس من القارئ بنقلة أو انقطاع أو قفزة أو تنافر بين الأغراض المقصودة، بل هي نقلة فيها انسياب وتسلسل محمود.

ومن نماذج حسن تخلصه قول يمدح صديقيه ناصر بن عبد الجبار بن حسين العلوي والخواجة إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل، وقد مرّ ذكرهما⁽⁴⁾.

[مِنَ الكامل]

لِي إِنْ تَحَامَانِي أَخٌ وَحَمِيْمٌ
أَخْوَانٍ فَضْلُهُمَا عَلَيَّ عَظِيْمٌ

(1) الديوان، ص86.

(2) م. ن.، ص60.

(3) م. ن.، ص6، 9، 11، 16، وغيرها..

(4) انظر: الباب الأوّل، الفصل الثّاني، ص64.

كَهْفَانِ آوِي فِي الْخُطُوبِ إِلَيْهِمَا
وَعَلَى النَّصِيرِ يُعَوَّلُ الْمَظْلُومُ

إلى أن قال:

جَاءَتْ بِهِدَا مِنْ قَرِيشٍ جَحَاجِحُ
وَأَتَتْ بِدَلِكٍ مِنْ تَقَى قَرُومُ
وَهُمَا فَتَى فِتْيَانٍ هَاشِمٍ نَاصِرُ
وَجَمَالُ آلِ تَقَى إِبْرَاهِيمُ⁽¹⁾

ارتأينا الاكتفاء بهذه النماذج خشية الإطالة، وفي ديوان الشاعر
المزيد لمن شاء التوسع. أما القصائد التي استغنت عن المطلع
التقليدي فإنها غالباً ما تتحدث عن جور الزمان على المرء، فتدفعه
لأن يلوذ بجانب رجل كريم، يدفع الملمات عنه في وقت الحاجة،
تأتي جوائز للشعراء إرسالاً بلا طلب أو منة. وهو معتاد على إعطاء
المئين كاملة. وغير منقوصة⁽²⁾:

[مِنَ الْكَامِلِ]

أَنَا إِذَا جَارَ الزَّمَانُ وَسَامَنَا
ظُلْمًا وَجَشَمْنَا رُكُوبَ الْحَيْفِ
لُدْنَا عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ بِجَانِبِ
حَسَنِ يُدْمُ عَلَى الشِّتَا وَالصَّيْفِ

وبعد ثلاثة أبيات قال:

يَعْتَدُ إِعْطَاءَ الْمَيْنِ كَوَامِلًا
نُقْصَاً فَيُكْمِلُ عَدَهُنَّ بِنَيْفِ⁽³⁾

(1) الديوان، ص 106.

(2) حاجم الربيعي، «أبو البحر الحطّبي»، مجلة دراسات الخليج العربي، ص 169.

(3) م. س.، ص 75 - 76.

رابعاً: معانيه المدحية

إنَّ الشعراءَ المجيدين منذ الجاهليَّة، وما تبعه من عصور يرون الصِّفات المُثلى، والفضائل البارزة في ممدوحهم ليرسموا مديحهم، وإعجابهم، وتقديرهم في قصائدهم، وشاعرنا لم يخرج عن تلك المعاني التي سار عليها أولئك الشعراء من قبله. لذا ارتأيت تقسيم معاني الشَّاعر على النَّحو التَّالي:

أ - المعاني الخلقية

أ - 1. الأصل والنسب

قال يمدح بعض الأعيان:

[من الطويل]

فَمَا سَوَدَ النَّسَابُ وَجَهَ صَحِيفَةٍ
بَأَبْيَضٍ مِنْهُ وَجَهَ أَصْلٍ وَمَحْتَدٍ
كِلَا طَرْفَيْهِ حِينَ تَنْسِبُهُ إِلَى
عَالِيٍّ وَخَيْرِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ⁽¹⁾

يفخر الشَّاعر بنسب الممدوح العريق الذي يتصل بأهل البيت النَّبوي، وأنه تحدر من الأصلاب الزكية أمًّا وأبًّا وهو خلاصة أبناء الكرام.

وقال في الشَّريف السيِّد ماجد بن هاشم العلوي العريضي:

[من الخفيف]

طَاهِرُ الْأَصْلِ بَاهِرُ الْفَضْلِ وَافِي
الْعَقْلِ غَالِي الْمِقْدَارِ غَالِي الْقَدْرِ⁽²⁾

(1) الدِّيوان، ص 25.

(2) م. ن.، ص 55.

وَمِنَ الْقَصِيدَةِ نَفْسُهَا:

يَا أَخَا هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ

دَعَاؤُهُ مِنْ أَخِي ثَنَاءً عَمْرٍ (1)

فالممدوح ينحدر من أصل طاهر شريف متصل نسبه بالنبي محمد بن عبد الله، ولا عجب أن يكون الممدوح فضله باهر للناس، وعقله راجح للعيان، ومنزلته عالية، ويؤكد ذلك النسب في البيت الذي تلاه لإخوته هاشم بن عبد مناف.

والشاعر يستعمل عبارة «يا أخا هاشم بن عبد مناف» أكثر من مرة حين يمدح العلويين ليسبغ على الممدوح أعلى مراتب النسب والأصل الطاهر. ومن ذلك قوله يمدح الشريف العلوي عبد الرؤوف بن ماجد القاروني:

[مِنَ الْخَفِيفِ الْمَدُورِ]

يَا أَخَا هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ

أَنْتَ دَفِئُ الشُّتَاءِ وَبَرْدُ الصَّيْفِ (2)

وقوله في مدح صديقه جعفر بن عبد الجبار الموسوي:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

يَا أَخَا هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ

طَالَمَا اسْتَصْرَخَ الْأَسِيرُ الطَّلِيْقَا

عَلَوِيٌّ يَعْلُو الرِّجَالَ إِذْ طَا

وَلَهُمْ مُحْتَدًا وَعِرْقًا عَرِيْقَا (3)

(1) الديوان، ص 57.

(2) م. ن. ، ص 77.

(3) م. ن. ، ص 82 - 83.

كما قال فيه أيضاً:

[مِنَ البسيط]

يَا بَنَ الدِّينِ تَوَلَّى اللّهُ مَدَحَهُمْ
دُونِي فَهُمْ أَغْنِيَاءُ عَن مَقَالِ فَمِ
قَوْمٌ كَأَنَّكَ إِذْ تَتَلَوْ مَنَاقِبَهُمْ
تُغْرِي بِزَهْرِ الرَّبِّي مُعْتَلَّةَ النَّسَمِ⁽¹⁾

إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى مجد ومدح وأوصى على أهل البيت النبوي بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾⁽²⁾.

وبيّن في موضع آخر أن الممدوح متفرع من شجرة طيبة أصلها بيت النبوة.

[مِنَ الخفيف]

يَا بَنَ عَبْدِ الْجَبَّارِ إِنْ طُبَّتْ فَرَعًا
فَلَقَدْ طُبَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ عُرُوقًا
وَكَرِيمُ الْأَبَاءِ إِنْ شَفَعَ الْأَصْلُ
لُ بِفَرَعٍ أَفَادَهُ تَصْدِيقًا⁽³⁾

فالشاعر يمدح سيّداً من سادة العلويين، فنشعر أن شيئاً من الفخر ينتاب مديحه، كما أن شعره في هذا الجانب يخلو من التصنع والتكلف؛ لأنه يصدر عن قريحة صادقة.

وأكد شاعرنا جانب الأصل والنسب كذلك حينما امتدح الأمير الشّريف بدر الدّين بن مبارك خان بقوله:

(1) الديوان، ص 105.

(2) الأحزاب، 33 / 33.

(3) الديوان، ص 83.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يَمُتْ إِذَا اسْتَنْسَبْتُهُ بِأَبْوَةٍ
تَمَدُّ بِبَاعِ فِي الْفَخَارِ طَوِيلِ
يُضْمُ عَلِيًّا فِي الْفَخَارِ وَطَالِبًا
إِلَى جَعْفَرٍ أَكْرَمٍ بِهِ وَعَقِيلِ
فِيحَرُّرُ غَايَاتِ الْعُلَا بِعُمُومَةٍ
مُعَرَّقَةٍ⁽¹⁾ فِي هَاشِمٍ وَخَوْوَلِ⁽²⁾

فالممدوح علويّ، وهو من جُلّ الكرام العُرّ الميامين محمد وآله، ويكفيه فخراً أنه ينتسب إلى أهل البيت الهاشمي عمومةً وخؤولةً.

هذا جانب من جوانب مدح الخطي للعلويين، وافتخاره بنسبهم وكان ذلك عنصراً مهماً في قصائده المدحيّة. كما استغل الخطي هذا الجانب في معظم مدائحه، إيماناً منه لما استوجه به بعض النقاد القدامى من أنه لا ينبغي أن يخلو المدح من مناقب لأبء الممدوح⁽³⁾.

أ - 2. الشجاعة

الشجاعة عنصر من عناصر قصيدة المدح عند الشعراء القدامى، لذلك قلّما نجد شاعراً من شعرائهم يتغاضى عن شجاعة ممدوحه، خاصةً إذا كان الممدوح ملكاً أو أميراً أو وزيراً أو قائداً. وسبيل الشاعر - إذا مدح ملكاً - أن يسلك طريقة الإيضاح

(1) المُعَرَّق: الذي ورث الأصل والنسب من آبائه. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ع، ر، ق)، 240/10.

(2) الدِّيوان، ص 98.

(3) العسكري، الصناعتين، ص 101.

والإشادة بذكر الممدوح، وأن يجعل معانيه جَزَلَةً، وألفاظه نقية، غير مبتذلة، ويجتنب - مع ذلك - التَّقْصِير، والتجاوز، والتطويل؛ فإن للملك سامة، وضجراً، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب، وحرَم من لا يريد حرمانه»⁽¹⁾.

وشاعرنا أبو البحر نهج ذلك النهج في مدحه للملوك والأمراء وغيرهم. إذ وصف ممدوحيه بالشجاعة، والإقدام، والبطولة، وهذه صفات يحسن بالحاكم أن يتحلى بها ويضطرب لسماعها. وها هو يمدح ركن الدين محمود إذ قال:

[مِنَ الخفيف]

كُسْرَوِيُّ العَدَالَةِ اسْكَنْدَرِيُّ ا
لِفَتْحِ وَالْعَزْمِ رُسْتَمِيُّ الكِفَاحِ
أَسَدُ الفَتْكِ أَجْدَلُ الخَطْبِ ذِيْبُ
الْكَرِّ فَهْدُ الوُثُوبِ كَبْشُ النُّطَاحِ⁽²⁾

فالممدوح من العرب الفرسان الذين كافحوا العدوان، وهو حاكم يسوس الناس بالحنكة، والعدالة، وله عزم كعزم الإسكندر المقدوني في فتوحاته، كما أنه ليث في النزال، وفهد في إقدامه على الأعداء.

وقد صور الشاعر مآثر الممدوح البطولية في ساحات الوغى وحلبات النضال في موضع آخر:

[مِنَ الكامل]

مَا سُوِّرَتْ رَايَاتُهُ فِي مَوَكِبٍ
إِلَّا رَجَعْنَ وَقَدْ مَلَكَنَ بِلَادَا

(1) ابن رشيق، العمدة، 2 / 128.

(2) الديوان، ص 20.

يَقْتَادُ مِنْ أَمْلَاكِهَا مَا شَاءَهُ

قَسْرًا وَلَا يُعْطِي الْمُلُوكَ مَقَادًا⁽¹⁾

ويصوّر الشاعر فروسيّة قاضي القضاة عبد الرؤوف الحسيني في ساحة القتال فهو صليب على عجم الحوادث، مقدم على الأعداء. والأبيات التالية تمثّل شجاعة الممدوح خير تمثيل، إذ قال فيه :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

صَلِيبٌ عَلَى عُجْمِ الْحَوَادِثِ عُوْدُهُ

جَرِيءٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ غَيْرُ نَكْوِلِ

إِذَا اكْتَفَفْتُهُ النَّائِبَاتُ نَكَصْنَ عَنُ

نَهْوِضٍ بِأَعْبَاءِ الْخُطُوبِ حَمُولِ

قَرِيعٌ وَعَيٌّ لَوْ بَارَزَ الْمَوْتَ لَمْ يَكُنْ

لِيَرْجَعَ إِلَّا فِي ثِيَابِ قَتِيلِ

إِذَا صَاقَ بِالْخَيْلِ الْمَجَالَ مَشَى بِهَا

عَلَى مِثْلِ حَدِّ الْمَشْرِفِيِّ ذَلِيلِ⁽²⁾

أ - 3. الجود والكرم

يركّز الخطّي في أكثر مدائحه على صفة الكرم، والبذل، والعطاء. وأنّه لن ينسى ممدوحه الذي غمر أياديه بالجود، والسخاء، إذ إنه قصد ملكاً جواداً باسطاً يديه بالعطيّة لطالبيه، وهذه الصّفة مستمدة من مؤسس مجدهم يافثُ بن نوح.

فيقول في وزير البحرين ركن الدين محمود:

(1) الديوان، ص44، وانظر: م. ن، ص45، 47، 76، 117.

(2) الديوان، ص99، وانظر: م. ن، ص61، 62، 64، 108.

[مِنَ الكَامِلِ]

وَلَاذْكَرَنَّ عَلَى النَّوَى فِيهَا أَمْرَةً
 عَمَرَ (1) النَّوَالَ مَتَى اسْتُمِيحَ أَجَادَا
 وَلَاخْبُطَنَّ حَشَى الظَّلَامِ مُيَمَّمًا
 مَلِكًا بِمَا مَلَكَتْ يَدَاهُ جَوَادَا
 مِنْ مَعَشَرٍ سَنَّ المَكَارِمَ يَافِتُّ
 لَهُمْ وَأَسَسَ مَجْدَهُمْ وَأَشَادَا (2)
 وقوله ممجداً جوده، ومنوهاً بأريحيته وعطفه، كما أنه بحر من
 الجود:

[مِنَ الخَفِيفِ]

أَرِيحِي مَآ جَادَا إِلَّا وَأَغْنَى
 وَأَعَادَ المُمْتَاخَ (3) رَبَّ ارْتِيَاخِ
 قِفْ عَلَى بَحْرِ جُودِهِ بِي قَرِييِ
 مِنْهُ لَا مِنْ كَارُونَ (4) وَالْجِرَاحِ (5)
 وقد قال في العلويين إنهم أكرم الناس، وأحسنهم قولاً وفعلًا
 وإن عطاياهم كثيرة تأتي دون سؤال، أي أنهم يعطون أعطياتهم قرابة
 لوجه الله لذلك لا منة وراء العطيّة. ويتمثل هذا المعنى في قول
 أبي البحر لأحد العلويين:
 [مِنَ البَسِيطِ]

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ أَعْمَامًا وَأَخْوَالًا
 وَأَحْسَنَ النَّاسِ أَقْوَالًا وَأَفْعَالًا

(1) الغمر: الماء الكثير.

(2) الديوان، ص44.

(3) الممتاخ هنا كناية عن الطالب، من فتح الدلو: أي استخرج الماء.

(4) كارون، الجراح: نهران في خوزستان. م. ن.، حاشية ص20.

(5) الديوان، ص20. وانظر: م. ن.، ص73، 69، 117.

نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ مَوْلَى جَوَائِزُهُ
تَأْتِي بِلَا طَلَبٍ لِلنَّاسِ إِرْسَالًا
قَسَمْتُ جُودَكَ بَيْنَ الطَّالِبِينَ لَهُ
لِلرَّأْسِ تَاجًا وَلِلرَّجْلَيْنِ خِلْعَالًا
إِنْ يُعْطِ غَيْرَكَ مِثْقَالَ يَمْنُ بِهِ
فَلَا تَمَنَّ إِذَا أُعْطِيَتْ أَرْطَالًا⁽¹⁾

وقوله في الأمير بدر بن مبارك خان، إذ يقصده الفقير فلا
يأذن له بالرجوع إلا وقد حصل على مبتغاه.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

كِرِيمٌ مَتَى أَلْقَى الْعَصَا بِفَنَائِهِ
أَخُو الْعَدَمِ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ بِقُفُولِ⁽²⁾

أ - 4. الأوصاف الدينية

من الصفات الدينية التي أسبغها الخطي على ممدوحيه من العلويين
أنهم عوامد للبيت الحرام من شدة تقواهم وتعبدتهم المستمر، والأبناء
شبهون بأبائهم سماحةً ومولداً طاهراً وذلك في قوله:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

عَوَامِدُ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ بِفِتْيَةٍ
نُقَالِ الْأَدَاوِي مِنْ نُقَى وَتَعْبُدِ
لَا عَوَزَ إِنْ يَأْتِي أَبٌ بِشَبِيهِهِ
سَمَاحَةً نَفْسٍ فِي طَهَارَةِ مَوْلِدِ⁽³⁾

(1) الديوان، ص94. وانظر: م. ن.، ص14، 15، 27، 28، 64، 69، 83، 106.

(2) م. ن.، ص98.

(3) م. ن.، ص26.

وَأَنَّ الْعَلَوِيَّ إِذَا لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ الرَّسُولِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ
فَهُوَ لَيْسَ بِسَيِّدٍ:

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ كَمُحَمَّدٍ
فَمَا هُوَ إِنْ فَتَّشْتَ عَنْهُ بِسَيِّدٍ (1)
وقال مادحاً بهاء الدين العاملي:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

سَمِيَّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَأَمِينُهُ
عَلَى الدِّينِ فِي إِيرَادِ حُكْمٍ وَإِضْدارِ
بِهِ قَامَ بَعْدَ الْمَيْلِ وَأَنْتَصَبَتْ بِهِ
دَعَائِمٌ قَدْ كَانَتْ عَلَى جُرْفِ هَارٍ (2)
وقوله في السيد ماجد العريضي:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

يَا عِمَادَ الْإِسْلَامِ يَا عِصْمَةَ الدِّ
يِنِ الْحَنِيفِيِّ يَا جَمَالَ الْعَصْرِ (3)
وقال في الشريف جعفر بن عبد الجبار:

[مِنَ الْكَامِلِ]

الْعَالَمُ الْعَلَمُ الْبَعِيدُ الْمُرْتَقَى
وَالْمَوْرِدُ الْعَذْبُ الْقَرِيبُ الْمُسْتَقَى
شَمْسُ الْعُلَا نَجْمُ الْهُدَى طَوْدُ النَّهْيِ
بَحْرُ النَّدَى رُكْنُ الرَّجَا كَنْزُ الثَّقَى (4)

(1) الديوان، ص26. وانظر: م. ن.، ص29، 55، 56.

(2) م. ن.، ص63 - 64.

(3) م. ن.، ص57.

(4) الديوان، ص80. وانظر: م. ن.، ص83، 105.

وقوله مادحاً وزير البحرين ركن الدين محمود، إذ قرن الشاعر
شجاعة الممدوح بالنسك والخشوع وجمعهما في صورة واحدة.
[مِنَ الكامل]

حَتَّى تَرَجَّـلَ لِلصَّلَاةِ وَلَمْ نَجِدْ
أَسَدًا يُصَلِّي قَبْلَهُ فِي مَجْمَعِ
بَيْنَاهُ أَفْتُكَ فَاتِكَ أَبْصَرْتُهُ
فِي النَّسْكِ أَحْشَعِ خَاشِعٍ مَتَخَشِّعٍ (1)

أ - 5. التفوق والتفرد

يَصُورُ الحَظِيَّ ممدوحه بأنه قَمَّة في الدين والدنيا والعلم
والرأي الحكيم، وأن كرمه وعلمه وشجاعته فريدة لا يرقى إليها أحد
من الناس، فيقول في مدح أحد العلويين:

[مِنَ الطَّويل]

عَجِبْتُ لَمْ يَبْلُغِ الحِلْمَ وَالَّذِي
تُعَايِنُهُ مِنْ فِعْلِهِ فِعْلَ أَشْيَبَا
بَنِي هَاشِمٍ مَاذَا لَكُمْ عِنْدَ حَاتِمِ
دَعْوُهُ فَقَدْ عَادَرْتُمْ جُودَهُ هَبَا
مَتَى مَا يُطَاوِلُهُ حَبَاءٌ وَلِيَدِكُمْ
يَطْلُهُ وَمَا دَانَى التُّهُوِصَ وَلَا حَبَا (2)

وقوله في موضعٍ آخر:

[مِنَ الكامل]

إِنَّ العُلَى أْفُقُّ مَتَى اسْتَجَلَيْتَهَا
أَلْفَيْتَ أَنْجْمَهَا عِيُونَ الحُسْدِ

(1) الديوان، ص74. وانظر: م. ن، ص45.

(2) م. ن، ص10.

لَا عُذْرَ لِلْعَلَوِيِّ إِنْ أَبْصَرْتَهُ

بَعْدَ الْفِطَامِ يَشُبُّ غَيْرَ مُحَسَّدٍ (1)

وفي قوله مادحاً ناصر بن سليمان القاروني:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مَاذَا عَسَى يَبْلُغُ الْمُثْنِي بِمِدْحَتِهِ

عَلَى أَمْرِيءِ أَبَوَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

لَوْلَا تَقَدُّمُ آبَاءٍ تَمَّتْ بِهِمْ

لَكُنْتُ أَكْرَمَ مَنْ أَوْلَى بِهِ مُضَرٌ (2)

ومِنَ شعره قصيدة يمدح بها العالم السيد ماجد الصادقي
ويذكر ما تميز به الممدوح من أدب وعلم وفضل.

[مِنَ الْخَفِيفِ]

أَدَبٌ بَارِعٌ يَضُمُّ رِجَالَ النَّظْمِ

فِيهِ إِلى رِجَالِ النَّثْرِ

وَدَكَاءٌ وَفِطْنَةٌ مِثْلَ مَا تَعَبْتُ

رِيحُ الصَّبَا بِدَاكِي الْجَمْرِ (3)

وقوله في القصيدة نفسها:

إِنْ دُعِيَ مَا جِدًّا سِوَاكَ مِنْ النَّأ

سِ فَمِنْ سَائِرِ الْكَلَامِ الْهَدْرُ (4)

مَا أَرَى مِنْ بَنِي زَمَانِكَ مَنْ يَجْرِي

ي إِلى غَايَةِ لَهَا أَنْتَ تَجْرِي

(1) الديوان، ص 29، 45.

(2) م. ن.، ص 45 - 46.

(3) الديوان، ص 55.

(4) م. ن.، ص 59.

هَاهُمْ اللُّؤْلُؤُ الثَّمِينُ وَلَكِنَّكَ
 فِيهِمْ وَسَاطِي نِظَامِ الدُّرِّ
 أَنْتَ كَالْبَدْرِ فِي مَحَلٍّ مِنَ الْأَفْقِ
 وَيَكْسُو بِضَوْئِهِ كُلَّ قَطْرٍ⁽¹⁾
 وقال مادحاً وزير البحرين ركن الدين محمود:

[مِنَ الْكَامِلِ]

مَلِكاً رَقَى دَرَجَ الْفَخَارِ فَلَمْ يَدَعْ
 فِيهَا لِرَاقٍ بَعْدَهُ مِنْ مَطْمَعٍ⁽²⁾
 وقال فيه أيضاً:

[مِنَ الْوَافِرِ]

إِنَّ الْوَزِيرَ أَدَامَ اللَّهُ ذَوْلَتَهُ
 لَوَاحِدٌ مَا لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ ثَانٍ⁽³⁾

ب - المعاني الثقافية

ب - 1 - الإشارات التاريخية والأدبية

ضمّن الشاعر قصائده المدحية بعضاً من الإشارات التاريخية، والأدبية، وهذه الظاهرة تسترعي الانتباه في شعره، فاهتمامه بأيام العرب، وأعلامهم المشهورين في عصور ما قبل الإسلام، وما بعده، والتركيز على مفاخر قومه في تلك الأيام تعكس لنا ثقافة الشاعر التاريخية الواسعة.

«فالشاعر ينتمي إلى ربعة من أحد فروعها وهو يذكر هذه

(1) الديوان، ص 59.

(2) م. ن.، ص 73.

(3) م. ن.، ص 117. وانظر: م. ن.، ص 61.

الفروع: وائل، بكر، تغلب، شيبان، وكان لهذه الفروع أيام مشهورة في التاريخ العربي منها حرب البسوس، ومعركة ذي قار»⁽¹⁾.

ومِنَ خِلالِ مَدْحِهِ لِمُهَنَّأِ بْنِ هُدَيْفٍ - سُلْطَانِ صُحَارٍ - وَهُوَ يَنْتَمِي إِلَى تَغْلِبِ بْنِ وَائِلٍ مِنْ نَسْلِ الشَّاعِرِ الْمَشْهُورِ (عَمْرُو بْنِ كَلْثُومٍ) يَرْكُزُ عَلَى شِجَاعَتِهِ وَيَصِفُهُ بِأَنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ تَغْلِبِ بْنِ وَائِلٍ بِقَوْلِهِ:
[مِنَ الْكَامِلِ]

مَوَالِي تَغْلِبِ ابْنَهُ وَائِلٍ
وَحِسَامٌ يُمَنَّاها الْفَتَى ابْنُ هُدَيْفٍ⁽²⁾

وقوله:

[مِنَ الرَّجْزِ]

رَعَتْ قُرَيْشٌ فِينَا الدَّمَامَ عَلَى
جَعَا ابْنِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ⁽³⁾ الْقُرْبَا
لِلَّهِ مَا أَحَبُّ لِلضَّيْفِ إِنْ
حَلَّ وَلِلطَّيِّبَاتِ مَا أَحَبَّا⁽⁴⁾

وترد حرب البسوس - إحدى أيام العرب - في شعره، ومن خلال بيان ممدوحه ماجد الصادقي وقدرته على إيقاف سيوف الثأر بين حبيي وائل المتقاتلين بكر وتغلب:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وَبَيَانَ لَوْ أَنَّهُ بَيْنَ حَيِّي
وَائِلٍ أَعْمَدَا سُيُوفَ الْوِثْرِ⁽⁵⁾

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر الحطبي»، مجلة دراسات الخليج العربي، ص 197.

(2) الديوان، ص 76.

(3) في هذا البيت إشارة واضحة لقبيلتي قريش وبكر بن وائل. وهما قبيلتان عربيتان لهما أمجاد وسيادة.

(4) م. ن.، ص 9.

(5) م. ن.، ص 56.

«وغالباً ما يتجاوز الشاعر أعلام قبيلته إلى أعلام العرب الآخرين. وكان هؤلاء يقرون بصفاتهم مثل أبي كرب في ملكه، وحاتم الطائي في كرمه، وكعب بن مامة في جوده، ومادر في بخله، وامرئ القيس في قريضه، والأشجع السلمي في فحولته للشعر، ومعبد في غنائه، وحمّاد عجرد في بلاغته⁽¹⁾ وهؤلاء يأتون عَرَضاً في قصيدة المديح أو العتاب»⁽²⁾.

ومِن ذلك قوله على سبيل المثال لا الحصر:

[مِن الخفيف]

كِسْرَوِيٌّ الْعَدَالَةَ اسْكَنْدَرِيٌّ الْـ
فَقَّحِ وَالْعَزْمِ رُسْتَمِيٌّ الْكِفَاحِ
أَحْنَفُ الْحُكْمِ أَكْثَمُ الرَّأْيِ زُبَيْرِ
الثَّارِ فُسُ الْبَيَانَ كَعْبُ السَّمَاحِ⁽³⁾

وقوله:

[مِن الكامل]

أَوْ مَادِرٍ⁽⁴⁾ كَأَخِ السَّمَاحَةِ حَاتِمِ
خَطْبُ لَعْمَرِ أَبِي الْكِرَامِ جَسِيمِ⁽⁵⁾

وقد ورد أعلام الماضين في شعره، وممن جاء ذكرهم في القرآن

(1) الديوان، ص6، 32، 56، 73، 74، 75، 83، 104، 106.

(2) حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطي»، مجلة دراسات الخليج العربي، ص199.

(3) م. س.، ص20.

(4) هو من بني هلال بن صعصة يضرب به المثل في البخل. وانظر: ص10، 25، 55، 58، 75.

(5) م. ن.، ص106.

الكريم، وأغلبهم من الأنبياء فمثلاً: ذكره للنبي «إدريس» وبيان كبر قدميه. في مدحه للشيخ البهائي:

[مِنَ البسيط]

بَيْنَاكَ بِالْأَمْسِ تُعْلِينِي ذُرَى رُتَبِ

شَمِّ تَهَشُّ لَهَا أَقْدَامُ إِدْرِيسِ (1)

«وقد ذُكِرَ النبي نوح إذ كان نجاراً في سفينته (2)، والنبي سليمان في تسخيره الجن والإنس لبناء ملكه، واستخدام البساط في الطيران (3)، والنبي يعقوب في عزائه على يوسف (4)، والنبي موسى في مقابلته للسحرة (5)، والنبي عيسى (6) في إحياء الموتى (7).

إن ورود مثل هذه الأعلام والشخصيات التي طواها الزمن في شعره تشكل رافداً قوياً وينبوعاً متدفقاً لمعاني شعره» (8).

ب - 2. الفصاحة

لم يغفل شاعرنا أبو البحر ما يتمتع به الحاكم أو الوزير من فصاحة منطق، وبيان، ورأي سديد وحكيم. لذلك استغل خلفيته، وثقافته التاريخية، والأدبية ليشبه ممدوحه برجال قمة في الرأي والبيان. من ذلك قوله في وزير البحرين:

(1) الديوان، ص 69.

(2) ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هود، 42/11.

(3) ﴿وَأَسْلَمْنَا مَنْ الرِّيحِ عاصِفةً تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ الأنبياء، 81/21.

(4) ﴿وَقَالَ يَا سَفِينِي عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يوسف، 84/12.

(5) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ يونس، 80/10.

(6) ﴿وَأُحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ آل عمران، 49/2.

(7) الديوان، ص 56، 57، 66، 70، 72، 97، 117.

(8) حاجم الربيعي، «أبو البحر الحطّبي»، مجلة دراسات الخليج العربي، ص 199.

[مِنَ الخفيف]

أَحْنَفُ⁽¹⁾ الْحُكْمِ أَكْثَمُ⁽²⁾ الرَّأْيِ زُبَيْرِ
النَّارِ قَسُّ⁽³⁾ الْبَيَانِ كَعْبُ⁽⁴⁾ السَّمَاخِ⁽⁵⁾

وقد بلغ ممدوحه قدرة عظيمة في الفصاحة والبيان، فهو لو كان بين حييٍ وائلٍ لاستطاع أن يوقف حرب البسوس التي دارت بينهما، ولا عجب في ذلك إذ إن الممدوح جمع بين قدرتي رجال النظم ورجال النثر كما يبدو في قوله مادحاً السيد ماجد الصادقي:

(1) **أحنف:** المقصود به هو: الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصين المري السَّعدي المنقري التميمي، أبو البحر: سيد تميم، وأحد العظماء والدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يُضرب به المثل في الجلم، ولد في البصرة، وأدرك النبي محمداً، ولم يره. ووفد على عمر حين آلت إليه الخلافة في المدينة. اعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، وكان صديقاً لمصعب بن الزبير (أمير العراق) فوفد عليه بالكوفة فتوفي فيها وهو عنده. الزركلي، الأعلام، 1/262 - 263.

(2) **أكثم:** المقصود به هو: أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمي. حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين. عاش زمناً طويلاً وأدرك الإسلام. وقصد المدينة في مئة من قومه يريد الإسلام. فمات في الطريق. الزركلي، م. ن، ض/344.

(3) **قَسُّ:** المقصود به هو: قَسُّ بن ساعدة بن عمر بن عدي بن مالك من بني إيراد. خطيب جاهلي، يضرب به المثل في البلاغة والحكمة والموعظة، وهو أول من خطب واتكأ على سيف أو عصا في خطابه. الجاحظ، البيان والتبيين، 308/1؛ الزركلي، م. س، 6/39.

(4) **كَعْبُ:** المقصود به هو: كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الأيادي، أبو دؤاد: كريم جاهلي يُضرب به المثل في حسن الجوار، فيقال «أجود من كعب بن مامة» و«جار كجار أبي دؤاد». قال أبو عبيدة: أجود العرب ثلاثة: كعب بن مامة - وحاتم طيء، وهرم بن سنان. الزركلي، الأعلام، 6/85 - 86.

(5) **الدُّيوان،** ص20.

[مِنَ الخفيف]

رُوحِ جِسْمِ الكَمَالِ شَاهِينِ مِيزَ
 انِ المَعَانِي إنْسَانِ عَيْنِ الدَّهْرِ
 أَدَبٌ بَارِعٌ يَضُمُّ رِجَالَ النُّظْمِ
 فِيهِ إِلى رِجَالِ النَّثْرِ
 وَبَيَانَ لَوْ أَنَّهُ بَيْنَ حَيَّيْ
 وَإِىلِ أَعْمَدَا سُيُوفِ الوَثْرِ
 فَهُوَ مِنْ رِقَّةِ المَعَانِي وَغِلْظِ
 اللَّفْظِ خَمْرٌ تَجْلُوهُ جَامَاتُ صَخْرِ (1)

وقوله في صديقين من أصدقائه:

[مِنَ الكامل]

إِنْ قُلْتُ ذَا نَطِيقُ فَذَاكَ مُفَوِّهُ
 أَوْ قُلْتُ ذَا فَطِنٌ فَذَاكَ فَهِيمُ
 هَذَاكَ فَزْدٌ فِي كِتَابَتِهِ وَذَا
 بِعَوَامِضِ النُّظْمِ العَرِيضِ عَلِيمُ (2)

وجدنا فيما سبق أن أبا البحر الخطي اعتنى بمطالع قصائده المدحية ومقدماتها، ومثلنا لذلك ببعض الأمثلة، كما رأينا أن الشاعر أجاد حسن التّخلص والانتقال من المطلع إلى الغرض الرئيسي وهو المدح. أما معانيه فوجدناها متشابهة، فالصفات تقليدية في غالبها، كأصل النّسب، والكرم، والشجاعة، وسداد الرّأي، والفضل، والتقوى، وغيرها من الصفات التي تناولناها مسبقاً.

(1) الديوان، ص55، 56.

(2) م.ن.، ص106. وانظر: م. ن.، ص32.

رَكَزَ أبو البحر في الكثير مِنْ مدائحه على الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ
وَالْخُلُقِيَّةِ، وهي جديرة بأنْ تكونَ محطَّ اهتمامِ الشُّعراءِ نحو
ممدوحِيهم. كما أنَّ قدامة بن جعفر حين عدَّدَ الفضائلَ النَّفْسِيَّةِ
بقوله: «وهي العقل، والشَّجاعة، والعدل، والعقَّة، يرى أنَّ المصِيبَ
مِنَ الشُّعراءِ مَنْ يمدح الرِّجالَ بهذه الفضائل الأربعة»⁽¹⁾.

وأكثر ما نلمسه في مدحه الصبغة الدينيَّة، فقد طغت على
أكثر مدائحه، ولا تكاد تقرأ قصيدة من قصائده المدحيَّة إلَّا وترى
الصفات الدينيَّة ماثلة أمام عينيك.

وقد أحسن أبو البحر الخطِّي في مراعاته لمقتضى الحال، إذ
إنه راعى ذلك حسب أصناف ممدوحيه. فهو حين يمدح أميراً، أو
ملكاً، أو وزيراً تراه يفخر بطيب أصله وشجاعته وكرمه وقوَّة عزمته،
كل ذلك في معانٍ جزلة رنانة تناسب الممدوح، كما أنه حين يمدح
رجل دين، أو قاضياً تراه يسبغ عليه من الصفات الدينيَّة من تقوى،
وورع وغيرهما، بالإضافة إلى أرومته، وطهارة مولده، وشجاعته،
وسدادة رأيه، وعلمه، وكرمه وغيرها من الصِّفات.

وامتازت مدائح شاعرنا بالمبالغة أحياناً في وصف الممدوح،
وقد تمثَّل ذلك فيما مدح به الملوك، والأمرء، والقضاة، ورجال
الدين، مُسبغاً عليهم صفات عالية في التَّعظيم، يتجاوز أحياناً حدود
العقل والدُّوق.

(1) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 96.

الفصل الثاني: الحنين إلى الوطن والفخر

سأدرس في هذا الفصل حنين الشاعر إلى وطنه لأهميته في شعره. وأتبعته بمقام الحنين في الديوان، ومن ثم معانيه، كما سأتناول الفخر، ومقامه في الديوان، ومعانيه.

أولاً: الحنين إلى الوطن

«في مكنة الدّارس لأدب البحرين الحديث بصفة خاصّة، وفي الشّعْر خاصّة، - أن يلمح فيه مجموعة من الخصائص الملازمة التي تكوّن في مجموعها الصّفة الجوهرية الدّالة على روح الشّعْب والوطن، المعبرة عن شخصيّتهما الحضاريّة، وعن مناقبهما الخلقية، وتطلّعاتهما وأشواقهما...»

ومن هذه النّزعات والخصائص المميّزة لأدب البحرين الشّعور بالغربة والحنين إلى الوطن، والعناية بتصوير الأجواء المحليّة»⁽¹⁾.

وقد تمثّلت هاتان النّزعتان في شعر أبي البحر، إذ إنّه عاش آلام مجتمعه بأبعاده كافّة، وتأثّر بها غاية التّأثّر، فعبر عنها أبلغ تعبير بشعره. وكان شعره انعكاساً لمعاناته خاصّة، ومعاناة مجتمعه عامّة.

(1) محمّد جابر الأنصاري، «أدب شعب عربي بحري مغترب»، مجلّة العربي، العدد العاشر للسنة 1969. ص 123.

وتلك المعاناة تمثلت في اغترابه عن وطنه، وأهله، وأحبّته، وأصدقائه، مما جعله يكتب بالأمّ الفراق.

ظهر ذلك جلياً عبر قصائده في الحنين والشوق، وبرزت من خلالهما العاطفة الوطنيّة، التي هي متسلّطة على نفس شاعرنا. ومن ذلك أيضاً نتحسّس آلامه، ودوافعه، وما آل إليه حاله من تحرُّق ومرارة وأسى. وكلّما اشتدّت عليه حرقة الابتعاد عن الوطن والأهل والأحبّة؛ لجأ إلى الشُّعر والقريض ليبثّ حنينه وشوقه إليهم.

من هنا ندرك أنّ الشُّعور بالغربة والحنين إلى الوطن ينتاب الإنسان حينما يغترب عن وطنه لأيّ سبب من الأسباب.

وقد خرج شاعرنا - أبو البحر - من مسقط رأسه القطيف في سنٍّ مبكّرة من حياته متوجّهاً إلى البحرين (أوال) آنذاك حسب ما اضطّرتّه الظروف من تعسّفٍ سياسيٍّ، وقهر اجتماعيٍّ كما في قوله وهو في معرض مدحه وعرض شكواه على وزير البحرين ركن الدّين محمود سنة (1593 / 1002):

[من الكامل]

لَأَفَارِقَنَّ الْخَطَّ غَيْرَ مَعْوَلٍ
فِيهَا عَلَى مَنْ ضَنَّ (1) أَوْ مَنْ جَادَا
بَلَدٌ تُهَيِّنُ الْأَكْرَمِينَ لِلْؤُمَهَا
شَرَوَى الزَّمَانِ (2) وَتُكْرِمُ الْأَوْعَادَا (3)

(1) الضَّنُّ: البخل. ابن منظور، لسان العرب، مادّة: (ض، ن، ن)، 261/13.

(2) شَرَوَى الزَّمَانِ: شَرَوَى الشَّيْءِ: مثله، وأوّه مبدلٌ من الياء لأن الشَّيْءِ إِذَا يُشْرَى بمثله. ابن منظور، م. ن، مادّة: (ش، ر، و)، 428/14.

(3) الدِّيوان، ص44.

أ - مقامه في الديوان

لقد اختلقت قصائد الحنين مع قصائد المديح، وقصائد الشكوى. فالحنين من الأغراض المهمة عند الشاعر، ويأخذ ما مجموعه تسع عشرة قصيدة، عدد أبياتها ثلاثمائة وستة وسبعون بيتاً. نقل خلالها إحساسه بالغربة عن البلاد، والبُعد عن الأهل والخِلاَّن، واعتزازه بهم على الرِّغم من فراقه للوطن والأهل. وقد بثَّ من خلال تلك القصائد أوجاع واقعه، ومتاعب ذاته، فحين نقرأ قصائده الحنينية نلحظ أنَّ الشاعر مثقل بالهموم والأحزان جرَّاء ابتعاده عن الوطن والأحبة.

«... بيد أن علاقة الشاعر بوطنه لا تنحصر في هذه العلاقة المجتمعية المضطربة التي تجيء في ظروف خاصة.. وإنما هو يلتزم بمواظبته التزاماً سياسياً عملياً، اضطرَّته إلى الهرب مع جماعة من أشرف القطيف... بعيداً عن أهله وأصدقائه، إنه يحنُّ إليهم حيناً بلاغياً يذكّر باستخدامات أبي تمام القرآنية في تركيب الصورة الشعرية»⁽¹⁾.

كقوله:

[من البسيط]

فَارَقْتُكُمْ فَجَعَلْتُ زُفُومَ الْأَسَى

زَادًا وَعَسَّاقَ الدُّمُوعِ شَرَابًا

أَكْذَا كُلُّ مَفَارِقٍ أَمْ لَمْ يَكُنْ

قَبْلِي مُجِبُّ فَارِقِ الْأَخْبَابِ⁽²⁾

«وتعدُّ نزعة الحنين من النزعات الإنسانية النبيلة التي تشدُّ

(1) محمَّد رضا نصر الله، «قراءة في شعرية منحرفة»، مجلة أسرة الأدباء والكتاب بالإمارات، ص 219.

(2) م. س.، ص 8.

الإنسان إلى التعلُّق بوطنه، وأهله بعد تغرُّبه، وتجعله يتذكَّر معاهد أحبَّته، ومرابع صباه وطفولته. وقد جرَّب شاعرنا أبو البحر الخطيُّ حالة الاغتراب وذاق مرارة النَّوى. ولعلَّ أوَّل رحلاته - ومنَّ خلال استقراء ديوانه - كانت في حدود عام (1591 / 1000)، فقد ترك القطيف موطنه، ومحلَّ مولده ونشأته إلى جزيرة (أوال) البحرين غير أنَّه بقي يحنُّ إلى القطيف ويتشوقُّ إلى معاهده فيها، ثمَّ يتذكَّر فيها طفولته الأولى وأترابه، ويدعو بسقي الغمام لرحالها وعرضاتها»⁽¹⁾.

وقد عبَّر شاعرنا عن ذلك خير تعبير ينمُّ عن إحساس صادق إذ قال:

[مِن الرَّجْزِ]

هَلَّا سَأَلْتَ الرَّبْعَ مِنْ سَيِّهَاتِ
عَنْ تَلُكُّمُ الْفَتِيَانِ وَالْفَتِيَاتِ
حَيْثُ الْمَسَامِعُ لَا تَكَادُ تَفِيقُ مِنْ
تَرْجِيحِ نَوْتِي وَزَجْرِ حُدَاةِ
إِنَّ الْقَطِيفَ وَإِنْ كَلَّفْتُ بِحُبِّهَا
وَعَلَّتْ عَلَيَّ اسْتِيْطَانِهَا زَفْرَاتِي
إِذْ أَيْنَ جِزْتَ رَأَيْتَ فِيهَا مَدْرَجِي
طِفْلاً وَأَتْرَابِي بِهَا وَلَدَاتِي
فَسَقَى الْغَمَامَ إِذَا تَحَمَّلَ رَكْبُهُ
تِلْكَ الرَّحَابَ الْفَيْحَ وَالْعَرَصَاتِ⁽²⁾ بِالسَّقِي

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطي»، مجلَّة دراسات الخليج العربي، ص 177.

(2) العرصات: جمع عرصة، وهي كلُّ موضع واسع لا بناء فيه. ابن منظور، لسان

العرب، مادة: (ع، ر، ص)، 52/7.

وَاجْتَازَتِ الْمُزْنَ (1) الْعِشَارُ (2) فَطَبَّقَتْ

مِنْ عُنْكَ إِلَى بَبْكَاتٍ (3)

وعندما أخذت القطيفُ تجفوه، والأيام تقسو عليه، وجدناه يشكو العسر في بلاده، ويدمُّ بخل بعض رجالنا، ففارقها إلى جزيرة البحرين. إلا أنَّ هذه المفارقة لم تكن قطيعة، ففي الخطِّ رجال بقي يحتفظ بودِّهم، ويتمسك بعلاقاته معهم، وظلَّت قصائده تشدو في الحنين إليهم.

ولعلَّ قصيدته التي أنشدها عام (1596 / 1005) تعبّر عن صدق أحاسيسه ووجدانه، وإنَّ كانت تلك القصيدة تحاكي طريقة العرب الأوائل، ويختلط فيها الغزل بالحنين. فهو يُلَمِّح فيها إلى إبدال قومه بالرِّضا سخطاً وبالوصل قطيعة على الرِّغم من تذكُّره إيَّاهم، وبكائه على بعادهم (4).

[مِن الرَّمْل]

مَا لَكُمْ بَدَلْتُمُونِي سَادَتِي

بِالرِّضَا سَخَطًا وَبِالْوَصْلِ انْصِرَامًا

كَلَّمَا عَنَّ لَهُ ذِكْرُكُمْ

أَسْبَلْتُ أَجْقَانَهُ الدَّمْعَ سِجَامًا (5)

(1) الْمُزْنَ: السَّحَابُ عَامَّةً. وَقِيلَ: السَّحَابُ ذُو الْمَاءِ، لِأَنَّهُ يَغْمُ السَّمَاءَ أَي يَسْتَرْتَهَا، وَسُمِّيَ الْغَمُّ غَمًّا لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْقَلْبِ. ابْنُ مَنْظُورٍ، م. ن.، مَادَّةُ: (م، ز، ن)، 406/13.

(2) الْعِشَارُ: مِنَ الْإِبِلِ الَّتِي قَدِ اتَى عَلَيْهَا عَشْرَةُ أَشْهُرٍ، وَهِيَ أَحْسَنُ مَا تَكُونُ الْإِبِلُ وَأَنْفَسَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا. ابْنُ مَنْظُورٍ، م. ن.، مَادَّةُ: (ع، ش، ر)، 568/4.

(3) الدِّيوان، ص 16. وانظر: م. ن.، ص 74 - 75.

(4) حَاجِمُ الرَّبِيعِيِّ، «أَبُو الْبَحْرِ الْخَطِّيُّ»، مَجَلَّةُ دَرَسَاتِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ، ص 177.

(5) سِجَامًا: سَجَمَتِ الْعَيْنُ الدَّمْعَ وَالسَّحَابَةَ الْمَاءَ. وَهُوَ قَطْرَانُ الدَّمْعِ وَسِيلَانَهُ، قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا. ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَّةُ: (س، ج، م)، 280/12.

فَهُوَ بَيْنَ الْيَأْسِ مِنْكُمْ وَالرَّجَا
مَيِّتٌ حَيٌّ قَدَاوُوهُ لِمَامَا⁽¹⁾

ب - معانيه

وأهمُّ المعاني التي دارت عليها قصائد الحنين عند شاعرنا هي:
الحنين إلى الوطن والأهل، والحنين إلى الأصدقاء.

ب - 1. الحنين إلى وطنه وأهله

كان حنين الشاعر إلى القطيف قليلاً مقارنة بحنينه إلى جزيرة البحرين. والسبب في ذلك أنه حين هجر القطيف ليستوطن البحرين اصطحب معه زوجته وأولاده. حيث أقام فيها إقامةً دائمةً مع أهله وأسرته واعتبرها موطنه الأصلي، وقصائده الجميلة كانت من وحي بيئة جزيرة البحرين، ومن وحي الأحداث الاجتماعية، والمناسبات الخاصة بمجتمعها المحلي. لذلك حينما هجر البحرين متوجّهاً إلى فارس أخذ الحنين والشوق مأخذهما في نفس الشاعر المغتربة، فكان حنينه للوطن والأهل والأحبة.

وكانت أوّل رحلاته إلى بلاد فارس سنة (1010 / 1601)، وما وصلنا من قصائده في الحنين إلى البحرين عام (1012 / 1603)، وهي قصيدة يتشوّق فيها إلى بلاده ويذكر مواضعها معتزلاً بها على الرغم من فراقه لها، وتبين مدى حبه وتعلّقه بالبحرين رغم إقامته في «شيراز» بقوله:

[من الرجز]

لَا تَحْسَبِ الْبَحْرَيْنُ أَنْي بَعْدَهَا
مُسْتَوْطِنٌ دَارًا وَلَا أَصْحَابًا

(1) الديوان، ص 110.

مَا أَصْبَحَتْ «شِيرَازُ» وَهِيَ حَبِيْبَةٌ

عِنْدِي بِأَبْهَجٍ مِنْ أَوَالِ جَنَابَا (1)

وأخذ اشتياقه إلى البحرين يزداد على مرّ الأيام، وبدأ يشعر بالوحدة ويحسُّ بوطأة الهموم عليه حتى صارت أثقل من (يَدْبُلُ) (2). وفي عام (1013 / 1604) بعث بقصيدة أخرى إلى البحرين مع جماعة من أهل البحرين معبراً عن شوق لجمع شمل الروح بالجسد، ولولا هذا الشوق ما كان يصغي لصدح حمامة لا تعي ما يجده من تبريح (3):

[من البسيط]

يَا نَازِلِينَ عَلَيَّ نَأْيَ الْمَحَلِّ بِهِمْ

بِحَيْثُ يَجْمَعُ شَمْلُ الْجِسْمِ بِالرُّوحِ

لَوْ كَانَ فِي وَسْعِ جُهْدِي أَنَّ أُبْتَكِّمُ

شَوْقِي وَأَشْكُو لَكُمْ وَجْدِي وَتَبْرِيجِي

لَوْلَاكُمْ مَا أَعْرْتُ السَّمْعَ صَادِحَةً

إِنْ أَقْصَرْتُ قُلْتُ مِنْ وَجْدِي لَهَا نُوجِي (4)

وكان الشعراء منذ القدم يسألون الحمايم عن علّة ترجيعهنّ التّوابع، وترنمهنّ بالبكاء وقد توفّر لهنّ كلّ شيء فغذاؤهنّ كثير، وماؤهنّ وفير، وغصنهنّ نضير، ويعدم أن يجد المشتاق مثل ما

(1) جَنَابَا: الجَنَب في اللغة «القرب» ويقصد أن أوال أقرب إلى نفسه وإن كانت شيراز عزيزة عليه. ابن منظور، لسان العرب، مادّة: (ج، ن، ب)، 1/275؛ الديوان، ص8.

(2) م. ن، ص22، 12، 16. يَدْبُلُ: اسم جبل في بلاد نجد. ابن منظور، م. س، مادّة: (ذ، ب، ل)، 11/256.

(3) حاجم الربيعي، «أبو البحر الحطّي»، مجلّة دراسات الخليج العربيّ، ص178.

(4) الديوان، ص18.

لديهنَّ. ولو كنَّ صادقات في مشاعرهنَّ لجادت دموعهنَّ حين حاد
بكاؤهنَّ⁽¹⁾.

فقال شاعرنا في ذلك:

[مِنَ المتقارب]

حَمَامَاتُ شِيرَازَ رِفْقاً بِنَا
لَهَجْتُنَّ بِالنَّوْحِ مَا عِنْدَنَا
وَدَكَّرْتَنَا الْيَوْمَ مَا لَمْ تَكُنْ
صُرُوفُ النَّوَى أَمْسِ أُنْسَيْتِنَا
عَلَامَ وَأَنْتُنَّ عِنْدَ الْقَرِيْبِ
ن⁽²⁾ فِي بَارِدِ الظِّلِّ دَانِي الْجَنَى
تُعَازِلُنَّ فَآكِهَةً غَضَّةً
وَأَوْنَئَةً غُضْنَآ لِيْنَا
تَتَّوْحُ اشْتِيَاقاً وَتَغْرِيْدُكُنْ
غِنَاءُ فَشْتَاتَانَ مَا بَيْنَنَا
فَإِنَّ بُكَانَا عَلَى مَنْ نَأَى
خِلَافُ بُكَآكَ عَلَى مَنْ دَنَا⁽³⁾

ثمَّ راح يؤكِّد هذا الإحساس في قصائده⁽⁴⁾ ليشعرنا أنَّ هذا
اللُّون طغى على فنونه الأخرى فيفرد له بعض القصائد منها: أنَّ نار
أحزانه أذابت أديم خده من فرط الدُّموع، وأنَّ الدار ضاقت به رغم
اتساعها. ومن ذلك قوله:

(1) حاجم الربيعي، م. س.، ص 178 - 179.

(2) القرين: هو المصاحب، العشير وجمعه قُرْتَاء. ابن منظور، لسان العرب، مادة:
(ق، ر، ن)، 13/331.

(3) الدِّيوان، ص 34.

(4) م. س.، ص 115 - 116.

[مِنَ البسيط]

أَهْبْتُ بِالدَّمْعِ إِذْ بَانُوا فَلَبَّانِي
 حَتَّى لَقَدْ خِفْتُ أَنَّ الدَّمْعَ يَغْشَانِي
 دَمْعٌ يُذِيبُ أَدِيمَ الخَدِّ⁽¹⁾ سَائِلُهُ
 لِفَرَطِ مَا صَعَدَتْهُ نَارُ أَحْزَانِي
 مَا لِي بِهِجْرِهِمْ وَالذَّارُ جَامِعَةٌ
 يَدٌ فَكَيْفَ بِنَائِي بَعْدَ هُجْرَانِ⁽²⁾

وهو في قصائده الحنينية غالباً ما يذكر الأماكن ويتشوق إلى المنازل، لأنَّ وطنه أصبح لحناً حزيناً يتردد صداه في ذاكرته وفي شعره، ودائم الحنين إليه قائلاً:

[مِنَ الطَّويل]

سَقَى جُدْحَفَصَ العَيْثُ سُحًّا وَلَوْ سَمَا
 لَهَا الدَّمْعُ أَعْنَاهَا عَنِ الدَّمْعِ رَاشِحُهُ⁽³⁾
 بِلَادٍ أَقَامَ القَلْبُ فِيهَا فَلَمْ يَزَلْ
 وَإِنْ طَمَحَتْ بِالجِسْمِ عَنْهَا طَوَامِحُهُ
 هَلِ اللّهُ مُسْتَبِقٌ ذِمَامِي بِعَوْدَةٍ
 إِلَيْهَا تُرِينِي الدَّمْعَ قَدْ هَشَّ كَالِحُهُ⁽⁴⁾

ونجد شاعرنا قد صور البيئة المحليّة، إذ إنّه استعان بها كمدخل

(1) أَدِيمُ الخَدِّ: أديم كل شيء: ظاهر جلده. ابن منظور، لسان العرب، مادّة: (أ، د، م)، 10/12. ويقصد به أنّ الدُموع أثّرت على محاسن وجهه وأذابتها.

(2) م. س.، ص 119 - 120.

(3) رَاشِحُ: الرّاشِحُ والرّوَّاشِحُ: جبال تَنَدَى فربّما اجتمع في أصولها ماء قليل، فإنّ كثير سُمِّي وَشَلًّا وإنّ رأبته كالعرق يجري خلال الحجارة راسحاً. والرّشَح ندى العرق على الجسد. ابن منظور، لسان العرب، مادّة: (ر، ش، ح)، 448/2.

(4) الدِّيوان، ص 23. وانظر: م. ن.، ص 71.

فَنِّيَّ لِلْحَدِيثِ عَنْ شَوْقِهِ وَحَنِينِهِ إِلَى وَطَنِهِ وَذَلِكَ تَعْبِيرًا عَنْ شِدَّةِ
تَمَسُّكِهِ بِالْوَطَنِ رَغْمَ الْمَصَاعِبِ فِي الْغُرْبَةِ:

[مِنَ الْكَامِلِ]

إِنْ أُنْسَ لَا أُنْسَ الرَّيْبِ بِهَا وَمَا
يَجْلُوهُ مِنْ نَوَارِهِ وَالنُّورِ
رَوْضُ يَرْقُ عَلَيْهِ نَاجِمُ زَهْرِهِ
كَالصُّخْفِ بَيْنَ قَوَاصِلِ وَعُشُورِ⁽¹⁾

وكذلك حنين الشاعر إلى قرية «بوري»⁽²⁾ لما له من ذكريات
جميلة فيها ناهيك عن أسرته التي خلفها حين رحيله إلى فارس،
فهو يتمنى العودة لتلك القرية ليلتقي بكريمته وأبنائه ويسعد في
رحابها. وذلك قوله:

[مِنَ الْكَامِلِ]

عُجْ بِالْمُطِيِّ عَلَى مَعَالِمِ بُورِي
بِمَحَلِّ لَذَاتِي وَرَبْعِ سُرُورِي
وَأَطْلُ بِهَا عَنِّي الْوُقُوفَ فَمَا أَرَى
شَوْقًا يُحَرِّكُنِي لَهَا بِقَصِيرِ
هَلْ لِي إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ عَوْدَةٌ
يَهْدِي بِهَا⁽³⁾ نَفْسِي وَقَرَطَ زَفِيرِي
إِنْ يُصِنِّي ذِكْرُ الدِّيَارِ فَإِنَّهُ
لِإِنَاثِ أَصِيْبَةٍ بِهَا وَدُكُورِ⁽⁴⁾

(1) الدِّيوان، ص 52 - 53.

(2) قرية بُورِي: قرية صغيرة من قرى البحرين.

(3) يهدي بها: وردت في الأعيان: يخبو بها وجدي، وأرى ما ورد في الأعيان هو
الأصْح. انظر: محسن الأمين، أعيان الشيعة، 167/4.

(4) م. س.، ص 51.

ويستهلُّ شاعرنا بعض قصائده بالحنين، بل يخصِّص قصائد بأكملها لهذا الغرض باكياً حزيناً مكتئباً ذاكراً وحدته ولهيب اشتياقه يومض قلبه من أثر الإحساس بالغربة والبعاد، وما يقطر به قوله (كفى حزناً..) من لوعة وأسى شديدين. كما أنه شبَّه البعد بالجيش الظالم الذي شنَّ غاراته عليه ولم يستطع مكافحته:

[من الطويل]

أَحْبَابُنَا وَالْمَرْءُ يَا رَبِّمَا دَعَا
 أَحَا النَّأْيُ إِنْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَنَادِحُهُ (1)
 هَلِ الدَّهْرُ مُدْنِيَنِي إِلَيْكُمْ فَمُبْرَدٌ
 لِهَيْبِ اشْتِيَاقٍ يُومِضُ الْقَلْبَ لِأَفْحِهِ
 كَفَى حَزَنًا أَنِّي بِشِيرَازَ مُفْرَدٌ
 أَبَاكِرُ مَا يُضْنِي الْحَشَا وَأَرَاوِحُهُ
 يَشْنُ عَلَيَّ الْبُعْدُ غَارَاتِ جَوْرِهِ
 وَتَهْتَفُ بِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ صَوَائِحُهُ
 لَهُ الْغُلْبُ فَلْيُثْنِ الْأَعْنَةَ مُبْقِيَاً
 عَلَيَّ فَمَا عِنْدِي جُنُودٌ تَكَاْفِحُهُ (2)

وحيثما تصدَّى الكاتب عزُّ الدين التَّنُوخي لنقد قصائد الحنين عند الشَّاعر قال:

«إِنَّ الشَّعْرَ لِيْفِيضُ شَعُورًا، وَلَوْ تَرْجَمَ إِلَى آيَةِ لُغَةٍ أَعْجَبِيَّةٍ لَشَارَكَ الْفَرَنْجِيَّ الشَّاعِرَ فِي حَزْنِهِ، وَأَشْجَانِهِ، وَبَكَى لْغْرْبَتِهِ وَبَعْدَهُ

(1) مَنَادِحُ: ضاقت عليه منادحه) من التَّدْح: وهي الأرض الواسعة، أو ما اتَّسع من الأرض. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ن، د، ح)، 613/2. والمقصود أن الأرض التي قطنها ضاقت عليه بسبب ابتعاده عن أهله وأحبائه.

(2) الدِّيوان، ص22.

عن أوطانه. وأمّا حنينه إلى أهله وولده فيحاكي به حنين شاعر الفرنجة «فكتور هوغو»⁽¹⁾ إلى ولده، وولع شاعرنا بولع شاعرهم أشبه من الجمرة بالجمرة»⁽²⁾. قال أبو البحر في قصيدة يبلغ عدد أبياتها سبعة وخمسين بيتاً نختار منها:

[من الكامل]

إِنْ يُصِنِّي ذِكْرُ الدِّيَارِ فَإِنَّهُ
لِإِنَاثِ أَصِيْبَةٍ بِهَا وَدُكُورِي
وَجَدِي الصَّغِيرُ بِهَا لِأَصْعَرَ صِبْتِي
وَكَبِيرُ أَشْوَاقِي بِهَا لِكَبِيرِي
وَكَرِيمَةُ الطَّرْفَيْنِ جُرَّ عَلَى التَّقَى
وَالدِّينِ فَاضِلٍ ذَلِيلَهَا الْمَجْرُورِي

وقوله أيضاً:

[من الكامل]

آه، وَقَلَّ عَلَى أُوَالَ تَأُوْهُي
فَإِذَا جُنُنْتُ بِهَا فَغَيْرُ كَثِيرِ
مَا كُنْتُ مُبْتَاعاً أَزْقَةَ فَارِسِ
بِالْفَيْحِ مِنْ عَرَصَاتِهَا وَالدُّورِي

(1) فكتور هوغو: (1802 - 1885)، شاعر، وروائي، وكاتب مسرحي فرنسي من أعظم رواياته: «البؤساء» 1862. عربها الشاعر حافظ ابراهيم. لعب دوراً سياسياً خطيراً، فكان مؤيداً لابن نابليون، ثم ناصر لويس فيلب وبعثد قاوم سياسة نابليون 3، ونتيجة لذلك صدر قرار بنفيه وظل في منفاه حتى عاد عام 1870، عندما انتخب في باريس عضواً في مجلس الأمة، وعضواً في مجلس الشيوخ. وقضى آخر أيامه محترماً مبعلاً، ودفن في مقبرة العظماء بفرنسا. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، 1914/2 - 1915.

(2) عزّ الدّين التّنوخي، «الأدب في البحرين»، مجلة المجمع العلمي العربي، ص 163.

هَيَّاتَ مَا شِيرَاؤُ وَافِيَةٌ بِمَا

فِي تِلْكَ لِي مِنْ نِعْمَةٍ وَحُبُورٍ⁽¹⁾

وَمِنْ شِدَّةِ إِعْجَابِ الْكَاتِبِ عَزَّ الدِّينَ التَّنُوخِي بِقِصَائِدِ الْحَنِينِ
عِنْدَ شَاعِرِنَا قَالَ: «إِنَّا قَرَأْنَا فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ كَثِيراً مِنْ قِصَائِدِ
الْحَنِينِ إِلَى الْأَوْطَانِ وَالْأَهْلِ وَالْأَخْدَانِ مَا يَحِلُّ الْحَلِيمُ لَهُ الْحُبُورَةُ،
وَتَنْشَأُ لَهُ فِي الْقَلْبِ الْخَلِي الصُّبُورَةُ، وَأَقْسَمَ لَوْ قَرَأْنَا هَذَا الشُّعْرَ فِي
أَيَّةِ لُغَةٍ فَرَنْجِيَّةٍ كَانَتْ أَوْ مَا يَسَامِيهِ أَدْبَاباً، لَخَرَجْنَا مِنْ جُلُودِنَا طَرِبَاءً...
إِذَا نُظِرَ إِلَى الْعَصْرِ الَّذِي قِيلَتْ فِيهِ وَهُوَ عَصْرُ الْإِنْحِطَاطِ الْأَدْبِيِّ فِي
الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ»⁽²⁾.

وَعِنْدَمَا أَثْقَلَتْهُ الْهَمُومُ وَوَطْأَةُ الْإِغْتِرَابِ وَنَالَتْ مِنْ نَفْسِهِ عَبْرٌ
عَنْ لَوْعَتِهِ وَحَرَقَتِهِ وَاشْتِيَاقِهِ. فَهُوَ وَحْدَهُ مَحْرُومٌ مِنْ لُدَّةِ النَّظَرِ إِلَى
أَهْلِهِ وَأَحْبَائِهِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

[مِنْ الْبَسِيطِ]

لَوْ أَنَّ لِي بِإِنْبِعَاثِ الرِّيحِ نَحْوَكُمُ

يَدَا لِنُبْلِغَكُمُ مَا فِي طَوِيَّاتِي

لَمْ تَأْتِكُمْ نَسَمَةٌ إِلَّا وَكَأْهَلُهَا

يُنُوءُ ثَقِيلاً بِأَعْبَاءِ التَّحِيَّاتِ⁽³⁾

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَهُوَ يِعَاتِبُ أَحْبَاءَهُ حِينَ رَمَاهُ الدَّهْرُ
وَسَقَاهُ الْأَسَى كَوْسًا مَتْرَعَةً، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَأَحَبَّتِهِ لَمْ يَجِدْ
سِوَى الشُّكُورِيِّ مَتَنْفَسًا لَهُ، فَأَخَذَ يَبْتُتُّ مَتَاعِبَهُ وَأَحْزَانَهُ فِي رِسَالَةٍ
شَعْرِيَّةٍ وَجْهَهَا إِلَى أَهْلِهِ مَبْلَلَةٌ بِدُمُوعِهِ وَزَفْرَاتِهِ وَأَشْوَاقِهِ الْحَارَّةِ:

(1) الدِّيَّان، ص 51 - 52.

(2) عَزَّ الدِّينَ التَّنُوخِي، «الأدب في البحرين»، م. س، ص 164.

(3) الدِّيَّان، ص 18.

[مِنَ الرَّمْلِ]

يَا نُزُولًا بَيْنَ أَجْرَاعِ الْحَمَى
بُعْدُكُمْ عَنِّي النَّوْمَ حَمَى
هَلْ تَعِيرُونَ جُفُونِي هَجَعَةً
أَمْ تَرَوْنَ النَّوْمَ شَيْئًا حُرْمًا
أرسلت من دمعها في حُبِّكم
عَارِضًا يَهْمِي وَتَيَّارًا طَمًا
وَأَسْأَلْتُ ذَاكَ مُبَيَّضًا فَإِنْ
طَالَ هَذَا الْبُعْدُ أَجْرْتُهُ دَمًا⁽¹⁾

وحينه إلى وطنه ليس بمستغرب، فقد زاد بفعل الحنين العارم إلى أهله وأحبائه، فانبعثت منها تلك الروح الرومانسية التواقية إلى عالمها الأول وجوها المفضل رغم مغريات مدن فارس.

ب - 2. حنين الشاعر إلى أصدقائه

كان شاعرنا أبو البحر وفيًا لأصدقائه في قربه وبعده عنهم. أمّا وفاؤه لهم في قربه منهم فقد تحدّثنا عنه في فصل سابق. فحين كان معهم في البحرين أرسل بشعره ما يُعبّر عن حبه ووفائه لهم. وحينما نأى وابتعد عنهم أرسل زفراته الحارّة وسلاماته تعبيراً عن اشتياقه لِقِيَاهُمْ، والعيش جنبهم ليسعد بصحبتهم كما سعد من قبل .

فلنستمع إليه وهو يتشوّق إلى صديقين من أصدقائه حينما هجرا البحرين وتوجّها إلى القطيف، وشاعرنا هنا يتمنى أن يتجرّع كأس الموت قبل ابتعادهما عنه:

(1) الديوان، ص 109. انظر: م. ن.، ص 78، 79، 112.

[من الطويل]

خَلِيلِيَّ حَالَ الْبُعْدِ دُونَ لِقَاكُمَا
 فَهَلْ لِي يَا بَنِي سَالِمٍ أَنْ أَرَكَمَا
 وَدَدْتُ لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ أَسْعَفَ أُنِّي
 تَجَرَّعْتُ كَأَسِّ الْحَتْفِ قَبْلَ نَوَاكُمَا⁽¹⁾

وتأكيداً على حبه ووفائه لأصحابه وأحبائه ما قاله وهو بشيراز:

[من الكامل]

أَسْلَمُ مِنْ بُعْدِ الدِّيَارِ عَلَيْكُمْ
 عَلَيَّ أَنْ مَا بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبُ
 وَإِنْ حَانَ فِي الْوُدِّ امْرُؤٌ فَمَوَدَّتِي
 عَلَيْهَا لَكُمْ طَوْلَ الزَّمَانِ رَقِيبُ
 فَإِنْ جَفَّ مَاءُ الْقُرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 زَمَانًا فَهَذَا عُوْدُ الْوَفَاءِ رَطِيبُ⁽²⁾

وهذه الأبيات تحمل لونا من الصراع النفسي في مغالبة شاعرنا لغربيته وحنينه للوطن، فهو يوجّه سلامه إلى المعنّيين منه، ويذكّرهم بأنّ المودّة ما زالت باقية، كما أنّه باقٍ على عهده ووفائه. ويلاحظ أن حنين الشاعر إلى الأرض ومناطقها قد طغى على شوقه وحنينه إلى الأهل والأحبة، وما كان حنينه إلى الوطن إلاّ حبّاً واشتياقاً للقاطنين في ذلك الوطن.

وهكذا نرى أنّ «أجمل شعر الخطّي وأخلده هو ما كان صدى

(1) الدّيوان، ص 114.

(2) م. ن.، ص 12. وانظر: م. ن.، ص 7، 34.

لعواطفه ومظهراً لحنينه، وهو في ذلك يذكر الأماكن ويتشوّق إلى المنازل»⁽¹⁾ كما أسلفنا.

ومِنَ الملاحظ أنّ حنين شاعرنا إلى بلد المَوْلِد (القطيف) قد تضائل أمام حنينه إلى جزيرة البحرين حين هجرها إلى فارس. كما يتّضح أنّ رسم القطيف قد اختفى في شعره، وأصبح حنينه مُوجَّهاً إلى بلده البحرين لما لها مِنْ مكانةٍ وحبِّ عاليتين في نفسه. وقد عبّر عن ذلك خير تعبير عبر قصائده في الغربة. لذلك نراه يُعلِّبُ مشاعر الشّوق والحنين إلى الوطن الذي غادره إلى فارس على ما سواه. وما كان ذلك إلاّ لأنّه غُدِّيَ حُبَّ الوطن منذ أن وطأت رجلاه أرض جزيرة البحرين. كما أنّ الخَطِّي صوّر حنينه إلى وطنه وأهله وخلانّه بعبارات وألفاظ تفيض بالألم ولواعج الشّوق وتنطلق منها الأناث التي تكلم القلوب. لهذا لمحننا مِنْ خلاله نفسيّة قلقة متأسّية تتنُّ مِنْ ألم الغربة وقساوتها.

ومثّل شكواه بأجلى صورها في تلك القصائد الحنينيّة في مهجره حينما فارق وطنه الذي شهد مدارج طفولته، وملاعب صباه، وملاهي شبابه بعد أن وجدّ البقاء في القطيف شقاءً لا يطيقه، وكذلك في فراقه البحرين إلى بلاد فارس حين هجر الأهل والأصحاب والأرض وقد لمسنا في قصائده في الشّوق والحنين نبرات الحزن والأسى، والشّوق العارم لملافاة أهله وأصحابه، والعيش على تراب موطنه.

وقد عبّر حسن الأمين بقوله: «أجمل شعر الخَطِّي وأخلده هو ما كان صدى لعواطفه، ومظهراً لحنينه، ففيما عدا الشّعر التّقليديّ الذي عرفه كلّ الشّعراء في تلك الفترات، فإنّ الخَطِّي نظم في

(1) حسن الأمين، «شاعر الخليج»، مجلّة العربيّ، 25 / أبريل / 1969، ص 102 - 103.

الحنين إلى كليهما حين رحل إلى إيران، وهو في كل ذلك يذكر الأماكن ويتشوق إلى المنازل»⁽¹⁾.

وإذا ما بحثنا الأسباب وراء فراره من وطنه، متشرداً غريباً ليصبح ذلك الإنسان الغريب، الغريب الوجه واليد واللسان؛ لوجدنا أن هناك وجوهاً في القטיפ يخافها وإلاً «لما طال بالبحرين عنك ثوائي»⁽²⁾.

إلا أن البحرين التي شكّلت امتداداً جغرافياً، وتاريخياً، واجتماعياً، وفكرياً لوطنه شرعة مباحة لجملة من الاستعمارات الفارسية، والبرتغالية، والعثمانية، التي كانت تتصارع في المنطقة⁽³⁾.

إذا كان هذا هو شأن حنينه إلى وطنه، فما هو شأن فخره وحماسته سواء فيما يتعلّق بنفسه أو بقبيلته. ذلك ما سنعالجه في القسم التالي من هذا الفصل.

ثانياً: الفخر

الفخر لغة مدح الإنسان نفسه أو قومه، والشاعر يعمد فيه إلى ذكر مزاياه ومكارمه وخصاله، وعرض فضائل قومه، وما يتمتّعون به من خصال وصفات كريمة.

والافتخار هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخضّ به نفسه وقومه، وكلّ ما حسن في الافتخار، وكلّ ما قبّح فيه قبّح في الافتخار⁽⁴⁾.

أ - مقامه في الديوان

جاء غرض الفخر عند شاعرنا قليلاً مقارنة بأغراضه الشعريّة

(1) حسن الأمين، «شاعر الخليج»، مجلّة العربي، العدد 102/125.

(2) الديوان، ص 3.

(3) محمد رضا نصر الله، «قراءة في شعريّة منحرفة»، ص 221.

(4) القيرواني، العمدة، 143/2.

الأخرى كما أنه لم يُعَنَّ بهذا الغرض عناية كبيرة، ولم يُفرد له اهتماماً خاصاً، لذلك نجد فخرياته قليلة لم تحظ بالاستقلال، إنَّما جاءت ضمن قصائد المديح والرثاء والاعتذار والوصف.

فهو يضمَّن هذا الغرض أو ذاك بيتاً أو مجموعة من الأبيات يعرض فيه فخره بنفسه⁽¹⁾، أو فخره بقومه من قبيلة عبد القيس⁽²⁾. وهو بذلك يشيد بذاته وبقومه؛ لأنَّه وجد ما يفخر به من أدب، وعلم، وأخلاق، وخلال طيبة، وأمجادٍ رفيعة. تلك هي الصفات التي مكَّنت أبا البحر لخوض غمار الفخر. كما أنه يرى من حقِّ قبيلته عليه أن يُمجَّدَ أسياها ويُنَّبَّه إليهم، فضلاً عن الإشادة بأيامها ومآثرها. وسوف نتناول فخره الدَّاتيِّ ومعانيه، ثمَّ فخره بعشيرته وقومه.

وقد تركَّز فخر الخطَّبي بالشَّاعريَّة والنَّفْس، وما كان يتمتَّع به من قدرة على نظم الشُّعر والغوص في معانيه. وهو لا يراه غريباً؛ لأنَّه يمتلك ما لم يمتلكه الكثير من الشُّعراء من أهل زمانه. وأنَّه كان في طليعة شعراء عصره، أوصلته تلك إلى شهرة عريضة في المنطقة بأسرها، فخطب ودَّه كثير من أعلام عصره. وقد وصف أحد الباحثين شعر المنطقة في تلك الفترة بأنَّه شعر فاسد بقوله: «أمَّا شعر بقيَّة أطراف البلاد من الكويت إلى الأحساء والقطيف ومن الحجاز إلى عسير فشعر فاسد تتمثَّل فيه صفات شعر الانحطاط بل هو بذاته شعر الانحطاط. ولكن لم يكن الحكم على هذا العصر وشعره بالرداءة حكماً صارماً، ففي عصر يمكن أن يوجد الإنسان ذو الموهبة والقدرة على التجديد، والتَّخلص من الرُّسوم البالية، وقد وجد في هذا العصر بعض الشُّعراء الذين نظموا بعض شعرهم قوياً متوهِّجاً،

(1) الدِّيوان، ص 7، 17، 24، 26، 27، 31، 46، 50، 59، 61، 64، 74، 83، 97، 103، 108،

117، 118.

(2) م. ن.، ص 9، 39، 44، 47، 48، 49، 76.

يفيُض بالأصالة والجودة. ولعلَّ شعراء هجر والخطَّ أقوى شعراً وأقوم عبارة، وأقلَّ احتفالاً بالصناعة، ويأتي في مقدِّمتهم جعفر بن محمَّد الخطَّي»⁽¹⁾.

وهذا دليل واضح على أنَّ أبا البحر الخطَّي على رأس قائمة الشعراء المجدِّدين في شعر منطقة الخليج في عصر وُصِف شعره وأدبه بالانحطاط. وقد دفعت شاعرنا أسباب كثيرة إلى الفخر بشاعريته وبنفسه، كان في طليعتها أنَّه يعدُّ في مقدِّمة شعراء عصره من حيث التَّجديد والأصالة، ومنها موقفه مع حسَّاده، وكذلك موقفه ممَّن لا يقدرُّون إنتاجه الشعريِّ، لذلك امتزج فخره بالشكوى بعض الأحيان. وكما نعرف أنَّ أبا البحر لم يكن من ذوي الثراء والجاه، بل نشأ نشأة متواضعة، حتَّى شبَّ، وخرج من مسقط رأسه وهو لا يملك شيئاً يذكر. لذلك لم نجد له فخراً يتعلَّق بحياته الماضية قبل رحيله من القطيف كما أنَّه لم يفخر بأسرته، وإنَّما كان فخره بأدبه وعلمه وأخلاقه وخلاله الطَّيبة، وما تمَّتَّع به من ملكة شعريَّة أصيلة. ومن جانب آخر افتخر شاعرنا أبو البحر بعشيرته، وأرومته وانتمائه إلى قبيلة عبد القيس. ولا عجب في ذلك فهو من تلك القبيلة ذات الأمجاد والسَّيادة الموغلة في تاريخ المنطقة.

فقد استمدَّ شاعرنا فخره من قبيلته، وما لها من دور عظيم عبر التَّاريخ في نواحي الحياة من سيادة وشجاعة، وكرم، ونخوة، وأدب، وشعر وغيره.

والشَّاعر ينتمي إلى ربيعة من أحد فروعها وهو يذكر هذه الفروع وأئل، بكر، تغلب وشيبان. وكان لهذه الفروع أيام مشهودة في التَّاريخ العربيِّ منها حرب البسوس، ومعركة ذي قار.

(1) عبد الله الحامد، الشَّعر في الجزيرة العربيَّة، ص 81، 82.

ذلك ما جعل شاعرنا ينطق ويشيد ويعدّد مناقب قبيلته
وأمجادها وصفاتها، ويفخر بها.

وأحسبُ أنّ هذه هي الأسباب التي دعت أبا البحر الخطي إلى
الفخر، وهي أسباب كافية لأن يفخر كما فخر غيره من الشعراء
على مدى العصور السابقة له.

وعلى هذا الأساس كان فخره بنفسه، وفخره بقومه.

ب - معانيه

وسأبين فيما يلي أهمّ معاني الفخر عنده كما وردت في شعره:

ب - 1. الشُّعر والشَّعْرِيَّة

ممّا يدلُّ على فرط اعتزازه بنفسه وفخره بها، وبقدرته الشُّعْرِيَّة
قوله في تصنيف ذاته أنّه هو الأوحّد في أهل زمانه، لا يجاربه أحد
في مقدرته الشُّعْرِيَّة. وأنّ مشاركة الآخرين له في مسمّى الشُّعر
تعتبر ظلماً فلنسمعه في هذا القول:

[مِنَ الوَافِر]

فَيَابْنَ مُحَمَّدَ بْنِ تَقِيٍّ اسْمَعْ

تُثَاءً مُبَرَّرٌ فِي النَّظْمِ فَرد

تُشَارِكُنِي الْوَرَى فِي الشُّعْرِ ظُلْمًا

عَلَى أَنِّي الْمُبَرَّرُ فِيهِ وَخَدِي (1)

ومِنِ افتخاره بنفسه، وقدرته على توليد المعاني المبتكرة قوله:

[مِنَ الوَافِر]

وَدُونَكُمْ بِلا مَنْ عَلَيْكُمْ

تُثَاءً مُبَرَّرٌ فِي النَّظْمِ فَرد

(1) الدِّيوان، ص 24.

يُجِيدُ الْحَفْرَ عَن مَاءِ الْمَعَانِي
فَيَنْبِطُهُ وَحَفْرُ النَّاسِ يُكْدِي (1)

كما أنه افتخر بنفسه وبشعره في آخر قصيدته الرثائية لشيخ القطيف أبي علي عبد الله بن مقلد، وهو يبين فيها أن الشعر ليفتخر بهذه الخريدة، وهي مفخرة للشعر قبل أن تكون مفخرة للشاعر:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَدُونَكُمْ مِنْ لُجَّةِ الْفِكْرِ دُرَّةً
مُنْتَظَمَةً يَعْنُو لَهَا النَّظْمُ وَالنَّثْرُ
وَعَدْرَاءَ مِنْ حَرِّ الْكَلَامِ حَرِيدَةً
بِأَمْثَالِهَا فِي الشَّعْرِ يَفْتَخِرُ الشُّعْرُ (2)

ومن اعتزازه بنفسه وبقوة شعره، ما قاله في معرض مدحه للسيد خلف بن عبد المطلب ملك الدَّوْرَقِ:

[مِن البسيطِ]

فَقَوْلَا لَهُ عَن شَاعِرِ الْخَطِّ قَوْلَةً
يُداوي بِهَا سَمْعَ الْأَصْمِّ مِنَ الْوَقْرِ (3)

وهو متأثر بقول أبي الطيب المتنبّي في فخره بأنه قادر على أن يجعل الأعمى يبصر والأصمّ يسمع:

(1) يكدي: قال الزجاج: معنى أكدي قطع، وأصله من الحفر في البئر، يُقال للحافر إذا بلغ في حفر البئر إلى حجر لا يمكنه من الحفر: قد بلغ إلى الكُدْيَةِ. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ك، د، ي)، 217/15؛ م. س.، ص 31.

(2) م. ن.، ص 50.

(3) م. ن.، ص 61.

[مِنَ البسيط]

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدِيبِي
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ⁽¹⁾

ب - 2. المروءة والوفاء

يفتخر أبو البحر بشعره، وما تمتع به من خصال
نفسية كالمقدرة والفتنة الشعرية، وقوة العزيمة في
الوفاء للممدوح:

[مِنَ الطويل]

فَأَيْتِي وَإِنْ أَصْبَحْتُ وَالشَّعْرُ حِرْفَتِي
وَكُنْتُ أَمْرَةً مِنْ سَائِرِ الشُّعْرَاءِ
لَأَسْلُكَ نَهْجاً فِي الْوَفَاءِ يُرِيكَ مَنْ
تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَرَائِي
فَلَسْتُ أَمْرَةً إِنْ غَابَ غَابَ وَقَاؤُهُ
وَلَكِنِّي إِنْ أَنَا يَدُنْ وَفَائِي⁽²⁾

وشاعرنا هنا يفخر بأخلاقه الفاضلة كما فخر الشعراء قبله، فهو
يظهر إخلاصه ووفاءه لأصدقائه وممدوحيه.

وطبيعة نفسه كانت تأبى الدُّلَّ وتمقت الهوان للممدوح، بل
بقي شامخاً معتزلاً بنفسه، فهو مهما تعرض له الدهر بالجور والظلم،
وضيق في العيش، فليس له القدرة على ثنيه عن خطئه ومنهجه
في المدح والوفاء، فهو يستشعر الإباء والشموخ، ويترفع بشعره عن
مدح اللئام ويُقصر خطواته دونهم:

(1) ديوان المتنبي، ص 332.

(2) الديوان، ص 3.

[مِنَ الرَّجْزِ]

فَأَنَا وَإِنْ عَصَّ الزَّمَانُ بِغَارِي
 أَوْ فَلَّتِ الْيَّامُ حَادَّ شَبَاتِي
 لَأُصَوِّنَ عَنْ مَدْحِ اللَّئَامِ تَرْفَعًا
 شِعْرِي وَأُقْصِرُ دُونَهُمْ خَطَوَاتِي (1)

ب - 3. مكانته ومنزلته الرفيعة

وهناك مواقف خاصة تثير حماسة شاعرنا الخطي، فيندفع في إبراز ما يتأجج في نفسه لتبيان مكانته ومنزلته بين بني قومه فهو يتحمس للدفاع عن ذاته، ومقامه، وسائر ما يتصل بشخصه. وقد عبّر عن ذلك بقوله:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَقَدْ رَفَعْتَ (أَبَا حَسَّانَ) مَنزِلَةً
 شَمَاءَ يَخْسَأُ عَنْ إِدْرَاكِهَا الْبَصْرُ (2)
 وشاعرنا حينما التقى بعالم زمانه بهاء الدين العاملي (3) - في فارس - وعرض عليه أدبه، أُعجِبَ العالم العاملي به وبأدبه، وأجازه. ومما قاله في حضرة الشيخ تبرماً من قومه وجهلهم له ولأدبه بالتعبير عن واقعه النفسي، وغرْبته بين بني قومه:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

جُهِلْتُ عَلَى مَعْرُوفٍ فَضْلِي فَلَمْ يَكُنْ
 سِوَاهُ مِنْ الْأَقْوَامِ يَعْرِفُ مِقْدَارِي (4)

(1) الديوان، ص 17.

(2) م. ن.، ص 46.

(3) انظر ترجمته في الباب الأول، الفصل الثاني، ص 66.

(4) م. ن.، ص 64.

أنشد أبو البحر هذا البيت على سمع الحاضرين من كبراء أهل
البحرين حتى أنَّ العاملي قَطِنَ لقصده فتدارك ذلك بقوله: «هؤلاء
يعرفون مقدارك إن شاء الله»⁽¹⁾.

معاملة لهم، ولكنها شكوى تلمسنا حقيقة حاله بين قومه.

ومما يؤكده شاعرنا عمَّا يختلج في نفسه نحو بعض من
وسطه الاجتماعي إذ إنَّهم لا يقدِّرون شعره وأدبه رغم أنَّه يُعدُّ
المفوه النَّطِيق، فهو يعيش بين قوم لا يقدِّر أدبه إلا القليل ممَّن
لهم اهتمام بالشُّعر والأدب، لذلك نراه ينفث شكواه للمهتمين
بذلك في قوله:

[من الخفيف]

يَا أَحَا هَاشِمَ بِنِ عَبْدِ مَنَافٍ
دَعْوَةٌ مِنْ أَخِي رِجَالٍ كِرَامٍ
أَيُّ عُبْنٍ تَرَاهُ لِي غَيْرُ مَكْنِي
بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَفْهَمُونَ كَلَامِي
مَا مَقَامِي فِيهِمْ وَحَاشَاكَ إِلَّا
كَمَقَامِ الْيَقْظَانِ بَيْنَ النَّيَامِ⁽²⁾

من الملاحظ على البيت الثالث تأثر شاعرنا أبي البحر بأبي
الطيب المتنبِّي إذ إنَّ البيت منقول عن فخر المتنبِّي في معانيه
بالإضافة إلى صيغ العبارة والتركيب والشُّعر، ممَّا يدلُّ على أنَّ أبا
البحر وقع تحت وطأة الشَّاعر العباسي أبي الطيب كسائر الشعراء
الفحول، وذلك في قول المتنبِّي:

(1) الديوان، ص64؛ خالد الفرج، مجلة المنهل، ص96.

(2) الديوان، ص108.

[مِنَ الْخَفِيفِ]

مَا مَقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا
 كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ
 أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ
 غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي تَمُودِ⁽¹⁾

فشاعرنا يتقاذفه شعور بالضياح والغربة النفسية بالإضافة إلى الغربة المكانية التي اكتوى بحرّ نارها. لذلك وجدناه يُعبّر عن نفسه وشخصه ومكانته تعبيراً جريئاً رغم ما فيه من مبالغة واضحة، وفي الوقت نفسه نجد أنّ أبا البحر الخطّي قد حظي بمقام رفيع عند الوزراء والملوك، ورجال الدين، ومن متذوّقي الأدب في عصره، وذلك قد تبيّن من خلال علاقاته برجالات عصره آنفاً.

أمّا مكانته في قبيلته فهي أمر مختلف، إذ إنّهُ على يقين حين يتعرّض لخطر لا بدّ وأنّ تهبّ عشيرته لنصرته، وتأخذ بثأره، وأفضل مثال لذلك قصيدته «السُّبَيْطِيَّة» حينما تعرّضت له سمكة الحوت وهو يخوض البحر مع ابنه «حَسَّان» إذ شجّت وجنته وسالت دماؤه من وجهه، فثارت حماسته لتبيان مقامه بين عشيرته.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَلَوْ هَمَّ غَيْرُ الْحَوْتِ لِي لَتَوَأَّبْتُ
 رَجَالٌ يَخُوضُونَ الْحِمَامَ إِلَى نَصْرِي
 فَإِذَا مَا عَزَّ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ
 لِإِدْرَاكِ ثَأْرِي مِنْهُ مَا مَدَّ فِي عُمْرِي⁽²⁾

(1) ناصيف اليازجي، العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب، ص 116/1، 114.

(2) الدّيوان، ص 48.

ب - 4. موقفه من حساده

وَمِنَ الْعَوَامِلِ الَّتِي دَفَعَتْ أَبَا الْبَحْرِ لِلْفَخْرِ بِنَفْسِهِ مَوْقِفَهُ مِنْ
الْحُسَّادِ الَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ لَهُ الْخَيْرَ وَالرَّفْعَةَ. فَهُوَ يَفْتَخِرُ بِشَجَاعَتِهِ فِي
مَعْرُضِ رَدِّهِ عَلَى مَا اتُّهَمَ بِهِ مِنْ ذَنْبٍ لَنْ تَقْتَرِفَهُ يَدَاهُ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ
جَرِيرَةٌ حَتَّى سَعَى بَعْضُ الْقَوْمِ لَدَى الْأَمِيرِ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ
لَمْ يَفْتَرُوا عَلَيْهِ إِلَّا لِأَنَّهُ غَائِبٌ وَبَعِيدٌ عَنْهُمْ، وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ قَرِيباً مِنْهُمْ
أَوْ مَعَهُمْ لَمْ يَتَفَوَّهُوا بِكَلِمَةٍ مِنْ كَوَاذِبِهِمْ (وما حاضر عند الخصوم
كغائب) هذا التعبير يدلُّ بوضوح على حقيقة نفسه وشجاعته
لدى خصومه.

وأصدق مثال لذلك قوله في معرض اعتذاره لأحد أمراء البحرين
وهو خميس بن ناصر:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَقَدْ جَاءَكَ الْأَعْدَاءُ عَنِّي بِفِرْيَةٍ
وَأَسْتُ لَهَا مَا دُمْتُ حَيًّا بِصَاحِبِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّنِي كُنْتُ غَائِبًا
وَمَا حَاضِرٌ عِنْدَ الْخُصُومِ كَغَائِبِ
وَلَوْ شَاهَدُونِي لَمْ يَفِيضُوا بِكَلِمَةٍ
وَلِلْأَسَدِ خَوْفٌ فِي قُلُوبِ النَّعَالِبِ
فَلَا تَطْمَعِ الْحُسَّادَ فِيَّ فَإِنَّمَا
أَتَوَكَّ بِأَقْوَالٍ كَرَّمْتَ كَوَاذِبِ (1)

إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَبِينَنَّ مَنْ هُمُ الْأَعْدَاءُ الَّذِينَ نَقَلُوا، وَتَحَدَّثُوا
وَافْتَرُوا عَلَيْهِ بِكَوَاذِبٍ عِنْدَ الْأَمِيرِ. كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُوَضِّحِ الْفِرْيَةَ الَّتِي

(1) الديوان، ص.7.

نقلوها للأمير عنه في حين أنه اكتفى بتوضيح موقفه من الأمير، وأنّ الناقلين ما هم إلا أعداء وحُساد، ولو كان متواجداً لم يتفوهوا بكلمة لأنه أقوى منهم حُجّة، وهو قادر على ردّهم وقد عبّر عن ذلك بقوله: «وَلِلْأَسَدِ خَوْفٌ فِي قُلُوبِ النَّعَالِبِ».

وسار شاعرنا على الدّرب نفسه في قصيدة اعتذارية أخرى، حين سمع كلاماً كذباً ومفتري على شخصه ممّا جعله يترك بلده القطيف، ويهجر أهله وأصحابه، وهو بريء من تلك الفرية، وذلك في قوله:

[من الخفيف]

غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ مِنْ ألسِنِ النَّاسِ
 سِ كَلَامًا فَرِيًّا⁽¹⁾ عَلَى إهَابِي
 وَدَعَانِي إِلَى مُفَارَقَةِ الدَّارِ
 وَهَجْرِ الْأَهْلِيْنَ وَالْأَصْحَابِ
 لَبْرِيءٍ مِمَّا تَعَاطَاهُ أَهْلُ الزُّ
 وَرِ عَنِّي وَطَاهِرُ الْأَثْوَابِ⁽²⁾

وَمِنَ المَلاحِظِ على هذه الأبيات أنّ الشّاعر شديد الانفعال، وكثير التّأثر بما يسمع، كما أنّ هذا الفخر ممزوج بالشّكوى، وهذه المسحة الذاتيّة تبيّن لنا ما تعرّض له شخصياً من امتهان وضياع لما عانى منه، فوقف ينفث أبياتاً توجّج الأحاسيس وتثير العواطف.

ب - 5. فخره بقومه

سار الشّاعر على الدّرب الذي سار عليه الشّعراء قبله في

(1) «كلاماً فرياً» في الأصل «كلاماً فري» ويبدو أنّها مصحّفة، ولعلّ الصحيح ما أثبتناه لكون «فرياً» صفة لـ «كلاماً».

(2) الدّيوان، ص 11.

الفخر بأمجاد قبائلهم، رغم أنه كان مُقلِّاً في هذا الباب، فلم نجد في ديوانه إلا بضعة أبيات متناثرة في بعض قصائده المدحية والوصفية.

إلا أن فخر الشاعر القبلي يستحق الوقوف عنده، فالشاعر من ربيعة، وقد خرَّجت هذه القبيلة فحولاً من الرجال كرمًا وشجاعة ونخوة وأدبًا، فهو يفخر بانتمائه إليها. ومن خلال رحلته إلى الممدوح يفخر أبو البحر بانتمائه إلى هؤلاء السادة الأجداد من ذؤابة وائل:

[من الكامل]

قَسَمًا بِخَوْضِ كَالْحَنِيِّ صَوَامِرِ
وَصَلَتْ بِتَيْدَابِ السُّرَى الْأَسَادَا
يَحْمِلْنَ شُعْتًا⁽¹⁾ مِنْ ذُؤَابَةِ وَائِلِ
شُمَّ الْمَعَاطِسِ⁽²⁾ سَادَةً أَنْجَادًا⁽³⁾
ثُمَّ يَنْوَهُ مَا لِقَبِيلَتِهِ مِنْ مَاضٍ عَرِيقٍ فِي الشَّعْرِ، وانتساب عدد كبير من الشعراء إليها:

[من الطويل]

يَزِيرُكُمْوهَا⁽⁴⁾ مِنْ فُرُوعِ رَبِيعَةٍ
فَتَى أُعْرِقَتْ فِيهِ الرَّجَالُ الْأَمَاجِدُ⁽⁵⁾

(1) شُعْتٌ: ما تفرَّق من الأمور، المقصود أن قومه سادة أجداد يجمعون ما تفرَّق

من أمورهم. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ش، ع، ث)، 160/2.

(2) الْمَعَاطِسُ: الأنوف. ابن منظور، م. ن.، مادة: (ع، ط، س)، 142/6.

(3) أَنْجَادٌ: مفرد لها نَجْدٌ وَنَجْدٌ وَنَجِيدٌ وهو شديد البأس، وقيل: هو السريع الإجابة إلى ما دُعِيَ إليه خيرًا كان أو شرًّا. ابن منظور، م. ن.، مادة: (ن، ج، د)، 413/3.

وانظر: م. س.، ص 44.

(4) يَزِيرُكُمْوهَا: أي يهينكم لها.

(5) الديوان، ص 39.

وَمِنْ فخر الشَّاعر بقبيلته وتمجيد شجاعة رجالها وبطولاتهم، ما نلاحظه في مديحه للشَّيخ مُهَنَّأ بن هديف (سلطان صحار) وهو ينتمي إلى تغلب بن وائل مِنْ نسل الشَّاعر المشهور (عمرو بن كلثوم)⁽¹⁾ يركِّز على شجاعته، ويصفه بأنَّه سيف مِنْ سيوف تغلب بن وائل بقوله:

[مِنْ الكامل]

مَوَالِي مَوَالِي تَغْلِبِ ابْنَةَ وَاوَالٍ

وَحَسَامٌ يُمَنَّاها الْفَتَى ابْنُ هُدَيْفٍ⁽²⁾

ومن ذلك أيضاً: استنجاهه بقومه مِنْ بني شَنْ بن أَفصى في قصيدته المسماة بـ «السُّبَيْطِيَّة»⁽³⁾:

[مِنْ الطَّويل]

فَوَيْلُ بَنِي شَنْ بن أَفصى وَمَا الَّذِي

رَمْتَهُ بِهِ أَيَدِي الْحَوَادِثِ مِنْ وَتْرِ⁽⁴⁾

دَمٌ لَمْ يُرَقِّقْ مِنْ عَهْدِ نُوحٍ وَلَا جَرَى

عَلَى حَدِّ نَابٍ لِلْعَدُوِّ وَلَا ظِفْرِ

(1) انظر ترجمته في الباب الثاني، الفصل الأول، ص 94.

(2) الديوان، ص 76.

(3) قصيدة السُّبَيْطِيَّة لها مناسبة وهي «عندما عبر الشَّاعر وابنه حَسَّان البحر مِنْ محلة قرية كتكان (توبلي) قاصداً قرية (بوبهان)، وذلك في حالة الجزر، ولمَّا تَوَسَّط معظم الماء وثب بعض السَّمك واسمه «السُّبَيْطِي» نافرأ في وجهه فشقَّ وجنته اليمنى فنظم هذه القصيدة الغراء سنة (1610 / 1019). أُولها:

يَرْغِمِ الْعَوَالِي وَالْمَهْنَدَةُ الْبَيْتُ دِمَاءٌ أَرَاقَتْهَا سُبَيْطِيَّةُ الْبَحْرِ
وكتكان وتوبلي وبوبهان من قرى البحرين». انظر: م. ن، ص 47؛ الأمين، أعيان الشَّيعة، 4 / 168.

(4) الوتر: المفرد، أو الوتر: الفرد أو ما لم يتشقق مِنَ العدد، ابن منظور، لسان العرب، مادة: (و، ت، ر)، 273/5.

إلى أن قال:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَلَا أَبْلِغِ الحَيَّينَ بَكْرًا وَتَغْلِبًا

فَمَا العَوْتُ إِلَّا عِنْدَ تَغْلِبٍ أَوْ بَكْرٍ (1)

ويسير الشَّاعر على هذا المنوال معدداً أفضال عشيرته وما لقومه من مزايا خُلُقِيَّة وإِنسَانِيَّة. وهو في فخره يميل إلى الأسلوب التَّقليدي في الشكل والمضمون أي أنه لم يخرج على المعاني المتداولة والمطروقة في التُّراث الشُّعري العربي، وحينما نقرأ فخرِيَّاته المتفرقة بين قصائده تتضح لنا شخصيَّته، وتبيَّن بعض سمات شعره الخاصَّة، فهو يميل إلى المبالغة في تصويره، وإعجابه بنفسه، وبمقدرته الشُّعريَّة، كذلك حينما يتكلَّم على كرم قبيلته، وسخائها المتواصل عبر العصور ناهيك عن الشُّجاعة والسِّيادة التي كانت ظاهرة في أبنائها في عصره، والعصور السَّابقة.

ومِنَ الملاحظ أن فخره هذا انصبَّ على الصِّفات المعنويَّة من عِزَّة بالنَّفْس وإعجاب بها، بالإضافة إلى الكرم، والتُّبُل، والعلم، والشُّجاعة. ولعلَّ أروع فخر الشَّاعر ما كان مختلطاً بشكواه، إذ إنَّه أكثر إنسانيَّة؛ لأنَّ الشَّاعر يعاني فيه عاطفة إنسانيَّة طبيعيَّة. وإلى جانب افتخاره بنفسه وبشعره، افتخر أبو البحر بالمآثر السَّامية والخصال الحميدة التي وجدها في أعراف مجتمعه وقيمهم. وأوضح من خلال مآثر قومه وما كانوا عليه من الكرم، والبذل، والشُّجاعة، والوفاء، والحلم، والعقل، والعرض، والصلابة، وعراقة النَّسب، وطهارة المنبت، وحسن الخلق.

وهكذا نرى أن شعره صدَرَ عن وجدانٍ حماسيٍّ، إذ تناول جوانب

(1) الديوان، ص 47.

متعدّدة مِنْ حياة مجتمعه، وكان معبراً عَنِ الحياة التي عاشها في مجتمعه. ونلاحظ أَنَّ هذه الشُّعريّة تصدر في الواقع عن إحساس ذاتي شاملاً مواقف وقضايا تنمُّ عن وجدانه الخاصِّ ورؤيته الفكرية. والشَّاعر لم يكثر مِنَ الفخر، ولم أجد في ديوانه غير أمثلة محدودة تلك التي ذكرتها.

لقد تعرّفنا شاعريّة الخطّي في غرض الحنين إلى الوطن، والفخر. تُرى ما موقفه مِنَ الأغراض الشُّعريّة الأخرى، وعلى رأسها الرِّثاء؟ وما هو مقامه في الدِّيوان؟ وما هي المعاني التي طرقها؟ وكذلك الأمر في الوصف، والغزل، والعتاب، والاعتذار، والشكر ثمَّ الهجاء.

تلك أسئلة بذلتُ الجُهدَ للإجابة عنها في الفصل التَّالي.

الفصل الثالث: أغراضه الشعرية الأخرى

سأتناول في هذا الفصل أغراض شاعرنا الحَظِّي الأخرى، مبتدئاً بالرتاء لما له من أهميَّة واضحة في شعره بعد المديح، ولما له مِنْ صلة متينة بحياة الشاعر ونفسيَّته. وسأوضِّح مقام الرِّثاء في ديوان الشَّاعر، والهدف منه متبوعاً ببعض سمات الرِّثاء في المرثيَّة.

وسأجنح بعد ذلك إلى الأغراض التَّالية: وهي الوصف، فالغزل، فالعتاب، فالاعتذار، فالشكر، فالهجاء. محاولاً أن أبيِّن - قدر الإمكان - الظواهر التي تميَّزت بها هذه الأغراض مشفوعة بالأمثلة قدر المستطاع.

أولاً: الرِّثاء

«تغلب على ما وصل إلينا من شعر الرِّثاء ثلاث ظواهر فنيَّة كان الشُّعراء يحرصون على أن يتوصَّلا بها إلى الحديث عن أحزانهم. الأولى: أن يفتتحو قصائدهم بأبيات من الغزل يمهدون بها للرِّثاء، والثَّانية: أن يقفوا على الأطلال في مقدِّمات هذه القصائد تماماً، كما كان يفعل الشُّعراء القدامى حين يفتتحوون قصائدهم بوصف آثار الديار. أمَّا الظَّاهرة الثَّالثة: فتتَّصل بمعاني الرِّثاء وتتمثَّل في كثرة الحديث عن الدُّموع والمياه والمطر، والدَّعوة بالسُّقيا، رمزاً عن الحياة والموت والحزن»⁽¹⁾.

(1) فوزية صالح الرُّومي، الحركة الشُّعريَّة في الخليج العربي، ص 168.

ولا يكاد شاعرنا أبو البحر يخرج عن معاني الرثاء المعروفة، والمتداولة عند الشعراء الذين سبقوه من ذكر مآثر الفقيه وعظمته، وما أحدثته وفاته من حزن وأسى عميقين، وإظهار التوجع والحسرة على الفقيه، ناهيك عن اهتمامه باختيار اللفظة الموحية والمعبرة عن عظمة المتوفى، ومقامه بين قومه.

وله في كل ما يظهره من مناقب الفقيه ومآثره وصف لما يبيده من حزن ولوعة واضحتين في مرثياته.

«عند الاطلاع على أغلب مطالع قصائد أبي البحر الخطي في الرثاء سنجد أن الشاعر منشغل في الحديث عن آلامه وأحزانه، وليس هناك شيء آخر يفكر في أن يبدأ به غير التعبير عن هذه الأحزان»⁽¹⁾.

أ - مقام المراثي في الديوان

تمثلت مراثي شاعرنا الخطي في ثلاث عشرة مرثية، أطولها كانت في رثاء الإمام أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب⁽²⁾. إذ بلغ عدد أبياتها ثمانية وسبعين بيتاً، وأقصر شعره الرثائي ما كُتب منقوشاً على القبور. وله في ذلك ثلاث مقطوعات أبياتها تتراوح بين الاثنتين، والأربعة. كُتب اثنان منهما على قبر جعفر بن عبد الرؤوف في البحرين، وآخران كُتبا على قبر زوجة السيد عبد الرؤوف الحسيني في شيراز. ونظم أربعة أبيات حين التمس منه في رثاء ابن مقلد كي تنقش على قبره. ومن الملفت للنظر أن كل مرثياته قيلت في أصحابه من العلماء والوجهاء والأدباء، ومن تربطه بهم صلة قوية من أبناء منطقته، وأغلبهم من العلويين.

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر الخطي»، ص 172.

(2) الإمام أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب: هو الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي العدناني، أبو عبد الله، السبط، ابن فاطمة الزهراء. الرزكلي، الأعلام، 2 / 263.

أ - 1. رثاء شيخ القطيف أبي علي عبد الله بن ناصر بن مقلد (ت)

(1590 / 999)

يلخ عدد أبياتها ستة وثلاثين بيتاً، وهي قصيدة رائية مشهورة. وتعتبر هذه المراثية التجربة الرثائية الأولى للشاعر حسب التسلسل الزمني لقصائد الرثاء.

وقد بدأها بتصوير المنيّة أبشع تصوير، فما هي قد أعدت فرسانها لقتالنا، وكان لها النصر دون شك.

[مِن الطويل]

أَكْفُ الْبَرَايَا مِنْ تَرَاثِهِمْ صُفْرُ
وَيَبِيضُ الْمَنَايَا مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرُ
وَخَيْلُ الرَّزَايَا مَا تَزَالُ مُعَدَّةً
تُقَاتِلُنَا فُرْسَانُهَا وَلَهَا النَّصْرُ⁽¹⁾

ثمّ ينتقل إلى التّفجّع على المراثي، وذكر أفعاله الحميدة، وأوصافه المتعدّدة، فهو البدر الذي اهتدت إليه النواظر، ولكنّه أفل بعد اكتمال، والسيف الذي ثنت النّوائب من حده، فليتها تعرّضت لضربه⁽²⁾:

[مِن الطويل]

خَلِيلِيٍّ مِنْ أُنْبَاءِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ
قَفَا وَأُنْدَبَا شَيْخاً بِهِ فُجِعَتْ بَكْرُ
وَبَدْرًا تَرَاءَى لِلنَّوَاطِرِ فَأَهْتَدَتْ
بِهِ بُرْهَةً ثُمَّ اخْتَفَى ذَلِكَ الْبَدْرُ

(1) الدّيونان، ص 49.

(2) حاجم الربيعي، «أبو البحر الحطّي»، ص 173.

وَعَضْبًا تَثَّتْ أَيْدِي النَّوَائِبِ حَدَّةً

فَهَلَّا اعْتَرَاهَا مِنْ مَضَارِبِهِ عَقْرٌ⁽¹⁾

أ - 2. رثاء أبي محمد الحسين بن الحسن الشهير بالغريفي⁽²⁾

(ت 1001 / 1592)

أنشدها في اليوم السابع من وفاته. وهي قصيدة ميمية، وبلغ عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتاً. مطلعها:

[من البسيط]

جَدَّ الرَّدَى سَبَبَ الْإِسْلَامِ فَأَنْجَدَمَا

وَهَدَّ شَامِخَ طَوْدِ الدِّينِ فَأَنْهَدَمَا⁽³⁾

وهو يبكي معاهد العلم والأدب؛ لأنَّ الفقيه عالم وأديب.

أ - 3. رثاء الشيخ عبد الله بن ناصر بن مقلد

وهي مقطوعة رثائية نظمها كي تُنقَشَ على قبره. مجموعها أربعة أبيات وذلك سنة (1595 / 1004)، والشاعر يخاطب القبر الذي ضمَّ جسد أعظم الرجال مكانة وشرفاً، ومن خلالها يبرز أهمية القبر لأهمية الرجل المدفون بداخله.

(1) م. س.، ص 49.

(2) السَّيِّدُ حَسِينُ بْنُ الْحَسَنِ الْغَرِيفِيِّ: هُوَ السَّيِّدُ حَسِينُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ سَلِيمَانَ الْغَرِيفِيَّ الْبَحْرَانِيَّ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَحْرَيْنِ الْأَفْضَلِ، وَيَتَّصَلُ نَسَبُهُ بِالسَّيِّدِ (مُحَمَّدِ الْعَابِدِ) ابْنِ (الإمام موسى الكاظم عليه السلام)، وَهُوَ جَدُّ السَّادَةِ (الغريفيين) الْبَحْرَانِيَّ الْأَصْلِ وَالْمَتَفَرِّعِينَ مِنْهُمْ. يَنْسَبُ إِلَى (الغريفة) إِحْدَى قُرَى الْبَحْرَيْنِ الْقَدِيمَةِ، وَهِيَ تَقَعُ فِي الطَّرْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنْ قَرْيَةِ (الشَّاحُورَةِ). وَدُفِنَ فِي الْبَحْرَيْنِ وَرثَاهُ كَثِيرٌ مِنْ شُعْرَاءِ عَصْرِهِ. وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ (1592 / 1001). انظر: النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية، 1 / 465.

(3) الديوان، ص 113.

[مِنَ الكَامِلِ]

يَا قَبْرُ إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ بِمَنْ تَوَى
فِيكَ اسْتَطَلَّتْ عَلَى الْقُصُورِ فَخَارَا
وَأَرَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ فَاسْمٌ فَإِنَّمَا
وَأَرَيْتَ يَعْرُبُ سُؤْدَدًا وَنَزَارَا
إِنْ أَظْلَمْتَ سُدْفُ الْمَقَابِرِ فَاسْتَتِرْ
مِنْ بَيْنَهَا فَلَقَدْ حَوَيْتَ نَهَارَا
فَسَقَاكَ نَائِلُهُ فَلَسْنَا بَعْدَهُ
يَا قَبْرُ نَسْتَسْقِي لَكَ الْأَمْطَارَا⁽¹⁾

أ- 4. رثاء قاضي القضاة الشريف أبي جعفر عبد الرؤوف بن
حسين⁽²⁾ عام (1006 / 1597)

وهي قصيدة دالية بلغ عدد أبياتها سبعة وأربعين بيتاً. ركز
الشاعر على جانب منه، وهو إحاطة نعشه بفتية يحملون السلاح،
وكأنهم في ساحة الوغى، فيكلل بذلك مرثيه بهالة من الهيبة، والوقار،
تلك التي اكتسبها القاضي في حياته، ولحقته بعد مماته⁽³⁾.

[مِنَ الكَامِلِ]

فِي فِتْيَةٍ صَمِنْتَ لَهُمْ عَزَمَاتِهِمْ
رِيَّ الْقَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ جَلَادٍ
قَوْمٌ إِذَا سَلُّوا الصَّوَارِمَ أُغْمِدَتْ
بِمَقْرِ تَاجٍ أَوْ مَنَاطٍ نَجَادٍ

(1) الديوان، ص 68.

(2) انظر: تعريفه في الفصل الثاني من الباب الأول، ص 59.

(3) حاجم الربيعي، «أبو البحر الحطّي»، ص 173.

يَتَسَابِقُونَ عَلَى السَّوَابِقِ لِلْوَعَى
 كَسِبَاقِهِمْ بِهِمْ عَلَى الْأَمَادِ
 أَعْلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى أَعْوَادِهِمْ
 الْمَجْدَ قَدْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ⁽¹⁾

أ - 5. رثاء أبي الحسين محمد بن سليمان القاروني

وهي مرثية كافية، بلغ عدد أبياتها ثمانية وعشرين بيتاً. وقد أنشئت في حفل حاشد في مسجد «ماثنا» مِنْ كَتَّان⁽²⁾ وذلك سنة (1599 / 1008)، بَيْنَ مَنْ خَلَّاهَا مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْفَقِيدُ مِنْ مَقَامِ عَالٍ مَعَ ذِكْرِ الْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ لِلْفَقِيدِ، وَعَظْمِ الْمَصِيبَةِ حِينَ فَقْدِهِ. منها :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

تَبَّتْ يَدُ الدَّهْرِ لَمْ يَعْلَمْ بِأَيِّ فَتَى
 أَوْدَى وَأَيُّ هُمَامٍ سَيِّدٍ فَتَا
 بِوَاحِدٍ مَرَّ فَرْدًا فِي مَكَارِمِهِ
 مَا افْتَرَّ عَنْ مِثْلِهِ دَهْرٌ وَلَا ضَحَا
 مَا مَدَّ يَوْمًا إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا
 طَرْفًا وَلَا كَانَ فِي اللَّذَاتِ مِنْهُمْ كَا⁽³⁾

إلى أن قال:

(1) الدِّيوان، ص40. والشاعر أخذ معنى البيت الرابع من قول الشريف الرضي في رثاء الصَّابِي:

أَعْلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَبَا ضِيَاءَ النَّادِي
 انظر: الشريف الرضي، ديوانه، 381/1.

(2) كَتَّان: أصلها يقال لها: كرزكان، وهي قرية من قرى البحرين.

(3) م. س.، ص84.

فَاذْهَبْ فَمَا زَالَ هَامِي الْغَيْثِ يَصْحَبُهُ
مِنْ فَيْضِ دَمْعِي عَلَى مَثْوَاكَ مُنْسَفِكًا⁽¹⁾

أ - 6. رثاء زوجة السيد عبد الرؤوف الموسوي

وهي مقطوعة قصيرة جداً مكوّنة من بيتين. وقد قالها حينما
طُلب منه شيء يُكْتَب على قبرها. قالهما عام (1610 / 1019)
وهما:

[من المنسرح]

إِنْ نُقِلْتُ مِنْ شَوَامِخِ الشَّرَفِ
إِلَيْكَ يَا قَبْرُ دُرَّةِ الشَّرَفِ
فَعَيِّرُ بِدَعِ قَالِدُرُّ أَكْثَرُهُ
حُسْنًا وَأَنْقَى⁽²⁾ مَا كَانَ فِي الصَّدْفِ⁽³⁾

أ - 7. رثاء العقيلة «ملوك» بنت السيد الشريف عبد الرؤوف

قالها في رثاء العقيلة الكريمة «ملوك» بنت السيّد الشّريف
عبد الرؤوف زوجة الشّريف العلّامة ماجد بن هاشم، وقد توفيت
بعد عودتها من الحجّ بيوم واحد، ودفنت بمدفن السيّد أحمد بن
موسى الكاظم سنة (1611/1020) وهي مرثية لامية بلغ عدد أبياتها
أربعة وأربعين بيتاً. يذكر فيها ما لهذه العلوية من سجايا وصفات
تعلو على صفات النساء، ولأنّها ابنة السيّد الشّريف عبد الرّؤوف
الموسوي وزوجة العلّامة ماجد بن هاشم الحسيني، وما لهما من
مقام رفيع عند الشّاعر. يقول فيها:

(1) الديوان، ص85.

(2) وردت كلمة «أنقى» في الأعيان وفي الديوان «أبقى»، ولعلّ الصحيح ما
أثبتناه.

(3) م. ن.، ص76؛ محسن الأمين، م. س.، 163/4.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَعَائِدَةٌ مِنْ حَجَّهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا
 عَلَى غَيْرِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ نُزُولُ
 كَانَ لَمْ تَوُوبَ بَعْدَ الْمَغِيبِ وَلَمْ يَكُنْ
 لَهَا بَعْدَ إِزْمَاعِ الرَّحِيلِ قُفُولُ
 فَيَا ابْنَةَ مَنْ لَوْ كَانَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
 رَسُولٌ لَمَا أَمْسَى سِوَاهُ رَسُولُ
 وَرَوْجَهُ مَنْ لَوْ فَتَشَّ الْخَلْقُ لَمْ يَكُنْ
 لِيَلْفِي لَهُ فِي الْعَالَمِينَ مَثِيلُ⁽¹⁾

أ - 8. رثاء خديجة بنت السيد عبد الرؤوف

توفيت عقيب أختها ملوك ومريم بنت الخواجة علي بن منصور
 الهزمية، والشَّاب السَّيِّد جمال الدين بن سليمان بن عبد الرؤوف،
 وتوفي بعد رجوعه من الحجِّ سنة (1021 / 1612)، فأدرج رثاء الجميع
 في هذه المرثية الدَّليَّة التي بلغ عدد أبياتها ستين بيتاً. قال في
 مطلعها:

[مِنَ الْوَافِرِ]

أَلَا يَا قَوْمُ مَا لِلدَّهْرِ عِنْدِي
 لِأُسْرِفِ فِي الْإِسَاءَةِ وَالتَّعَدِّي
 تَخَرَّمُ أُسْرَتِي فَبَقِيْتُ فَزْدًا
 أَبَادِرُ⁽²⁾ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ وَوَحْدِي

(1) الدِّيوان، ص92؛ الأمين، أعيان الشيعة، 164/4.

(2) أبادر: جاءت في أعيان الشيعة «أبارز». ولعلَّ الصَّواب ما جاء في الأعيان.

وَكَّرَ عَلَى ذَوِي وُدِّي فَأُورَى

بِفَقْدِهِمْ مِنَ الْأَحْزَانِ زِنْدِي⁽¹⁾

أ - 9 - رثاء الشريف عبد القاهر بن عبد الرؤوف الموسوي

قالها حينما أتاه نعي الشريف عبد القاهر بن عبد الرؤوف الموسوي من البحرين وهو يومئذ بشيراز فبعث بها إلى البحرين سنة (1613/1022) وهي قصيدة قافيتها «الهاء» بلغ عدد أبياتها واحداً وأربعين بيتاً.

يلاحظ على هذه المراثية أن الشاعر مزج بكاءه على نفسه ببكائه على الفقيد، وهو يعزّي نفسه بنعي الفقيد لقربه منه. ويصور الشاعر كذلك خطبه الفادح بموت هذا الفقيد:

[من الكامل]

أَتَرَى النُّعَاةَ دَرَّتْ بِمَنْ هَتَفَتْ بِهِ

أَوْ مَنْ عَنَّتْ لَمَّا نَعَتْ بِنِعَائِهَا

لَنَعَتْ إِلَى الْمَعْرُوفِ بَيْتَ قَصِيدِهِ

وَلَسُورَةَ الْإِحْسَانِ⁽²⁾ آيَةً أَيَّهَا

نَفْسًا لَوْ انْتَهَرَ الْفِدَاءُ بِهَا افْتَدَتْ

بِنَفْيِيسٍ مَا تَحْوِي بَنُو حَوَائِهَا⁽³⁾

أ - 10. رثاء شاب

قال وقد بلغه وفاة شاب⁽⁴⁾ كانت بين الشاعر ووالد الشاب

(1) الديوان، ص 29؛ الأمين، أعيان الشيعة، 163/4.

(2) إشارة إلى أن الفقيد صاحب معروف وإحسان لا مثيل له، فالنعي للفتين السابقتين؛ لأنه علامة بارزة لتمثيلهما.

(3) م. س.، ص 5.

(4) الشاب هو حسن بن محمد بن جعفر بن علي بن أبي سنان، من أبناء أعيان

صحبة أكيدة فكتب إليه يعزيه في ولده سنة (1613/1022). وفي الأعيان⁽¹⁾ أن الشاعر بعث بهذه المراثية إلى والد الفقيه سنة (1028 / 1618). وهي لامية بلغ عدد أبياتها سبعة وخمسين بيتاً. منها:
[مِنَ الوافر]

أوَالِدَهُ وَلَسْتَ تُلَامٌ عِنْدِي
سِوَى شَيْءٍ عَلَيَّ وَجِهِ السُّوَالِ
عَلَامٌ غَسَلْتَهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ
فَجَاءَ كَقَطْرَةِ الْمَاءِ الزُّلَالِ
فَهَلَّا كُنْتَ تَتْرُكُ فِيهِ عَيْبًا
فَكَانَ يَقِيهِ مِنْ عَيْنِ الْكَمَالِ⁽²⁾

أ - 11. رثاء طفل

مراثية مكونة من ثلاثة وعشرين بيتاً يعزي بعض الأعيان - ولم يُسمَّه - بفقد طفل له سنة (1614 / 1023). مطلعها:

[مِنَ الوافر]

عَزِيْزُ أَمْرِنَا لَكَ بِالتَّعْزِي
عَدَاةٌ أُصِبَتْ بِالْوَالِدِ الْأَعْزِ

القطيف، وكان أبوه قبل وفاته قد وقعت عليه اللصوص ونهبوه، وأنخونه جراحاً وبقي في البادية مطروحاً بين الأحساء والقطيف. فنُقِلَ بعد يومين وبه رمق الحياة. وصاروا يعالجونه حتى برئ، غير أن يديه شلتا وسقطت بعض أنامله، وجرت عليه بعد ذلك مصادرات من حاكم القطيف أُلجأته إلى الهجرة إلى أوال، فقبض الحاكم على أملاكه وضياعه مدة حتى توسطت القضية العلامة ماجد بن هاشم الحسيني، وأمنه فرجع إلى وطنه، وفي ذلك الحين توفي ولده. انظر: م. ن.، ص 95.

(1) محسن الأمين، أعيان الشيعة، 164/4.

(2) الديوان، ص 96.

لَعَمْرُ أَبِي لَقَدْ رَمَتِ اللَّيَالِي
بِحَزِّ فِي الْحُلُوقِ وَأَيُّ حَزْرٍ (1)

أ - 12. رثاء سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي

طالب

وهي مرثية دالية بلغ عدد أبياتها ثمانية وسبعين بيتاً، ينقل خلالها أحاسيسه وانطباعاته باللوعة والأسى، لما جسده الحسين وأصحابه في معركة كربلاء، من إرساء قيم البطولة والإباء والإصرار على الحق واستشهاد في سبيله، فقد صور المعركة بشتى جوانبها. والشاعر يجعل القارئ لهذه المرثية وكأنه عايش هذه المعركة. وذلك ليس غريباً على شاعر من الطائفة الشيعية الإمامية، بل الغريب أن لا نرى للشاعر، إلا هذه القصيدة، وهي وحيدة في الديوان في رثاء أهل البيت.

[من الطويل]

مَعَاهِدُهُمْ بِالْأَبْرَقِينَ هَوَامِدُ
رُزِقْنَ عَهَادَ الْمُزْنِ تِلْكَ الْمَعَاهِدُ
وَلَوْلَا أَحْمِرَارُ الدَّمْعِ لَانْبَعَثَتْ بِهَا
سَحَائِبُ دَمْعٍ بِالْحَيْنِ رَوَاعِدُ (2)

أ - 13. رثاء الشريف ناصر بن عبد الجبار الحسيني

ويبلغ عدد أبياتها سبعة وسبعين بيتاً، وهي قصيدة ميمية. يرثي خلالها الشريف ناصر بن عبد الجبار الحسيني (3)، وقد توفى عند

(1) الديوان، ص 68.

(2) م. ن.، ص 36.

(3) هو ناصر بن عبد الجبار ابن السيد حسين البحراني، وهو من أبناء البحرين وسادتها وأشرفها. التويدري، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، 1/495.

قفوله مِنْ شيراز متوجّهاً إلى (الحويزة)⁽¹⁾، ففضى قرب (بهبهان)⁽²⁾،
وأبو البحر الخَطِيّ يومئذٍ بشيراز: فقال في مطلعها:

[مِنَ الكامل]

هَتَفَتْ بِدَمْعِ الْعَيْنِ فَهَوَ سَجُومٌ
دَمَنْ حَبَسْنَ عَلَى الْبَلَى وَرُسُومٌ⁽³⁾

أ - 14. رثاء أحمد بن عبد الصمد بن الحسين العلوي

ويبلغ عدد أبياتها ثمانيةً وثلاثين بيتاً، وهي قصيدة لامية. وقد
رثى فيها العالم أحمد بن عبد الصمد بن الحسين العلوي⁽⁴⁾.
هذه المراثية سنة (1613/1022)، قبل وفاة الخَطِيّ بستّ سنوات.
ومطلعها:

[مِنَ الطَّويل]

وَرَاءَ كَمَا إِنَّ الْمَصَابَ جَلِيلُ
وَإِنَّ الْبُكَاءَ فِي مِثْلِهِ لَقَلِيلُ⁽⁵⁾

-
- (1) الحُوَيْزَة: وهي تصغير الحوزة، وأصله حازه يحوزه حوزاً إذا حصله، والمرّة
الواحدة حوزة، وهي موضع حازه دبّيس بن عفيف الأسدي في أيام الطّائع
لله، ونزل فيها بخلّته، وبنى فيه أبنية. هذا الموضع يقع بين واسط والبصرة
والأحواز في وسط البطائح. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2/326.
- (2) بهبهان: وهي مدينة غرب إيران شرقي سهل خوزستان، لوريمر، دليل الخليج،
376/1.
- (3) الدِّيوان، ص100.
- (4) أحمد بن عبد الصمد بن الحسين العلوي: هو السّيد أحمد ابن السّيد
عبد الصمد الحسيني البحراني، تلميذ السّيد ماجد الصّادقي. عالم فاضل
وشاعر وأديب رثاه شاعرنا الخَطِيّ. كانت وفاته (1021 / 1612). النويدري،
أعلام الثقافة الإسلاميّة، 425/1.
- (5) م. س.، ص89.

أ - 15. رثاء الشريف أبي جعفر عبد الرؤوف

بيتان كُتبا على قبر الشريف أبي جعفر عبد الرؤوف. وهما:

[مِن الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا وَارَوْهُ فِي التُّرْبِ إِنَّهُ
تَقَاصَرَ عَن حَدِّ العُرُوجِ إِلَى الأفقِ
وَلَكِنَّهُ الطَّوْدُ الَّذِي لَوْ يَزُولُ عَن
مَرَاسِيهِ مَادَتْ هَذِهِ الأَرْضُ بِالخَلْقِ (1)

أثبت أبو البحر جدارته في فنِّ الرثاء في سنٍّ مبكرةٍ مِنْ حياته الشعريَّة، إذ ردَّد كغيره مِنَ الشعراء في مرثياته غائلات الزَّمان، وغدره المتكرَّر، وقسوة الدَّهر، وفتكه بالأحبة. وكان رثاؤه متمركزاً في سلالة العلويِّين مِنْ أعيان البحرين وعلماؤها وكذلك القطيف.

«إنَّ أشدَّ أنواع الرثاء صعوبة على الشَّاعر، أن يرثي طفلاً أو امرأة؛ لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصِّفات» (2). إلاَّ أنَّ أبا البحر استطاع أن يتخطَّى هذه المعضلة عن طريق موهبته وقدرته على استغلال ما هو شائع ومعروف عن الفقيده وعائلتها وكذلك عن طريق قربه والتصاقه بأفراد عائلتها، وبخاصَّة زوجها، ناهيك عمَّا تتمتَّع به الفقيده مِنْ حَسَبٍ ونَسَبٍ شريف ومجد رفيع. كان ذلك في رثاء كريمة عبد الرؤوف (3) وبالمناسبة توفِّيت قبلها أخت لها،

(1) الديوان، ص 79.

(2) ابن رشيقي القيرواني، العمدة، 154/2.

(3) جاء في أعيان الشَّيعة أنَّ المرثيين في هذه القصيدة هم خديجة بنت السَّيِّد عبد الرؤوف، وتوفِّيت عقب أختها «ملوك» و «مريم» بنت الخواجه علي بن منصور الهزيميَّة، والسَّيِّد جمال الدِّين بن سليمان بن عبد الرؤوف. انظر: محسن الأمين، م. ن.، 163/2.

وشابٌ يدعى جمال الدين ابن السيد سليمان بن عبد الرؤوف فأدرج
رثاء الجميع في مرثية واحدة.

[من الوافر]

فَيَا لَكْرِيْمَتَيِ حَسَبِ وَدِيْنِ
وَيَا لَعْقِيْلَتَيِ شَرَفِ وَمَجْدِ
كِلَا رِزَايِهِمَا نَارٌ فَهَذَا
لَطَى قَلْبِ وَدَاكَ حَرِيْقُ كَبْدِ
وَنَالَ الصُّهُرُ ثَالِثَةً فَأَوْدَتْ
خِلَالَهُمَا كَأَنَّ الرِّزْءَ يُعْدِي
ثَلَاثٌ مَا سَمَّتْ عَلَيَا (1) بَيْتِ
بِعْغُورٍ فِي مَنَاكِهَهَا وَنَجْدِ (2)

والمرثية في مجملها إظهار للحسرة ولوعة الفقد، وبيان لودّه
وإخلاصه لهذه العائلة لما لهم من أفضال كثيرة عليه.

ومن رثائه النسوي ما رثى به العقيلة «ملوك» (3) إذ قال:

[من الطويل]

وَعَائِدَةٌ مِنْ حَجَّهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا
عَلَى غَيْرِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ نَزْوُ
كَأَنَّ لَمْ تَوُوبَ بَعْدَ الْمَغِيبِ وَلَمْ يَكُنْ
لَهَا بَعْدَ إِزْمَاعِ الرَّحِيلِ قُفُو

(1) عَلَيَا: وردت في أعيان الشيعة «علياء بيت».

(2) الدِّيوان، ص30.

(3) العقيلة «ملوك» بنت السيد الشريف عبد الرؤوف عقيلة الشريف العلامة

ماجد بن هاشم. وقد توفيت بعد عودتها من الحج يوم واحد سنة (1020 /

1611). محسن الأمين، م. س.، 163/2.

لَأَسْرَعَ مَا وَافَتْ وَفَاءَتْ كَأَنَّمَا

عَلَيْهَا بِأَنْ لَا تَسْتَقِرَّ كَفَيْلٌ⁽¹⁾

وشاعرنا أبو البحر لم يقتصر في مراثياته على الرجال والنساء فقط، بل كان للشباب والأطفال نصيب في بكائياته. إذ لم يقل أهمية وجوده عمّا سبق، بل شكّل في مجمله دورة شاملة لثناء الإنسان. وهو بذاته استطاع أن يطلعنا على حزنه وألمه عن طريق الأسلوب واللغة المستخدمين في توصيل حزنه للمعزّي وتخفيف آلام الفقد عليه. ويقول ابن رشيقي: «ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم، وما كانت الفراسة تعطيه فيهم، مع تحزّن لمصابهم، وتفجّع بهم»⁽²⁾.

وله في ذلك تجربتان: الأولى في شابّ من أعيان القطيف. بدأها كعادته بالحديث عن آلامه وأحزانه تجاه المعزّي، ثم أخذ يصوّر لنا موقفه وحالته غداة نعي الفقيده بأنّه حينما سمع النعي تصوّر وكأنّ نجماً هوى من السماء وضاعت عليه رحاب الأرض من فرط الحزن الذي خيّم عليه وذلك في قوله:

[من الوافر]

غَدَاةٌ نُعِي لَنَا حَسَنٌ وَقَالُوا

هَوَى مِنْ أَفْقِهِ نَجْمٌ الْمَعَالِي

فَظَلْنَا حِينَ جَدَّ بِنَا نَعَاهُ

وَقَدْ ضَاقَتْ بِنَا سَعَةُ الْمَجَالِ⁽³⁾

ويقول فيها بعد أبيات يخاطب والد الفقيده بأسلوب حسن وجميل في صورة بديعة يصوّر من خلالها طهارة الابن وخلوّه من الذنوب بقطرة الماء الزلّال:

(1) الدّيونان، ص 92.

(2) ابن رشيقي، العمدة، 158/2.

(3) الدّيونان، ص 95.

عَلَامَ غَسَلَتْهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ
فَجَاءَ كَقَطْرَةِ الْمَاءِ الزُّلَالِ
فَهَلَّا كُنْتَ تَتْرُكُ فِيهِ عَيْبًا
فَكَانَ يَقِيهِ مِنْ عَيْنِ الْكَمَالِ⁽¹⁾

من هنا تتضح قدرة الشاعر على التفكير وبعده الخيال. ويقرر أن الموت أمر محتوم وكأس لا بد لكل مخلوق من أن يشرب منه. وتكاد مرثيته الثانية في تعزية أحد الأعيان بفقد طفل تكون نسخة من مرثيته السابقة وموقفه من الموت كقضية كبرى واستسلامه للقضاء والقدر في قوله:

[من الوافر]

وَطِفْلٌ مَاتَ لَمْ يَرْكَبْ جَوَادًا
سِوَى حِضْنِ الْوَلِيدَةِ وَالْمَنْزُرِ
إِلَى أَنْ قَالَ:

هِيَ الْأَيَّامُ لَا تُبْقِي كَبِيرًا
لِعَظْمٍ جَلَالَةٍ وَلَفَرَطٍ عَزْرًا
وَلَا تُبْقِي صَغِيرَ السُّنِّ بَقِيًّا
لِجَامِعَةٍ عَلَيْهِ وَلَا لِحِرْزِ⁽²⁾

خاتمة قصيدة الرثاء

ويختتم شاعرنا أبو البحر قصائده الرثائية بالدعاء لذوي الفقيد بالصبر والسلوان وطلب المغفرة والرحمة للفقيد من الله عز وجل. من ذلك قوله:

(1) الديوان، ص 96.

(2) م. ن.، ص 68، 69.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بَنِيهِ اضْبِرُّوا فَالضَّبْرُ أَجْمَلُ حِلَّةٍ
تُرْدِي بِهَا مَنْ مَسَّ جَانِبَهُ الضَّرُّ
فَلَوْلَا انْقِضَا الْأَعْوَامِ مَا فَنِيَ الدَّهْرُ
وَلَوْلَا فَنَا الْأَيَّامِ مَا نَفَدَ الشَّهْرُ⁽¹⁾

وبفقد قاضي القضاة، فهو يرثي قاضياً راحلاً ويهنئ ابنَ الفقيد لأنَّه سيحلُّ محلَّه في دست القضاء، فاجتمعت دواعي العزاء مع دواعي التهنئة ومضى يقابل المصاب وعزاءه المتمثِّل في قيام قاضٍ جديد. والبكاء الذي أعقب رحيل ذلك حسرة السُّرور الذي أتى مع طلوع هذا فاختلط الأسى بالسُّلوى.

[مِنَ الْكَامِلِ]

فَلَمَّا مَضَى عَبْدُ الرَّؤُوفِ لِشَأْنِهِ
وَالْمَوْتُ لِلْأَحْيَاءِ بِالْمِرْصَادِ
فَلَقَدْ أَقَامَ لَنَا إِمَامًا هَادِيًا
يَقْفُوهُ فِي الْإِضْدَارِ وَالْإِيرَادِ
يُزْهِي بِهِ دَسْتِ الْقَضَاءِ كَأَنَّهُ
بَدْرٌ تَقَرَّرَى عَنْهُ جَنحُ الْهَادِي⁽²⁾
وَمِنْ دَعَاءِ الشَّاعِرِ لِلْفَقِيدِ بِالسُّقْيَا قَوْلُهُ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

سَقَى قَبْرَهُ مِنْ وَاكِفِ الْغَيْثِ رِيَّهُ
وَجَرَّ عَلَيْهِ لِلنَّسِيمِ دُيُؤُلُ

(1) الدِّيوان، ص 50.

(2) م. ن.، ص 41.

وَلَا زَالَ تَسْلِيمُ الْإِلَهِ يَسُوقُهُ
لَهُ غَدَوَةٌ مَا تَنْقُضِي وَأَصِيلُ (1)

وطبيعي أن تكون مرثياته في طائفة بعينها من رجالات المنطقة وهم طبقة العلماء والأدباء والأصدقاء ومتعلقين بهم، هؤلاء هم الذين اتّصلت بحالهم بهم لذلك جاءت مشاعره نحوهم صادقة تنم عن تجربة انسانية حقيقية ملؤها الحزن والألم، ترجمتها تلك المعاني والألفاظ التي انطلقت من الصلة التي كانت تقوم بين الشاعر وبين من يرثيه.

ب - معاني الرثاء

ومن خلال تفصيلنا لقصائد الشاعر الرثائية أمكننا أن نقسم معاني الرثاء إلى محورين رئيسيين لم يحد عنهما في بكائياته: **المحور الأول:** رثاؤه للرجال من العلماء والأعيان، **والثاني:** رثاؤه للنساء والشباب والأطفال.

أما فيما يتعلق بالمحور الأول، فقد نلاحظ أن مرثيات الشاعر في العلماء من رجال الدين والأدب والأعيان والأصحاب تدرج تحت علامات ثلاث:

أولهما: نذب الفقيه والتأسي عليه.

وثانيتهما: الإشادة والتنويه، وتعداد فضائله ومآثره.

وثالثتهما: دعوة أهل اللصبر على المصيبة، والدعاء للفقيه بالرحمة.

والتزم هذه العناصر في مجمل بكائياته لنذب الفقيه والتأسي عليه. وخير مثال مرثيته للشيخ عبد الله آل مقلد. في قوله:

(1) الديوان، ص91. وانظر: م. ن، ص103، 114.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

خَلِيلِيٍّ مِنْ أُنْبَاءِ بَكْرٍ وَوَائِلِ
قَفَا وَأَنْدَبَا شَيْخًا بِهِ فُجِعَتْ بَكْرٌ⁽¹⁾

وقوله في المراثية ذاتها:

فَيَا أَيُّهَا الشَّوَيْ الَّذِي اتَّخَذَ الثَّرَى
مَقَامًا فَهَلَّا كَانَ صَدْرِي لَهُ الْقَبْرُ⁽²⁾

إنَّ عزاءه في دعوة أبناء قبيلته للوقوف إلى جنبه في مصيبتة الكبرى التي حلت على قومه من بكر ووائل لفقدهم علماً وشيخاً ورمزاً بارزاً. لذلك تمنى أن يكون هو القبر ليضمَّ المقبور ولن يغادره. وعلى المنوال نفسه قوله في رثاء قاضي القضاة أبي جعفر عبد الرؤوف الموسوي:

[مِنَ الْكَامِلِ]

يَا فَجَعَةً مَلَأَتْ صُدُورَ أُولِي النُّهَى
حُزْنًا يَدُّكَ شَوَامِخَ الْأَطْوَادِ
أَوْسَعَتْ أَجْفَانَ الْبُكَاءِ مَدَامِعًا
وَأَغْضَتْ مَاءَ الْبَحْرِ ذِي الْأَزْبَادِ⁽³⁾

فهو في هذا الجانب يشعرا بما يثيره في النَّفْسِ مِنْ عاطفة الحزن والأسى، وما يخلقه مِنْ جوٍّ مأساويٍّ مؤثِّرٍ، يدلُّ به على مدى صدقه ولوعته، ويعكس بذلك الإحساس الصادق بالفقد والحزن. وهو ينصرف بهذه المراثية وغيرها إلى تجسيم حزنه وتصوير مصابه بفقد

(1) الدِّيوان، ص 49.

(2) م. ن.، ص 49.

(3) م. ن.، ص 39. وانظر أيضاً: م. ن.، ص 4، 29، 68، 84، 89، 100، 113.

مرثيته لأن هذه المصيبة قد أذهلته؛ وبذلك استطاع أن يُعبر عن أساه خير تعبير.

وتكاد عناصر المديح في شعره تكون هي ذاتها في رثائه، إذ إنّه رثى بعضاً من الذين امتدحهم، ولذلك يُلاحظ أنّ ذات الشّاعر لصيقة بذوات من رثاهم. من ذلك الشّريف ناصر بن عبد الجبّار الموسويّ إذ قال في رثائه:

[من الكامل]

أَخِي لَا لِأَبٍ وَلَا أُمٍّ سِوَى
وُدٍّ لِأَيْدِينَا عَلَيْهِ ضُمُومٌ
أَتْرَيْتُ بَعْدَكَ مِنْ عِدَائِي وَأَنْبِي
بِخِلَافِ ذَاكَ مِنَ الصَّدِيقِ عَدِيمٌ
فَكَأَنَّما الأَيَّامُ آلا صَرَفُهَا
أَنْ لَا يَدُومَ عَلَى الزَّمَانِ كَرِيمٌ⁽¹⁾

ولكنه في الوقت نفسه يبكي معاهد العلم والأدب عندما يكون مرثيته عالماً وأديباً كالعلامة أبي محمّد الحسين المعروف بالغريفي، والعلامة أحمد بن عبد الصمد الموسويّ. وبفقد هذا الأخير اختفت معارف تتفتّح بها الأبصار والبصائر وتتلقّح بها الأذهان والعقول، فلو ناجى بهذه المعارف الصخر لأوشك أن يردّ عليه⁽²⁾:

[من الطويل]

مَعَارِفُ لَوْ نَاجَى بِهَا الصَّخْرَ مُفْهِمًا
لَأَوْشَكَ أَنْ يَدْرِي وَكَأَدَ يَقُولُ

(1) الدّيون، ص101. وانظر: م.ن.، ص84، 89، 113.

(2) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، مجلة دراسات الخليج، ص173.

تَفْتَحُ أَبْصَارَ بِهَا وَبَصَائِرُ
 وَتَلْقَحُ أَذْهَانَ بِهَا وَعُقُولُ
 فَقَدَنَاهُ فَقَدَ الرَّوْضَ رِيحَ سَفِيهِ
 فَخَوَى بِهِ بَعْدَ النُّمُوِّ ذُبُولُ
 عَفَاءً عَلَى مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ بَعْدَهُ
 وَغَالَتْ بِنِي أُمَّ الْفَضَائِلِ غُولُ⁽¹⁾

أما في رثائه لقاضي القضاة الشَّريف أبي جعفر عبد الرؤوف الحسيني الموسوي، فإنه يبدأ مرثيته بالشَّكوى مِنَ الزَّمان وصروفه في هلاك الطَّيِّبين، وفناء الأخيار، إذ تفجَّع على مرثيته بمكانته الدِّنيَّة والدنيويَّة، وفضله في العلم والدِّين والفروسيَّة.

فهو الصَّعب الَّذي لم ينقد، إذ اقتاده القدر إلى القبر. في حين أنَّ الشَّاعر يعتذر للفقيد لعدم قدرته على مجابهة العادي، ويُقسِّم لو كان العادي غيره لكان هو أوَّل العادين عليه.

[مِنَ الْكامل]

عُدْرًا لَوِ الْعَادِي عَلَيْهِ سَوَى الرَّدَى
 قَسَمًا لَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوَّلَ عَادِي⁽²⁾

فهو يتحسَّر على فقدانه مِنْ علوِّ كعب، وسموِّ مكانة، وذلك بأسلوب يستكشف مِنْهُ وثوق الصَّلَّة، وعمق العلاقة بينهما. وممَّا قاله في هذه المرثيَّة:

[مِنَ الْكامل]

اللَّهُ أَكْبَرُ أَيُّ طَوْدٍ شَامِخٍ
 مَالَتْ جَوَانِبُهُ وَأَيُّ عِمَادٍ

(1) الديوان، ص90. وانظر: م. ن، ص113.

(2) م. ن، ص40.

أَيُّ امْرِئٍ صَعِبِ الْقِيَادِ اقْتَادَهُ
 دَهْرٌ لَدَيْهِ الصَّعْبُ كَالْمِنْقَادِ
 بَيْنَاهُ يَقْتَنِصُ الْفَضَائِلَ لَا يَنْبِي
 عَنْ خَنْبَلِ دَانِيهِنَّ وَالشَّرَادِ
 أَلْقَى حَبَائِلَهُ الرَّدَى فَاصْطَادَهُ
 فَأَعْجِبْ مِنَ الْمَصَادِ لِلْمُصْطَادِ⁽¹⁾

مناقب الفقيه قد تعددت ما بين فضائل نفسية وفضائل جسدية:
 مِنَ الْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي ضَمَّنَهَا الشَّاعِرُ فِي مَرثِيَّاتِهِ مَا تَمْتَعُ
 بِهِ الْفَقِيهُ مِنْ مَقْدَرَةٍ عِلْمِيَّةٍ عَالِيَةٍ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:
 [مِنَ الْبَسِيطِ]

لَوْ عَلِمَ الْوَحْشُ مَا يُنْشِيهِ مِنْ حَكْمٍ
 لَرَأَحَتِ الْوَحْشُ مِنْ تَعْلِيمِهِ عِلْمًا
 أَوْ أَسْمَعَ الْأَسَدَ شَيْئًا مِنْ مَوَاعِظِهِ
 لَظَلَّتِ الْأَسَدُ خَوْفًا تُكْرِمُ الْعَنَمَا⁽²⁾

ولست أظنُّ أَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ مَصِيبًا فِي هَذَا التَّعْظِيمِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ
 مَبَالِغًا فِيهِ إِلَى حَدِّ الْإِفْرَاطِ.

أَمَّا شَوْقِي ضَيْفٍ فَقَدْ نَقَدَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ بِقَوْلِهِ: «وَالتَّكْلُفُ
 فِي هَذَا الرِّثَاءِ وَاضِحٌ، وَيَكْتَفِيهِ مَا يَحْمِلُ مِنْ مَبَالِغَاتٍ عَلَى نَحْوِ مَا
 نَرَى فِي هَذِهِ الْمَرثِيَّةِ، وَكَانَ يَكْفِي الشَّاعِرَ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسَ فِيصَبِحُوا
 عُلَمَاءَ، أَمَّا أَنْ يَعْلَمَ الْوَحْشَ فَتَتَحَوَّلُ عُلَمَاءُ عَلَى يَدَيْهِ، فَهَذِهِ مَبَالِغَةٌ
 مَفْرُطَةٌ»⁽³⁾.

(1) الدِّيوان، ص 40.

(2) م. ن.، ص 113.

(3) شَوْقِي ضَيْفٍ، عَصْرُ الدُّوَلِ وَالْإِمَارَاتِ، ص 134.

وممّا قاله في تعظيم مرثيته قوله:

[مِنَ البسيط]

نَبِيّ خِصَمِّ عُلُومٍ جَفَّ زَاخِرُهُ

وَعَاضَ طَامِيهِ لَمَّا فَاضَ وَالتَطَمَّا⁽¹⁾

ومِنَ مرثيته ما بدأها بالشكوى مِن صروف الزّمان، ثم يشير إلى صفات الفقيده منها ما يتعلّق بالتّقوى والمكانة العالية والشّجاعة مِن ذلك:

[مِنَ الكامل]

اللّهُ أَكْبَرُ أَيُّ طُودٍ شَامِخٍ

مَالَتْ جَوَانِبُهُ وَأَيُّ عِمَادِ

أَيُّ امْرِيءٍ صَعْبِ الْقِيَادِ اقْتَادَهُ

دَهْرٌ لَدَيْهِ الصَّعْبُ كَالْمُنْقَادِ⁽²⁾

وممّا كان يرّدده شاعرنا في مدحه وراثته مِن صفة التّقوى قوله:

[مِنَ الطّويل]

تَوَى بِكَ مِنْ آلِ الْمُقَلَّدِ سَيِّدٌ

هُوَ الذَّهَبُ الْإِبْرِيْزُ وَالْعَالِمُ الصَّفْرُ

فَتَى كَرَمَتْ أَبَاؤُهُ وَجُدُوهُ

وَطَابَتْ مَسَاعِيهِ فَتَمَّ لَهُ الْفَخْرُ

(1) الديوان، ص113.

(2) م.ن.، ص40.

عَفِيفٌ مِلَأْتُ الْبَرْدِ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ

وَفِي أذِنِهِ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَفُرٍّ (1)

أمّا وصف كرم المراثي وحسبه ونسبه فقد بالغ الشاعر فيها، وجعل بعض مرثييه ينهلون من حياض المكرمات. فمرثييه بحر في الكرم ولم يعرف البخل:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

جَوَادٌ لَهُ فِي كُلِّ أُنْمَلَةٍ بَحْرٌ

بَصِيرٌ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ فِكْرٌ

وقوله في مكان آخر:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مَا صَمَّ يَوْمًا عَلَى الدِّينَارِ رَاحَتَهُ

بُخْلًا وَلَا شَدَّ مِنْ حِرْصٍ عَلَيْهِ وَكَأ (2)

أمّا الفضائل الجسديّة فهي صفات تتعلّق بالشّجاعة وجمال الوجه وحسن طلّعه، وقوله في شجاعة مرثييه:

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَلَيْتُ وَعَيٌّ لَوْ قَابَلَ اللَّيْثَ أَعَزْلًا

وَحَارَبَهُ لَمْ يُغْنِهِ النَّابُ وَالظَّفْرُ (3)

وهذه صفة طالما كرّرها كثيراً في مدحه وراثه.

وقد شبّه شاعرنا مرثييه بالقمر تارة وبالبدر والكوكب تارة أخرى، إذ قال:

(1) الديوان، ص50. وانظر: م. ن.، ص113.

(2) م. ن.، ص85.

(3) م. ن.، ص50. وانظر: م. ن.، ص40، 84، 90.

[مِنَ الْكَامِلِ]

قَمَرَ الْمَحَافِلِ لَا يُشَكُّ أَنَّهُ⁽⁴⁾
لِلْبَدْرِ فِي حُسْنِ الرُّوَاءِ قَسِيمٌ
الْمُرْتَضَى الشَّيْمَ الَّتِي لَوْ قُسِّمَتْ
فِي النَّاسِ مَا كَانَ أَمْرُهُ مَذْمُومٌ⁽⁵⁾

وقوله في مرثية أخرى وهو يخاطب الحِمَامَ:

[مِنَ الْكَامِلِ]

أخَمَدْتَ صَوَاءَ الْكَوَكِبِ الْوَقَادِ مِنْ
آفَاقِهِ وَأَمَلْتَ طَوْدَ النَّادِي
وَكَفَفْتَ مِنْ عُلُوِّ مَهْرٍ طَالَمَا
بَدَّ الْجِيَادَ بِكُلِّ يَوْمٍ طِرَادِ⁽⁶⁾
كما أنه قال في رثاء عبد الله بن مقلد:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بَدْرًا تَرَاءَى لِلنَّوَاطِرِ فَاهْتَدَتْ
بِهِ بُرْهَةً⁽⁷⁾ ثُمَّ اخْتَفَى ذَلِكَ الْبَدْرُ⁽⁸⁾
فهو في قومه نور مضيء يهتدى به، لكنّه اختفى كما يختفي
البدر في نهاية كل شهر.
وقوله في إحدى مرثياته:

(4) أَنَّهُ: وردت في أعيان الشَّيْعة (بأنه) وأحسب أنها الأصح.

(5) م. س.، ص 102.

(6) الدِّيوان، ص 39.

(7) بُرْهَةٌ: البُرْهَةٌ والبُرْهَةٌ جمع بُرْهٍ وبُرْهَاتٍ: قطعة من الزَّمان طويلة أو كل قطعة منه. ابن منظور، لسان العرب، مادّة: (ب، ر، هـ)، 476/13.

(8) م. س.، ص 49.

[مِنَ البسيط]

لَهْفِي عَلَى كَوَكِبٍ حَلَّ الثَّرَى وَعَلَى
 بَدْرِ تَبَوَّءَ بَعْدَ الأَبْرُجِ الرُّجْمَا
 دُو مَنْظَرٍ يُبْصِرُ الأَعْمَى بِرُوتِيهِ
 هُدَى دُو مَنْطِقٍ يَسْتَنْطِقُ البُكْمَا⁽¹⁾

وهو بذلك حريص على ذكر نَسَبِ الفقيه الطاهر وبخاصة حينما يكون الفقيه عالماً منتمياً إلى أهل البيت النبوي، مِنْ ذَلِكَ قوله:

[مِنَ الطويل]

بَنِي هَاشِمٍ هَلْ لِلْمُنُونِ طَوَائِلُ
 لَدَيْكُمْ وَهَلْ لِلْحَادِثَاتِ دُخُولُ
 وَأَنْتُمْ أَنْاسٌ قَطْرَةٌ مِنْ دِمَائِكُمْ
 يَوَدُّ البَرَايَا حَمَلَهُ وَيَهْوُلُ⁽²⁾

أما قصيدته في رثاء الإمام الحسين بن علي - شهيد كربلاء - فإنها لا تختلف عما سبقها، إذ كان فيها كغيره مِنْ شعراء الشيعة الَّذِينَ بهرهم استبسال الحسين وأصحابه، وما جَسَدوه مِنْ قيم البطولة والإباء والإصرار على الحق والاستشهاد في سبيله.

وقد حملت هذه المرثية معاني الحرقلة والألم بقدر ما في قلب الشاعر، لذا جاءت ألفاظها وتراكيبها حزينة مؤلمة دون تخيير أو تكلف. فتأمل عبارات: (لولا احمرار الدمع، خضيب الحوامي مِنْ دماه، مُضْمَخَةٌ أجسادهم،...) فالقصيدة حزينة مِنْ حيث ألفاظها، عاطفتها، تراكيبها، وزنها.

(1) الديوان، ص 113.

(2) م. ن.، ص 90.

قال أحد نقّاد هذه المراثية: «إذا ما أردت أن تقرّأ شعره في الرثاء، تراه وقد استولى على أزمّة الألفاظ، وغاص على أعماق المعاني، فأعطى كلّ لفظ لمعناه مع المحافظة على الفنّ، وقصائده في رثاء قدوة ضحايا فضيلة التّاريخ الإمام الحسين الشهيد، لهي البرهان الصّحيح على تضلّعه في فنّ الرثاء»⁽¹⁾.

ومنّ الملاحظ على هذه المراثية طغيان الشّعور بالألم الممضّ يجسّد منّ خلالها شعوراً نفسياً اعتاد على تكراره في استهلاته المألوفة منّ حيث البكاء والدّموع والحزن، واستطاع أن يصوّر حالة نفسية نامية عكست مظاهر حزنه وتأثره ببكائه على الفقيد بلوعة وحسرة، إذ وجد السّلوى في التّسليم لقضاء الله وقدره. كما أنّ أبيات هذه القصيدة تثير لدى القارئ عواطف الحزن والأسى، وتخلق جوّاً مأساوياً مؤثّراً تدلّ على مدى صدقه ولوعته، وتعبيراً عن إحساسه الصّادق بالفقد والحزن. ورثاؤه في مجمله يعكس مشاعر حزنيّة حين الفقد بصورة تتّفق مع صلته الوثيقة بالفقيد. وقد جسّد ذلك في البيت التّاسع والثلاثين بقوله:

وَإِنِّي لِلْخِلِّ الَّذِي لَا تَرَوْنَهُ

يَمِيلُ مَعَ النَّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ⁽²⁾

ثانياً: الوصف

«الوصف إنّما هو ذكر الشّيء كما فيه منّ الأحوال والهيئات. ولمّا كان أكثر وصف الشّعراء إنّما يقع على الأشياء المركّبة منّ ضروب المعاني كان أحسنهم منّ أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مرّكب منها، ثمّ بأظهرها فيه وأولاها حتّى يحكيه بشعره، ويمثله للحسن بنعته»⁽³⁾.

(1) فرج العمران، الأزهار الأرجية في رثاء الفرجية، 44/3.

(2) الدّيوان، ص93.

(3) قدامة بن جعفر، نقد الشّعور، ص130.

وقيل قديماً: «الشعر كله إلا أقله راجع إلى باب الوصف»⁽¹⁾.

وعند اطلاعنا على شعر أبي البحر وجدنا له وصفاً لا يقلُّ أهميَّة عن الأغراض المدروسة السابقة. كما أنَّ وصفه تركَّز على ظاهرتين هما: الظاهرة الطبيعيَّة والظاهرة الاجتماعية. وسيُتضح فنُّ الوصف عنده من خلال مقامه في الديوان ومعانيه.

أ - مقامه في الديوان

جاء الوصف في شعر الخطي واضحاً، إذ بلغ ثلاثاً وعشرين قصيدة بين مقطوعة ونتفة، كان عدد الأبيات فيها مائتين وواحداً وخمسين بيتاً. أمَّا القصائد فهي عشر⁽²⁾، أطولها قصيدة بلغ عدد أبياتها سبعة وخمسين بيتاً. وثلاث عشرة مقطوعة ونتفة⁽³⁾، ناهيك عمَّا ورد في ثنايا قصائده الأخرى وبخاصَّة المدح.

ب - معانيه

من خلال تقصينا وتتبعنا لقصائد الوصف في الديوان، رأينا الوصف يتركز في وصف الظواهر الطبيعيَّة والظواهر الاجتماعية، وأنهما يشكِّلان جانباً كبيراً منه.

ب - 1. الظواهر الطبيعيَّة

تناول وصف طبيعة بلاده البحرين وما تتمتع به من بيئة جميلة تكثر فيها العيون وتتخللها البساتين التي تنعكس صورتها على مياه الخليج العربي.

وقد رسم الشاعِر صورة لهذه الطبيعة في وصفه لإحدى القرى

(1) ابن رشيقي، العمدة، 2/294.

(2) الديوان، ص 1، 13، 15، 41، 47، 51، 53، 77، 89، 93.

(3) م. ن.، ص 3، 9، 14، 17، 21، 32، 41، 42، 56، 70، 75، 105، 123.

التي تقع إلى جنوب (سار من أوال) في الجزيرة، وهي قرية (الجنبية)⁽¹⁾، ووصف فيها عام (1614 / 1023) دولاب «القميَّات»⁽²⁾ وهو روض من رياض الجنَّة. نشرت فيه مطارف السُّندس، وبدت عليه نواجم الزَّهر وهو في تلك الأبهة يستوقف الناظر إليه ما بين شقائق حمراء ياقوتية الوريقات، وأزهار البهار الصفراء البريَّة، مع أصوات تغريد البلابل، وتناوح الحَمَام، وأنغام الرِّباب، وضجَّة النَّاي كلُّها تشكِّل أنغاماً موسيقية متناسقة»⁽³⁾. وذلك في قوله:

[من المنسرح]

رَوْضٌ كَمَا شَرُفَتْ (4) مَطَارِفُ سُنْدُسٍ
تَكْدُوا عَلَيْهِ نَوَاجِمُ الزَّهْرَاتِ
يَسْتَوْقِفُ الْأَبْصَارَ بَيْنَ شَقِيقَةٍ
حَمْرَاءَ يَاقُوتِيَّةِ الْوَرَقَاتِ
وَعَرَارَةٍ صَفْرَاءَ أَنْهَتْ صَفْلَهَا
شَمْسُ الضُّحَى دَهَبِيَّةِ الصَّفَحَاتِ

ومنها أيضاً:

أَلْفَتْ بِلَابِلُهُ الصَّفِيرَ قَرَدًا ذَا
مَا قَالَ ذَاكَ تَسَابَبَ الْجَارَاتِ
وَتَنَاوَحَتْ فِيهِ الْحَمَامُ كَمَا تَدَا
وَلَتِ الْيَهُودُ قِرَاءَةَ التُّورَةِ (5)

(1) الجنبيَّة: قرية من قرى البحرين.

(2) القميَّات: أحد بساتين تلك القرية.

(3) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 175.

(4) وردت «شرفت» في أعيان الشيعة «فرشت» وأحسب أنها الأصح.

(5) الديوان، ص 15.

وربما يثير انتباهه من تلك الثوريات الجميلة شجر اللوز
واكتساؤه بمطارف جديدة من وريقات سُندسيّة تشير بأغصانها
وفروعها كأنها الأَكْفُ التي مدت أيديها للدُّعاء⁽¹⁾:

[من الطويل]

وَلَمَّا اكْتَسَى اللُّوزُ الحَسِينَ مَطَارِفًا

جَدَايِدَ مِنْ أَوْرَاقِهِ السُّنْدَسِيَّةِ

أَشَارَ بِأَغْصَانٍ كَأَنَّ فُرُوعَهَا

أَكْفٌ تَصَدَّتْ لِلدُّعَاءِ وَمَدَّتْ⁽²⁾

وقد أجاد شاعرنا في وصفه للبدر في أثناء طلوعه، إذ بيدد
ظلمة الليل فتتكشف من حوله الظلمات، ويبدو في ضيائه ولمعانه
كأنه صفحة مرآة أو دينار تبعثرت حوله الدرّاهم:

[من الكامل]

حُذِّهِ إِلَيْكَ كَصَفْحَةِ المِرْآةِ

بَدْرًا يَكْشِفُ حَالِكَ الظُّلْمَاتِ

وَكَأَنَّه الدِّينَارُ بُوَّتْ حَوْلَهُ

بِيضُ الدَّرَاهِمِ غَيْرُ مُجْتَمَعَاتِ⁽³⁾

ثمّ يمضي الشاعر في تشبيهاته الكثيرة لهذا البدر حتّى يفقد
الموضوع جدّته. ثمّ يعود الشاعر إلى التزامه بوحدة الموضوع
واقصره في التشبيه على موصوف واحد. كما في وصفه لكلاب
الصّيد وهي تعدو خلف الأرناب والظّباء لتمسك بطريدها حتّى ولو
كانت معلّقة بأذيال عاصفة الهواء⁽⁴⁾:

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 175.

(2) م. س.، ص 14.

(3) م. ن.، ص 17. وانظر كذلك: ص 41.

(4) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 176.

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَلَمْ أَرَ كَالِكِلَابِ ذَوَاتِ عَدْوٍ
عَلَى إِثْرِ الْأَرَانِبِ وَالظَّبَّاءِ
مَتَى أُرْسَلْتُهُنَّ وَرَاءَ صَيْدٍ
فَجَاذِبَهُنَّ أَهْدَابُ النَّجَاءِ
عَلَّقْنَ بِهِ وَلَوْ كَانَتْ يَدَاهُ
تَشُدُّ بِذَيْلِ عَاصِفَةِ الْهَوَاءِ⁽¹⁾

وَمِنْ وصفه ما قاله في وصف طريق بين قريتين مِنْ قرى
البحرين هما «بربغى وسلماباد»⁽²⁾ وَمِنْ شِدَّةِ ضيقها ضاع القصد
على الشَّاعر.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَطَرِقِ سَلَكْنَاهَا فَمَا زَالَ ضيقُهَا
يَجُوزُ بِنَا حَتَّى صَلَلْنَا بِهَا الْقَصْدَا
فَلَوْ أَنَّ ذَا الْقَرْظَيْنِ أَدْرَكَ بَعْضَهَا
لَصَيَّرَهُ مِنْ دُونِ يَأْجُوجِهِ سَدًّا⁽³⁾

وَمِنْ جميل وصفه ما وصف به حاله حين شَجَّتْ وجنتيه
سمكة «السَّبِيطِيَّة»⁽⁴⁾ إذ يَصُورُ جنَايةَ البحر عليه حيث أراق سمكه
دمه ويتوعَّد بأخذ الثَّأرِ مِنْهُ:

-
- (1) حاجم الربيعي «أبو البحر دراسة في شعره»، ص3.
(2) بربغى: أصلها «باربار» فحُرِّفَتْ، وهي قرية مِنْ قرى البحرين تقع شرقي
الدُّراز على ساحل البحر. و«سلماباد»: قرية أخرى تقع مقابل توبلي مِنْ جهة
غرب البحرين. انظر: حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص42.
(3) م. ن.، ص42.
(4) السَّبِيطِي: نوع مِنْ أنواع السَّمَكِ.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِرَغْمِ الْعَوَالِي وَالْمَهْنَدَةِ الْبُبُرِ
 دِمَاءُ أَرَاقَتِهَا سُبَيْطِيَّةُ الْبَحْرِ
 أَلَا قَدْ جَنَى بَحْرُ الْبِلَادِ وَتُوْبِلِي (1)
 عَلَيَّ بِمَا صَاقَتْ بِهِ سَاحَةَ الْبَرِّ (2)

ب - 2. الظواهر الاجتماعية

أما الجانب الثاني من شعره الوصفي فقد تناول الظواهر الاجتماعية، فوصف الحياة اليومية في البحرين وصفاً يضي عليه شيئاً من نادرته. وتعرض لوصف حلاق، وكان هذا الحلاق فريداً في حلقته، له يد سحرية تنيماً من تمسه فلا يرغب في يقظة بعدها، فأودعه الشاعر رأسه ووجهه، فأعاد له رأساً ناقصاً ووجهاً زائداً⁽³⁾:

[من مجزوء الرجز]

وَحَالِقُ أَصْبَحَ فِي
 فَنَ الْجَلَّاقَةِ وَاجِدَا
 لَهُ يَدُ الْطَفِّ مِنْ
 مَرِّ النَّسِيمِ بَارِدَا
 تَنِيْمٌ مَن تَمْسُهُ
 وَلَا تَهْتَبُ رَاقِدَا
 وَدَعْتُهُ (4) رَاسِي وَوَا
 جِهِي قَائِمَا وَقَاعِدَا

(1) البلاد وتوبلي: قريتان من قرى البحرين.

(2) م.ن.، ص 47.

(3) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 176.

(4) ودعته: لعلها أودعته، وهي الأصح.

فَنَالَ مِنْ هَذَا وَذَا
كَ نَازِلًا وَصَاعِدًا
فَرَدَّ رَأْسًا نَاقِصًا
وَرَدَّ وَجْهًا زَائِدًا⁽¹⁾

ولعلَّ أطرف ما وصل إليه في وصف هذه الظواهر الاجتماعية، وصف حلواء «البرشتوة»⁽²⁾ وهو كعادته في الوصف يبعث في أبياته روح الظرافة والهزل، فيبدأ قصيدته بخسران قبيلة (حنيفة) إذ عكفت في الجاهليَّة على عبادة صنم من التَّمْر، فلو كان هذا الصَّنم من حلواء «البرشتوة» لأتبعتهَا في عبادته جميع الأمم، ثمَّ راح يبيِّن قيمة هذه الحلواء بأنَّها لو كانت دية بكر لما طالبتها تغلب بدم كليب، أو تكرم منها مادر - المشهور ببخله - بإطعام ضيفه لما عُرِفَ الطائيُّ بالكرم⁽³⁾:

[من البسيط]

بَاءَتْ حَنِيفَةٌ بِالْحُسْرَانِ إِذْ عَكَفَتْ
دُونَ الْأَنْامِ مِنَ الْحَلْوَى عَلَى صَنَمٍ
لَوْ أَنَّهُ مِنْ (بَرِشْتُوَّةٍ) وَقَدْ عَكَفَتْ
عَلَيْهِ لِاتَّبَعَتْهَا سَائِرُ الْأُمَمِ
حَلْوَاءٌ لَوْ جَعَلَتْ مِثْقَالَهَا دِيَّةً
بَكْرٍ لَمَا طَالَبَتْ تَغْلِبُ بِدَمٍ

(1) الديوان، ص 42.

(2) البرشتوة: هي نوع من الحلواء تصنع من الرطب بعد نزع النواة عنه، ثمَّ يُصَبُّ في الإناء محشوًّا باللوز ويضاف عليه شيء من السكر والسمن والدقيق المحمَّص. م. ن، ص 104.

(3) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 176.

لَوْ تَكْرَمَ مِنْهَا (مَادِرُّ) بِقِرَى

صَيْفٍ لَمَّا وُصِفَ الطَّائِيُّ بِالْكَرَمِ (1)

وَمِنَ الطَّرِيفِ فِي وَصْفِهِ مَا أَجَابَ بِهِ بَعْضُ فَتِيَانِ الْقَطِيفِ عَنَ قِطْعَةٍ
قَالَهَا فِي الْحَشِيشَةِ إِذْ وَصَفَهَا وَصِفَاءً أَغْضَبَ الشَّاعِرَ شِكْلًا وَمُضْمُونًا فَقَالَ:

[مِنَ الْوَافِرِ]

نَسِيمٌ بَارِدٌ لِأَخِي مَصِيفٍ

وَدَفَاءٌ فِي الشُّتَاءِ لِمَنْ تَجَرَّدَ

وَمِنْهَا أَيضًا:

يَخَالُ لِفَرْطِ مَا تَحَمَّرُ مِنْهُ

مَا قَيْهِ مَدَى الْأَيَّامِ أَرْمَدَ (2)

وَقَدْ يَتَحَوَّلُ الشَّاعِرُ مِنْ حَالَةِ الْهَزَلِ وَالظَّرَافَةِ إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى
تَسْتَدْعِي التَّفْكِيرَ الْعَمِيقَ وَالِاتِّبَاهَ، فَقَدْ أَثَارَتْهُ تَنَاقُضَاتُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَا فِيهَا مِنْ مَفَارِقَاتٍ، فَهُوَ يَعْجَبُ مِمَّا مَرَّ بِهِ وَمَا سَمِعَهُ وَمَا رَأَى،
وَأَوْقَعَهُ بَيْنَ غَيْهِ وَرَشَادِهِ، رَجُلٌ يَمْضِي لِدَعَاءِ اللَّهِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ،
وَأَخْرَى يَسْعَى لِفُسْقٍ وَفُجُورٍ (3):

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وَأَغْرَبُ مَا مَرَّ فِي مَسْمَعِي

وَأَوْقَعَنِي بَيْنَ غَيٍّ وَرُشْدٍ

قِرَاءَةُ قَارٍ دَعَا إِذْ تَلَا

بِصَوْتٍ وَمَعْنَى لِفُسْقٍ وَزُهْدٍ (4)

(1) الدِّيوان، ص 104.

(2) م. ن.، ص 33.

(3) حَاجِمُ الرَّبِيعِيِّ، «أَبُو الْبَحْرِ، دَرَاةٌ فِي شَعْرِهِ»، ص 176، 177.

(4) الدِّيوان، ص 32. وانظر: م. ن.، ص 70.

وراح يمضي في وصف ما دار في مجلس من مجالس قرية (أمّ الحصم)⁽¹⁾ حيث يجلس كبار القوم وكيف تسعى بينهم القهوة من يدٍ لقمّ:

[من البسيط]

لَا يَوْمَ كَيَوْمِنَا - بِأَمِّ الْحَصَمِ
 حَيْثُ التَّفَقَّتْ لَنَا وَجُوهُ النَّعَمِ
 وَالْقَهْوَةُ تَسْعَى مِنْ يَمِينٍ لِقَمِي
 فِي طَائِفَةٍ عَدَوًا بِحَرِّ الشَّيْمِ⁽²⁾

ويصف بعض المدن وما فيها من حسان حين ارتحل عن البحرين إلى شيراز:

[من الطويل]

وَجُوهَا⁽³⁾ لَوْ اسْتَجَلَى سَنَاهُنَّ أَكْمَه
 ثَنَى الطَّرْفَ مَكْشُوفَ الْغِطَاءِ جَدِيدَا
 تَلَأَلْنَ حَتَّى لَمْ تَكْدُ لِضِيَائِهَا
 تَسُومُ إِلَيْهِنَّ الْعُيُونُ صُعُودَا
 تَأْتِقُ رَبُّ الْحُسْنِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنْ
 لِيَتْرَكَ مِنْهَا مَا يُرِيدُ مَزِيدَا⁽⁴⁾

وله في هذا المجال الكثير ممّا تضمّنه شعره من الوصف، إلّا أنّنا ارتأينا الاكتفاء بهذا القدر خوف الإطالة.

(1) أم الحصم: قرية صغيرة وهي جنوب المنامة عاصمة البحرين.

(2) م. ن.، ص 105.

(3) «وجوهاً»: في أعيان الشيعة «وجوه» ولعلّها الأصح.

(4) م. س.، ص 41.

ثالثاً: الغزل

يُعدُّ الغزل مِنْ أقدم الفنون الشَّعرية عند العرب، لما له مِنْ صلة وثيقة بالطَّبِيعَة الإنسانيَّة، وشاعرنا أبو البحر الخَطَّيُّ مرَّ بتجربة النِّظْم في هذا المجال منذ سنٍّ مبكِّرة مِنْ حياته الشَّعريَّة، وأحسن التَّعبير فيها.

أ - مقامه في الديوان

احتلَّ غرض الغزل المرتبة الثالثة بعد الرِّثاء والوصف. إذ تمثَّل في ثلاث قصائد مُجمَل أبياتها تتأرجح ما بين السِّتَّة والثلاثين والتَّسعة، وأربع قِطَع تراوحت أبياتها ما بين الخمسة والأربعة. بالإضافة إلى تسع نِتَفٍ تتراوح الأبيات فيها ما بين بيتين وثلاثة. وقد أُحصيت عدد الأبيات الغزليَّة في الدِّيوان، فوجدتها تبلغ ثلاثاً وتسعين بيتاً. ناهيك عمَّا استهلَّ به بعض قصائده المدحيَّة، والحنينيَّة.

أ - 1. القصيدة الأولى

وهي قصيدة داليَّة، يبلغ عدد أبياتها ستَّة وثلاثين بيتاً. وقد بدأها بالأرق، والهجود، والدَّمع، والجمر، والغرام، والحسرة على المحبوب؛ وذلك في قوله:

[مِن الخفيف]

أَجْفَنٍ أَرَقْتُمُوهُ هُجُودُ
وَلَدَمْعٍ أَرَقْتُمُوهُ جُمُودُ
أَجْمِيلُ أَنِّي أَيْتُ عَلَى الْجَمِّ
رِ غَرَاماً يَكُمُ وَأَنْتُمْ رُقُودُ
وَأَسِيغُ الشَّجَى وَأَنْتُمْ عَلَى
المَاءِ كَمَا تَشْتَهِي العُطَّاشُ وَرُودُ⁽¹⁾

(1) الدِّيوان، ص 34 - 35.

أ - 2 - القصيدة الثَّانية

فهي قصيدة لامية، بلغ عدد أبياتها أحدَ عشرَ بيتاً. ومطلعها:

[مِنَ الخفيف]

فُلٌ لِمَنْ فَاقَتِ البُدُورَ كَمَلا
وَاسْتَطَالَتْ عَلَى الغُصُونِ اعْتِدَالاً⁽¹⁾

أ - 3 - القصيدة الثَّالثة

وهي قصيدة دالية، يبلغ عدد أبياتها تسعةَ أبياتٍ فقط،
ومطلعها:

[مِنَ الخفيف]

حَسَّنتُ عَيْهَ لَهُ وَفَسَّادَهُ
وَاسْتَبَاحَتْ صَلاحَهُ وَرَشَّادَهُ
وَأَتَاحَتْ لَهُ الشَّقَاوَةَ خُودُ
سُمَيْتٍ وَهِيَ كَاسِمِهَا بِسُعَادَهُ⁽²⁾

وهي القصيدة الوحيدة التي صرَّح فيها باسم محبوبته.

ويتبع تلك القصائد أربع مقطوعاتٍ وتسع نِثْفٍ سار بهم على
المنوال السَّابق نفسه. واتَّخذ الغزل عنده موقعين:

الموقع الأوَّل: ما تبدأ به مطالع قصائد المديح أو الحنين،
واتَّخذها وسيلة لغرض الانتقال إلى الموضوع الأساس كما مرَّ في
المديح، وغالباً ما يكون هذا الغزل حسياً لأنَّه يمثِّل روح العصر الذي
يعيش فيه الشَّاعر.

(1) الديوان، ص 99.

(2) م. ن.، ص 43.

استمع إلى قوله في إحدى مقدمات قصائده المدحية:

[مِنَ الكامل]

لَعِبْتُ بِعَطْفَيْهِ الشُّمُولُ فَمَادَا
كَالْغُصْنِ حَرَكَهُ الْهَوَى فَنَادَا
رَيْمٌ أَعَارَ مَهَى الصَّرَايِمِ أَعِينَا
نُجْلًا وَأَرَامَ الْجِمَى أَجِيَادَا⁽¹⁾
فجعله غرضاً في حد ذاته.

أمَّا الموقع الثاني: فقد أفرد له الشَّاعر قصائد ومقطوعات وجعله غرضاً في حد ذاته. «وهذا الغزل مرَّ بمراحل ثلاث تطوَّر فيها عنده، فالمرحلة الأولى: كانت وهو في القطيف حيث عاش الشَّاعر شبابه، وكان فيما يبدو مقلِّداً لغيره من شعراء الغزل والنَّسب، وتكاد أبياته في كلِّ قطعة لا تتجاوز البيتين. ولعلَّ قصيدته التي نظمها في ريعان شبابه تمثِّل لنا تلك المرحلة الأولى خير تمثيل فقد عارض الشُّعراء الذين سبقوه»⁽²⁾ كما يتضح ذلك في قوله:

[مِنَ البسيط]

لَمَّا رَأَيْتُ وُشَاةَ الْحَيِّ تَرُصُّنَا
بِأَعْيُنٍ لَا عَدَاهَا غَائِلُ الرَّمِدِ
جَعَلْتُ لَا مِنْ قَلِي مَنِّي أَزُورُكُمْ
أَنَا وَأَهْجُرُكُمْ بَعْضًا مِنْ الْأَبَدِ⁽³⁾

ب - معانيه

إنَّ أبا البَحر لم يتخلَّف عن سابقيه من الشُّعراء في شأن الغزل؛

(1) الدِّيوان، ص 43.

(2) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 170.

(3) م.س.، ص 42.

ولم يخرج عن المعاني التي طرقها الشعراء من قبله، فقد تغزل
 بالمرأة وتغزل بالفتيان أيضاً. كما أنه ذكر الصّد والوصل، والشكوى
 والألم، بالإضافة إلى إجلاله للمحوبة، واللجوء إلى العفة والتقوى.

ب - 1. الغزل بالمرأة

إذا ما استعرضنا غزله بالمرأة لا نقع على شيء جديد فيه،
 فحبيته اليوم عنده كحبيته بالأمس من حيث وصف أعضائها
 الجسدية. فالحبيبة تتمتع بشعر فاحم كأنه الليل، ووجهها مضيء
 كأنه البدر في سناه، وخدودها ممتلئة، وريقها كأنه الحساء يجي
 الموتى، وثناياها كأنهن الدرر في انتظامها، وجيدها ناعم، وقدها
 كأنه غصن البان في تشيه، وعمرها لا يتعدى العشرين⁽¹⁾.

وهذه أوصاف ذكر بعضها حين تعرض لفتاة زينت له غيّه
 واستباحث رشاده:

[من الخفيف]

ذَاتَ وَجْهِ أَهْدَى سَنَاهُ إِلَى الْبَدَنِ
 رِ وَقَرَعِ أَعْدَى الظَّلَامِ سَوَادَهُ
 فَهَوَ لَيْلٌ أَطْلَ فَوْقَ نَهَارِ
 عَلَا فَوْقَ بَانَةِ مِيَادَهُ
 وَتَنَائِيَا كَأَنَّهَا فِي انْتِظَامِ
 مِنْ عَلَى صَفْحِ جِيدِهَا مِنْ قِلَادَهُ
 لَمْ تُنَاغِ العِشْرِينَ عُمُرًا وَلَمْ تُرِ
 ضِعْ جَنِينًا بَلْ مَا دَرَّتْ مَا الْوِلَادَهُ⁽²⁾

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 171 بتصرف.

(2) م. ن.، ص 43.

إلا أنه كان أكثر جرأة في تخطيه حدود الأوصاف الجسدية، إذ وصف في إحدى قطعهِ طيف منام حبيبته وارتشف من ريقها حساء يعيد له الحياة. وذلك قوله:

[من البسيط]

أَهْدَى لَنَا طَيْفَهُ بَعْدَ الْغُدُوِّ عَشَا
فَكَانَ مِنْ قِرَاهُ مُهْجَةً وَحَشَا
ظَبْيِي فَرَشْتُ خُدُودِي إِذَا أَلَمَّ بِهِ
أَرْضاً فَلَوْ شَاءَ يَمْشِي فَوْقَهَا لَمْشَى
كَأَنَّهُ عُصْنٌ بَانَ تَحْتَهُ بَدْرٌ دَجَى
عَلَى نَقَا مِنْ رِمَالِ الْأَبْرَقِينَ نَشَا
بُنْنَا وَبَاتَ يُعَاطِبُنَا مُرُوقَةً
مِنْ رَيْقِهِ لَوْ حَسَاهَا الْمَيْتُ لَانْتَعَشَا⁽¹⁾

وأخرى تعدت عن سفك الحبيبة دمه، منها قوله:

[من الخفيف]

فُلٌ لِمَنْ فَاقَتِ الْبُدُورَ كَمَالَا
وَاسْتَطَالَتْ عَلَى الْغُصُونِ اعْتِدَالَا
وختمها بقوله:

كَيْفَ أُمْسَى وَصَلِي الْحَلَالَ حَرَامَا
عِنْدَهَا وَالِدَّمُ الْحَرَامُ حَلَالَا⁽²⁾

وفي بيتين غزليين وصف سواد شعرها كسواد حظه، وهو قوله:

(1) الديوان، ص 70.

(2) م. ن.، ص 99.

[مِنَ البسيط]

سَوَادُ فَرْعِ التِّي هَامَ الفُوَادُ بِهَا
وَحَظُّ عَاشِقِهَا فِي اللُّونِ سَيَّانٍ
لَيْلَانِ ضَاعَ صَبَاحُ الوُضَلِ بَيْنَهُمَا
فَيَأْسُ إِذَا اكْتَنَفَ الإِصْبَاحَ لَيْلَانِ⁽¹⁾

كما أنه خاطب خدود الحبيبة واستشرفها إلى ماء أحداقه بقوله:

[مِنَ الكامل]

يَا وَرَدَتِي خَدَيْهِ مَا لَكُمَا
تَتَّكِلَانِ بِرَاشِحِ العَرَقِ
إِنْ كُنْتُمَا تَسْتَشْرِفَانِ إِلَيَّ
مَاءٍ يَرُشُّكُمْ فَمِنْ حَدَقِي⁽²⁾

وهو بهذه المعاني يُدْخِلُ معنىً جديداً على صورته وأوصافه الغزليَّة.

ب - 2. التغزل بالمدنكر

تشير كثير من الدلائل إلى افتتاح الشعراء - ومنهم شاعرنا - بالمدنكر والتغزل به، ووصف أعضائه كما توصف المرأة في قدها وخصرها، وردفها، وثناياها، فافتتنوا بحسن منظره، وآس عارضيه، وخُضرة شاربه، وجمال قده، وسواد أحواظه، وسُمره لماه، وعقارب أصداغه. إذ قال وهو جالس في دهليز المشهد ذي المنارتين في البحرين⁽³⁾ في فتیان مِنْ رَوَادِ الأَدبِ فاجتاز بهم غلام اسمه إبراهيم فالتمسوا منه أن يقول فيه فقال:

(1) الديوان، ص 118.

(2) م. ن.، ص 78.

(3) مشهد المنارتين: هو المعروف اليوم بمسجد الخميس، وسُمِّيَ بمسجد الخميس لأنه قديماً يقام عنده سوق في كل خميس، وقد حُطَّت عليها =

[مِنْ مَخْلَعِ البسيط]

وَيَلَاهُ مِنْ آسِ عَارِضِيهِ
 وَالْوَيْلُ مِنْ خُضْرَةِ الشَّوَارِبِ
 كَأَنَّمَا قَدَّهُ قَضِيبٌ
 وَسُودُ الْأَحَاطِطِ قَوَاضِبٌ
 تَفَعَّلُ أَضْدَاغُهُ بِقَلْبِي
 أَضْعَافَ مَا تَفَعَّلَ الْعَقَّارِبُ⁽¹⁾

وقوله في مكانٍ آخر حين اجتاز على حانوتٍ بشيراز وفيه غلام
 اسمه عيسى يبيع القند، فأنشأ:

[مِنْ الوافر]

أَلَا تَخْبِرُ الْعَلَقَ النَّفِيسَا
 وَمَنْ أَهْدَى لِكُلِّ حَشَا رَسِيَسَا⁽²⁾
 وَمِنْ سُمِّي بِعَيْسَى وَهُوَ مِمَّنْ
 أَمَاتَ مِنَ النَّفُوسِ بِضِدِّ عَيْسَى
 لِيَتْرَكَ بَيْعَ قَنْدٍ وَلِيَبْعَنَا
 لِمَاهُ وَنَحْنُ نُنْقِدُهُ النَّفُوسَا⁽³⁾

ب - 3. التوجع جراء صد الحبيب

«والخَطِّي في كُلِّ قصائد هذه المرحلة يوثر كأسلافه مِنَ الشُّعراء
 أَنْ تحترق مهجته وحده بنار الصدِّ دون حبيبته، فلا يُصاب منها مقتلٌ

= الخطوط الكوفيَّة الأثريَّة، ولمنارتيه روعة للنَّاطر، وقد شَيَّد بناؤه أَيَّام الخليفة
 العبَّاسي عبد الملك بن مروان.

- (1) الدِّيوان، ص 9.
 (2) الرَّسِيَس: الحُمَى أوَّل مسَّها. ابن منظور، لسان العرب، مادَّة: (ر، س، س)، 97/6.
 (3) م. س.، ص 70.

سواء أكان ذلك سهواً أم عن عمد، ويتعرّض لصوارم أحداقها فتجرح
حشاشته دون اكتراث منها لما يعانیه مِنْ ألم وسهد، ودون اهتمام
لما ييديه مِنْ جهد في دفع الأذى عن تلك الحبيبة على الرّغم مِنْ
تملُّكها قلبه ووجدانه حتّى أصبح أسيراً لها»⁽¹⁾:

[مِن الدوبيت]

يَا مُحْرِقَ مُهَجَّتِي بِنَارِ الصَّدِّ
هَلْ عَنَ خَطَأَ قَتْلِكَ لِي أَمِ عَمْدٍ
إِنْ كُنْتَ أَمِنْتَ مِنْ دَمِ طَالِبِهِ
فَاللَّهُ مُطَالِبُ بِنَارِ الْعَبْدِ⁽²⁾

وَمِنْ صورهِ الجميلة في هذا المجال أَنَّهُ جعل لأعضاء الجسد
روحاً دَبَّ فيها جوانب الحركة والكلام والتأثّر.

[مِن البسيط]

وَشَادِنٌ⁽³⁾ مَرَضَتْ أَجْفَانُهُ فَعَدَا
قَلْبِي لَهَا عَائِداً فَاَنْصَاعَ مَعْلُولاً
فَمَاتَ قَلْبِي وَمَاتَتْ لَوَاحِظُهُ
لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً⁽⁴⁾

فحين تمرض أجفان معشوقته فإنَّ قلبه يعودها منصاعاً لأوامره،

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 170.

(2) الدِّيوان، ص 31، وانظر: م. ن.، ص 109، 89، 79.

(3) الشَّادِن: مِنْ أولاد الطُّبَّاء الَّذِي قد قوي وطلع قرناه، واستغنى عن أمِّه. واستخدم
الشَّاعر هذا اللَّفظ كناية عن قُوَّته واستقلالِيَّته إلَّا أَنَّ هذه القُوَّة غدت ضعيفة
ومعلولة حين واجهت عشق المحبوب. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادَّة: (ش)،
د، ن، 235/13؛ أحمد بن فارس، مُجْمَل اللَّغَةِ، مادَّة: (ش)، د، ن.

(4) الدِّيوان، ص 93.

كما أن قلبه مات من فرط وجده، ولم تمت لوحظه المريضة رغم ما تعانیه من علة، وهكذا أمر الله.

من ذلك يتضح لنا أن غزل أبي البحر مرّ بثلاث مراحل متصلة فالمرحلة الأولى: كانت وهو في القطيف حين عاش الشاعر شبابه، وكان فيما يبدو مقلداً لغيره من شعراء الغزل والتسيب. وتكاد أبياته في كل قطعة لا تتجاوز البيتين. ولعل قصيدته التي نظمها في ريعان شبابه تمثل لنا تلك المرحلة الأولى خير تمثيل. فقد عارض الشعراء الذين سبقوه⁽¹⁾ كما يتضح من قوله:

[من البسيط]

لَمَّا رَأَيْتُ وُشَاةَ الْحَيِّ تَرُضُّنَا
بِأَعْيُنٍ لَا عَدَاهَا غَايِلِ الرَّمَدِ
جَعَلْتُ لَا عَن قَلِي مَنِّي أَرْوَرُكُمْ
أَنَا وَأَهْجُرُكُمْ بَضْعاً مِنَ الْأَبْدِ⁽²⁾

وقد كرر المعنى ذاته فيما يفعله الوشاة لخلق المشاكل والمتاعب بين المتحابين والدعاء عليهم بعدم مباركة ما يقومون به .

[من الدوبيت]

لَا بُورِكَ فِي الْعُدُولِ مَا لِي وَلَهُ
كَمْ يَعْذِرُنِي أَلْهَاهُ عَنِّي الْوَلَهُ
لَوْ يَعْذِرُنِي لَسَاغَ أَنْ أَبْدِلَهُ
مَا أَعْدَلَهُ مَكَانَ مَا أَعْدَلَهُ⁽³⁾

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 170.

(2) م. س.، ص 42.

(3) الديوان، ص 94.

«فالشُّعر في هذه المرحلة قريب المأخذ، سهل المعنى، قليل التَّلَاعِب بالألفاظ. تكلَّله هالة مِنْ العِفَّة والطَّهر والرِّزَانة»⁽¹⁾.

أما المرحلة الثَّانية فقد كانت في البحرين، وحينما نستعرض غزله لا نقع على شيء جديد فيه. ثمَّ المرحلة الثَّالثة، وهي مرحلة تقدِّم الشَّاعر في العمر، وغزله في هذه المرحلة، بطبيعة الحال، كغزله في المرحلتين السَّابقتين، وهو الغزل الحسِّي، إلَّا أنَّ الجديد فيه هو التَّذكُّر والشَّوق والحنين للحياة السَّابقة مع المحبوب. كما أنَّنا نلحظ الحسرة على الأيَّام والليالي الماضية معها، ويربط ذلك بحالة المشيب وكيف أنَّه يكون عائقاً عن التَّمتُّع بلذائذ الحياة كما في قوله:

[مِنَ الخفيف]

وَبِنَفْسِي تِلْكَ الطَّبَاءُ اللُّوَاتِي
فَجَأْتَنَا، يَهْنُ أُمْسِ الْبِيْدُ
عَارَضْتَنَا فَمَا عَلِمْنَا أَسْلَمُ
نَحْنُ أَمْ لَأَقْتِ الْجُنُودَ جُنُودُ
فَطَعِينُ مَا أَنْ يَيْلٌ وَعَعَانُ
لَا يُفَادِي مِنْ أَسْرِهِ وَشَهِيدُ
أَوْجُهُ مَا الْحَلِيمُ حِينَ يَرَاهُنَّ
حَلِيمٌ وَلَا الرَّشِيدُ رَشِيدُ⁽²⁾

مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقَرَّرَ أَنَّ غَزَلَ الْخَطِّي غَزْلٌ تَقْلِيدِيٌّ، اعْتَمَدَ فِيهِ عَلَى نَهْجِ الْأَقْدَمِينَ فِي تَكَرُّرِ الْمَعَانِي، وَالتَّعْبِيرَاتِ الْغَزَلِيَّةِ الْمُسْتَحْدَمَةِ، فَكَانَتْ أَلْفَاظُهُ عَذْبَةً وَرَقِيْقَةً إِلَّا أَنَّهَا تَفْقَدُ أحياناً حَرَارَةَ الْعَاطِفَةِ.

(1) حَاجِمُ الرَّبِيعِيِّ، «أَبُو الْبَحْرِ، دَرَاْسَةُ فِي شِعْرِهِ»، ص 171.

(2) م. س.، ص 34.

رابعاً: العتاب

لأبي البحر في هذا المجال شعر ليس بالقليل، فشاعرنا كانت له علاقات وصدقات وصلات شخصية - كما أسلفنا - ولكثرة تلك العلاقات لا بدَّ وأن يكون بينهم عتاب واعتذار وشكر. ولكونه شاعراً جسَّد عتابه واعتذاريَّاته وشكره في قالب شعريِّ بتَّ فيه إحساساته الصَّادقة، متناولاً العلاقات الأخويَّة الاجتماعيَّة، ومركِّزاً بذلك على صفة الودِّ، وشكوى الزَّمان.

أ - مقامه في الديوان

فقد تمثَّل في إحدى عشرة قصيدة منها ما جاء مستقلاً، وبعضها الآخر جاء مدموجاً بقصائد المدح. إذ إنَّه خصَّص ثلاث قصائد عتابيَّة في السيِّد ناصر القاروني⁽¹⁾ لما بينهما منْ وشائج وعلاقة وثيقة. وسبع أخريات في مَنْ له علاقة متينة بهم منْ مثل السيِّد ماجد الصَّادقي⁽²⁾، والشَّريف جعفر بن عبد الجبَّار⁽³⁾، والخواجه إبراهيم⁽⁴⁾، والشَّيخ خميس بن ناصر⁽⁵⁾، وبعض أحبَّائه وأصدقائه.

ب - معانيه

ب - 1. طلب المال والنَّوال

ويقول أحد الدَّارسين لشعره: «إنَّ أبا البحر كان ينشد الرِّزق والنَّوال، فيعطي ما أفاضت قريحته منْ قصائد المديح. غير أنَّه فيما يبدو لم يتلَّ ما كان يرجوه منْ ممدوحه الشَّريف ناصر بن سليمان

(1) الدِّيوان، ص 6، 46، 86.

(2) م. ن.، ص 55.

(3) م. ن.، ص 80.

(4) م. ن.، ص 23.

(5) م. ن.، ص 110.

القارونيّ سوى الوعود والمطل، ذلك المطل الذي يضيق به صدره، ويضطرّه إلى تركه، ثم يعود إليه ويعاتبه على تركه لمعشرٍ سئم مقامه بينهم»⁽¹⁾.

[مِنَ البسيط]

وَهَا أَنَا فِي مَجَالِ الْعُمْرِ أَسْأَلُهُ
مَا لَا يُقَالُ لَهُ شَيْئاً فَلَمْ يَهَبِ
أَمَّا الْوَفَاءُ فَشَيْءٌ قَدْ سَمِعْتُ بِهِ
وَلَنْ تَرَاهُ وَلَوْ أَمَعَنْتَ فِي الطَّلَبِ⁽²⁾

ويعاتبه في قصيدة أخرى:

[مِنَ الطويل]

كَفَى لَكَ أَنْ خَلَيْتَنِي لِمَعَاشِرِ
عَظِيمُهُمْ حَاشَا غُلَاكَ حَقِيرُ
سَمِئْتُ مَقَامِي بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ فَرُشَّ
جَنَاحِي لَعَلِّي حَيْثُ شِئْتُ أُطِيرُ⁽³⁾

وعلى المنوال نفسه كان عتابه لبعض أشراف البحرين في قوله:

[مِنَ الوافر]

يَمِينُكَ لَا تُشَلُّ لَهَا بَنَانُ
تَحُلُّ عُرَى الْأُمُورِ الْمُشْكِلَاتِ
وَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ طُرّاً
بِفَضْلِ ثَنَا وَأَبْعَدُ عَن هَنَاتِ

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 179.

(2) م. س.، ص 6.

(3) م. ن.، ص 46.

عَلَامَ تَعْمُ هَذَا النَّاسِ فَضْلاً
وَإِحْسَاناً وَتُعْرِضُ عَن صَلَاتِي (1)

وهو يطلب بذلك المال والنوال.

ويثبت في عتابه للسيد ماجد الصادقي أن المودة بينهما يجب أن تبقى ولو بعد الإنسان عن أخيه الإنسان نتيجة ظرف من الظروف، كما أنه يذكره بسالف الود، وما كان بينهما من صفاء، ويحدثه بما يضره له في قلبه من حُب وإجلال، ويتمنى أن تبقى وتعود تلك الصلة والمودة التي كان أساسها الدين والكرم والجدود:

[من الخفيف]

أَنْتَ تَذْرِي أُنِّي أَرْوْحُ وَأَغْدُو
بِيَدٍ مِنْ حَبَاءٍ غَيْرِكَ صُفْرٍ
أَيْنَ قُرْبِي لَكَ الَّذِي حَسَدْتَنِي
بِوُصُولِي إِلَيْهِ أَعْيَانٍ مِضْرٍ
وَالْمَحَلُّ الَّذِي تَوَهَّمَتِ الْعَا
لَمْ أُنِّي فِيهِ السَّفِيرُ الْعُمْرِي (2)

ب - 2. المودة والوفاء

ويلاحظ أن عتاب الشاعر خفيف، ليست فيه قسوة وغلظة، وألفاظه ومعانيه سهلة وواضحة مما يجعله عتاباً مقبولاً لدى النفس محبباً إليه. من ذلك ما قاله معاتباً ومستعطفاً أحبابه حينما كان مريضاً وكان فيها مترقفاً بهم ومتشوقاً إليهم:

(1) الديوان، ص15.

(2) العُمري: هو عثمان بن سعيد أول سفراء الحجة المنتظر. وهم أربعة: عثمان بن سعيد، والحسين بن روح، وعامر بن محمد السمرى ومحمد بن عثمان بن سعيد (ولد عثمان) انظر: م. ن، ص58.

[مِنَ البسيط]

لَوْ تَمَرَضُونَ وَحُوشِيْتُمْ لَعُدْتُكُمْ
سَبْعًا⁽¹⁾ فَمَا لِي مَرِيضًا لَا تَعُودُونِي
إِنْ لَمْ تَرُونِي أَهْلًا أَنْ أُرَارَ فَمَنْ
إِحْسَانِكُمْ شَرَّفُوا قَدْرِي وَزُورُونِي⁽²⁾

وهذه من أرق عتابياته، إذ يوضح المفارقة بينه وبين أحبائه حيث إنه يعودهم حينما يمرضون في حين أنه مريض ولم يتكروا عليه بعيادته.

ب - 3. الشكوى من جفاء الأصحاب والأحباب

ومما قاله في هذا المجال أيضاً اعتذاره للشريف عبد الرؤوف بن ماجد بن سليمان الحسيني. إذ طلب الشاعر في أواخر القصيدة إبعاد اللوم والتعنيف بين الأحباب، كما أنه يطلب قبول الشريف لودّه ووفائه وشكر من خلال ما وجهه إليه من عتاب.

[مِنَ الخفيف المدور]

يَا أَخَا هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ
أَنْتَ دِفْءُ الشِّتَاءِ وَبَرْدُ الصَّيْفِ
لَا تَكْلِنِي إِلَى ثَنَائِي فَمَا عِنْدَ
كَ مُوْفٍ عَنِ الثَّنَاءِ لَمُوفِي
يَا قَدَيْنَاكَ بِالنَّفُوسِ وَبِالْأَمْوِ
الِ مِنْ تَالِدٍ لَنَا وَطَرِيفِ
خَلْنَا مِنْ خَلَائِقِ سَبَقَتْ مِنْكَ
دَعَعْنَا لِللُّومِ وَالتَّعْنِيفِ

(1) سَبْعًا: ويقصد بها التزامه بعيادتهم سبعة أيام حتى يتعافون من المرض.

(2) م. ن.، ص 118.

وَاقْتَبِلْ وَدَنَا وَخَذْ مِنْ ثَنَا

جَبْرًا كَالْبُرُودِ فِي التَّفْوِيفِ (1)

«ومما يؤلم الشاعر ويزيد من حدة عتابه أن يجد ذلك الممدوح الذي يهب الهبات ويعم الناس بفضلها، يتغاضى عنه ويعرض عن صلاته. متصوراً أن الشاعر يتقدم في السؤال إليه، وهو بعيد ولن يحظى به حتى الممات. فلم يكشف لغيره حرّ وجهه ولم يفتح لمسألة لهاته» (2).

[من الوافر]

أَمْوَالِي كُلِّ مَنْ يَهَبُ الْهَبَاتِ

وَأَطَوْلُهُمْ يَدًا فِي الْمَكْرَمَاتِ

إلى أن قال:

فَلَمْ يَكْشَفْ لِعَيْرِكَ حَرًّا وَجْهِي

وَلَمْ تُفْتَحْ لِمَسْأَلَةٍ لَهَا تِي (3)

ومجمل القول في عتاب الشاعر أنه كان يهدف من ورائه إلى أغراض ثلاثة وهي على التوالي: طلب المال والنوال، بالإضافة إلى المودة والوفاء، ثم الشكوى من جفاء الأصحاب والأحباب.

وقد تميّز في هذا المجال بأسلوبه الرقيق، وما استخدمه من ألفاظ وعبارات تنم عن مشاعر، وأحاسيس كانت أغلبها صادقة.

خامساً: الاعتذار

وهو لون من الألوان التي يستخدمها الشعراء لتصوير عواطفهم،

(1) الديوان، ص 77.

(2) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 180.

(3) م. ن.، ص 14.

ومشاعرهم في الخَوْف والرَّجاء، والرَّهبة والرَّغبة، إذ يكون لها تأثير شديد في نفوس مَنْ تُوَجَّهُ إِلَيْهِمْ.

وقيل: «أقسام الشُّعر في الجاهليَّة خمسة: المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي، حتَّى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو الاعتذار»⁽¹⁾.

وشاعرنا أبو البحر لم يأتِ بجديد في قصائده الاعتذاريَّة مِنْ حيث البناء والمضمون، إذ إنَّه سار على النَّهج الَّذي اختطَّه النابغة الذُّبيانيَّة⁽²⁾ وَمَنْ تبعه مِنْ الشُّعراء في هذا المجال كالْبُحْثَرِيِّ⁽³⁾. فشاعرنا كغيره مِنْ الشُّعراء طرقت هذا الباب وأحسن طرقه.

ووجدنا قصائده الاعتذاريَّة تتماوج بين مَنْ امتدحهم مِنَ الأَحَبَّة والأصحاب، وبين السَّادة وَعِليَّة القوم.

أ - مقامه في الديوان

بلغت قصائد الاعتذار، في ديوانه، ستَّ قصائد تراوحت أبياتها ما بَيْن تسعة عشر بيتاً، وثمانية أبيات. إذ تفاوتتْ بَيْن ممدوحيه مَنْ

(1) أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، 91/1.

(2) النابغة الذُّبيانيَّة: هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان. وسَمِّيَ بالنَّابغة لقوله: «فقد نبغت لنا مِنْهُمْ شؤون» وكان شريفاً فغَضَّ مِنْهُ الشُّعر. وكان مع النُّعمان بن المنذر ومعه أبيه وجدّه، وكانوا له مكرمين. ابن قتيبة، الشُّعر والشُّعراء، 98/1.

(3) البُحْثَرِيُّ: هو الوليد بن عبَّيد بن يحيى الطَّائِي (898/284)، أبو عبادة البُحْثَرِي شاعر كبير، يقال لشعره «سلاسل الذهب». وهو أحد الثَّلاثة الَّذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تَمَّام، والبُحْثَرِي. وُلد بمنبج (بين حلب والفرات) ورحل إلى العراق، وأقام ببغداد دهنراً طويلاً، فاتَّصل بجماعة مِنْ الخُلفاء ومدحهم، أوَّلهم المتوَكَّل العبَّاسي، وخلقاً كثيراً مِنْ الأكابر والرؤساء، ثمَّ عاد إلى الشَّام وتوفِّي بمنبج، له ديوان شعر. ابن قتيبة، الشعر والشُّعراء، 21/6.

الأمراء، والأشراف العلويين من سَكَنَةِ أوال والقطيف وكذلك أصدقائه. وأطول اعتذارياته نفساً ما قاله في أحد أصدقائه ولم يُسمِّه. فهي قصيدة بلغ عدد أبياتها ثلاثة وعشرين بيتاً، ومطلعها:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

قُلْ لِأَحْفَى الْأَنَامِ بِي يَا كِتَابِي
وَتَقَاضَاهُ لِي بِرَدِّ الْجَوَابِ (1)

أما أقصرها، فاعتذاره لصديقه وراويته الحسن بن محمد بن ناصر بن غنيّة، وذلك حين زاره وكان موعوكاً، فقال قصيدة مطلعها:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

سَلَامٌ إِذَا اسْتَعْبَقْتُ رِيَّاهُ أَجَلَبْتُ
عَلَيْكَ مَسَارِيهِ بِرَائِحَةِ الْعِطْرِ (2)

ب - معانيه

لقد تضمّنت قصائد الاعتذار مجموعة من المعاني نُجْمِلُهَا فيما يلي:

ب - 1. الود والوفاء والصدق

إنّ الودّ ليس بغريب عليه، إذ ظهر جلياً في قصائده المدحيّة، لذلك نجد في كلّ اعتذارياته يتمثّل الودّ والوفاء، فقد حملت أبياته الصّفاء في المعنى، واللُّغة التي لا نجد فيها كلمة نائية أو لفظاً مُستكرهاً، فهو إذ يعتذر إلى أحدٍ، يفتح قلبه بكلّ دفءٍ وحرارة، وينقل إليه إحساساته الصّادقة تجاهه. من ذلك قوله معتذراً للشّريف عبد الله بن الحسين بن عبد الرّؤوف العلوي حين أنكر منه ما كان يألفه من أنسه وعنايته، وتوسّم فيه المكافأة، منها:

(1) الدّيان، ص 11.

(2) م. ن.، ص 54.

[مِنْ مَجْزُوءِ الْكَامِلِ]

أَحْسَنِينَ أُنْتَبِي وَاللَّذِي
عَنْتِ الْوَجُوهُ لَهُ وَذَلَّتْ
لَعَلَى الْوَفَاءِ كَمَا عَلِمْتَ
وَإِنْ جَفَّتْ نَفْسٌ وَمَلَّتْ⁽¹⁾

وقوله أيضاً في اعتذارٍ آخر:

[مِنْ الطَّوِيلِ]

فَأَنْتِي وَإِنْ أَصْبَحْتُ وَالشُّعْرُ حِرْفَتِي
وَكُنْتُ امْرَأً مِنْ سَائِرِ الشُّعْرَاءِ
لَأَسْأَلُكَ نَهَجاً فِي الْوَفَاءِ يُرِيكَ مَنْ
تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَرَأَيْتِي
فَلَسْتُ امْرَأً إِنْ غَابَ غَابَ وَفَاؤُهُ
وَلَكِنِّي إِنْ أَنَا يَدُنْ وَفَائِي⁽²⁾

وَمِنْ حِرْصِ شَاعِرِنَا عَلَى الْوَفَاءِ وَالْوَدِّ لِلْأَصْحَابِ وَالْوَلَاءِ لَهُمْ قَوْلُهُ فِي الْقَصِيدَةِ نَفْسَهَا:

أَلَا قُلْ لِعَبْدِ اللَّهِ عَنِّي مَقَالَةً
تَدُلُّ عَلَى وُدِّي وَصِدْقِ وَلَايَتِي
وَحَقِّكَ مَا تَرَكِي مَدِيحَكَ ضِنَّةً
عَلَيْكَ بِتَقْرِضِي وَلَا بِثَنَائِي⁽³⁾

«ولا يتطلب الأمر في اعتذاره من أصحابه جهداً عسيراً سوى

(1) الديوان، ص14.

(2) م. ن.، ص3.

(3) الديوان، ص3؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، 171/4.

ردُّ بالتَّحِيَّةِ ويخلو مِنْ ذلك التَّفَاقِ والوَدَّ الرَّائِفِ. ويأتي هذا الاعتذار بسبب قعوده عَنِ اسْتِقْبَالِ صاحبه الحسن بن محمَّد بن غنية لإصابة الشَّاعِرِ بِالزُّكَامِ. أو إبعاد تهمة وَجَّهَهَا إِلَيْهِ تلميذه الغنويُّ في تركه صوم رمضان فردَّ عليه الشَّاعِرُ بأنَّ اتِّهَامَهُ مَجْرَدٌ ظَنٌّ» (1).

ب - 2. الاعتراف بالفضل لأصحابه

ويكثر شاعرنا مِنْ ذِكر فضائلهم، ومكارمهم وتبجيله لهم والوفاء إليهم، كقوله في إحدى اعتذاريَّاته:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَأَنْتَ الَّذِي لَمْ تَبْقِ فِي مَنْهَلِ النَّدى
لِمَنْ جَاءَ يَسْخُو بَعْدَ سُورِ أَنْاءِ
عَمَمْتَ وَلَمْ تَخْصُصْ بِفَضْلِكَ فَاعْتَدْتُ
لَكَ الْبُعْدَاءُ الْغُرْبُ كَالْقُرَبَاءِ (2)
وقوله في مكانٍ آخر:

[مِن الطَّوِيلِ]

أَلَسْتَ الَّذِي قَوْمَتْ سَكَّةَ دَارِنَا
وَقَدْ رَمَيْتَ مِمَّنْ يَقْضُ بِحَاصِبِ
فَبَارَتَ فَمَا الْمَرْزُوقُ مِنْهَا بِظَافِرِ
وَهَانَتْ فَمَا الْمَحْرُومُ مِنْهَا بِخَائِبِ (3)
وكذلك قوله:

(1) حاجم الربيعي، «أبو البحر، دراسة في شعره»، ص 181. وانظر: الديوان، ص 54، 104.

(2) م. ن.، ص 3.

(3) م. ن.، ص 7. وانظر: م. ن.، ص 11، 14، 54، 55.

[من مجزوء الكامل]

يَا سَيِّدًا عَظُمَتْ مَوَا
قِحُ فَضْلِهِ عِنْدِي وَجَلَّتْ
هَـذِي مَوَاهِبُكَ الَّتِي
سَقَّتِ الْوَرَى نَهْلًا وَعَلَّتْ
مَا بِالْهَـا كَثُرَتْ عَلَيَّ
غَيْرِي وَعَنِّْي الْيَوْمَ قَلَّتْ
لَمْ أُدْرِ أَيَّ حَظِيئَةٍ
عَثَرْتُ بِهَا قَدَمِي وَزَلَّتْ⁽¹⁾

ب - 3. التبرئة من الذنب

وقد نلاحظ في اعتذاريَّاته تبرئة نفسه مِنَ الذَّنْبِ المنسوب إليه، فهو يَسِمُ جَهْدَ إِيمَانِهِ بِأَنَّ مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْوُشَاةِ زور وكذب، وأَنَّهُ بريء مَمَّا يفترون عليه، وقد تمثَّل ذلك في اعتذاره إلى الشَّيْخِ خميس بن ناصر⁽²⁾ بسبب فُرْيَةِ أَتَى بِهَا الْأَعْدَاءَ (الْحُسَّاد) مستغلِّين غيابه ليخربوا ما بينه وبين الشَّيْخِ مِنْ صَلَاةٍ. ولو كان حاضراً لاختلف الأمر:

[مِن الطَّوِيلِ]

أَلَا أَبْلِغَا عَنِّي خَمَيْسَ بْنَ نَاصِرٍ
مَقَالَ امْرِئٍ فِي وَدِّهِ غَيْرُ كَاذِبٍ
لَقَدْ جَاءَكَ الْأَعْدَاءُ عَنِّي بِفُرْيَةٍ
وَكَسَتْ لَهَا مَا دُمْتُ حَيًّا بِصَاحِبٍ

(1) الديوان، ص14؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة، 171/4.

(2) وهو أحد أمراء البحرين في تلك الفترة. انظر: الديوان، ص6.

وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ غَائِبًا

وَمَا حَاضِرٌ عِنْدَ الْخُصُومِ كَغَائِبٍ (1)

إِلَّا أَنْ مَا يَمِيزُ شَعْرَهُ فِي هَذِهِ الْجَوَانِبِ مِيلَهُ إِلَى تَبْيَانِ مَشَاعِرِهِ وَخَلْجَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ، وَشَرَحَ مَوْقِفَهُ، وَتَبَرُّتَهُ نَفْسَهُ عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ، مَدْعُمًا إِيَّاهَا بِالْحُجْجِ وَالْبَرَاهِينِ.

فَلنَسْمَعُهُ وَهُوَ يَقْسِمُ بِالْيَمِينِ عَلَى أَنَّهُ بَرِيءٌ مِمَّا تَعَاطَاهُ أَهْلُ الزُّورِ حِينَمَا عَوْتَبَ عَنْ مَأْلُوفِ اتِّصَالِهِ وَتَرَدُّدِهِ:

[مِنْ الْخَفِيفِ]

إِنِّي وَالْيَمِينُ جَهْدِي وَبِالْمِرِّ

صَادِ رَّبِّي لِلْحَالِفِ الْكَذَّابِ

لَبْرِيءٍ مِمَّا تَعَاطَاهُ أَهْلُ الزُّورِ

وَرَعْنِي وَطَاهِرُ الْأَثْوَابِ (2)

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ أَبَا الْبَحْرِ اتَّبَعَ الْأَسْلُوبَ التَّقْلِيدِيَّ عَامَّةً لَوْلَعَهُ بِالتُّرَاثِ الشُّعْرِيِّ الْقَدِيمِ بِمَا اسْتَعْدَمَهُ مِنْ أَلْفَاظٍ وَصُورٍ وَتَشْبِيهَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى صِفَةِ الْوُدِّ وَالْوَفَاءِ، وَالاعْتِرَافِ بِالْفَضْلِ لِأَصْحَابِهِ وَالِدِّفَاعِ عَنِ نَفْسِهِ مِمَّا تَعَاطَاهُ أَهْلُ الزُّورِ عَنْهُ.

كَمَا أَنَّهُ كَانَ صَادِقًا فِي عِتَابِهِ وَاعْتِذَارِهِ لِتَأْكِيدِهِ دَائِمًا عَلَى صِفَةِ الْوُدِّ وَالْوَفَاءِ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِلَلٍ وَحُجْجٍ صَادِقَةٍ وَمُؤَثَّرَةٍ فِي هَذَيْنِ اللَّوَيْنِ كَدَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ.

سادساً: الشكر

الشُّكْرُ هُوَ الْمَدْحُ بَعَيْنِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَقْتَضِي مَعْرُوفًا سَابِقًا يَسْتَحِقُّ الْمَمْدُوحُ الشُّكْرَ عَلَيْهِ. وَبِمَا أَنَّ أَبَا الْبَحْرِ لَهُ صِدَاقَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَعِلَاقَاتٌ

(1) الديوان، ص 6، 7.

(2) م. ن.، ص 11.

شخصية متعدّدة، لا بدّ له أن يُظهر واقع هذه العلاقة الاجتماعيّة من خلال أبيات شعريّة تعبّر عن ذلك. وممّا دفع الشّاعر إلى الشُّكر وفاؤه، وودّه، وإخلاصه إلى مَنْ أسبغوا عليه مِنَ النِّعم وأغدقوا عليه مِنَ الفضائل المادّيّة والمعنويّة.

أ - مقامه في الديوان

لقد بتّ الشّاعر رسائل الشُّكر في قصيدتين، وأربع قطع، ومنتفة. وأطول قصيدة كان عدد أبياتها أربعة عشر (14) بيتاً، والثانية بلغ عدد أبياتها تسعة (9) أبيات. أمّا القطع، فقد تراوحت أبياتها بين السبعة والسّتّة أبيات. أمّا التنتفة فهي بيتان فقط. وقد أحصيت الأبيات مجتمعة فجاء مجموعها اثنتين وخمسين بيتاً. إذ كانت أغلب هذه الرّسائل موجّهة إلى مَنْ امتدحهم من قبل، مثل الشّريف ماجد الحسيني، والسّيّد ناصر القاروني وغيرهما.

أ - 1. القصيدة الأولى

وقد قالها شاكرًا للشّريف ماجد الحسيني، إذ بلغ عدد أبياتها أربعة عشر (14) بيتاً، ومطلعها:

[مِن الطّويل]

لَقَلَّدَتِيهَا مِنْهُ لَيْسَ تُجْحَدُ
وَأَسْدَيْتَهَا عِنْدِي يَدًا جَلَّتِ الْيَدُ⁽¹⁾

أ - 2. القصيدة الثانية

ويبلغ عدد أبياتها تسعة (9) أبيات فقط، إذ قالها شاكرًا وشاكياً، وذلك عندما دخل بلد القطيف بعد طول غيابٍ عنها، ومطلعها:

(1) الديوان، ص 26.

[مِنَ الكَامِلِ]

رَعَتْ قَرِيْشٌ فِينَا الدُّمَامَ عَلَيَّ

جَعَا ابْنُ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ الْقُرْبَا (1)

وقد سار على المنوال نفسه فيما نظم من أبيات في مجال
الشُّكْرِ (2).

ب - معانيه

ب - 1. السلام والتحية

مِنَ الظَّوَاهِرِ البارزة في هذا المجال ما يبدأ به قصيدته من
سلام وتحية، يمهد بها لتقديم الشُّكْرِ لمستحقه. من ذلك قوله:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

سَلَامٌ يَفُوقُ الرَّاحَ لُطْفًا وَرِقَّةً

تَخْلُصُ عَن قَلْبِ امْرِئٍ مُخْلِصِ الْوُدِّ

وَنَشْرُ ثَنَاءٍ مِثْلَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

فَجَاءَتْ وَفِي أَنْفَاسِهَا نَفْحَةُ الْوَرْدِ (3)

وقوله شاكرًا ماجد بن هاشم الحسيني:

[مِنَ البَسِيطِ]

أَهْدِي ثَنَاءً مَتَى فُضَّتْ لَطَائِمُهُ

صَاعَتْ فَصَاعَ ذِكِّي الْمِسْكِ وَالْعُودِ

لِسَيِّدٍ لَوْ دَعَتْنِي بَعْضُ أَنْعَمِهِ

لَشُكْرَهَا ضَاقَ عَنْهُ وَسُغَّ مَجْهُودِي (4)

(1) الديوان، ص9.

(2) م. ن.، ص32، 45، 51، 94، 103، 123.

(3) م. ن.، ص32.

(4) م. ن.، ص42.

وقوله في رسالة بعثها لرجلٍ من أعيان القطيف وهو الحاج
الرّضي بن محمّد بن جعفر بن علي بن أبي سنان⁽¹⁾، بدأها بقوله:

[من الطويل]

سَلامٌ عَلَي مَوْلَى تَمَلَّكَ بِرُهُ

وَإِحْسَانُهُ رَقِيَ فَصِرْتُ لَهُ عَبْداً⁽²⁾

كما أنّه ختم إحدى مقطوعاته بالتحية والسّلام، وذلك بقوله:

[من الكامل]

وَمَتَى يُقْلُ ثَنَائِي إِنْ تَحَيَّيْتِي

أَبْداً وَتَسْلِيمِي عَلَيكَ لَيَكْثُرُ⁽³⁾

ب - 2. الفضائل المادية والمعنوية

وقد اهتم أيضاً بذكر الفضائل الماديّة والمعنويّة، معترفاً لساداته
ومقدراً لأصحابه لما قدّموه له من عرفان، وما لمسّه من جميل لا
ينسى حسب تقديره. من ذلك قوله في رسالة بعث بها لأحد ساداته
شارحاً ما قدّمه من صنائع نحوه:

[من الطويل]

وَبَعْدُ فَقَدْ قَدَّمْتَ عِنْدِي صَنَائِعاً

تَجُلُّ مَكافأَةً عَنِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ

فَأَصْبَحَ غُصْنِي مِنْ نَوَالِكَ مُورِقاً

وَكَفِّي بِمَا أَوْلَيْتَهَا مِنْ جَدَى يُجْدِي⁽⁴⁾

(1) لقد نُقِبَت في المصادر التي تناولت عصر الشّاعر، فلم أوفّق في العثور على
ترجمة له.

(2) الديوان، ص 43.

(3) م. ن.، ص 51.

(4) م. ن.، ص 32.

وقوله في موضع آخر يعترف بالجميل الذي أسدي له من قبل
السيد ماجد الصادقي:

[من الطويل]

لَسَيِّدٍ لَوْ دَعَتْنِي بَعْضُ أَنْعَمِهِ

لَشُكْرَهَا ضَاقَ عَنْهُ وَسُحُ مَجْهُودِي (1)

فالشاعر مهما يقدم من شكر لهذا الرجل فإنه لا يفديه حقه
وذلك لكثرة النعم التي أسداها له. ويكرر المعنى في موضع آخر
إذ قال:

[من الطويل]

وَسَوَّغَنِي مَا ضَاقَ دَرْعِي بِشُكْرِهِ

عَوَارِفُ فَضْلٍ لَا أَطِيقُ لَهَا عَدًّا (2)

وقد يعترف للممدوح بأنه رفعه إلى منزلة سامية يخسأ عن
إدراكها البصر:

[من البسيط]

لَقَدْ رَفَعْتَ أَبَا حَسَّانَ مَنْزِلَةً

شَمَاءَ يَخْسَأُ عَنْ إِدْرَاكِهَا الْبَصَرُ (3)

ولشدة حرصه على استمرارية الشكر قوله أيضاً:

[من البسيط]

فَشُكْرُهُ لَكَ مَوْصُولٌ بِمُدَّتِهِ

لَا يَنْتَهِي الشُّكْرُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْعُمْرُ (4)

(1) الديوان، ص32. وانظر: م. ن، ص26، 103، 123.

(2) م.ن، ص43.

(3) م. ن، ص46.

(4) م. ن، ص46. وانظر: م. ن، ص94، 103، 123.

ب - 3. التعظيم

لقد شاع معنى التَّعْظِيمِ في شُكْرِيَّاتِهِ، فالمثنى عَلَيْهِ عَظِيمُ الدَّرَجَةِ، إذْ إِنَّهُ لَوْ عَبدَ النَّاسُ غَيْرَ خَالِقِهِمْ لَعَبَدُوا العَرَضَ لشدَّةِ محافظتهم عَلَيْهِ ورعايتهم له، كما أَنَّ الجودَ باقٍ ببقائهم:

[مِنَ الكَامِلِ]

لَوْ عَبَدَ النَّاسُ غَيْرَ خَالِقِهِمْ
مَا عَبَدُوا دُونَ عَرَضِهِمْ رَبًّا
يَبْقَى لَنَا الجُودُ مَا بَقُوا فَمَتَى
فَضُّوا قَضَى الجُودُ بَعْدَهُمْ نَحْبًا⁽¹⁾

وكما أَنَّهُ لو سَاغَ لِلنَّاسِ أَنْ تَعْبُدَ إِنْسَانًا لَكَانَ الشَّاعِرُ لِمُدْوَحِهِ عَابِدًا:

[مِنَ البَسِيطِ]

لَوْ سَاغَ أَنْ تَعْبُدَ النَّاسُ امْرَأَةً لِعُلَا
جَعَلْتُهُ لِعُلَاهُ الدَّهْرَ مَعْبُودِي⁽²⁾
وقد بالغ في المثنى عَلَيْهِ بقوله:

[مِنَ البَسِيطِ]

مَاذَا عَسَى يَبْلُغُ المَثْنِي بِمِدْحَتِهِ
عَلَى امْرِيءٍ أَبَوَاهُ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ⁽³⁾
يُلحظ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ التَّكْلُفَ وَاضِحَ فِي بَعْضِ أَيْبَاتِهِ فِي هَذَا

(1) الديوان، ص4. وانظر: البيت السَّابع، ص27.

(2) م. ن.، ص32.

(3) م. ن.، ص45.

المجال. مِنْ هُنَا نشعر أَنَّنا أمام أنماط وصور مكررة لا تختلف عمّا عهدناه في شعره المدحّي بألفاظها وصورها وهو يجزل الثناء والحمد لِمَنْ أراد شكره فيما يؤكّد فيه حقّهم عليه، وأنّه مهما بذل مِنْ جهد نحوهم فإنّه لم يقدّم إلّا القليل أمام عطاياهم وجزيل أنعمهم. فهو يقدّر سادته وأصحابه لما قدّموه له مِنْ عرفان. وما بثّه مِنْ شعرٍ في هذا الجانب ما هي إلّا رسائل شعريّة رأها واجباً عليه لكلّ مَنْ أسدى له منعة حياتيّة. كما أنّه وضح مِنْ خلال تلك الرّسائل مدى صدقه لهؤلاء الذين قدّم لهم الشكر والوفاء على ما بذلوه نحوه.

ويمكننا القول أنّ كلّ ما جاء به في هذا الشّان هو إقرار بالعون والرّعاية التي شملوه بها، وما قدّموه مِنْ مساعدة تُعينه على تيسير أمور حياته حين إقامته معهم.

سابعاً: الهجاء

الهجاء عكس المديح، ولمّا كان المدح الجيّد الرّائع إنّما يكون بالفضائل النّفسيّة، فكذلك الهجاء الجيّد المؤثّر إنّما يكون بسلب هذه الفضائل، وتعرية الإنسان المهجوّ مِنْ كلّ فضيلة ومآثرة.

أ - مقام الهجاء في الديوان

حين تقصّينا غرض الهجاء في ديوان الشّاعر فلم نجد سوى قصيدتين مستقلّتين بذاتهما. الأولى مكوّنة مِنْ ثمانية أبيات، والثّانية عدد أبياتها ثمانية عشر. كلتاها تتمحوران حول هدف واحد، وتصبّان في فكرة واحدة. أمّا الهدف فهو الغيرة على فنّ الشّعر، وأمّا الفكرة فهي الدّفاع عن الشّعر وفنونه. ويذكر محسن الأمين في

أعيانه بيتين مِنْ هجاء الشَّاعر لابن حجر⁽¹⁾، لم يكن لهما موضع في الديوان⁽²⁾.

ولمَّا كانت للشَّاعر مكانة سامية في قومه ووسطه الاجتماعي، وقدرة شعريَّة جعلته مشهور عصره، نصَّب نفسه ناقدًا، ومدافعًا عن الشُّعر وما يجري عليه مِنَ المتشاعرين.

وقد تجسَّد ذلك حينما بلغه عن بعض فتيان القطيف أَنَّهُ يقول الشُّعر فاستنشده ما لم يرزق لديه حظوة، ونقد شعره فوقع فيه ذلك الشعرو فقال أبو البحر هازلًا ومؤدبًا مِنْهَا:

(1) ابن حجر الهيثمي (1567/974): هو أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيثمي السَّعدي الأنصاري، ولد في محلَّة أبي الهيثم مِنْ إقليم الغربي بمصر، وإليها نسبته، والسَّعدي نسبة إلى بني سعد مِنْ عرب الشَّرقيَّة بمصر. تلقَّى العلم في الأزهر. له تصانيف كثيرة مِنْهَا: مبلخ الأرب في فضائل العرب، والجواهر المنظم، والصواعق المحرقة على أهل البدع والضلَّال والرَّذنقة، والخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النُّعمان وغيرها. انظر ترجمته: الزركلي، الأعلام، 1/234.

وكتاب الصَّواعق المحرقة أَلفه ابن حجر الهيثمي سنة (1543/950) في مكَّة المكرمة، وقد أثارته كتب الشيعة والرَّافضة كما ذكر ذلك في خطبة الكتاب، وقد ردَّ عليه في الديار الهندية القاضي نور الله التُّستري الشَّهيد سنة (1610/1019) بكتاب سَمَّاه الصَّورم المهرقة، وقد طُبِع في إيران سنة (1947/1367)، كما ردَّ عليه بالديار اليمنيَّة أحمد بن محمَّد بن لقمان المتوفى سنة (1619/1029) بكتاب سَمَّاه البحار المغرقة. الشُّوكاني، البدر الطَّالع، 1/118.

(2) وهما:

[مِنْ البسيط]

يَا رَاحِلًا لِلْقُبُورِ عَلَّكَ أَنْ تَسْأَلَ فِيهَا ابْنَ حَجَرٍ
هَلْ أَحْرَقْتَ غَيْرَهُ صَوَاعِقُهُ أَوْ أَلَقَمْتَ وَاحِدًا سِوَاهُ حَجَرٍ
ويقصد بهما ابن حجر في مؤلِّفه «الصواعق المحرقة». انظر: محسن الأمين، أعيان الشيعة، 4/166.

[مِنَ الخفيف]

يَا حُمَاةَ الْقَرِيضِ هُبُّوا لِأَخْذِ الْ
تَّأْرٍ فَالْخَطْبُ لَوْ عَلِمْتُمْ جَلِيلُ
وَخُذُوا بِالثَّرَاثِ مَنْ قَاتَلَ الشُّعْ
رَ فَمَا الْحَزْمُ أَنْ تُضَاعَ الذُّحُولُ⁽¹⁾

وقال فيه أيضاً وبني قصيدته على مطلع لزميله وراويته الغنوي:
[مِنَ البسيط]

اعْمَلْ لِنَفْسِكَ مِتْقَالاً وَمِعْيَاراً
وَاسْرُرْ أَبَاكَ بِأَنْ يَلْقَاكَ عَطَّاراً

فقال أبو البحر:

[مِنَ البسيط]

أَوْ فَاتَّخِذْ لَكَ سِنْدَاناً وَمِطْرَقَةً
وَاعْمَلْ مَتَى شِئْتَ سِكِّيناً وَمِسْمَاراً
أَوْ فَاتَّخِذْ لَكَ مِنْشَاراً وَقِشْرَةً⁽²⁾
وَكُنْ كُنُوحِ نَبِيِّ اللَّهِ نَجَّاراً⁽³⁾

وقد سار على المنوال نفسه في بقية القصيدة مستعرضاً مجمل
المهن في عصره.

وقد ثارت ثائرة الشاعر حينما وجد المتشاعر وقد خرج بالشعر
على غير مساره، لذلك هاجمه ليكفَّ عن الشعر، ونصحه بأن يتخذ
مهنة غير هذه المهنة لأنه ليس جديراً لها.

-
- (1) الديوان، ص 88؛ محسن الأمين، م. س.، 165/4؛ عزّ الدين التّونخي، «الأدب في
البحرين»، مجلة العلمي العربي، ص 165.
(2) قِشْرَةٌ: وهي خطأ والصّحيح «مِقْشَرَةٌ» على وزن «مِفْعَلَةٌ» اسم آلة وهي ما
يُقَشَّرُ بها الخشب. ليستقيم الوزن والمعنى.
(3) الديوان، ص 66.

كما يلاحظ القارئ لهذه القصيدة روحاً ساخرة، وعرضاً للنشاط الاقتصادي الشديّد التّنوع في المنطقة آنذاك.

وقد قال أحد الدّارسين لهذه القصيدة: «إنّها تأخذ موقفاً خاصاً في نصوص الشّاعر، تسيطر عليه حين يحزّر نفسه من أثقال المحسّنات وفخفة البديع منحرفاً بهذا الأداء عن المعتاد في سياق التّقليد الشّعري الضّارب في عصره. إنّه يخترق عاجية الشّعراء واللّغة إلى حيث يتنفّس بالشّعور على أرض الواقع والمجتمع ممّا يجعل لهذه الظّاهرة الثّريّة في شعر الخطّي نغمة خاصّة وأهميّة تاريخيّة تحدّد لها الثّورة على تلك الشّعريّة المتمزّمة وإشاعة لغة شعريّة جديدة نبعت من هموم النّاس وحركة الواقع مُشكّلةً تعبيراً صادقاً عن التحام بالنّاس العاديّين»⁽¹⁾.

وقال آخر: «إنّها شبيهة بما قاله الشّاعر الفرنسيّ الكبير (بوالو Boileau)⁽²⁾ في قصيدته (صناعة الشّعور)»⁽³⁾.

ب - معانيه

وبنظرة ثاقبة لهذه القصيدة نجد أنّ الشّاعر ركّز على وجهتين: إحداهما أدبيّة وثانيتها تاريخيّة.

أمّا الوجهة الأولى: فهي حرقتة في الدّفاع عن الشّعور وما آل إليه من انحطاط، ورغبة الشّاعر الجامحة لإعادة الشّعور إلى ما كان عليه من قوّة وشموخ.

(1) محمد رضا نصر الله، «قراءة في شعريّة منحرفة»، ص 216.

(2) بوالو: شاعر وناقد فرنسي (1636 / 1711). نظم قصيدة عنوانها «فنّ الشّعور» وملحمة فكاهيّة، وعدداً من المقطوعات الهجائيّة على غرار هوراس. برع في فنّ الأوبد وفي المقطوعات السّاخرة ذات الألفاظ اللّاذعة. انظر: الموسوعة العربيّة الميسرة، 1/421.

(3) عزّ الدين التّوخي، «الأدب في البحرين»، مجلّة المجمع العلمي العربي، ص 165.

والوجهة الثانية: هي إبرازه لمختلف المهن التي كان يزاولها أبناء مجتمعه في ذلك العصر.

وكما لاحظنا أنّ شاعرنا لم يكثر من القول في هذا اللون، فهو لم يكن هجاءً بطبعه، بل إنّه كان شاعراً مرهف الشعور والإحساس لسهولة شعره وجودة طبعه فيه.

تلك هي أبرز الأغراض الشعريّة عند أبي البحر الخطّي، ولا يمكن لدراسٍ لشعره أن يحيد عنها. إذ إنني ألقى الضوء على رثائه، ووصفه، وغزله، وعتابه، واعتذاره، وشكره ثم هجائه. كما أنّه ساعدني على تكوين صورة واضحة عن أغراضه الشعريّة، وما ضمّنه من معانٍ مختلفة.

وإذا كان هذا هو شأن ما تناوله من فنون الشعر، بات من الضروريّ التّعريف على أسلوب الشاعر وخصائصه الفنيّة حسب نظام المستويات. إذ أفردت لذلك الباب التّالي.

الباب الثالث

المستويات الدلالية

الفصل الأول: المستوى العروضي

أريد من خلال هذا الباب دراسة خصائص أسلوب أبي البحر الفنيّة. ويتطلّب ذلك معالجة تحليليّة للنصّ الشعريّ أُنْفَحَصُ مِنْ خِلالها العلاقات الدّاخلية والخارجية، وأرصدُ شبكة تلك العلاقات؛ لأتوصّل إلى البنية اللُّغويّة، ودلالة النصّ الشعري المدروس. وقد اعتمدتُ المنهج التَّبويوي⁽¹⁾، لتحليل النُّصوص ليكوّنَ مُعِيناً لي على فهم النصّ، واستنباط مزاياه.

ولمّا قرأتُ الدِّيوانِ قراءاتٍ متعدّدة، وجدتُ أنّ أغلبَ معاني الشّاعر متماثلة ومتشابهة، وألفاظه مكرّرة في الغرض الواحد أو الأغراض الأخرى. فالمدح، والشُّكر، والعتاب، والاعتذار، والرّثاء، والفخر، متشابهة المعاني، وكذلك الأمرُ نفسه في الوصفِ والحنين وغيرهما.

ففي بداية الأمر سأدرس الصّوت وأثره، وما يوحيه، ثمّ أنتقلُ إلى اللفظ المفرد، وإلى انتظامه في حقل معجميّ مُعيّن، وبعد المعنى سأنتقلُ إلى التّراكيب والوظيفة التي تؤدّيها في الجُملة، ثمّ أنتهي عند المستوى الجَمالي.

(1) هي مدرسة نقدية تعنى بدراسة الشنائيات الضدّية ومفهوم التّزامن بين الطّواهر، وتصرّ على أنّ العلاقات التي تربط بين الطّواهر هي التي تهّم الناقد أكثر ممّا تهّمه الطّاهرة نفسها. كمال أبو ديب، جدليّة الخفاء والتّجلي، ص 7 وما تلاها.

وعليه فإنني لجأت إلى اختيار أربع قصائد⁽¹⁾ لتكون نمطاً
أتحرك من خلاله إلى قياس الظاهرتين التركيبية والصرفية، أما
قياس الظواهر الأخرى وهي الصوتية، والعروضية، والمعجمية،
فقد كانت شاملة الديوان بأكمله، وذلك لصعوبة التحديد في
هذه الظواهر غير كافٍ، ممّا جعلني أدرس الديوان بأكمله؛ لأخرج
بنتيجة وافية ومُعبرة.

وقد بنيتُ هذه الدراسة على مستويات أربعة بادئاً بالمستوى
الصوتي والعروضي، فالمستوى المعجمي، فالتركيبي (النحو والصرف)،
ثمّ المستوى البلاغي.

مدخل

الشعر أدواته اللّغة، واللّغة ألفاظ، وعن طريقها يحقّق الشاعر
أصواتاً وإيقاعاتٍ موسيقيةً معيّنة، وعليه فالشاعر يتخيّر الكلمات
والحروف في إنشاء بنائه الشعري ليحدث صوره وموسيقاه تعبيراً
عن فكره وانفعالاته. إذ يجعل لنفسه آلة موسيقية معيّنة يُترب
الآخرين بها، وكلّما كانت سليقة الشاعر أصيلة كانت موسيقاه مؤثّرة
وجميّة.

وذلك انطلاقاً من مبدأ أنّ الأساس الموسيقي للقصيدة، إنّما
يكمن في اللّغة، والأسلوب، والصورة الشعريّة. بحيث يعجز المرء
أنّ يستكشف أسرار هذا الجانب الصوتي ويتذوّقه من غير ملاحظة
لهذا التآلف الصوتي.

(1) الديوان، ص 19، 36، 49، 51. وهي قصيدة في رثاء أبي عبد الله الحسين بن
علي، وعدد أبياتها ثمانية وسبعون بيتاً، وأخرى في رثاء شيخ القطيف، وعدد
أبياتها تسعة وأربعون بيتاً، وثالثة في الحنين إلى الوطن، وعدد أبياتها واحد
وخمسون بيتاً، ورابعة في مدح وزير البحرين، وعدد أبياتها ثمانية وأربعون
بيتاً. إذ جاء مجموع أبيات القصائد مائتين وواحدٍ وعشرين بيتاً.

وموسيقى الشُّعر نوعان، خارجيَّة، وهي التي تعتمد على الوزن والقافية، وداخليَّة، وهي التي تنشأ من اختيار الكلمات وترتيبها لتحقيق التوافق الصَّوتي بينها، ثمَّ الملاءمة بين حروف القافية وحروف الكلمات الأخرى في أبيات القصيدة⁽¹⁾.

والشَّاعر الَّذي نحن بصدده دراسة شعره، اعتمد القصيدة ذات الشُّطرين في كلِّ ما قاله من شعر. وهو - بطبيعة الحال - شاعر عاشق لتراث الشُّعر العربي القديم، إذ إنَّه قرأ وحفظ منه الكثير، ممَّا جعله يسير على خُطى الأقدمين في رسم طريقه الشُّعري، ملتزماً النهج الشُّعري القديم من حيث موسيقاه الخارجيّة والداخليَّة.

وبناءً على ذلك فإنَّ دراستي للمستوى الصَّوتي ستعتمد على دراسة البحور الخليليَّة التي استخدمها الشَّاعر، وما لها من دلالات انفعاليَّة بالإضافة إلى القافية، وما لها من دور موسيقيٍّ فعَّال، لنستكشف ذلك الدَّور الفاعل الَّذي أحدثته الموسيقى الخارجيّة والداخليَّة في شعره، بادئاً بالموسيقى الخارجيّة.

أولاً: الأوزان العروضية المستعملة عند أبي البحر

ديوان أبي البحر الخَطِّي الَّذي بيَّنَ أيدينا يحتوي على ثلاث وثمانين (83) قصيدةً، واثنَين وثلاثين (32) قطعةً، بالإضافة إلى أربع وعشرين (24) نتفةً، موزَّعة على تسعة أوزان عروضية هي بالترتيب: الطويل، وعليه نُظِم ثلثُ الشُّعر العربي تقريباً⁽²⁾، يليه الكامل، فالخفيف، فالبسيط، فالوافر، فالرَّمْل، فالرَّجز، فالمتقارب، ثمَّ السَّريع.

(1) انظر: محمود محمَّد بركات، شعر ابن عُثيمين، ص 231.

(2) هاشم صالح مناع، الشَّافي في العروض والقوافي، ص 55.

قصائد الخَطِّي مِنْ حيث الطول، وهي في غرض الرثاء، وبلغت عدتها تسعة وتسعين بيتاً، والبيتان المتقدمان كمثال مِنْ تلك القصيدة.

وإذا نظرنا إلى توزيع الأغراض على البحور نلاحظ مرونة مطلقة في استخدام الطويل، فلا نكاد نجد غرضاً مِنْ الأغراض الأساسيَّة في الدِّيوان لم يقل فيه الشَّاعر شيئاً مِنْ هذا البحر، إلاَّ أَنْ أَكْثَرَ قصائده التي مِنْ الطويل مدحيَّة (سبع قصائد، عدد أبياتها مائتان واثان وثلاثون بيتاً)، ورتائيَّة (ستُّ قصائد، عدد أبياتها مائتان وستَّة وسبعون بيتاً، وفي الحنين (ثلاث قصائد، وعدد أبياتها خمسون بيتاً).

ب - البحر الكامل⁽¹⁾

إنَّ أبا البحر الخَطِّي لم يستخدمه مجزوءاً إلاَّ في غرض الاعتذار، وذلك في قصيدة واحدة فقط.

ومثاله تاماً مِنْ قصيدة حنينيَّة قوله:

عَجُّ بِالْمَطِيِّ عَلَى مَعَالِمِ بُورِي
بِمَحَلِّ لِدَاتِي وَرَبْعِ سُرُورِي
وَأَطْلُ بِهَا عَنِّي الْوُقُوفَ فَمَا أَرَى
شَوْقاً يُحَرِّكُنِي لَهَا بِقَصِيرِ⁽²⁾

أمَّا مثاله مجزوءاً فقوله:

يَا سَيِّدًا عَظُمْتَ مَوَا
قِعَ قُضْلِهِ عِنْدِي وَجَلَّتْ

(1) سُمِّي هذا البحر كاملاً؛ لأنَّه كملت أجزاؤه وحركاته، وهو أَكْثَرُ البحور حركات، فالبيت فيه يشتمل على ثلاثين حركة. وهو موحد التفعيلة، ويصلح لجميع أغراض الشَّعر، ولهذا فقد كُتِرَ استعماله عند القدامى والمحدثين. واستُخِدمَ في شعر العرب تاماً ومجزوءاً. انظر: نايف معروف، علم العروض التطبيقي، ص 91.

(2) انظر: الدِّيوان، ص 51.

هَـذِي مَوَاهِبُكَ الَّتِي

سَقَتِ الْوَرَى نَهْلًا وَعَلَّتْ⁽¹⁾

وقد بنى الخَطْبِيُّ على هذا البحر خمس عشرة قصيدة بنسبة 18.07%، ورغم ارتفاع نسبة الاتجاه هذه، فإنَّ نسبة نَفْسَه فيه أرفع بقليل إذ بلغت أبياته أربعمائة وتسعة وستين بيتاً، فكانت نسبة النَّفْسِ 19.54%. وقصائده جاءت على نسق الكامل طويلة نسبياً، إذ هناك خمس قصائد تتراوح أبياتها ما بين (7 - 20)، وستُّ أخرى أكثر طولاً إذ تتراوح ما بين (21 - 40)، وأربع قصائد تتراوح أبياتها ما بين (41 - 60)، أمَّا دون القصيدة فعنده كثيرة. فجاءت ستُّ قطع، وستُّ نتف في ديوانه على هذا البحر، بما يوازي أربعين بيتاً.

ومن خلال جدول الأغراض الموزَّعة على البحور يتَّضح لنا أنَّ الكامل أكثر مرونة من الطويل، ولو بشيء يسير، وأنَّ أكثر قصائد الديوان التي جاءت على وزن الكامل داخله في غرض الحنين ستُّ قصائد عدد أبياتها مائة وثلاثون (130) بيتاً. وتعدُّ إحداها أطول قصيدة في غرض الحنين، إذ تتكوَّن من سبعة وخمسين بيتاً. وهي التي يتمنَّى فيها أن يمرَّ على معالم قرية «بوري» ليتذكَّر الأيام السعيدة التي قضاها في ربوعها، ويطيل الوقوف بها ليملاً ناظريه منها، ثمَّ تأتي القصائد المدحية في المرتبة الثانية خمس قصائد عدد أبياتها مائة وواحد وستون (161) بيتاً. وعليه فإنَّ الشَّاعر استطاع أن يُحسِّن استغلال موسيقى الكامل الغنائية من خلال توظيفه إيَّها في قصائد الحنين والمدح.

ج - الخفيف⁽²⁾

ومثاله من الديوان قوله:

(1) انظر: الديوان، ص14.

(2) سُمِّي هذا البحر «خفيفاً» لخبَّة حركاته، وهو شبيه بالوافر من حيث اللين ولكئنه =

قُلْ لِكُنْزِي فِي النَّائِبَاتِ وَذُخْرِي
وَجَمَالِي بَيْنَ الْأَتَامِ وَفَخْرِي
وَلِسَانِي الَّذِي أُرِيقُ إِذَا مَا
جَمَدَ الْقَوْلُ مِنْهُ نَظْمِي وَشِعْرِي⁽¹⁾

استخدم الخَطِّي هذا البحر في ثلاث عشرة قصيدة، فكانت نسبة أتجاهه إليه 15.66 %، وبلغت أبياته منه أربعمئة وخمسة وثلاثين بيتاً، فكانت نسبة النَّفْس فيه 18.13 %، فنسبة طول النَّفْس أرفع من نسبة الاتجاه. ومن الخفيف كانت أطول قصائد الخَطِّي على الإطلاق، فقد بلغت مائة وخمسة (105) أبيات، وهي قصيدة مدح وعتاب، ومنها البيتان السابقان. وإذا ما نظرنا إلى الجدول سنجد أن الخفيف أكثر البحور مرونة على الإطلاق.

د - البسيط⁽²⁾

أما الخَطِّي فقد استعمل البسيط التَّمَّ وأربعة أبيات في مُخلِّع البسيط. جاءت في إحدى قطعه الشعريَّة الكثيرة.

ومثاله من الديوان تاماً قوله:

أَهَبْتُ بِالذَّمْعِ إِذْ بَانُوا فَلَبَّانِي
حَتَّى لَقَدْ خُفْتُ أَنَّ الذَّمْعَ يَعُشَانِي

= أسهل منه. وهذا البحر مزدوج التفعيلة، يرد تاماً ومجزوءاً، إلا أنه لم يرد إلا تاماً في ديوان الخَطِّي. انظر: نايف معروف، علم العروض التطبيقي، ص 141.

(1) انظر: الديوان، ص 55.

(2) سُمِّي هذا البحر «بسيطاً»؛ لانبساط أسبابه وتواليها في أوائل أجزائه السباعية. ويعتبر البسيط أكثر رقة من البحر الطويل، ولذلك كثر في شعر المولدين في حين لم يلتفت إليه - كثيراً - شعراء العصر الجاهلي. وهو كذلك مزدوج التفعيلة ولم يرد في شعر العرب إلا تاماً، هذا إذا اعتبرنا مُخلِّع البسيط بحراً فرعياً مستقلاً عنه. انظر: نايف معروف، م. س.، ص 46.

وَأَنهَلَّ مِنْ أَحْمَرٍ قَانَ وَمِنْ يَقِّقِي⁽¹⁾
كَالْدُرِّ فُضِّلَ مَنْظُومًا بِمَرْجَانِ⁽²⁾

أَمَّا مُخْلَعُ البسيطِ فقولُه:

جَاءَ سَمِيَّ الخَلِيلِ رَاكِبًا
كَأَنَّهُ البَدْرُ فِي الكَوَاكِبِ
وَيَلَاهُ مِنْ آسِ عَارِضِيهِ
وَالْوَيْلُ مِنْ خُضْرَةِ الشَّوَارِبِ⁽³⁾

استعمل الخَطِّيُّ هذا البحر في اثنتي عشرة قصيدة، فكانت نسبة اتِّجَاهه إليه 15.66 %، إذ بلغت أبياته مائتين وخمسة وتسعين (295) بيتاً، وكانت نسبة النَّفْس فيه 12.08 %، وبذلك يتَّضح أَنَّ نَفْسَه في هذا البحر قصير⁽⁴⁾.

وممَّا يجدر ذكره أَنَّ شعره الَّذي على البسيط في مجال الحنين (سبع قصائد عدد أبياتها تسعة وثلاثون بيتاً)، ومدحِيَّة (ستُّ قصائد عدد أبياتها ثمان وثمانون بيتاً)، ووصفيَّة (أربع قصائد عدد أبياتها ثمانية عشر بيتاً). أمَّا ما دون القصيدة - القطع والنتف - فهي موزَّعة على الأغراض المطروقة في ديوانه.

هـ - البحر الوافر

وقد يرد هذا البحر تاماً ومجزوءاً، إلَّا أَنَّهُ لم يردْ إلَّا تاماً عند أبي البحر الخَطِّيِّ، ويعتبر مِنْ أَكْثَرِ البحور مرونة واستعمالاً

-
- (1) اليَقِّقُ: شديد البياض ناصعه وهو المتناهي في البياض، ابن منظور، لسان العرب، مادَّة: (ي، ق، ق)، 387/10.
- (2) انظر: الدِّيوان، ص 115.
- (3) انظر: م. ن، ص 9.
- (4) انظر: جدول البحور، ص 192.

حيث يشتد ويرق كما يحلو للشاعر، وأجود ما يكون في الفخر،
والرثاء.

مثاله من الديوان قول الشاعر:

أَلَا يَا قَوْمُ مَا لِلدَّهْرِ عِنْدِي
لَأُسْرِفَ فِي الإِسَاءَةِ وَالتَّعَدِّي
تَخَرَّمْ أَسْرَتِي فَبَقِيْتُ فَزْدًا
أُبَادِرُ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ وَحُدِي⁽¹⁾

كان نصيب هذا البحر من القصائد عشرًا فقط، أي أن نسبة اتجاهه
إليه تساوي %12.04، وبلغت أبياته منه مائتين واثنتين وستين بيتاً،
فكانت نسبة النقص فيه %10.92، ممّا يجعل نفسه فيه قصيراً.

والقصائد التي جاءت على نهج الوافر قليلة مقارنة مع قصائد
البحور الأخرى. فقد وردت في الديوان خمس قصائد تتراوح أبياتها
ما بين 7 - 20 بيتاً، وثلاث قصائد تتراوح أبياتها ما بين 21 - 40
بيتاً، وقصيدتان إحداهما تشتمل على سبعة وخمسين بيتاً، والأخرى
تحتوي على واحد وستين بيتاً، وهي أطول قصيدة على نسق البحر
الوافر. وفي غرض الرثاء، وهو أجود الأغراض ملاءمة لهذا البحر.

و- بحر الرمل⁽²⁾

وقد صاغ شاعرنا أبو البحر على هذا الوزن خمس قصائد،
أربعٌ منها تماماً تحتوي جميعها على ستين بيتاً، وواحدة مجزوءاً
تحتوي على أربعة عشر بيتاً، فنسبة الاتجاه إليه تقدر بـ %6.02،
ونفسه فيه قصير جداً يصل إلى نصف نسبة الاتجاه، فالأبيات تقدر

(1) انظر: الديوان، ص 29.

(2) سُمِّي بـ «الرمل»؛ لدخول أوتاده بين أسبابه، وضمّ بعضها إلى بعض. حيث إنَّ
كلَّ جزء يتكوّن من سبب خفيف فوتد مجموع فسبب خفيف.

ب 74 بيتاً، أي أن نَفَسَه فيه يساوي 3.08%. وأطول قصيدة في هذا البحر عدتها ستُّ وعشرون بيتاً.

ولم يرد الرمل إلا في غرضين هما الحنين (أربع قصائد عدد أبياتها ستون بيتاً)، والوصف (قصيدة واحدة عدد أبياتها أربعة عشر بيتاً)، وهي من مجزوء الرمل. ومثاله تاماً قول الشاعر:

يَا نُزُولاً بَيْنَ أَجْرَاعِ الْحَمَى
بُعْدُكُمْ عَن عَيْنِي النَّوْمَ حَمَى
هَلْ تَعْبِرُونَ جُفُونِي هَجَعَةً
أَمْ تَرَوْنَ النَّوْمَ شَيْئاً حُرِّمًا⁽¹⁾

أمّا مثال مجزوء الرمل فقوله:

يَا أَخَا هَاشِمٍ أَهْلًا
بِالَّذِي قُلْتِ وَسَاهِلًا
وَجَزَاكَ اللَّهُ عَمَّا
قُلْتِ فَوْقَ الْفُضْلِ فَضْلًا⁽²⁾

ز - الرجز

للخَطِّي في وزن الرِّجْز واحد وأربعون بيتاً، موزَّعة على قصيدة من ثمان عشرة بيتاً، وقصيدة أخرى من تسعة أبيات، وقطعة شعريَّة مكوَّنة من ستَّة أبيات، وكذلك أربع نتف عددها ثمانية أبيات. إذ جاء في القصيدة والنتف تاماً، فيما جاء مجزوءاً في القطعة المكوَّنة من ستَّة أبيات. ومثاله تاماً قوله:

(1) انظر: الديوان، ص 109.

(2) انظر: م. ن.، ص 93.

رَعَتْ فُرَيْشُ فِينَا الذَّمَامَ عَلَيَّ
 جَفَا ابْنُ بَكْرٍ بَنَ وَائِلَ الْفُرْبَا
 لِلَّهِ هُمْ مَا أَحَبُّ لِلضَّيْفِ إِنْ
 حَلَّ وَلِلطَّيِّبَاتِ أُمَّ أَحَبَّا⁽¹⁾

أما مثاله مجزوءاً فقولُه:

وَحَالِقُ أَصْبَحَ فِيَّ
 فَسَنُ الْحِلَاقَةِ وَاجِدَا
 لَهُ يَدُّ الطَّفِّ مِنْ
 مَرِّ النَّسِيمِ بَارِدَا⁽²⁾

وتُقَدَّرُ نسبة الاتِّجَاهِ بـ 1.71 %، إذ وصلتِ الأبيات إلى واحدٍ وأربعين بيتاً، وبذلك تكون نسبة النَّفْسِ فيه 0.95 %، أي أقلَّ مِنْ نسبة الاتِّجَاهِ إليه بقليل.

ح - المتقارب⁽³⁾

وهذا البحر يصلح للموضوعات التي تتَّسَمُ بالشَّدَّةِ والقوَّةِ، أكثرَ مِنْ صلاحه لمواطنِ الرِّفْقِ واللينِ، إذ يردُّ تاماً، ومجزوءاً، ومشطوراً، إلاَّ أنَّ أبا البحرِ الخَطِيَّ لم يستعمله إلاَّ تاماً.

ومثاله قول الخَطِيَّ:

(1) انظر: الدِّيوان، ص 9.

(2) انظر: م. ن.، ص 42.

(3) سُمِّيَ متقارباً، لتقارب أوتاده بعضها مِنْ بعض، لأنَّه يصل بين كلِّ وتدين سبب واحد، فتقارب فيه الأوتاد، فسُمِّيَ لذلك متقارباً، ومفتاحه:

عَنِ الْمُتَقَارِبِ قَالَ الْخَلِيلُ فَعَوْلُنْ فَعَوْلُنْ فَعَوْلُنْ فَعَوْلُنْ

انظر: التبريزي، الوافي في العروض والقوافي، ص 183.

حَمَامَاتٌ شِيرَازَ رِفْقًا بِنَا

لَهَجُّنَّ بِالنُّوحِ مَا عِنْدَنَا⁽¹⁾

إذ استخدم الخَطِّي هذا البحر في قصيدة واحدة عدد أبياتها ثلاثون بيتاً، وذلك في غرض الحنين، وبتفة مكوّنة من بيتين. في غرض الهجاء، فنسبة الاتجاه إليه تُقدَّر بـ 1.20 %، وهي متساوية مع نسبة النَّفَس، إذ بلغت أبياته منه اثنين وثلاثين بيتاً، أي بنسبة 1.33 % في النَّفَس.

ط - السريع⁽²⁾

وقد بنى عليه الخَطِّي قصيدة واحدة تتكوّن من خمسة عشر بيتاً، فنسبة الاتجاه 1.20 %، كما جاءت نتفة من ثلاثة أبيات على هذا الوزن، فأصبح عدد الأبيات ثمانية عشر بيتاً، أي نسبة 0.75 %.

ومثاله من الدِّيوان قوله:

نَصَحْتُ لِلَّهِ فَلَا تَتَّهَمُ

وَجِئْتَ بِالْحِكْمَةِ يَا ذَا الْحِكْمِ⁽³⁾

يتّضح لنا ممّا سبق أنّ شاعرنا أبا البحر الخَطِّي نظم شعره أجمع على تسعة أوزان عروضيّة، وتنحّى بشعره، ودّوقه عن سبعة بحور هي: المديد، فالهزج، فالمنسرح، فالمضارع، فالمقتضب، فالمجتث، ثمّ المتدارك. وابتعاده هذا ناتج - في تصوّري - عن قلّة

(1) انظر: الدِّيوان، ص 119.

(2) سمّاه الخليل بهذا الاسم «لسرعه في الدّوق والتقطيع، لأنّه يحصل في كلّ ثلاثة أجزاء منه ما هو على لفظ سبعة أسباب، لأنّ الوجد المفروق أول لفظه سبب، والسبب أسرع في اللفظ من الوجد. فلهذا المعنى سمّي سريعاً، كما أنه لا يردّ إلا تاماً». انظر: التبريزي، الوافي في العروض والقوافي، ص 137.

(3) انظر: م. س.، ص 104.

استخدام الشُّعراء القدامى لهذه البحور، بالإضافة إلى كَوْن هذه البحور غنائية بطبيعتها، وأبو البحر عالم دينٍ لم ينزِعْ إلى الغنائية بمفهوما الطربي.

والجدول التالي يبيِّن عدد البحور، وعدد القصائد، وعدد الأبيات، ثمَّ النسبة المئوية.

جدول البحور

النسبة المئوية (%)	عدد الأبيات	عدد القصائد	البحر
32.25	774	24	الطَّويل
19.54	469	15	الكامل
18.13	435	13	الخَفيف
12.08	295	12	البسيط
10.92	262	10	الوافر
3.08	74	5	الرَّمَل
1.71	41	2	الرَّجَز
1.33	32	1	المُتقارب
0.75	18	1	السَّرِيع

ثانياً: القافية⁽¹⁾

وإذا كان ذلك هو حال الوزن والتفعيلة وتأثيرها موسيقياً،

(1) القافية لغة: هي مؤخر العُنُق (القَفَا)، وعند العروضيين (قال الخليل): هي آخر البيت إلى أوَّل ساكن يليه مع المتحرِّك الذي قبل الساكن، وقال الأُفْش: هي آخر كلمة في البيت أجمع، وإنَّما سُمِّيت قافية لأنها تقفو الكلام، أي تجيء في آخره. ومنهم مَنْ يُسمِّي البيت قافية، ومنهم مَنْ يُسمِّي القصيدة =

فإنَّ القوافي تمثّل جانباً آخر من موسيقى الشُّعر. إذ إنّ الصِّياغة الموسيقيّة في الشُّعر العربيّ تتمثّل في بحوره وقوافيه. «وقد حافظ العرب على وحدة الإيقاع والوزن أشدَّ محافظة، فالتزموها في أبيات القصيدة كلّها، وزادوا أن التزموا قافية واحدة في جميع القصيدة»⁽¹⁾.

وتأتي قوافي أبي البَحر الخَطِّي تبعاً لحركة حرف الرّوي، إذ جاءت في مجملها مطلقة⁽²⁾. أمّا القافية المقيّدة⁽³⁾ - وهي الأقلُّ شيوعاً في الشُّعر العربي - فإنّها لم تردّ في ديوان الخَطِّي.

وقد نظم أبو البَحر شعره على عشرين حرفاً⁽⁴⁾. ولكنّه غلبَ حروفاً مُعيّنة، بحيث جعل لها السّيادة في شعره، وأولها الدّالُّ أربعمئة وثلاثة وسبعون (473) بيتاً، وثانيها الرّاء أربعمئة وأربعون (440) بيتاً، وثالثها الميم ثلاثمئة وسبعة عشر (317) بيتاً، ورابعها اللام مائتان وتسعة وسبعون (279) بيتاً، وخامسها الباء مائة وواحد وثلاثون (131) بيتاً. وتأتي مجموعة أخرى تالية لها من حيث الأهميّة. وتمتاز تلك الحروف بالعطاء الموسيقي الذي له تأثيره على أذن السامع العربي. كما أنّ أبا البَحر نفر برويّه عن حروف الثاء، والجيم، والخاء، والذال، والضاد، والغين، والهاء، والواو، وأكثرها قليل الاستعمال لدى الشُّعراء القدامى، وربّما يرجع السبب إلى قلة إثارته للمتلقّي.

= قافية. ومنهم من يجعل حرف الرّوي هو القافية. انظر: هاشم صالح مناع،

الشّافي في العروض والقوافي، ص 247.

(1) محمّد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، ص 463.

(2) القافية المطلقة: هي ما كانت متحرّكة الرّوي، أي بعد رويّها وصل بإشباع.

انظر: هاشم صالح مناع، الشّافي في العروض والقوافي، ص 269.

(3) القافية المقيّدة: هي ما كانت ساكنة الرّوي، وهي ثلاثة أنواع: مجردة،

ومردوفة، ومؤسّسة. انظر: هاشم صالح مناع، م. ن، ص 269.

(4) انظر: جدول أبيات الرّوي، ص 291.

إنَّ قصيدة رثاء الحسين بن علي لهي خير شاهدٍ على التزام
الشَّاعر فيها بحراً واحداً، وقافية واحدة على مدى ثمانية وسبعين
بيتاً، مِنْ دون أَنْ يُخَلَّ بالوزن، أو تُتَّعَبَه القافية، فتلزمه مَسَلَكاً مِنْ
التكَلُّف أو الاضطرار، ودون أَنْ يُضَحِّيَ بشيءٍ مِنْ المعاني أو الخيال
التصويري، لِيُشْعِرنا بقدرته وثرائه الفني:
مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

[مِنْ الطويل]

مَعَاهِدُهُمْ بِالْأَبْرَقَيْنِ هَوَامِدُ
رُزْقِنَ عِهَادَ الْمُزْنِ تَلْكَ الْمَعَاهِدُ
وَلَوْلَا أَحْمِرَارُ الدَّمْعِ لَانْبَعَثَتْ بِهَا
سَحَائِبُ دَمْعٍ بِالْحَيْنِ رَوَاعِدُ⁽¹⁾

ثالثاً: عيوب القافية

مِنْ المَعْلُومِ أَنَّ أَيَّ عَيْبٍ فِي القافية قد يُخَلُّ بقيمة موسيقى
البيت الشُّعري. وعليه حدَّد النُّقاد القدامى ثلاثة عيوب للقافية، هي
الإقواء⁽²⁾، والإيطاء⁽³⁾، والسُّناد⁽⁴⁾.

فالإقواء والسُّناد لم أجد لهما أثراً يُذكر في قصائد الشَّاعر، وهذا
دليل على اهتمام أبي البَحر بقافيته، وتنقيتها مِنْ الشَّوَابِ المُخِلَّة.

(1) انظر: الدُّيوان، ص 36.

(2) الإقواء أو الإكفاء: هو اختلاف حرف الرُّوي في القصيدة، وأكثر ما يقع في
الحروف المتقاربة المخارج. انظر: هاشم صالح مَناع، الشَّافي في العروض
والقوافي، ص 273.

(3) الإيطاء: هو أَنْ تتكرَّر القافية في قصيدة واحدة بمعنًى واحد. انظر: م. ن.،
ص 274.

(4) السُّناد: هو اختلاف ما يُراعى قبل الرُّوي مِنْ الحروف والحركات. انظر: م. ن.،
ص 275.

أما الإيطاء فقد استخدمه الشاعر كثيراً في بعض قصائده.
كقوله:

[مِنَ الرَّجَزِ]

يَا مُنْتَهَى الْأَرَابِ هَذِي مُهَجَّتِي
قَدْ قُطِّعَتْ مِنْ بَعْدِكُمْ آرَابَا
وَتَأَسُّفِي أَنِّي غَدَاةَ فِرَاقِكُمْ
لَمْ أَقْضِ مِنْ تَوَدِّعِكُمْ آرَابَا⁽¹⁾

بهذا استطاع الشاعر أن يعبر عن معانيه وعواطفه من خلال الإيقاع والوزن اللذين اختارهما للتعبير عن موقفه تجاه نفسه، وتجاه الآخرين.

رابعاً: الموسيقى الداخلية

استعرضنا فيما سبق الجانب الأول من جانبي الموسيقى في شعر أبي البحر الخطي، وهو الموسيقى الخارجية، المتمثلة في الوزن والقافية، وفيما يلي الجانب الآخر وهو الموسيقى الداخلية، ونقصد بها طريقة الشاعر في اختيار الألفاظ والكلمات، وترتيبها، وما أنتجته من جرس صوتي بديع، ومن ألوان الإيقاع الداخلي الجميل في شعره ما يلي:

أ - التصريح

هو أن يختم الشاعر صدر البيت وعجزه بلفظة يكون فيها حرف الروي واحداً. أي الموازنة بين عروض البيت وضربه، وهو من المحسنات البديعية المحببة، إذا التزمه الشعراء المشهورون في قصائدهم.

(1) انظر: الديوان، ص8، والبيتان 7، 8، ص10، والبيتان 2، 3، ص12، والبيتان 3، 6، ص14، وغيره.

وَمِنْ حَبِّ شَاعِرِنَا الْخَطِّيِّ لِتَرَاثِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ كَانَ
اِقْتِفَاؤُهُ لَهُمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ، إِذْ جَاءَتْ جُلُّ قِصَائِدِهِ عَلَى هَذَا
الْمَنَوَالِ، مِمَّا جَعَلَ لَشِعْرِهِ أَثْرًا ذَا نِغْمَاتٍ مَنَوَعَةٍ.
مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الرَّثَاءِ:

[مِنْ الْكَامِلِ]

مَا بَالَ عَيْنِكَ لَا تَجُودُ بِمَائِهَا
وَالنَّفْسُ قَدْ طُوِيَتْ عَلَى غَمَائِهَا⁽¹⁾
وقوله أيضاً:

[مِنْ الطَّوِيلِ]

خَلِيلِيَّ مِنْ عَلِيَا لُوَيِّ بْنِ عَلَابِ
أَمَدَكُمَا رَبِّي بِأَسْنَى الْمَوَاهِبِ⁽²⁾
وهو بهذين النموذجين أنتج نغماً موسيقياً واكب المعنى.

ب - رد العجز على الصدر

وهو يرد على ثلاثة أقسام⁽³⁾ هي:

ب - 1. ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه

ومثاله مِنَ الدِّيَّوَانِ قَوْلُهُ:

[مِنْ الطَّوِيلِ]

تَأَخَّرَ قَلِيلًا عَنْ أَيْبِكَ تَأْدُبًا
فَمِثْلُكَ مَنْ رَاعَى أَبَاهُ تَأْدُبًا⁽⁴⁾

(1) انظر: الدِّيَّوَانِ، ص 4.

(2) انظر: م. ن.، ص 6.

(3) عبد العزيز عتيق، علم المعاني والبيان والبديع، ص 643.

(4) انظر: م. س.، ص 10.

ب - 2. ما يوافق آخر كلمة فيه أول كلمة في نصفه الأوّل

كقوله:

[مِنَ الخفيف]

يَا خَلِيلِيٍّ مِنْ ذُوَابَةِ شَيْبَا
نِ وَيُدْعَى لِمَا يَنْوِبُ الْخَلِيلُ⁽¹⁾

ب - 3. ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه

كقوله:

[مِنَ الطويل]

يَا ابْنَةَ مَنْ لَوْ كَانَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
رَسُولٌ لَمَّا أَمْسَى سِوَاهُ رَسُولُ⁽²⁾

وقد استغلّ شاعرنا في هذا المجال ما يُسمّى بالتقطيع العمودي، وهو حدّه الأقصى البيت، وحدّه الأدنى الشّطر، وعلاقة البيت فيه أو الشطر بما يليه من أبيات أو شطر⁽³⁾.

ذلك في قوله:

[مِنَ البسيط]

أَوْ فَاتَّخِذْ سِنْدَانًا وَمِطْرَقَةً
وَأَعْمَلْ مَتَى شِئْتَ سِكِّينًا وَمِسْمَارًا
أَوْ فَاتَّخِذْ مِنْشَارًا وَمِقْشَرَةً
وَكُنْ عَلَى مَدِيدِ الْإِيَامِ نَجَّارًا

(1) انظر: الديوان، ص88.

(2) انظر: م. ن.، ص92، وانظر: 93.

(3) إبراهيم أنيس، موسيقا الشّعر، ص74.

أَوْ فَاتَّخِذْ مِزْمَاراً وَدَرَبَكَةً

وَعِشْ لَكَ الْخَيْرُ طَبَالاً وَزَمَّاراً⁽¹⁾

وهذه النثرية - عمّا عبّر عنها أحد الكتاب⁽²⁾ - تأخذ موقفاً خاصاً في نصوص الشاعر، تسيطر عليه حين يحرّر نفسه من أثقال المحسنات وفخفة البديع منحرفاً بهذا الأداء عن المعتاد في سياق التقليد الشعري الضارب في عصره. إنّه يخترق عاجية الشعراء واللغة إلى حيث يتنفّس بالشعر على أرض الواقع والمجتمع ممّا يجعل لهذه الظاهرة النثرية في شعر الخطّي نغمة خاصّة، وأهميّة تاريخية تحدّدها الثورة على تلك العادات الشعرية المتزمتة، وإشاعة لغة شعريّة جديدة نبعت من هموم النّاس، وحركة الواقع مشكّلة تعبيراً صادقاً عن التحام بالنّاس العاديين.

ج - التكرار اللفظي

كما في قوله:

[من الكامل]

قَلَمٌ تَحَاطُ بِهِ الْبِلَادُ وَيَحْفَظُ الْ

إِقْلِيمُ فَالْإِقْلِيمُ فَالْإِقْلِيمُ⁽³⁾

وقوله أيضاً:

[من الكامل]

وَاللَّفِيْنُ بِحَرٍّ وَجِهِي نَحْوَهُمْ

حَرَّيْنِ حَرٌّ جَوَى وَحَرٌّ هَجِيرٍ⁽⁴⁾

(1) انظر: الديوان، ص 66.

(2) محمد رضا نصر الله، «قراءة في شعرية منحرفة»، ص 216.

(3) انظر: م. س.، ص 103.

(4) انظر: م. ن.، ص 52.

جاء التكرار في البيت الأوّل للتأكيد المكاني، أمّا التكرار في البيت الثاني فهو لتأكيد مشاعره نحو أهله، وهو بعيد عنهم. ويمكن ملاحظة الموسيقى من حيث التكرار المتناسق بين الألفاظ وحروفها.

د - التكرار الحرفي

أمّا التكرار الحرفي فقد تمثّل في أبيات كثيرة في الديوان، إلّا أنّنا سنكتفي بمثالٍ واحدٍ خوفاً من الإطالة، وهو قوله:

[من الكامل]

مَا دُقْتُ عَذَبَ الْقُرْبِ إِلَّا رَدَّهُ

وَشُكُّ التَّفْرِقِ وَالْبَعَادِ عَذَابًا⁽¹⁾

ففي هذا البيت تكرّر حرف الدالّ ثلاث مرّات بتضعيف أحدهما في (ردّه، البعاد)، وحرف الدالّ ثلاث مرّات في (ذقت، عذب، عذابا)، وكذلك حرف الراء ثلاث مرّات أيضاً في (القرب، ردّه، التّفريق)، وهذه المجموعة الأخيرة متولّدة - بالطبع - من المجموعتين الثانية والثالثة. إذ نلاحظ تسلسلاً حرفياً هجائياً في الحروف الأربعة، وهي: الدالّ، والدالّ، والراء، والقاف في موسيقى ذات نغمات حزينة، ترتفع حيناً وتهبط حيناً آخر، وذلك تعبيراً داخلياً عمّا يجول بداخله من ألم البعد عن الأهل والوطن. ويمكن تتبع هذه الموسيقى الخفيّة بخاصّة في قصائده الحنينيّة والرثائيّة.

وهكذا استطاع الشّاعر أن يشيع الموسيقى بنوعها في شعره تقليداً حميداً لمشاهير الشّعراء الذين سبقوه، ومخالفاً لأسلوب شعراء عصره الذين أنقلوا الشّعور بالإغراق في المحسّنات اللفظيّة. أمّا فيما يتعلّق ببعض المحسّنات البديعيّة كالطباق، والجناس،

(1) انظر: الديوان، ص 8.

وغيرهما، فإنني أرجأته للمستوى البلاغي في الفصل الرابع من هذا الباب.

جدول أبيات الرّوي

النسبة المئوية (%)	عدد الأبيات	الرّوي	النسبة المئوية (%)	عدد الأبيات	الرّوي
3.00	67	الهمزة	19.60	473	الدّال
2.24	54	العين	18.20	440	الرّاء
1.41	34	الفاء	13.12	317	الميم
1.37	33	الكاف	11.55	279	اللّام
1.24	30	الصّاد	5.42	131	الباء
0.95	23	الرّاي	5.17	125	القاف
0.33	8	السّين	4.72	114	النّون
0.21	5	الطاء	4.20	102	الحاء
0.17	4	الشّين	4.00	96	التّاء
0.08	2	الصّاد	3.27	79	الياء

الفصل الثاني: المستوى الصرفي والتركيبي

لقد درُستُ في الفصل السَّابق الأوزان العَرُوضِيَّةَ المستعملة عند أبي البحر، وكذلك القافية وعبوبها، ثمَّ الموسيقى الداخليَّة، ونشرع الآن في هذا الفصل لدراسة المستويين الصَّرْفِيَّ والتركيبي، وسوف نقدِّم القضايا الصَّرْفِيَّة على القضايا التَّركيبيَّة؛ لأنَّها أبسط لغويًّا.

ولدراسة المستوى الصَّرْفِيَّ يحتاج الباحث إلى بذل جهد كبير لاسكتناه ما يحويه هذا المستوى من أمور صرفيَّة، ونحويَّة ليست بالقليلة. كما أنَّه مِنَ الصَّرْفِيَّ أن يدرسَ الفعل مِنْ حيث زمنه، وتعدِّيَّه، ولزومه وتجرِّده، وزيادته، وليس المقصود بذلك عمليَّة جمع وإحصاء فقط، بل يتحتم تفسيرها، وبيان ما تدلُّ عليه.

وتبرز أهميَّة اللَّفْظ في موقعه مِنَ الجملة، إذ إنَّه وسيلة تُفْضِي إلى المعنى المراد. كما أنَّ المعاني تُطلب بالألفاظ مِنْ حيث دلالتها في الصياغة. لذا نلحظ ما يؤكِّد عليه عبد القاهر الجرجاني في نظريَّة النظم: «إنَّ اللفظ تابع للمعنى ضرورة، إذِ الألفاظ أوعية للمعاني، وهي أدواتنا لفهم هذه المعاني. فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب اللفظ الدالُّ عليه أن يكون مثله أولاً في النطق»⁽¹⁾.

وَمِنْ منطلق ذلك، لا بدَّ مِنْ محاولة رصد ظواهر المستوى

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص43.

الصَّرْفِي أَوْلًا كَمَا تَجَلَّتْ عِنْد شَاعِرِنَا فِي قِصَائِدِهِ الْأَرْبَعِ الْمَعْنِيَةِ بِالذَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ؛ لِتَكُونَ نَمَطًا بَيِّنًا أَتَحْرَكُ مِنْ خِلَالِهَا كَقِيَاسِ الظَّاهِرَةِ الصَّرْفِيَّةِ وَتَفْسِيرِهَا. ثُمَّ سَأَدْرُسُ الْمَسْتَوَى التَّرَكِيبِيَّ لِلتَّدَاخُلِ بَيْنَ الْمَسْتَوِيَيْنِ؛ لِأَنَّ مَفْرَدَاتِ الشَّاعِرِ وَأَسْلُوبَهُ هُمَا أَسَاسُ صِنَاعَتِهِ الْفَنِيَّةِ. هَادِفًا إِلَى وَصْفِ بُنْيَةِ الْجُمْلَةِ، وَذَلِكَ لِبَيَانِ التَّرَابِطِ الْقَائِمِ بَيْنَ الشَّكْلِ وَالْمُضْمُونِ، مَرْكَزًا عَلَى أَهْمِيَّةِ الْأَلْفَاظِ فِي مَوَاقِعِهَا مِنْ الْجُمْلِ. إِذْ إِنَّهَا هِيَ الْوَسَائِلُ الَّتِي مِنْ خِلَالِهَا يَتَحَقَّقُ الْمَعْنَى لِلْجُمْلَةِ، وَتَتَحَدَّدُ أُنْبَيْتُهَا وَأَسَالِيْبُهَا.

يَتَمَيَّزُ شَعْرُ الشَّاعِرِ بِتَرَائِبِ أَوْ جُمَلٍ يَكْرُرُهَا كَثِيرًا مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُ أَوْ لَا يَشْعُرُ، إِمَّا رَغْبَةً مِنْهُ بِحَيْثُ تَوَافَقَ ذَوْقُهُ، وَإِمَّا لِأَنَّهَا تَوْفَّقِي بِالْغَرَضِ الَّذِي يَنْشُدُهُ تَمَاشِيًّا مَعَ الْمُضْمُونِ الَّذِي بَنَى مِنْ أَجْلِهِ الْقَصِيدَةَ، وَذَلِكَ حَتَّى يُشْبِعَ رَغْبَتَهُ، وَيَرْضَى مِشَاعِرَهُ الْنَفْسِيَّةَ.

وَمِنْ هُنَا سَأَدْرُسُ الْوَحِدَاتِ الصَّرْفِيَّةَ فِي شَعْرِ أَبِي الْبَحْرِ مِنْ حَيْثُ الْفِعْلُ وَأَقْسَامُهُ، فَالاسْمُ وَمَتَعَلِّقَاتُهُ، ثُمَّ الضَّمَائِرُ الْمَخْتَلِفَةُ. بَعْدَ ذَلِكَ سَأَحَاوِلُ جَاهِدًا تَوْضِيحَ أَغْلَبِ الْأَسَالِيبِ التَّرَكِيبِيَّةِ الَّتِي اسْتَعْدَمَهَا الشَّاعِرُ فِي تَعْبِيرِهِ الشُّعْرِي.

لنبدأ بالجملة الإنشائية فالخبرية⁽¹⁾:

أ - الجملة الإنشائية:

أ - 1 - الاستفهام.

أ - 2 - الأمر.

أ - 3 - النداء.

أ - 4 - القسم.

أ - 5 - النفي.

(1) وقد رتبتها ترتيباً تصاعدياً حسب ورودها في الديوان.

ب - الجملة الخبرية:

ب - 1 - التأكيد.

ب - 2 - الشرط.

ومما يندرج تحت المستوى التركيبي:

أ - المنصوبات.

أولاً: المستوى الصرفي

أ - الفعل

أ - 1. زمن الفعل

حَظِيَ الفعل في شعر أبي البَحر بمساحة واسعة، إذ بلغ عدد الأفعال في القصائد الأربع (356) فعلاً بمختلف أقسام الفعل: الماضي، المضارع، الأمر.

أ - 1. 1. الزمن الماضي

كان نصيب الفعل الماضي مائتين وواحداً (201)، جاء أغلبه في قصيدتي الرثاء. ممّا يجعلنا نوّمن بأنّ الزمن الماضي عنصر مهمّ من عناصر الفاعلية في قصيدة الرثاء، وذلك لأنّ الشّاعر ينشغل بتعداد مآثر الفقيّد، وما أحدثت وفاته من الأسى، والحزن. كقوله:

[من الطويل]

وَلَا سَمِعَتْ أُذُنِي وَلَا أُذُنُ سَامِعٍ

بَأْتَبَتْ مِنْهُ فِي اللَّقَاءِ وَهُوَ وَاحِدٌ

إِلَى أَنْ أَسَالَ الطَّعْنَ وَالضَّرْبُ نَفْسَهُ

فَحَرَّ كَمَا أَهْوَى إِلَى الْأَرْضِ سَاجِدٌ⁽¹⁾

(1) انظر: الديوان، ص36.

وقد شمل ذلك دخول الحرف (لَمْ) على المضارع التي صيرته ماضياً. فقد عملت (لَمْ) على تأدية مهمتها الدلالية بحيث حوّلت المضارع إلى ماضٍ في كثيرٍ مِنَ المواقع لتعزّزَ جانب الماضي في شعر أبي البَحر، وذلكِ مثل قوله:

[مِن الطويل]

لَمْ يَبْقَ إِلَّا وَاحِدُ النَّاسِ وَاحِدًا
يُكَابِدُ مِنْ أَعْدَائِهِ مَا يُكَابِدُ
وَأَسْأَلُهَا عَنْ أَهْلِهَا وَهِيَ لَمْ تُحْرِ
جَوَابًا وَهَلْ يَسْتَنْطِقُ الْعُجْمَ نَاشِدًا⁽¹⁾

بالإضافة إلى أنني وجدت توازناً بين قصيدتي المدح، والحنين مِنْ حيث ورود الفعل الماضي، فقد ورد في قصيدة المدح (45) مرّة، أمّا وروده في قصيدة الحنين فقد بلغ (38) مرّة.

وبذلك نستطيع تصوّر الحجم الذي قاله متّكناً فيه على أفعال الماضي للدلالة على أنه ما زال يعيش لحظات الماضي، وبخاصّة فيما يتعلّق بقصيدتي الرثاء، وقصيدة الحنين، وَمِنْ ثَمَّ قصيدة المدح⁽²⁾.

وَمِنَ الملاحظ أيضاً التوافق النسبي بَيْنَ الفعل الماضي، والفعل المضارع في قصيدة رثاء الحسين بن عليّ. فقد ورد الماضي (79) مرّةً، والمضارع (56) مرّةً. وتلك إشارة يُعبّر الشّاعر مِنْ خلالها عَنْ ألامه، وأحزانه، ومأساته لِمَا حدث في زمن الماضي، وانعكاسه على ذاته في الزمن الحاضر.

ولتأكيد ذلك نجد التوازن بين الماضي، والحاضر في قصيدة الحنين أيضاً. إذ ورد الماضي (38) مرّةً، فيما ورد المضارع (34) مرّةً.

(1) انظر: الديوان، البيت 6، ص36.

(2) ولتأكيد ذلك نجد التوازن بين الماضي والحاضر.

والشاعر حين يُعبّر عن مأساته، وحزنه عمّا حدث في الزمن الماضي، تجد أنّه يعكسها على ذاته في الزمن الحاضر كقوله:

[مِن الطويل]

وَبَدْرًا تَرَاءَى لِلنَّوَاضِرِ فَاهْتَدَتْ
بِهِ بُرْهَةً ثُمَّ اخْتَفَى ذَلِكَ الْبَدْرُ
وَعَضْبًا تَنَّتْ أَيْدِي النَّوَابِ حَدَّهُ
فَهَلَّا اعْتَرَاهَا مِنْ مَضَارِيهِ عَقْرُ
أَرَامِي الرَّدَى أَخْطَأْنَا وَأَصَبْتَهُ
أَسَاتِ لَنَا جُدَّتْ أَنَامِلُكَ الْعَشْرُ⁽¹⁾

وهو يريد بذلك أن يشيع جوّ الحسرة، والألم، ويتمنى أن تلك المصيبة قد أصابته، ولم تصب مرثيته.

كما أنّه من الملاحظ غلبة الفعل الماضي على المضارع، والأمر في القصائد الأربع المدروسة.

أ - 1. 2. الفعل المضارع

أمّا في استخدامه للفعل المضارع - وهو في المرتبة الثانية - فيعبّر عن اللحظة الآتية لإشاعة جوّ نفسيّ مريح، يختلف عن الجوّ المأساويّ في ذلك الزمن الماضي. وذلك كقوله:

[مِن البسيط]

يَا نَارِيزِينَ عَلَى نَأْيِ الْمَحَلِّ بِهِمْ
بِحَيْثُ يُجْمَعُ شَمْلُ الْجِسْمِ بِالرُّوحِ

(1) انظر: الديوان، ص 49.

لَوْ كَانَ فِي وَسْعِ جُهْدِي أَنْ أُبَيِّنَكُمْ

شَوْقِي وَأَشْكُو لَكُمْ وَجُدِي وَتَبْرِيجِي (1)

تلك ثنائِيَّة يعبرُ بها الشَّاعر مِنْ حالة إلى حالة مغايرة للدَّلالة على الاضطراب النفسي الَّذي عايشه الشَّاعر في غربته عن وطنه. ومنها قوله:

[مِنَ الخفيف]

أَنْتَ تَدْرِي أَنَّ الْمُدَامَةَ نَارٌ

فَأَقْتَدِحَهَا بِالصَّبِّ فِي الْأَقْدَاحِ

فَهِيَ تَمْحُو بِضَوْئِهَا صِبْغَةَ اللَّيْلِ

فَيَعْدُو وَجْهَ الدُّجَى وَهَوَّ ضَاحٍ (2)

إِذِ اسْتَغَلَّ الْفِعْلَ الدَّالَّ عَلَى الْحُضُورِ تَعْبِيرًا عَنِ الْوَاقِعِ الْمَعَاشِ. وقوله:

[مِنَ الطَّويل]

وَأَسْأَلُهَا عَنْ أَهْلِهَا وَهِيَ لَمْ تُحِرْ

جَوَابًا وَهَلْ يَسْتَنْطِقُ الْعُجْمُ نَاشِدُ

وَمِنَ الْقَصِيدَةِ نَفْسِهَا:

يَخْوُضُ بِهِمْ بَحْرَ الْوَعَى وَكَأَنَّهُ

لَوَارِدُهُمْ عَذَبَ الْمَجَاجَةِ بَارِدُ

يُلَاقُونَ شَدَاتِ الْكَمَاةِ بِأَنْفُسِ

إِذَا غَضِبَتْ هَانَتْ عَلَيْهَا الشَّدَائِدُ

(1) انظر: الديوان، ص 18.

(2) انظر: م. ن.، ص 19.

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَاحِدُ النَّاسِ وَاحِدًا

يُكَابِدُ مِنْ أَعْدَائِهِ مَا يُكَابِدُ⁽¹⁾

وهو بهذه الأبيات قد أكثر من الفعل المضارع الدال على الحاضر، إذ يصور واقع المعركة التي خاضها الحسين بن علي ضد أعدائه على أرض كربلاء، وكأنه يعيش أحداثها. وقد دلّ الفعل (يَبْقَ) على الماضي لأنه سبق بأداة جازمة (لم).

ومن استخداماته للفعل المضارع ما جاء مؤكداً بالنون، كقوله:

[من الكامل]

لَجَشْتُمْ النَّاحِيَاتِ إِلَيْهِمْ

وَالسُّفُنُ قَطَعُ مَفَاوِزٍ وَبُحُورِ

وَاللَّقَيْنَ بِحَرٍّ وَجَهِي نَحْوَهُمْ

حَرَيْنَ حَرًّا جَوِيًّا وَحَرًّا هَجِيرِ⁽²⁾

تلك أمثلة تبيّن مدى استخدام الشاعر إلى الفعل الدال على زمن الحضور والمستقبل.

كما أنني لم أجد تفوقاً من حيث العددية للفعل المضارع على الفعل الماضي في أي قصيدة من القصائد الأربع المدروسة. وما ذاك إلا إشارة إلى أن الشاعر منغمس في هموم الماضي، لدرجة أن أكثر ما استخدم من الأفعال الدالة على المضارع ما هي إلا مرآة مجسّدة للزمن الماضي معكوسة على ذاته، وأظن أن واقعه لم يكن أحسن حالاً ممّا مضى.

أ - 1. 3. فعل الأمر

أمّا فعل الأمر فقد ورد قليلاً، إذ لم يرد إلا ست عشرة مرّة.

(1) انظر: الديوان، ص 36.

(2) انظر: م. ن.، ص 19.

وأكثر وروده جاء لأغراض بلاغية كالدعاء، والتمني، والترجي. كقوله في قصيدة المدح:

[من الخفيف]

إِغْتَنِمَ أَجْرَ مَا تَحْمِلُ عَنْكَ
الصَّوْمِ مِنْ نُسْكِ عَابِدِ سَبَّاحِ
وَاجْتَلِ الْعَيْدَ سَافِرًا لَكَ عَنْ يَوْمِ
— مِنْ عِزَّةٍ وَعَنْ مَحْيَا فَلَاحِ
وَأَبْقِ تَسْتَخْدِمُ الزَّمَانَ كَمَا شِ
ئْتَ وَتَعْدِي عَلَى الْقَضَاءِ الْمُتَّاحِ⁽¹⁾

وقد خرجت صيغة الأمر عن معناها الأصلي إلى معانٍ بلاغيةٍ أخرى تتجلى في المثالين التاليين:

[من الطويل]

لِيَهْنِكَ فَخْرًا أَنْ ظَفَرْتَ بِتُرْبَةٍ
يُعْفَرُ خَدًّا دُونَ إِذْرَاكِهَا الْعُفْرُ⁽²⁾

وقوله أيضاً:

[من الكامل]

وَأَسْلَمَ وَدُمٌ وَانْعَمَ وَعِشْ فِي دَوْلَةٍ
تُرْضِي الْوَلِيَّ وَتُكْمِدُ الْحُسَّادَا⁽³⁾

فهو في البيت الأول استخدم الفعل المضارع «ليهنك» مقروناً بلام الأمر، وفي البيت الثاني اكتسبت الأفعال الأربعة دلالة بلاغية

(1) انظر: الديوان، ص 20، 21. وانظر: الأبيات 33، 37.

(2) انظر: م. ن.، ص 50؛ وانظر: البيت 36، ص 37.

(3) انظر: م. ن.، ص 45.

هي الدعاء للممدوح بالسلامة، والدوام، والنعمة، والعيش الكريم. وحينما أراد أن يُعبّر عن سخطه وتبرّمه من بني أمية خاصة في قتالهم للحسين بن علي في يوم كربلاء قوله:

[من الطويل]

أُمِيَّةَ هُبِّي مِنْ كَرَاكِ فَمَا جَنَى

كَفَعَلِكِ جَانَ وَهُوَ مِثْلُكَ رَاقِدٌ⁽¹⁾

ونستطيع أن نخلص من كل ذلك إلى أن الشاعر أبا البحر قلل من فعل الأمر لسبب بديهي واضح وهو أن أكثر مخاطبيه من الوزراء، والرؤساء، وعلماء الدين، والأشراف. لذلك جاء الأمر لغرض الدعاء، وكان في أواخر القصيد.

ب - المجرد والمزيد

لقد استخدم شاعرنا أبو البحر - كغيره من الشعراء - الفعل المجرد والفعل المزيد إلا أننا من خلال التقصي لهذا الجانب، وجدنا أنه كثف من الجانب التجريدي للفعل، وكانت له الغلبة على الفعل المزيد. فقد بلغ استعماله للفعل المجرد مائتين واثنين وعشرين (222) فعلاً في قصائده الأربعة، وفي المقابل استخدم الفعل المزيد مائة وثلاثين (130) مرة. وسبب غلبة الفعل المجرد راجع إلى أن معظم الأفعال مجردة في لغة العرب. ومن الملفت للنظر أن الشاعر لم يستخدم أيّاً من الأفعال الرباعية، سواء كانت مجردة أم مزيدة في القصائد المعنوية بالدرس.

أمّا أفعاله الثلاثية المزيد، فقد جاءت على ثمانية أوزان هي:

ب - 1. أفعال

وهذه الصيغة كانت الأكثر استخداماً، إذ وردت (49) مرة.

(1) انظر: الديوان، البيت 60، ص38.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الرَّثَاءِ:

[مِنْ الْخَفِيفِ]

كَفَلَا بِالضِّيَاءِ حَتَّىٰ أَعَادَا اللَّيِّ

سَلْ أَبْهَىٰ مِنْ مُسْتَنْبِرِ الصَّبَاحِ⁽¹⁾

وقوله أيضاً:

[مِنْ الطَّوِيلِ]

فَيَا وَفَعَةً مَا أَخَدَتْ الدَّهْرُ مِثْلَهَا

يَبِيدُ اللَّيَالِي ذِكْرَهَا وَهُوَ خَالِدٌ⁽²⁾

واستخدامه للفعلين (أعاد، أحدث) أفاد معنى التعدية.

ب - 2. فعل

هذه الصيغة لا تقل استعمالاً مِنَ السابقة، وهي مثلها تستعمل لجعل الفعل المجرد اللازم فعلاً مزيداً متعدياً، أو لتزيد متعدياً، في تعدية إن كان متعدياً في الأصل⁽³⁾. وقد استعمل شاعرنا هذه الصيغة ثلاثاً وعشرين مرةً.

وَمِنْ اسْتِخْدَامَاتِهِ فِي هَذَا الصَّدَدِ قَوْلُهُ:

[مِنْ الطَّوِيلِ]

لَوْ خَلَدَ الْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ وَاحِدًا

لَخَلَدَ عَبْدَ اللَّهِ نَائِلُهُ الْعُمْرُ⁽⁴⁾

(1) انظر: الديوان، ص 19.

(2) انظر: م. ن.، ص 38.

(3) انظر: محمد خير حلواني، المعنى الجديد في علم الصرف، ص 163.

(4) انظر: الديوان، ص 50.

وقوله أيضاً:

[مِنَ الخفيف]

قَوَّضَ الصَّوْمُ رَاجِلاً وَأَتَاكَ

الْفِطْرُ يُهْدِيكَ عِيْدَهُ وَأُمْتِدَاحٌ⁽¹⁾

واستعماله للفعل (قَوَّضَ) يريد به أَنْ يُعْبَّرَ عَنْ معنى الإزالة.

ب - 3. اِفْتَعَلَ

وردت هذه الصيغة ستَّ عشرة مرَّةً، موزَّعة على القصائد الأربع. فقد جاءت ثمان مرَّات في قصيدة رثاء شيخ القطيف، وأربع مرَّات في قصيدة مدح وزير البحرين، وكذلك أربع مرَّات في قصيدة رثاء الحسين بن علي، ولم تردْ تلك الصيغة في قصيدة الحنين.

فمِن رثاء شيخ القطيف قوله:

[مِن الطويل]

وَبَدْرًا تَرَاءَى لِلنَّوَاطِرِ فَاهْتَدَتْ

بِهِ بُرْهَةً ثُمَّ اخْتَفَى ذَلِكَ الْبَدْرُ⁽²⁾

وقوله في مجال المدح:

[مِن الخفيف]

فَاجْتَلَى النَّاسُ غُرَّةً بَيَّضَتْ وَ

جُهَ زَمَانٍ غَفْلاً مِّنَ الْأَوْضَاحِ⁽³⁾

أفعال هذه الصيغة (اهتدت، اختفى، اجتلى)، فإن (اهتدت)

(1) انظر: الديوان، البيت 43، ص 20.

(2) انظر: م. ن.، ص 49.

(3) انظر: م. ن.، ص 20.

أفادت الجَدَّ والطلب، فيما أفاد الفعل (اختفى) المطاوعة، أمَّا الفعل الثالث (اجتلى) فقد أفاد الإظهار.

ب - 4. فَاعَلَ

أمَّا فيما يتعلَّق بصيغة (فاعل) فإنَّها وردت في القصائد الأربع ثلاث عشرة مرَّة. فقد جاءت تسع مرَّات في رثاء الحسين بن علي، وثلاث مرَّات في رثاء شيخ القطيف، ثمَّ واحدة في قصيدة الحنين، ولم تأتِ في قصيدة مدح وزير البحرين.

مثال ذلك مِنْ قصيدة رثاء شيخ القطيف وهو قوله:

[مِنَ الطويل]

وَلَيْتُ وَغَيَّ لَوْ قَابَلَ اللَّيْثَ أَعَزَّلًا

وَحَارَبَهُ لَمْ يُعْنِهِ النَّابُ وَالظُّفْرُ⁽¹⁾

فالفعل (قابل، وحارب) فعلان أدِّيا معنى المشاركة، والمفاعلة. إذ إنَّ الفاعل، والمفعول به اشتركا في الحدث. فالليث مفعول به مِنْ حيث الموقع الإعرابي، ولكنَّه اشترك هو والفاعل في المقابلة، والمحاربة.

ب - 5. اسْتَفْعَلَ

استخدم الشاعر صيغة (استفعل) عشر مرَّات، إذ جاء في المدح أربع (4) مرَّات، وفي الحنين ثلاث (3) مرَّات، ثمَّ مرَّتان في رثاء الحسين بن علي، ومرَّة واحدة فقط في رثاء شيخ القطيف.

مِنْ معاني هذه الصيغة إفادة الطلب. وقد تمثَّل في قوله في الرثاء:

(1) انظر: الديوان، البيت 23، ص 50.

[مِنَ الطويل]

وَهَلَّا اسْتَخَارَ الْغَاسِلُونَ مَدَامِعِي
لِجَسْمِكَ غُسْلًا نَمَّ شَيْبَ بِهِ السُّدْرُ⁽¹⁾

وقوله في المدح:

[مِنَ الخفيف]

جَاءَهَا بَعْدَمَا اسْتَمَرَّتْ عَلَيَّ
الْعُقْمُ وَصَاقَتْ أُمَّ الْمُتَى بِاللَّقَاحِ⁽²⁾

ب - 6. تَفَاعَلَ

وردت صيغة (تفاعل) تسع مرّات. خمسٌ منها في قصيدة رثاء الحسين بن علي، وثلاث في رثاء شيخ القطيف، وواحدة أخرى في قصيدة الحنين، أمّا قصيدة المدح فلم يرد فعلٌ على هذه الصيغة. مِن ذلك قوله:

[مِنَ الطويل]

يُدَافِعُهَا عَن وُرْدِهِ وَهِيَ لَا تَنِي
تُدَافِعُهُ وَهُوَ الْأَلَدُ الْمُعَانِدُ⁽³⁾

وقد أفاد الفعلان (يدافع، تدافع) معنى المشاركة.

ب - 7. تَفَعَّلَ

وردت هذه الصيغة خمس مرّاتٍ فقط. جاءت في قصيدة المدح مرّتان، ثمّ في قصيدة الرثاء مرّتان، وواحدة في قصيدة الحنين، مِن ذلك قوله:

(1) انظر: الديوان، ص 49.

(2) انظر: م. ن.، ص 20.

(3) انظر: م. ن.، ص 38.

[مِنَ الطويل]

تَدَاعَيْنَ يَلْطُمَنَّ الْخُدُودَ بِعَوْلَةٍ

تُصَدِّعُ مِنْهَا الْقَاسِيَاتُ الْجَلَامِدُ⁽¹⁾

صيغة (تَصَدَّعَ) أفادت الصيرورة، حتَّى أَنَّ الراسيات الثابتة تتشققُ مِنْ هَوْلِ المصيبة، وعظمِ الحادثة.

ب - 8. اُنْفَعَلَ

وردت هذه الصيغة مرّةً واحدةً، وذلك في قصيدة رثاء الحسين بن علي، وذلك في قوله:

[مِنَ الطويل]

وَلَوْلَا اِحْمِرَارُ الدَّمْعِ لَانْبَعَثَتْ بِهَا

سَحَابٌ دَمَعٍ بِالْحَنِينِ رَوَاعِدُ⁽²⁾

والفعل (انبعث) أفاد معنى المطاوعة.

ج - اللازم والمتعدي

مِمَّا ثَبَتَ يَتَّضِحُ أَنَّ هُنَاكَ عِلَاقَةً مَتِينَةً بَيْنَ الْمَجْرَدِ وَالْمَزِيدِ، وَكُونَ الْفِعْلِ لَازِمًا أَوْ مَتَعَدِيًّا. فَالْفِعْلُ الْلازِمُ هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزِ الْفَاعِلِيَّةَ لِيَصِلَ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، فِي حِينِ أَنَّ الْفِعْلَ الْمَتَعَدِيَّ لَا يَكْتَفِي بِفَاعِلِهِ، بَلْ يَتَعَدَّاهُ إِلَى مَفْعُولٍ بِهِ أَوْ أَكْثَرَ.

وَمِنْ خِلَالِ نَظَرَةِ فَاحِصَةِ لَجَدُولِ الْأَفْعَالِ نَرَى أَنَّ الْأَفْعَالَ الْمَتَعَدِيَّةَ (176) فَعَلًّا.

مِنْ ذَلِكَ تَبَرَّزَ ظَاهِرَةُ التَّكَافُؤِ فِي اسْتِخْدَامِ النُّوعَيْنِ، إِذْ نَجِدُ

(1) انظر: الدَّيَّوَان، ص 37.

(2) انظر: م. ن.، ص 36.

في قصيدة رثاء أبي عبد الله الحسين التوازن واضحاً. فقد استخدم الفعل اللازم سَتِّينَ مرّةً، والمتعدّي اثنتين وستين مرّةً. وكذلك في قصيدة رثاء شيخ القطيف، إذ ورد كلا الفعلين ثلاثين مرّةً.

وأظنُّ أنّ هذا التوازن، في قصيدتي الرثاء بالذات في استخدام اللازم والمتعدّي، ناتج عن ثنائِيَّة الموت والحياة، كون الشاعر في رثائه منشغلاً بتعداد سجايا المرثي، وذكر مآثره، وما تمتع به من طباع حسنة.

مثال ذلك قوله:

[من الطويل]

إِلَى أَنْ أَسَالَ الطَّعْنَ وَالضَّرْبُ نَفْسَهُ

فَحَرَ كَمَا أَهْوَى إِلَى الْأَرْضِ سَاجِدٌ⁽¹⁾

وقوله من القصيدة نفسها:

[من الطويل]

وَأَنَّ قَتِيلًا أَحْرَزَ الشَّمْرَ شِلْوَهُ

لَأَكْرَمُ مَفْقُودٍ يُبْكِيهِ فَاقِدٌ⁽²⁾

ومن قصيدة رثاء شيخ القطيف قوله:

[من الطويل]

وَيَا بَلَدَ الْخَطِّ اعْتَرَاكَ لِفَقْدِهِ

مَدَى الدَّهْرِ كَسْرٌ لَا يُرَامُ لَهُ جَبْرٌ

مِنَ الْآنَ بِدَاءِ الشَّرِّ فِيكَ وَإِنَّهُ

لَمُتَّصِلٌ بَاقٍ وَأَخْرَهُ الْحَشْرُ⁽³⁾

(1) انظر: الديوان، ص 36.

(2) انظر: م. ن.، ص 37.

(3) انظر: م. ن.، ص 50.

د - الاسم⁽¹⁾

إذا تركنا الأفعال وانتقلنا إلى الأسماء، فإننا نجد مجالها واسعاً. وسنعرض لها بالدرس حسب أكثرها وروداً في القصائد الأربعة المعنيّة بالدرس.

د - 1. المصدر

بلغ عدد ورود المصادر في القصائد الأربعة واحداً وثمانين مصدراً. إذ جاء في قصيدة المدح ثلاثون مرّة، ثمّ في قصيدة رثاء الحسين بن علي عشرون مرّة، ثمّ في قصيدة الحنين إحدى وعشرون مرّة، ثمّ في قصيدة رثاء شيخ القطيف عشر مرّات.

وانطلاقاً من مفهوم الشّاعر لهذه البنية الصّرفية الدّالة على الحدث غير المقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، استطاع أن يوظّفها منتجة دلالات مختلفة منها الصّرفية، والإيحائية، والنفسيّة.

ومن تلك الدلالات قوله مادحاً وزير البحرين:

[من الخفيف]

كُـسْرَوِيّ العَدَالَةِ اسْكَنْدَرِيّ الْـ
فَتَحَ وَالْعَزْمُ رُسْتَمِيّ الْكِفَاحِ
أَسَدُ الْفَتْكِ أَجْدَلُ الْخَطْبِ ذَيْبُ
الْكِرِّ فَهْدُ الْوُثُوبِ كَبْشُ النَّطَاحِ⁽²⁾

إذ إنّ عدالة الممدوح، وقوّة عزمه وكفاحه، وكذلك فتكه بالأعداء، وإقدامه في المعركة، ووثوبه وشجاعته غير مرتبطة بزمن

(1) انظر: جدول الأسماء، ص 215.

(2) انظر: الديوان، ص 20.

محدّد. كما أنّ كثافة المصادر في هذين البيتين دلالة واضحة على أنّ هذه الدّوال لا ترتبط بزمن معيّن في الممدوح، لذا اهتمّ الشّاعر بالحدث دون الزمان. ممّا يشير إلى شموليّة الحدث، والتّصاقه بالممدوح حتّى يبرز مقتضى الحدث.

كما أنّ الشّاعر استخدم المصدر الدالّ على الزمن من خلال قرينة حالية، وهو زمن الحضور لدى الشّاعر. وذلك قوله:
[من الخفيف]

أَلِفَ الرَّاحِ فَهُوَ بَيْنَ اغْتِبَاقِ

لَا يُنَادِي وَليَدَهُ وَاصْطَبَاحِ⁽¹⁾

ومنّ استخدامات الشّاعر للمصادر المقرونة بتحديد زمني قوله في الحنين:

[من الكامل]

وَاسْتَنْشِ رِيَّاهَا فَفِي عَرَصَاتِهَا

عِنْدَ الْعُبُورِ بِهِنَّ نَشْرُ عَيْبِرِ⁽²⁾

فهو يعبر عن تجربة نفسية عاشها الشّاعر في قرية (بوري)، وحنينه الجارف للعودة إلى منازلها وأهلها. فإنّ المصدرين (العبور، والنشر) ارتبطا بزمن الحضور، إذ قيّد الشّاعر الحدث بفعل سبقهما، ممّا جعله ملتصقاً بالحاضر الذي يعيشه. أمّا في قصائد الرثاء، فقد أكثر الشّاعر من المصادر المقيّدة بالزمن الماضي ومثال ذلك قوله:

[من الطويل]

إِلَى أَنْ أَسَالَ الطَّعْنَ وَالضَّرْبُ نَفْسَهُ

فَحَرَّ كَمَا أَهْوِي إِلَى الْأَرْضِ سَاجِدُ⁽³⁾

(1) انظر: الديوان، ص 19.

(2) انظر: م. ن.، ص 51.

(3) انظر: م. ن.، ص 36.

بذلك نستطيع القول بأنَّ الشَّاعر استطاع أن يستخدم المصدر بدلالات متنوِّعة معتمداً على مقتضى الحدث مِنْ حيث أهميَّته، ومدى حضوره.

د - 2. العَلَم

استعمل الشَّاعر الأعلامَ بنسبة كبيرة في مجمل ديوانه، إذ إنَّني رَكَّزْتُ على القصائد الأربع فأحصيتُ أربعةً وستينَ علماً. وقد تنوَّعت الأعلام التي استعملها. فمنها أعلام تدلُّ على أماكن: بلاد، أو مدن، أو أنهار. وهذه الأعلام مقسَّمة إلى قسمين: قسم منها في البلاد العربيَّة، وقسم آخر مسمَّيات ومدن في بلاد فارس.

في القسم الأوَّل ذكر: أوال، البلاد، الديار، بلد الخَطِّ، بوري، الطَّفِّ، كربلاء. وأغلب هذه الأماكن متعلِّقة بالبحرين، والقطيف، وجزء منها في العراق. وغالبية تلك الألفاظ تكرَّرت في قصيدتي الحنين، والرتاء. أمَّا القسم الثاني فقد ترَكَّز على المدن التي أقام فيها أوزارها في بلاد فارس مثل: شيراز، أزفَّة فارس. كما أنَّه ذكر نهريْن مِنْ أنهار فارس وهما (كارون، والجراح)⁽¹⁾ وهما نهران في خوزستان، وقد ذكرهما في معرض بيان جود الممدوح، وكرمه.

ومِنْ الأعلام التي أوردتها أبو البَحر أسماء القبائل أو الأجناس، فَمِنْهَا مُضَر، وربيعة⁽²⁾، بكر ووائل⁽³⁾، قيس عيلان⁽⁴⁾، بنو هاشم⁽⁵⁾، بنو أميَّة⁽⁶⁾، آل النبي⁽⁷⁾، آل مقلد⁽⁸⁾.

(1) انظر: الديوان، البيت 33، ص 20.

(2) انظر: م. ن.، البيتان 58، 74، ص 38، 39.

(3) انظر: م. ن.، البيت الخامس، ص 49.

(4) انظر: م. ن.، البيت 56، ص 38.

(5) انظر: م. ن.، البيت 61، ص 38.

(6) انظر: م. ن.، البيتان 24، 59، ص 37، 38.

(7) انظر: م. ن.، البيت 71، ص 39.

(8) انظر: م. ن.، البيتان 16، 26، ص 5.

وَمِنَ الْأَعْلَامِ الَّتِي شَكَّلَتِ الْعِدَدَ الْأَكْبَرَ، أَسْمَاءُ الْأَشْخَاصِ. مِنْهَا
 أَسْمَاءُ أَعْجَمِيَّةٍ مِثْلَ: (كِسْرَى أَنْوَشْرَوَانَ، الْإِسْكَندَرَ الْمَقْدُونِيَّ، رَسْتَمَ
 الْقَائِدَ الْفَارْسِيَّ)⁽¹⁾، وَقَدْ ذَكَرَهُمْ أَبُو الْبَحْرِ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى قُوَّةِ مَمْدُوْحِهِ،
 وَحُنُوكَتِهِ، وَعِدَالَتِهِ، وَقِيَادَتِهِ الْحَكِيمَةَ لِرَعِيَّتِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ ذَكَرَ مَجْمُوعَةً مِنْ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ الْمَوْغِلِينَ فِي الْقَدَمِ
 مِثْلَ (أَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، أَكْثَمِ بْنِ صَيْفِيٍّ، قَيْسِ بْنِ زَهَيْرٍ، كَعْبِ بْنِ
 مَامَةَ الْيَأْدِيِّ). وَقَدْ جَمَعَ هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

أَحْنَفُ الْحُكْمِ أَكْثَمُ الرَّأْيِ زُبَيْرُ
 الثَّارِ قَيْسُ الْبَيَّانِ كَعْبُ السَّمَّاحِ⁽²⁾

وَهَذَا يُنْبِئُ بِأَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ مَلَمًّا بِتَارِيخِ رَجَالَاتِ الْعَرَبِ، وَغَيْرِهِمْ
 مِنَ الْقَدَمَاءِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ دَوْرُ فَاعِلٍ فِي الْحَيَاةِ.

وَمِنَ الْأَعْلَامِ الْمَذْكُورَةِ أَيْضاً النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ⁽³⁾، وَالْحَسَيْنُ بْنُ
 عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ⁽⁴⁾، وَكَذَلِكَ قَاتَلَهُ فِي وَقْعَةِ كَرْبَلَاءِ الشُّمْرِ بْنِ ذِي
 الْجَوْشَنِ⁽⁵⁾.

كَمَا أَنَّهُ صَرَّحَ بِبَعْضِ أَصْدِقَائِهِ مِثْلَ حَسَنِ بْنِ الْغَنِيَّةِ - رَاوِيَةَ
 شِعْرِهِ - وَمَاجِدِ الْعُرَيْضِيِّ. وَمِنَ الْوُزَرَاءِ مَمْدُوْحَهُ رُكْنَ الدِّينِ مَحْمُودُ
 وَزِيرِ الْبَحْرَيْنِ آنَذَاكَ. وَمِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَيْضاً الشَّاعِرُ

(1) انظر: الديوان، البيت 38، ص 20.

(2) انظر: م. ن، البيت 40، ص 20.

(3) انظر: م. ن، البيت 59، ص 38.

(4) انظر: م. ن، البيت 25، ص 37.

(5) انظر: م. ن، البيتان 25، 27، ص 37.

جرير، وقيس المغنّي⁽¹⁾. وأشار إلى زوجته، وأبنائه حينما كان بعيداً عنهم في غربته.

ومن أسماء الحيوان المذكورة: (الكلب، والخنزير)⁽²⁾ وغيرهما، وقد استخدمها لتحقيق الناهيين الغزاة الذين استحلوا بلاده البحرين، واستولوا على خيراته. كما أنه ذكر من الكتب السماوية (أسفار الإنجيل، وصحف الزبور)⁽³⁾. وهذا يشير إلى إلمامه التام بأخبار القرآن الكريم.

د - 3. الضمير

يشكّل استخدام الضمير في شعر أبي البحر ظاهرة بارزة، إذ تعتبر منطقة الإضمار أوسع المناطق في تشكيل الفضاء النصّي، لذا سأتناولُه مِنْ حيث الغياب والحضور. إذ تبيّن مِنْ خلال رصدنا للضامرات المستخدمة على مستوى القصائد الأربع اتّساع دائرة الغياب، بحيث بلغ وروده ثلاثمائة وثلاثة وسبعين (373) ضميراً. وهذه نسبة عالية، مقارنةً بضميرَي المخاطب والمتكلّم، اللذان تساويا عددياً مِنْ حيث المجموع.

فقد بلغ عدد ضمائر الغائب في قصيدة رثاء الحسين بن علي نسبة عالية، إذ بلغ مائة وسبعين (170) ضميراً غائباً، كما سجّل هذا الضمير (الغائب) في قصيدة الحنين ارتفاعاً مُلفتاً للنظر، حيث بلغ خمسة وسبعين (75) ضميراً، مقارنة بعدد أبيات القصيدة البالغ سبعة وخمسين (57) بيتاً. ورصدنا هذا جاء مِنْ منظور معجميٍّ بارز تمخّضتْ مِنْ خلاله دلالة نحوية اعتمدت - أساساً - على غياب الضمير في خَلْق الفضاء

(1) انظر: الديوان، البيت 49، ص 53.

(2) انظر: م. ن، البيت 52، ص 53.

(3) انظر: م. ن، البيت 46، ص 53.

الشُّعْرِيّ، ليشكف لنا اهتمام أبي البَحر الخَطِّي بعنصر الغياب وتوسيع دائرته. فهو فقيده سيّد الشهداء الحسين بن علي في قوله:

[مِنَ الطويل]

كَأَنِّي بِهِ فِي ثَلَاثَةِ مِنْ رِجَالِهِ
كَمَا حَفَّ بِاللَّيْلِ الْأَسْوَدُ اللَّوَابِدُ
يَخْوِضُ بِهِمْ بَحْرَ الْوَعَى وَكَأَنَّهُ
لَوَارِدِهِمْ عِنْدَ الْمُجَاغَةِ بَارِدٌ⁽¹⁾

يتحدّث عن شجاعة فقيده الحسين بن علي، حينما تقدّم هو وصحبه للمعركة بكلّ جسارة وقوّة - في معركة متكافئة عدديّاً - يقود الحقّ ضدّ الباطل، حتّى خرّ صريعاً على بوغاء كربلاء.. والإضرار في حدّ ذاته يمثل البُعد الزمنيّ بينه وبين فقيده، فإنّ المساحة تلك امتلأت حزناً وأسى بمقتل سبط النبي، وما حدث لأهله من سبّي وغيره.

[مِنَ الطويل]

إِلَى أَنْ أَسَالَ الطَّعْنَ وَالضَّرْبُ نَفْسَهُ
فَخَرَّ كَمَا أَهْوَى إِلَى الْأَرْضِ سَاجِدٌ
فَلَهْفِي لَهُ وَالْخَيْلُ مِنْهُنَّ صَادِرٌ
خَضِيبُ الْحَوَامِي مِنْ دِمَاهُ وَوَارِدٌ⁽²⁾

ويلاحظ في هذه القصيدة الرثائيّة الطويلة، أنّ ضمير الغياب جاء مُركّزاً في حديث الشّاعر عن مناقب الفقيده وما له من بطولات مشهودة. وهو يسير على المنوال نفسه في قصائد الرثاء والمدح. أمّا فيما يتعلّق بقصيدة الحنين، فإنّ ضمير الغياب انصبّ على الوطن

(1) انظر: الدّيونان، ص36.

(2) انظر: م. ن.، ص36.

وَمَنْ فِيهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْأَحِبَّةِ. كَمَا أَنَّ مَسَاحَةَ الْإِضْمَارِ لَهَا دَلَالَتُهَا
الْجُغْرَافِيَّةَ، وَالْبُعْدَ الْمَكَانِي مِنْ مَوَاطِنِ الْغُرْبَةِ إِلَى وَطْنِهِ الْبَحْرَيْنِ.
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَاسْتَنْشِ رِيَّاهَا فَفِي عَرَصَاتِهَا
عِنْدَ الْعُبُورِ بِهِنَّ نَشْرُ عَيْبِرِ
وَاسْتَوْصِ نَشْرَ عَيْبِرِهَا بِي إِنَّهُ
قَمِنٌ بِنَشْرِ عَيْبِرِي الْمَقْبُورِ⁽¹⁾
وما يتعلّق بغياب الأهل والأحبة قوله:

[مِنَ الْكَامِلِ]

أَنَا أَسْعَدُ الثَّقَلَيْنِ إِنْ أَدْنَاهُمْ
مَنْي رَوَاحِي نَحْوَهُمْ وَبُكُورِي⁽²⁾

وَمِنْ خِلَالِ ذَلِكَ نَسْتَطِيعُ تَعْلِيلَ طَغْيَانِ ضَمِيرِ الْغِيَابِ لِلتَّجْرِبَةِ
الذَّائِيَّةِ الْمَرَّةِ الَّتِي عَاشَهَا الشَّاعِرُ مِنْ فَقْدَانِهِ لِأَحِبَّتِهِ، وَكَذَلِكَ حَنِينَهُ
إِلَى وَطْنِهِ، وَأَهْلِهِ، وَخِلَانِهِ نَتِيجَةَ بُعْدِهِ عَنْهُمْ فِي غُرْبَتِهِ.

أَمَّا ضَمِيرُ الْمَخَاطَبِ فَقَدْ اسْتَعْدَمَهُ الشَّاعِرُ سِتًّا وَثَمَانِينَ (86)
مَرَّةً، فِي حِينِ اسْتَعْمَلِ الضَّمِيرَ الْمُتَكَلِّمَ خَمْسًا وَثَمَانِينَ (85) مَرَّةً.
وَكَلاهُمَا يَقَعَانِ فِي مَنطِقَةِ الْحُضُورِ، وَيَرْجِعُ اسْتِخْدَامُهُ لَشُعُورِهِ
بِالْحُزْنِ وَالْمَأْسَاءِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَرَارَةِ الْغُرْبَةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْوَطَنِ الْأُمِّ.
إِذْ لَا يَشَارِكُهُ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِهِ وَخِلَانِهِ تِلْكَ الْمَأْسَاءِ، مِمَّا جَعَلَهُ يُعْبِرُ
عَنْهَا ذَاتِيًّا. وَقَدْ نَلَاخِظُ ذَلِكَ وَبِشْكَلٍ وَاسِعٍ فِي قَصِيدَةِ الْحَنِينِ. إِذْ وَرَدَ
ضَمِيرُ الْحُضُورِ (مُتَكَلِّمٌ وَمَخَاطَبٌ) ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ (73) مَرَّةً.

(1) انظر: الديوان، ص 51.

(2) انظر: م. ن.، ص 51.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

[مِنَ الْكَامِلِ]

عَجٌّ بِالْمَطِيِّ عَلَى مَعَالِمِ بُورِي
بِمَحَلِّ لَذَاتِي وَرَبْعِ سُرُورِي
وَأَطْلُ بِهَا عَنِّي الْوُقُوفَ فَمَا أَرَى
شَوْقًا يُحَرِّكُنِي لَهَا بِقَصِيرِ (1)

فقد وردت ضمائر الحضور في (عج، لذاتي، سروري، عني، أرى، يحركني)، وهو بذلك يُعبر عن الذات حاكياً عن نفسه ليُخرج ما بداخله من شعور نحو وطنه ومن فيه.

وَمِنْ خِلَالِ نَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ لَجَدُولِ الضَّمَائِرِ سَنَرَى التَّبَايِنَ فِي اسْتِخْدَامِ الشَّاعِرِ لَضَمَائِرِ الْغِيَابِ وَالْحَضُورِ عَلَى مَسْتَوَى الْقِصَائِدِ الْأَرْبَعِ. وَهَذَا الْجَدُولُ مَا هُوَ إِلَّا مَظْهَرٌ لِمَا يَحْوِيهِ الدِّيْوَانُ بِالنِّسْبَةِ لَضَمَائِرِ الْغِيَابِ وَالْحَضُورِ.

جدول الضمائر

القصيدة	رقم الصفحة	عدد الأبيات	الغائب	المخاطب	المتكلم
رثاء أبي عبد الله الحسين	36	78	175	28	15
الحنين إلى الوطن	51	57	75	16	57
قصيدة مدح وزير البحرين	19	48	64	20	7
رثاء شيخ القطيف	49	36	59	22	6
المجموع		199	373	86	85

(1) انظر: الديوان، ص51.

مِنْ خِلالِ هَذَا التَّوْظِيفِ الواسِعِ للشَّخْصِيَّاتِ، والأَعْلَامِ فِي قِصَائِدِ
 أَرْبَعٍ نَخْرُجُ بِأَنَّ أبا البَحْرِ كونه عَالِمَ دِينٍ، وشاعراً، فَإِنَّهُ على عِلْمٍ ومَعْرِفَةٍ
 بِتَارِيخِ العَرَبِ القَدِيمِ ورجالاته، وهذه أَوْلَوِيَّةٌ مِنْ أَوْلَوِيَّاتِ الشَّاعِرِ عِنْدَ
 العَرَبِ قَدِيمًا. بِالإِضَافَةِ إلى مَعْرِفَتِهِ بِتَارِيخِ الأُمَّمِ الأُخْرَى ورجالاتهم
 المَشْهُورِينَ. أَمَّا ذِكْرُهُ لِبَنِي هَاشِمٍ، وَآلِ النَّبِيِّ، فَبِغَيْرِ مَسْتَعْرَبٍ، إِذْ تَرَكَّزَتْ
 جُلُّ مَدَائِحِهِ، وَمِراثِيهِ فِي أَهْلِ البَيْتِ وَمَتَعَلِّقِيهِمْ.

جدول الأسماء⁽¹⁾

العلم	الجمع	المثنى	المفرد	الزمان	المكان	اسم المفعول	اسم الفاعل	المصدر	عدد الأبيات	رقم المصنفة	القصيدة
21	78	1	17	3	2	4	47	20	78	36	رثاء أبي عبد الله الحسين
24	41	5	47	-	7	7	8	21	57	51	الحنين إلى الوطن
11	15	6	30	-	3	-	16	30	48	19	قصيدة مدح وزير البحرين
8	23	1	25	-	2	5	5	10	36	49	رثاء شيخ القطيف
	64	157	13	119	3	14	16	76	81	219	المجموع

(1) لا بدَّ مِنَ الإشارةِ إلى أنَّني اكتفيتُ مِنَ الأسماءِ بالمصدرِ والعلمِ لأُمِّيَّتِهِمَا، ولمْ أتطوِّقْ بالتطوُّقِ بنبوَّةِ الأسماءِ خشيةَ الإطالةِ، إذْ أُنِّي وضعتُ نتَاجَ دراسَتِهِمْ في هذا الجدولِ.

وهنا سنعالج أغلب الأساليب التركيبية عند الشاعر.

ثانياً: المستوى التركيبي

يتضح أسلوب الجملة عند أبي البحر على النحو التالي، بادئاً بالجملة الإنشائية فالجملة الخبرية⁽¹⁾:

أ - الجملة الإنشائية

الإنشاء لغة: الإيجاد، واصطلاحاً: كلام لا يحتمل صدقاً، ولا كذباً لذاته. وهو لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا تَلَفَّظَتْ به⁽²⁾.

أ - 1. الاستفهام

ورد أسلوب الاستفهام كثيراً في قصائد الشاعر المختلفة، إذ جاء في الرثاء 27 مرةً، وفي الحنين إلى الوطن 20 مرةً، وتكرر أيضاً في المدح 19 مرةً. وتتابع هذا الأسلوب في الأغراض الأخرى باستخدامه أدوات الاستفهام المختلفة.

أ - 1. 1. هَلْ

مثال ذلك في الرثاء قوله:

[مِنَ الطويل]

بَنِي هَاشِمٍ هَلْ لِلْمَنُونِ طَوَائِلِ
لَدَيْكُمْ وَهَلْ لِلْحَادِثَاتِ دُخُولُ⁽³⁾

وقد أفادت «هَلْ» هنا التعجب والاستنكار.

وقوله في المجال نفسه:

(1) وقد رتبتها ترتيباً تصاعدياً حسب ورودها في الديوان.

(2) أحمد الهاشمي، جوهر البلاغة، ص75.

(3) م. س.، ص90.

[مِنَ الطويل]

وَأَسْأَلُهَا عَنْ أَهْلِهَا وَهِيَ لَمْ تُحِزْ
جَوَابًا وَهَلْ يَسْتَنْطِقُ الْعُجْمَ نَاشِدٌ⁽¹⁾
كما أنها وردت في الحنين، مثل قوله:

[مِنَ الرمل]

هَلْ تُعِيرُونَ جُفُونِي هَجَعَةً
أَمْ تَرَوْنَ النَّوْمَ شَيْئًا حُرْمًا⁽²⁾

أ - 1. 2. الهمزة

في قوله في مجال الرثاء:

[مِنَ الرمل]

أَعْلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَيَّ أَعْوَادِهِمْ
الْمَجْدَ قَدْ حَمَلُوا عَلَيَّ الْأَعْوَادِ⁽³⁾
وقد كان غرض الشاعر من هذا الاستفهام تعظيم المراثي ورفعته
مقامه العلمي والاجتماعي في أوساط مجتمعه.
وقوله في حنينه إلى وطنه:

[مِنَ الوافر]

رَحَلْتُمْ بِالنَّفُوسِ فَلَيْتَ شِعْرِي
أَكَانَ لَكُمْ بِأَنْفُسِنَا انْتِفَاعٌ⁽⁴⁾
فهو يصور بهذه النفسية المتألّمة بأن أهله وأحبّته انتهبوا

(1) انظر: الديوان، ص 36، وانظر: البيت 35، ص 40، والبيتان 54، 55، ص 102.

(2) انظر: م. ن.، البيت 17، ص 109، وانظر: ص 72، 74، 88، 120.

(3) انظر: م. ن.، البيت 20، ص 40.

(4) انظر: م. ن.، البيت 4، ص 74، وانظر: البيت 13، ص 71، والبيت 7، ص 109.

الروح مِنْ جسده، وجعلوه وحيداً يكابد آلام الغربة والفرق، كما
أَنَّهُمْ لَنْ يَنْتَفِعُوا بِرُوحِهِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنْ جَسَدِهِ، لِذَا فَهُوَ يَسْتَنْكَرُ
عَلَيْهِمْ بَعْدَهُمْ عَنْهُ. فَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ إِنْكَارِيٌّ مُحْضٌ.
وَمِنْ قَوْلِهِ فِي مَجَالِ الْمَدْحِ:

[مِنْ الْخَفِيفِ]

أَتُرَانِي نَبَذْتُ عَهْدِي أَمْ أَلْ

بَسْتُ يَوْمًا إِيْمَانَ وَدِّي بِكُفْرٍ (1)

وقد أفادت الهمزة هنا التعجب والدهشة ومن ثم إزاحة
الشبهة عن نفسه في صورة معاتبة.

كما أنها - أي الهمزة - وردت في عدد من الأغراض منها:
الغزل (2)، والعتاب (3)، والوصف (4)، والثناء (5).

أ - 1. 3. كَيْفَ (6)

كقوله:

[مِنْ الْبَسِيطِ]

لَوْ أَنَّ بِالرَّاسِيَّاتِ الشُّمَّ أَيْسَرَهُ

دَابَّتْ فَكَيْفَ بِشَخْصٍ صِيغَ مِنْ طِينٍ (7)

(1) انظر: الديوان، البيت 73، ص58، وانظر: البيت 40، ص61، والبيت 34، ص82.

(2) انظر: م. ن.، البيت 8، ص43.

(3) انظر: م. ن.، البيت 7، ص46، والبيتان 4، 6، ص122.

(4) انظر: م. ن.، البيت 9، ص47.

(5) انظر: م. ن.، البيت 13، ص90، والبيت 34، ص91.

(6) انظر: م. ن.، البيت 19، ص19، والبيت 31، ص52، والبيت 7، ص68، والبيت 11،

ص74، والبيت 7، ص75، والبيت 25، ص88، والبيت 11، ص99، والبيت 6، ص115.

(7) انظر: م. ن.، البيت 4، ص118.

وقد أفادت «كَيْفَ» هنا معنى التعظيم.

أ - 1. 4. مَا⁽¹⁾

وردت «مَا» الاستفهامية كثيراً في أغراض الشاعر المختلفة، مِنْ ذلك قوله:

[مِنْ الرمل]

مَا لَكُمْ بَدَلْتُمُونِي سَادَتِي
بِالرِّضَا سُخْطًا وَبِالْوَضَلِ انْصِرَامًا⁽²⁾
وقد أفادت «مَا» هنا الاستعطاف والرقّة في الخطاب.

أ - 1. 5. مَاذَا⁽³⁾

وقد وردت أكثر مِنْ أربع مرّات بمفهومها الاستفهامي. كقوله:

[مِنْ الوافر]

سَلِ الْأَجْدَاثَ مَاذَا أُوْدَعُوهُ
بِهَا مِنْ شُهْرَةٍ وَظُهُورِ حَالِ⁽⁴⁾
وقد أراد الشاعر بـ «ماذا» التعظيم والتفخيم.

أ - 1. 6. كَمْ⁽⁵⁾

كقوله في الرثاء:

(1) انظر: الديوان، البيت 19، ص19، والبيت 20، ص23، والبيت 14، ص25، والبيت

18، ص55، والبيت 1، ص78.

(2) انظر: م. ن، البيت 14، ص110.

(3) انظر: م. ن، البيت 4، ص45، والبيت 1، ص72، والبيت 60، ص83.

(4) انظر: م. ن، البيت 14، ص95.

(5) انظر: م. ن، البيت 34، ص35، والبيت 6، وهو مُضْمَن، ص86.

[مِنَ البسيط]

فَكَمْ تَخَطَّفَ رَيْبُ الدَّهْرِ مِنْ مَلِكٍ
فَأَصْبَحُوا تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى رَمَمًا⁽¹⁾

أ - 1. 7. مَن⁽²⁾

كقوله في المدح:

[مِنَ الكامل]

مَنْ لِي بِحَضْرَتِهِ الَّتِي مَنْ زَارَهَا
فَكَأَنَّهَا قَدْ زَارَ وَادِيَ الْخَيْفِ⁽³⁾
وقد أفادت «مَن» هنا معنى التعظيم والتفخيم.

أ - 2 - الأمر

وقد أكثر فيه شاعرنا في غرضي الحنين والرثاء. إذ جاء في الحنين، وكان مفاده الحسرة والألم على فراق الأهل والأحبة، وكذلك الديار.

مِنَ ذلك قوله:

[مِنَ الكامل]

عُجَّ بِالْمَطْيِيِّ عَلَى مَعَالِمِ بُورِي
بِمَحَلِّ لَذَاتِي وَرَبَّحَ سُرُورِي
وَأَطْلُ بِهَا عَنِّي الْوُقُوفَ فَمَا أَرَى
شَوْقًا يُحَرِّكُنِي لَهَا بِقَصِيرِ

(1) انظر: الديوان، البيت 23، ص114.

(2) انظر: م. ن، البيت 23، ص47، والبيتان 29، 43، ص59، والبيت 28، ص107، والبيت 12، ص119.

(3) انظر: م. ن، البيت 11، ص76.

وَاسْتَنْشِ رِيَّاهَا فَفِي عَرَصَاتِهَا

عِنْدَ الْعُبُورِ بِهِنَّ نَشْرُ عَيْبِرِي (1)

وهذه الأوامر مليئة بالحسرة والتوجع على الديار وساكنيها.

كما أن شاعرنا اتخذ مساراً آخر، وخرج بالأمر إلى منحى الدعاء.
كقوله في المدح:

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَاسْلَمَ وَدُمٌ وَأَنْعَمَ وَعِشْ فِي دَوْلَةٍ

تُرْضِي الْوَلِيَّ وَتُكْمِدُ الْحَسَّادَا (2)

وقوله أيضاً:

[مِنَ الْكَامِلِ]

فُمْ غَيْرَ مَأْمُورٍ عَلَيْكَ وَجَدَّ فِي

تَقْصِيرِ عُمْرِ الْوَعْدِ طَالَ لَكَ الْبَقَا (3)

وقد خرج كذلك بالأمر إلى معنى التمني والنصح والإرشاد.
كقوله:

[مِنَ الْكَامِلِ]

فُؤُلُوا لِمَزْجِي الْعَيْسِ أَعْجَلَ سَوْقَهَا

وَأَمَالَهَا تَلْقَاءَ كُلِّ مُرَادٍ (4)

أ - 3. النَّدَاءُ

وهو توجيه الدعوة إلى المخاطب، وتنبهه للإصغاء، وسماع

(1) انظر: الديوان، ص 51.

(2) انظر: م. ن.، ص 45.

(3) انظر: م. ن.، ص 80، وانظر: م. ن.، الأبيات 15، 16، 37، 39، ص 40، 43، 46.

(4) انظر: م. ن.، البيت 21، ص 40.

ما يريد المتكلم⁽¹⁾. وقد أكثر الشاعر من استخدام حرف النداء (يا)، وهو الأكثر شيوعاً واستخداماً عند الشعراء والمتكلمين بمعناه الحقيقي والمجازي.

وغالبية استخداماته جاءت في الرثاء فالمدح فالحنين. كقوله:

[من الخفيف]

يَا خَلِيلِيَّ وَلَا أَرَى لِي مِنَ النَّاسِ

سِ خَلِيلاً إِلَّا فَتَى غَيْرَ صَاحِي⁽²⁾

إذ إنَّ الشاعر استخدم حرف النداء (يا) في أصلها اللغوي الحقيقي لنداء البعيد، ليشعرنا بذلك البعد الشاسع لما يشعر به من ألم وحسرة، وما يشعر به الأخلأ تجاهه، والتفاوت الواضح بينهما من خلال معنى البيت.

وكذلك قوله:

[من الكامل]

يَا أَيُّهَا السَّاعِي لِيُذْرِكَ شَأْوُهُ

أَسْرَفَتْ فِي إِخْفَاقِ سَعْيِكَ فَاقْعُدِ⁽³⁾

ومن جانب آخر فإنه يُنزل القريب منزلة البعيد، ليفهمنا بأنَّ المنادى رفيع القدر، عظيم الشأن في مقامه ومنزلته. كقوله:

[من الكامل]

يَا رَبُّ إِنْ لَمْ تَقْضِ لِي بِلِقَائِهِ

فِي يَقْظَةٍ فَاْمُنْ بِهَا فِي الطَّيْفِ⁽⁴⁾

(1) انظر: عباس حسن، النحو الوافي، 1/4.

(2) انظر: م. س.، البيت 9، ص 19.

(3) انظر: الديوان، البيت 25، ص 28.

(4) هذا البيت من قصيدة يمدح الشاعر فيها سلطان «صحار». إذ إنه لم يكن =

فقد استخدم لنداء الله حرف الياء، والله أقرب شيء للمتكلم، في حين أنه يستصغر نفسه أمام الخالق، ويرى البعد الواسع بين مكانة الخالق ومكانة المخلوق، والتفاوت العظيم بين الدرجتين بهذه الأسباب استخدم حرف النداء (يا).

وكذلك قوله:

[مِن الطويل]

وَيَا بَلَدَ الْخَطِّ اعْتَرَاكَ لِفْقْدِهِ
مَدَى الدَّهْرِ كَسْرًا لَا يُرَامُ لَهُ جَبْرٌ⁽¹⁾

كما أنه لجأ إلى استخدام الهمزة المفتوحة لغرض استدعاء المخاطب القريب. كقوله:

[مِن الوافر]

أَبْرَاهِيمُ يَا أَدْنَى الْبَرَائِيَا
إِلَى عَدْوِي وَأَبْعَدُ عَن تَعْدِي⁽²⁾

إذ استخدمت الهمزة استخداماً حقيقياً في إشارة إلى قرب المرثي من القلب وحضوره في ذهنه.

بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد استخداماً آخر للنداء وهو النداء المحذوف كقوله في المناجاة:

= لهذا البيت وجود في الديوان، بل هو موجود في الأعيان، وأعتقد أنه سقط سهواً من يد جامع الديوان. انظر: محسن الأمين: أعيان الشيعة، 4/161.

(1) انظر: م. س، البيت 20، ص 50.

(2) انظر: م. ن، ص 24، وانظر: البيت 35، ص 28، البيت 3، ص 43، البيت 47، ص 62، البيت 47، ص 62، البيت 1، ص 89، البيت 31، ص 90، البيت 13، ص 100، البيت 42، ص 101، البيت 1، ص 122.

[مِنَ الكَامِلِ]

مَوْلَايَ دَارَكَ بِالْعُقَاةِ فَسِيحَةً
حَاشَاكَ إِنْ صَاقَتْ بِشَخْصٍ وَاحِدٍ⁽¹⁾
والمستفاد مِنْ هذا النداء المحذوف هو الاستغاثة.

أ - 4. القسم

وقد تكرر سبع عشرة مرة في مختلف قصائد الشَّاعر، إذ جاء غالبية في غرض المدح باستخدامه صيغة (لَعَمْرُ أَبِي).
كقوله في المدح:

[مِنَ الطَوِيلِ]

لَعَمْرُ أَبِي وَالْفَضْلُ يُعْزَى لِأَهْلِهِ
لَقَدْ بَخَلَ الطَّائِي جُودَ مُحَمَّدٍ⁽²⁾
وهو باستخدامه أسلوب القسم يؤكِّد على الكرم، والعطاء لأهله
لدرجة أنَّ العطاء الطائي وكرمه لا يُذكر أمام عطاء ممدوحه. ومفاد
هذا القسم التعجب.
وأيضاً قوله في الرثاء:

[مِنَ الطَوِيلِ]

لَعَمْرُ أَبِي الْخَطِّي إِنْ عَزَّ نَصْرُكُمْ
عَلَيْهِ فَلَمْ تَعَزُّ عَلَيْهِ الْقَصَائِدُ⁽³⁾

(1) انظر: الديوان، ص 42، وكذلك ص 50، 62، 87، 90.

(2) انظر: م. ن، البيت 12، ص 25. وانظر: الأبيات 6، 9، 10، 16، 19، 21، 24، 33، 37، 51، ص 27، 43، 46، 49، 59، 80، 81، 91، 106، 109، 110، والأبيات 2، 11، 13، 17، ص 114.

(3) انظر: م. ن، البيت 70، ص 39.

وهو يسلك السياق نفسه في استخداماته لأسلوب القسم كله.

أ - 5. النفي

قد يتمُّ إنتاج دلالة النفي بالتعامل مع صيغة الفعل، إذا جاء مشحوناً بطاقة سالبة مناسبة، وقد يكون تأثيره في الخطاب أشدَّ فعالية لا مِنْ حيث الناتج فحسب، ولكن مِنْ حيث المساحة التعبيريَّة التي يفرض سطوته عليها⁽¹⁾. وقد استطاع الشَّاعر تأديَّة معنى النفي عبر وسائل النفي المستخدمة في اللغة، مِنْها:

أ - 5. 1. مَا⁽²⁾

وقد وردت في أماكن كثيرة، مِنْها قوله:

[مِنْ الخفيف]

مَا مَقَامِي فِيهِمْ وَحَاشَاكَ إِلَّا
كَمَقَامِ الْيَقْظَانِ بَيْنَ النَّيَامِ⁽³⁾

أ - 5. 2. لَا⁽⁴⁾

[مِنْ البسيط]

خُلِقْتُ لَمْ أَدْرِ مَا وَادِي الْعَقِيقِ وَلَا
دَارٌ تَأْبُدُ مَاوَاهَا بِمَأْوَانِ
وَلَا الْوُقُوفُ عَلَى الدَّارَاتِ مِنْ إِرْبِي
وَلَا مُخَاطَبَةُ الْأَطْلَالِ مِنْ شَانِي⁽⁵⁾

(1) محمَّد بن عبد المطلب، قراءة أسلوبيَّة في الشعر الحديث، ص 195.

(2) انظر: م. س، ص 2، 8، 10، 27، 31، ص 8، 19، 111، 113، 118، 119.

(3) انظر: م. ن، البيت 14، ص 108.

(4) انظر: الدِّيوان، الأبيات 3، 5، 7، 8، 14، 20، 23، 11، 114، 118، 119.

(5) انظر: م. ن، البيتان 11، 12، ص 116. وماوَان: اسم مكان.

إذ إنَّه استطاع أن يحقِّقَ الرِّفْضَ التَّامَّ باستخدامه حرفِ النفي «لا»، وتكراره ثلاث مرَّات، مع وجود حرف نفي آخر، وهو «لم»، وذلك بعدم درايته بالوادي المذكور، ونفي الوقوف على المنازل الدارسة، وكذلك نفيه مخاطبة الأطلال.

أ - 5. 3. لَمْ⁽¹⁾

وكان ورودها مقترناً بالفعل المضارع، والتي قلبت المعنى مِنَ الحاضر إلى الماضي، لإفادة النفي المطلق. كقوله:

[مِنَ الخفيف]

وَمُحِبًّا عَانَى الْفِرَاقَ وَلَمْ يَقْضِ
لِأَقْوَى أَمْرِي عَالَى الْأَلَامِ⁽²⁾

أ - 5. 4. لَيْسَ⁽³⁾

وهي كلمة دالَّة على نفي الحال⁽⁴⁾:

[مِنَ الخفيف]

لَيْسَ إِلَّا أَنْ الْعَزِيزَ مِنَ النَّاسِ
لَدَيْكُمْ أَعَزُّ مِنْهُ الْحِطَّامُ⁽⁵⁾

ب - الجملة الخبرية

الخبر كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته، وإن شئت فقل الخبر هو ما يتحقق مدلوله في الخارج بدون النطق به، والجملة الخبرية

(1) انظر: الديوان، الأبيات 3، 6، 11، 15، 43، ص 110، 111، 116، 117، 118، 119.

(2) انظر: م. ن، البيت 6، ص 107.

(3) انظر: م. ن، الأبيات 4، 10، 28، 31، 33، ص 6، 7، 10، 11، 35.

(4) ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، 293/1.

(5) انظر: م. س، البيت 12، ص 111.

هي ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن عند أول سماعها احتمال الصدق والكذب⁽¹⁾.

ب - 1. التأكيد

التأكيد هو ظاهرة متكررة عند أغلب الشعراء، إذ إنها تؤدّي غرضاً لبيان مدى التعلّق بالممدوح، أو المرثي، أو غيرهما، وكذلك زيادة المعنى، ودرجة الوضوح.

ومن خلال استقرائي لديوان الشاعر، اتّضح أنّه استخدم هذا الأسلوب بكثافة واضحة، قلّ أن تجد قصيدة أو مقطوعة لا ترى فيها أداة، أو أسلوباً، أو تكراراً، أو نون التوكيد المشدّدة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، قوله في مدح الشريف العلويّ عبد الرؤوف الحسيني:

[من الكامل]

وَأَنَا الَّذِي أَوْجَبْتُ مِنْ كَرَمِ عَلَيَّ
نَفْسِي وَإِنْ مُوْطَلْتُ شُكْرَ الْمَوْعِدِ
فَلأَشْكُرَنَّ لَهُ وَأَشْكُرُ بَعْدَهُ
دَهْرًا أَرَانِيهِ وَبَلَّ بِهِ يَدِي
وَلأَحْمِدَنَّ مُلَمَّةً صَرَفْتُ لَهُ
وَجْهِي وَمَهْمَا جَرَّ نَفْعًا يُحْمَدِ
وَلأَجْلُوْنَ عَلَيْهِ كُلَّ خَرِيْدَةٍ
عَذْرَاءَ تَهْرَأُ بِالْعَذَارِي الْخُرْدِ
وَلأَفْرَغَنَّ عَلَيَّ مُقْلَدٍ مَجْدِهِ
دُرْرًا يَهْشُّ لَهُنَّ كُلُّ مُقْلَدٍ⁽²⁾

(1) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 53.

(2) انظر: الديوان، ص 27.

فهذا التكرار الواضح يفيد بدرجة كبيرة مدى تعلق الشاعر بممدوحه، وحبّه، وإخلاصه لصديقه. فهو عمَد إلى تكرار الحرف لِمَا لَهُ مِنْ قِيَمَةٍ عَضْوِيَّةٍ فِي خِدْمَةِ الْمَعْنَى، كما أَنَّهُ يَكْرُرُ الشُّكْرَ، والحمد لبيان عجزه عن وفاء حقّ الممدوح، وهذا المعنى لم يكن ليصل إلى إحساسنا لو لم يستخدم تلك المؤكّدات.

وقد يكون هناك تكرار لا طائل تحته، كقوله:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

كَالنَّارِ وَالْمَاءِ إِنْ شِيَمَتْ وَإِنْ لُمِسَتْ
وَفِي الْحَقِيقَةِ لَا نَارٌ وَلَا مَاءٌ
وقوله مِنَ الْقَصِيدَةِ نَفْسِهَا:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَشَابَهَا نُطْفَةٌ مِنْ فِيهِ صَافِيَةٌ
كَالرَّاحِ فَهِيَ مَعَ الصَّهْبَاءِ صَهْبَاءٌ⁽¹⁾

وهناك الكثير على هذه الشاكلة، إلا أن المجال لا يسمح بذكرها خوفاً مِنَ الإطالة.

وَمِنَ التَّكْرَارِ الْمَعْنَوِيِّ غَيْرِ الْمَرْغُوبِ وَذَلِكَ فِي إِيرَادِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ الْمَقْصُودِ بِصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ قَوْلُهُ:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

لَا أَعْبَبَ الْوَزِيرَ سَعْدٌ يُنَاجِي
عِـهِ بِهـِ كَرُّ غَدْوَةٍ وَرَوَاحٍ⁽²⁾

(1) انظر: الديوان، ص2.

(2) انظر: م. ن.، البيت 31، ص20.

فقد كرّر هذا المعنى الدالّ بتعبير الغدوة، والروح على الدوام، والاستمرار في مواطن مختلفة، وهي من عيوب شعره كما عدّها عزّ الدين التنوخي⁽¹⁾، منها قوله:

[من الطويل]

وَلَا زَالَ تَسْلِيمُ الْإِلَهِ يَسُوقُهُ
لَهُ غَدَوَةٌ مَا تَنْقُضِي وَأَصِيلُ⁽²⁾
وختم رأيته بصاحب الزمان بقوله:

[من الطويل]

لَا زَالَ تَسْلِيمُ الْمُهِمِّينِ وَاصِلًا
إِلَيْكَ بِهِ سَيْرًا عَشِيًّا وَإِبْكَارِ⁽³⁾
ومن تكراره المعنوي قوله في بعض صحابته:

[من الوافر]

لَا غَرَوْ أَنْ يَأْتِيَ أَبٌ بِشَبِيهِ
وَإِنْ كَثُرَ الْأَبْنَاءُ يَوْمًا وَأُنْجَبَا⁽⁴⁾
وقوله في قصيدة أخرى:

[من الطويل]

لَا غَرَوْ أَنْ يَأْتِيَ أَبٌ بِشَبِيهِ
سَمَاحَةَ نَفْسٍ فِي طَهَارَةِ مَوْلِدِ⁽⁵⁾

(1) عزّ الدين التنوخي، «الأدب في البحرين»، مجلة المجمع العربي، ج 2 مج 8، ص 87.

(2) انظر: الديوان، البيت 38، ص 91.

(3) انظر: م. ن.، البيت 55، ص 65.

(4) انظر: م. ن.، البيت 31، ص 11.

(5) انظر: م. ن.، البيت 39، ص 26.

ب - 2. الشَّرْط

لقد أكثر الشاعر من استخدام أسلوب الشرط بأدواته المختلفة. إذ جاءت أدوات الشرط في قصائده بمختلف أغراضه الشعرية (298) أداة. ركز من خلال ذلك الأسلوب على أدوات بعينها، كما أن غالبية تلك الأدوات جاءت في غرض المدح فالحنين فالرثاء فالوصف ثم العتاب. واستخدامه لهذا النوع من الأساليب يعكس من خلاله النفس التي هو عليها من اضطراب، وعدم تحقق ما يصبو إليه من أهداف تجاه وطنه وأهله وأصدقائه.

وسنكتفي بذكر مجموعة من الأدوات لغرض الإيضاح.

ب - 1. 2. إذا

وهي ظرفية شرطية غير جازمة، وهي في هذا المعنى ظرف للزمان المستقبل ومضافة إلى الجملة الفعلية التي بعدها أي جملة الشرط، وتتعلق بجواب الشرط. وهذا معنى قول بعض المعربين: ظرف لما سيتقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه. ومثال ذلك:

[من الوافر]

إِذَا اسْتَصْرَخْتَهُمْ وَأَفْوَكَ غَضَبِي

كَمَا هَجَّهَجْتَ فِي غَابَاتِ أُسْدٍ⁽¹⁾

وقوله أيضاً:

[من الكامل]

قَوْمٌ إِذَا سَلُّوا الصَّوَارِمَ أُغْمِدَتْ

بِمَقَرِّ تَاجٍ أَوْ مَنَاطٍ نِجَادٍ⁽²⁾

(1) انظر: الديوان، البيت 49، ص 31.

(2) انظر: م. ن.، البيت 27، ص 40.

وتأتي «إذا» أحياناً متبوعة بما الزائدة كقوله:

[مِنَ الخفيف]

وَإِذَا مَا أَحَاطَ بِي وَفَدَّهُمْ
مُهْدِيًا لِي طَرَائِفَ الْأَثْرَاحِ⁽¹⁾

ب - 2. 2. 2. إن

وهي شرطية تفيد عمليّة الربط بين الشرط والجواب، وأغلب وردها عند شاعرنا في العتاب والمدح والحنين إلى الوطن.

مثال ذلك في العتاب:

[من الطويل]

فَإِنْ أَنْتَجِعَ جَدَّوَاكَ حَسْبُ فَإِنِّي
بِمَنْ يَشْتَرِي حَمَدَ الرَّجَالِ خَيْرٌ⁽²⁾

وقوله في المدح:

[من الطويل]

فَتَى إِنْ تَقُلْ هَاتِيكَ حُطَّةً سُودِدِ
عَلَى النَّجْمِ أَوْ أَعْلَى مِنَ النَّجْمِ يَصْعَدِ⁽³⁾

وكقوله في الحنين إلى الوطن:

[مِنَ الكامل]

إِنْ يُصْبِنِي ذِكْرُ الدِّيَارِ فَإِنَّهُ
لِإِنَاثٍ أَصْبِيَّةٍ بِهَا وَدُكُورِ⁽⁴⁾

(1) انظر: الديوان، البيت 4، ص 19.

(2) انظر: م. ن.، البيت 3، ص 46.

(3) انظر: م. ن.، البيت 13، ص 25.

(4) انظر: م. ن.، البيت 9، ص 51.

وقد أفاد ذلك التحسُّر وإظهارَ ما في النفس مِنْ مرارةٍ وألمٍ.

ب - 2. 3. لو⁽¹⁾

وهي حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، وهي لما مضى. واستخدام الشاعر لهذه الأداة جاء بكثرة في قصائد الرثاء ثم الحنين إلى الوطن.

مثال ذلك في الرثاء:

[مِنَ البسيط]

لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ أَفْنَا وَخَلَّدَهُ

وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أفعالِهِ كَرَمًا⁽²⁾

وقوله في الشوق والحنين:

[مِنَ البسيط]

وَزُفْرَةٌ لَوْ تَوَى اليَوْمَ الحَلِيلُ بِهَا

أَوْدَى وَلَمْ يُعْنِ عَنْهُ بُرْدُهُ فِيهَا⁽³⁾

وقد ترد لو مقرونة بـ«لا» الزائدة لغرض امتناع الشيء بسبب وجود شيء آخر كقوله:

[مِنَ الوافر]

فَلَوْلَا أَنْ يَقُولُوا جُنَّ هَذَا

وَإِنِّي إِنْ حَزَزْتُ حَزَزْتُ جِلْدِي

(1) لو: وهي تفيد امتناع المعنى الشرطي في الزمن الماض وتقتضي أن شرطها لم يقع فيما مضى، (أي لم يتحقق في الزمن السابق على الكلام) فهي تفيد القطع بأن معناه لم يحصل، كما تفيد تعليق الجواب عليه في الزمن الماضي.

انظر: عباس حسن، النحو الوافي، 4/491.

(2) انظر: الديوان، البيت 16، ص 113.

(3) انظر: م. ن.، البيت 9، ص 124.

لَمَا أَغْضَيْتُ عَنْ أَحَدٍ وَإِنِّي
أَهُوُّنُ بِالشُّكَايَةِ بَعْضَ وَجْدِي (1)

ب - 3. المنصوبات

ب - 3. 1. المفعول به (2)

يمكن أن نقف على ظاهر انتشار صيغ المفعول به بسهولة عندما نقرأ أي قصيدة من قصائد الشاعر المختلفة. إذ إن استعمال المفعول به يقع على الممدوح في القصائد المدحية، والرثائية لكل من امتدحه، أو رثاه، أو على الشاعر نفسه، أو على أهله في قصائد الحنين، أو على مظاهر الطبيعة: كالصوّاري، والظلام، والسما، وعهاد المزن، وبحر الوغى، وما البحر، وغيرها. وكذلك الحيوان، والإنسان، وغيرها. وقد جاء في قصائده الأربع (89) مرّة (3).

ومنه قوله:

[من الكامل]

أَلْقَى عَلَى الآذَانِ مِنْ أَبْنَائِهِ
مَا يَمْنَعُ الأَجْفَانَ مِنْ إِعْفَائِهَا (4)

إذ إن للمفعول به تأثيراً على نفس الشاعر، حيث وقع فعل الفاعل عليه في قوله حين عاتب أحد أصدقائه وما وقع عليه من كلام فري على شخصه:

(1) انظر: الديوان، البيتان 23، 24، ص 24.

(2) انظر: م. ن، الأبيات: 6، 8، 10، 13، 14، 15، 19، 22، 23، 31، 33، 36، 39، 40، ص 4، 5، والأبيات: 1، 2، 3، 4، 5، 7، 13، 17، 18، ص 84، وفي مواضع كثيرة أخرى.

(3) انظر: جدول المستوى التركيبي، ص 343، من هذا الفصل.

(4) انظر: م. ن، البيت 31، ص 5.

[مِنَ الخفيف]

غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ مِنْ ألسِنِ النَّاسِ

سِ كَلَاماً فَرَى عَلَيَّ إِهَابِي (1)

وهو بهذا المفعول به يقترب مِنْ دائرة الواقع مبرئاً نفسه ممَّا ادَّعاه الواشون على شخصه.

ب - 3. 2. المفعول فيه

وقد ورد بكثرة في مجموع قصائد الشَّاعر المختلفة، إذ إننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض ما ورد فيه خشية الإطالة. كقوله:

[مِنَ الكامل]

يَا مَنْ أَسِيرٌ كُلَّ يَوْمٍ نَحْوَهُمْ

كُتِّبِي إِذَا أُعِيى عَلَيَّ مَسِيرِي (2)

ب - 3. 3. الحال (3)

إذ يرد في شعره بكثرة مبيَّنة حاله في غربته مِنْ حيث الإفراد، والمجاهدة، والنَّوح، والبكاء، والحزن، وحاله مع أهله، وأصدقائه في تقلُّب الأحوال، إذ إنَّه أودع في القصائد الأربع ستَّ عشرة مرَّةً مِنْ ذلك قوله في الرثاء:

[مِنَ الوافر]

تُخَرِّمُ أَسْرَتِي فَبَقْتُ فَرْدًا

أُبَادِرُ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ وَخَدِي (4)

(1) انظر: الديوان، البيت 11، ص 11.

(2) انظر: م. ن.، ص 33.

(3) انظر: م. ن.، الأبيات: 1، 2، 5، 6، 13، 14، 15، 19، 22، 27، 50، 53، 72، ص 29.

36، 38، 39، 85، 92، 95، 97، 113، 114، وفي مواضع أخرى.

(4) انظر: م. ن.، ص 29.

وهو يصوّر حالته مفرداً أمام المنون الذي يتقاذف أرواح أحبابه واحداً تلو الآخر، كما أنّ البيت يؤلّف ثنائيّة بين بقائه وحيداً يجابه مصائبه، وذهاب مجموعة كبيرة من أسرته إلى عالم غير عالمه. وقد تتغيّر تركيبة الحال تبعاً لظروف المقام، فهو حين يمدح يستخدم أحوالاً دالّة على البهجة، والسرور، وكذلك السموّ، والرحال، والسفر، والسماحة، وغير ذلك.

كقوله في مدح وزير البحرين ركن الدين محمود:

[من الخفيف]

فَثَّتْ رُبَّةَ الْوَزَارَةِ عِطْفِي
— هَا ابْتِهَاجًا بِالْأَبْلَجِ الْوَضَّاحِ (1)

ب - 4.3. التَّمْيِيز

ورد مرّات كثيرة في مختلف القصائد، وأكثر منه في غرض المدح، وكان مجموع وروده في القصائد الأربع المختارة تسع عشرة مرّة، كما هو موضّح في جدول الفضلات. كقوله:

[من الكامل]

رِيْمٌ أَعَارَ مَهَى الصَّرَائِمِ أَعْيَنًا
نُجْلًا وَأَرَامَ الْحِمَى أَجِيَادًا (2)

وقوله في الرثاء:

- (1) انظر: الديوان، ص20، وانظر: الأبيات 35، 36، 43، ص20، والأبيات 9، 19، 32، 41، 25، 26، 27، ص25، 26، 27، وفي مواضع أخرى.
- (2) انظر: م. ن، البيت 2، ص43، والأبيات 5، 6، 7، 18، 31، 38، ص44، 45، والبيتان 9، 10، ص39، والبيتان 34، 35، ص50، والبيتان 18، 20، ص84، 85، والأبيات 31، 38، 44، ص91، 92، 97.

[مِنَ الوافر]

فَلَمْ يَعْرِفَنَّ غَيْرَ الْبَيْتِ دَارًا
سِوَى لِحْدٍ سَكَنَ بِهِ وَمَهْدٍ (1)

وقوله في العتاب:

[مِنَ البسيط]

وَلَوْ غَدَا وَهُوَ أَغْلَا مِنْ أَبِي كَرِبٍ
شَانًا وَأُصْبَحْتُ مِنْ فَقْرٍ أَخَا كَرِبٍ (2)

ب - 4. العطف

استخدم أبو البَحر حروف العطف المعروفة في اللغة وهي عشرة (الواو، الفاء، ثم، حتّى، أو، أم، بل، لا، لكن، والكاف) بكثرة في مجموع قصائده، إذ بلغ عدد حروف العطف في القصائد الأربع (168) مرّة، لِمَا لهذه الحروف مِنْ أهميّة في ربط الجمل ببعضها البعض، وكذلك الأسماء المنفردة، والأفعال المختلفة، كما أنّها أدوات ربط حسيّة، أدّت وظيفتها الدلاليّة في أماكن استخدامها. وقد طغى حرف الواو على جميع الحروف مِنْ حيث الاستخدام. وَمِنْ أمثلة ذلك قوله في المدح:

[مِنَ الوافر]

فَهَي تَمْحُو بِضَوْئِهَا صِبْغَةَ اللَّيْلِ
فَيَغْدُو وَجْهَ الدُّجَى وَهُوَ ضَاِحٌ (3)

ومِنَ قوله في الرثاء:

-
- (1) انظر: الديوان، ص31.
 (2) انظر: م. ن، ص6، وانظر: البيتان 3، 6، ص6، والأبيات 4، 13، 27، ص23، والأبيات 33، 35، 71، ص56، 58.
 (3) انظر: الدِّيوان، البيت، 28، ص52.

[مِنَ الطويل]

وَأَسْأَلُهَا عَنَ أَهْلِهَا وَهِيَ لِمَ تُحْرِ
جَوَابًا وَهَلْ يَسْتَنْطِقُ الْعُجْمَ نَاشِدًا⁽¹⁾

ب - 5. المجرور بالحرف

لقد استخدم الشاعر أبو البحر الجار والمجرور بكثافة واسعة في مجمل قصائده، إذ بلغ ورود حروف الجرّ في القصائد الأربع (277) مرّة. كما أنّه ركّز على حروف الجرّ العاملة (الأصلية) بحيث تؤدّي معنيين متلازمين، يكسبان المعنى في الجملة معنىً فرعياً جديداً، ومن أمثلة ذلك قوله في المدح:

[مِنَ الخفيف]

أَلْحَفْتُ بِالسُّوَالِ هَلْ مِنْ صَاحِبِ
لِأَسِيرٍ مَا لَهُ مِنْ سَرَاحٍ⁽²⁾

والجار والمجرور (مِنَ سَرَاحٍ) أكسبا المعنى في الجملة معنىً فرعياً جديداً.

وكذلك قوله في الحنين:

[مِنَ الكامل]

لَا شَيْءَ أَبْهَجُ مَنظَرًا مِنْ صَحْوِهِ
وَالشَّمْسُ فِيهِ كَدَارَةِ البُلُورِ⁽³⁾

(1) انظر: الديوان، ص36، وفي مواضع كثيرة.

(2) انظر: م. ن، ص19، والأبيات: 1، 2، 3، 4، 7، 8، 9، 10، 12، 13، 14، 15، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 30، 31، 33، 34، 36، 37، 42، 44، 45، 46، 48، 49، 20، 21.

(3) انظر: م. ن، ص53، والأبيات: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 15، 16، 18، 21، 24، 25، 26، 27، 29، 30، ص51، 52، 53، وفي مواضع أخرى.

وهو في استخداماته لحروف الجرّ ينظر بعين ثاقبة إلى المقام بحيث يؤديّ به مع المجرور إلى إضافة معنىً دلاليّاً جديداً ليؤثّر في المعنى. كقوله:

[مِنَ الطويل]

ثَوَى بِكَ مِنْ آلِ الْمُقَلَّدِ سَيْدٌ
هُوَ الذَّهَبُ الْإِبْرِيْزُ وَالْعَالِمُ الصُّفْرُ⁽¹⁾

ب - 6. المضاف إليه

لقد تتبّعنا سياقات الإضافة في القصائد الأربع، واتّضح لنا أنّ الشّاعر يسعى بهذه السياقات إلى خلق علاقات اختصاص، وانتساب، وتجريد لوجود بوجود، ذات بذات. وهي تخلق تجانسات تراكميّة، وتعبر عن وجودين مستقلّين.

مِنْ هُنَا نَلْحِظُ أَنَّ الشّاعِرَ أَخَذَ عَلَى عَاتِقِهِ تَوْسِعَةَ دَائِرَةِ تِلْكَ السِّيَاقَاتِ فِي اسْتِعْمَالَاتِهِ لِلإِضَافَةِ فِي شِعْرِهِ. بَحِثْ تَرَدَّدَتْ فِي الْقِصَائِدِ الأَرْبَعِ (329) مَرَّةً، وَهِيَ فِي أَعْلَى الْهَرَمِ التَّرْكِيْبِيِّ مِنْ حَيْثُ الِاسْتِخْدَامِ. وَقَدْ جَاءَ اسْتِخْدَامُهُ لِلإِضَافَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَحَاوِرٍ. وَهِيَ:

علاقة الذات بنفسها، وأكثر ما جاء في سياق قصائد الرثاء. مثل (أَنَا مِلْكٌ، لَجْسَمِكَ، أَكْفَانِكَ، أَبَاؤُهُ، جَدُودُهُ، مَسَاعِيهِ، أُذُنُهُ، مَوْتُهُ، فِرَاشُهُ، نَائِلُهُ، قَبْرُهُ...) (2)، وَمِنْهُ مَا جَاءَ مُلْتَحِمًا بِالشّاعِرِ نَفْسَهُ، وَقَدْ تَمَثَّلَ فِي قِصَائِدِ الْحَنِينِ، مِثْلُ: (بِمَحَلِّ لِدَاتِي، رِبْعِ سُرُورِي، خُدِّي، بِسَاحَتِي، فِرْطِ زَفِيرِي، سَوَادِ مَقْلَتِي، ضَمِيرِي، لِأَصْغَرِ حَبِيبَتِي، كَبِيرِ أَشْوَاقِي، بَحْرِ وَجْهِِي،

(1) انظر: الديوان، ص50، والأبيات: 1، 2، 5، 6، 7، 8، 10، 11، 12، 13، 14، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 24، 26، 31، 34، 35، ص49، 50.

(2) انظر: الديوان، الأبيات: 8، 10، 12، 17، 18، 24، 29، 31، ص49، 50. وفي مواضع أخرى.

مطيّتي، بعيري، سعادة طالعي، نجاح آمالي، يمن طيورِي، هو ظبي،
كتبي، سواد حبري، سواد نظيري⁽¹⁾.

ومنه ما جاء مرتبطاً بالممدوح مثل: (عنده، عيدهِ، كُفهِ،...) (2).
أمّا الأكثر استخداماً في هذا السياق هي العلاقة بين اسمين، أو ذاتين
متميّزين مختلفين، وقد استعمله استعمالاً واسعاً في شعره بحيث
اشتمل على مجمل شعره، وبشكل ملفتٍ للنظر، ومنه: (ابتسام الصباح،
سنا المصباح، صبغة الليل،...) (3)، (أكُفُّ البرايا، بيض المنايا، خيل
الرّزايا،...) (4)، (ديم الرّبيع، ذكر الدّيار، كريمة الطّرفين...) (5).

وقد وسّع الشّاعر من دائرة هذا السياق حتّى شمل الطبيعة،
والحيوان، وغير ذلك. وإذا كان الشّاعر يدفع بهذه الوفرة الهائلة من صيغ
الإضافة، إنّما يوظّف تراكمها الكميّ لإبقاء الزيادة المعنويّة الجزئيّة، أو
الفرعيّة على التركيب الأساسي لعبارته الشّعريّة (6). ويمثّل هذا التّوحد
إشعاراً لمعرفة ذات الشّاعر، وما عاناه في حياته - غير المستقرّة - من
تقلّبات الزمان بالإضافة إلى المواجهة الصّلبة لتلك التقلّبات، وقد
أبرز حالته بطريق الإضافة وغيرها من التراكم.

إذ إنّ الغرض من الإضافة إنّما هو التخصيص والتعريف.

ب - 7. عناصر التركيب الأخرى

استكمالاً للبنى التركيبيّة للجملة الشعريّة عند أبي البّحر،

(1) انظر: الديوان، الأبيات: 1، 5، 6، 7، 8، 10، 20، 22، 23، 25، 29، ص 51، 52.

(2) انظر: م. ن.، الأبيات: 41، 43، 45، ص 20.

(3) انظر: م. ن.، البيتان: 1، 3، ص 19.

(4) انظر: م. ن.، البيتان: 1، 2، ص 49.

(5) انظر: م. ن.، الأبيات: 6، 9، 11، ص 51.

(6) انظر: طحان، الألسنيّة العربيّة، 175/2.

لا بُدَّ مِنَ الوقوف على العناصر المكتملة للجملة، وهو ما يسمَّى بالدَّوَآخِل، وَمِنْهَا النواسخ، وهي إِنَّ وَأخواتها، وكان وأخواتها، وأفعال المقاربة، والشروع، وما يعمل عمل ليس، وأشهرها (ما، وإن، ولا، ولات)، ولا النافية للجنس. أمَّا استخدام الشَّاعر للنواسخ فقد جاء (100)⁽¹⁾ مرَّةً في القصائد الأربع، أمَّا الأكثر استعمالاً هي: (لا)⁽²⁾، (إِنَّ)⁽³⁾، (ما)⁽⁴⁾، (كَأَنَّ)⁽⁵⁾ حسب ورودها في الجدول التالي:

جدول النواسخ

القصيدية	لا	إِنَّ	ما	كَأَنَّ
قصيدة مدح وزير البحرين	5	2	8	-
رثاء أبي عبد الله الحسين	4	10	5	14
الحنين إلى الوطن	9	8	2	1
رثاء شيخ القطيف	6	3	6	2
المجموع	25	23	21	17

نلاحظ مِنْ هذه الأرقام غلبة استعمال لفظ (كَأَنَّ) في قصيدة

- (1) انظر: جدول المستوى التركيبي، ص 343.
- (2) انظر: الديوان، الأبيات: 9، 11، 31، 33، 42، والأبيات: 4، 21، 49، ص 36، 37، والأبيات: 3، 12، 13، 20، 22، 26، ص 49، 50، والأبيات: 6، 26، 27، 29، 30، 31، 40، 50، 52، ص 51، 52، 53، وفي مواضع أخرى.
- (3) انظر: م.ن.، الأبيات: 4، 9، 14، 24، 30، 37، 39، 52، ص 51، 52، 53، وفي مواضع أخرى.
- (4) انظر: م.ن.، الأبيات: 8، 33، 48، 54، 60، ص 36، 37، 38، وفي مواضع أخرى.
- (5) انظر: م.ن.، الأبيات: 3، 10، 11، 15، 18، 30، 37، 43، 46، 47، 52، 66، 67، 68، ص 36، 37، 38، وفي مواضع أخرى.

رثاء الحسين بن علي، لشدة تأثره بواقعة كربلاء، ومخزون أحداثها في ذاكرته.

ورود لفظ (لا) في قصيدة الحنين تسع مرّات دلالة واضحة على الرفض القاطع للواقع الذي عايشه في الغربة والبعد عن الوطن. وكذلك التأكيد على حبه لوطنه، ومَن فيه باستخدامه حرف التأكيد (إنَّ)، وهو بذلك يخلق ثنائيّة بين العيش في الغربة، والرجوع إلى وطنه، وناتجه الرفض لواقعٍ معاشٍ، والتأكيد لواقعٍ يحلم به.

«وباستخدام الشّاعر المعاني التي تُناط بأقسام الكلمة تبرز معانٍ اسميّة ترمز لأشياء، أو لكائناتٍ حسيّة، أو لذهنيّات، أو تصفها، وثمّة معانٍ فعلية تدلّ على أحداثٍ مقرونة بزمانٍ خاصٍّ، وهناك معانٍ حرفية قد تكون أسلوبية كالنفي، والاستفهام، والأمر، والتخصيص، والتمني، والترجي، وقد تكون نحوية ربطية كالترتيب، والمشاركة، والتراخي، وما أشبهها من المعاني المنوطة بأحرف العطف، كالتعليل، والمجازة، والالتصاق، وأشباهها من الدلالات المنوطة بأحرف الجرّ»⁽¹⁾.

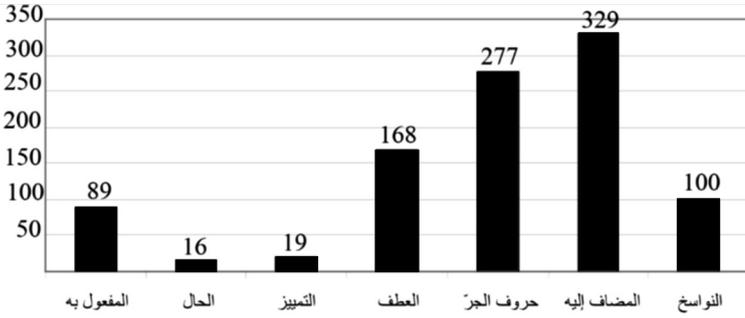
وقد وظّف شاعرنا تلك المعاني خير توظيف، إذ يستكشف القارئ لشعره الحالة الذاتية التي عاشها في وطنه، وغربته.

من كلّ هذا يتّضح أنّ متابعة الخطاب الشعري من حيث الربط الكمي لشبكة العلاقات التركيبية للجملة تخلق ظواهر تعبيرية بارزة، وعند التأمل في جدول المستوى التركيبي نلاحظ ما يلي:

(1) محمد خير حلواني، المعنى الجديد في علم الصّرف، ص 26.

جدول المستوى التركيبي

النواسخ	المضاف إليه	حروف الجر	العطف	التمييز	الحال	المفعول به	الأبيات	الصفحة	القصيدة
38	101	105	51	5	5	27	78	36	رثاء أبي عبد الله الحسين
24	98	85	57	4	1	25	59	51	الحنين إلى الوطن
18	71	49	21	6	7	22	48	19	قصيدة مدح وزير البحرين
20	59	38	39	4	3	15	36	49	رثاء شيخ القطيف
100	329	277	168	19	16	89	221		المجموع



يمكن استشفاف دلالات كثيرة من تلك الأرقام وبخاصة ارتفاع نسبة المضاف إليه، أو ما يقوم مقامها، وذلك ينبئ بأن الشاعر ركز في التعبير التركيبي على الجمل الفعلية. ومن جانب آخر أنه قلل من استخدام النواسخ ليشير بذلك إلى انخفاض الجمل الاسمية نسبياً. ناهيك عن النواسخ عمّا استخدمه من أساليب الربط وغيرها تقليداً لاستعمالات شعراء سابقين.

الفصل الثالث: المستوى المعجمي

مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ اللَّفْظَ الشُّعْرِيَّ عِنْدَ أَيِّ شَاعِرٍ، هُوَ مِرَاةٌ عَاكِسَةٌ لَانْفِعَالَاتِ نَفْسِيَّةٍ، وَإِفْرَازَاتِ لِتَأْثِيرَاتِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَثِقَافِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ، يَتَوَلَّدُ مِنْ خِلَالِهِ الْمَخْزُونُ لِيشكّل تعبيرياً صياغات الشّاعر، ويجعله عملاً فنياً يؤلّف في مجموعته رؤية الشّاعر الحياتية بشكليها الإنساني والكوني، ناسجة بدورها علاقة لغوية ذات معنى. تبرز بصورتها التركيبية حقولاً دلالية، تلك التي استطاع أبو البحر أن يوردها من خلال الحقول المعجمية الآتية:

أولاً: حقل الطّبيعة

ثانياً: حقل اللّون

ثالثاً: حقل النّور

رابعاً: حقل الشّجاعة والبطولة

خامساً: حقل الجود والكرم

سادساً: حقل الوطن

سابعاً: حقل الحزن والأسى

ثامناً: الحقل الديني

تاسعاً: حقل الصّفات البشريّة

عاشراً: حقل الحرف والمهن

أولاً: حقل الطبيعة

لقد مثل الشاعر الطبيعة والبيئة التي درج وتربى على رمالها أوضح تمثيل، إذ صور من خلالها الطبيعة الصامتة، والطبيعة المتحركة، ولا تكاد قصيدة من قصائده، أو مقطوعة من مقطوعاته الشعرية بمختلف أغراضها، إلا وكان للطبيعة حضور واضح فيها.

«وتتجلى الطبيعة في شعر أبي البحر بألوانها وأطيافها، وبمفردات عناصرها وكائناتها، لقد فتن الشاعر أبو البحر بجمال الطبيعة، وفتنت هذه الطبيعة بشعر أبي البحر، والواقع أن هذه الطبيعة وأعني بيئة البحرين المائية، والنباتية، والبحرية التي عاش في أحضانها أبو البحر رحلاً متنقلاً بين ربوعها وأفيائها وسواحلها.. هي من أجمل البيئات العربية وأغناها عهد ذاك.. حيث كان كل ما فيها بكرًا جميلاً لم تمسه يد عابث بسوء، البحر بزرقته وعمقه وخلجانه تتداخل في تضاريس الأرض المكسوة بالخضرة.. الأرض عذراء، حلل النخيل والزرع والأشجار فيما تجري من تحتها وبينها العيون والينابيع العذبة المتدفقة فيما تسحب الينابيع أذيال مياهها الغزيرة على الرمال البيضاء في الشواطئ والبحار والوديان»⁽¹⁾.

ويصدق عليه القول الشائع إن الشاعر ابن بيئته، يستقي من الطبيعة مادةً فنه، ويستمد من وحيها روح معانيه. لذا جاء شعره ممثلاً لبيئته وطبيعتها.

كما أنها أوحى للشاعر بكثير من معانيها وصورها حتى غدت تلك الطبيعة إحدى المقومات الرئيسية لشعره في مجال تعبيره عن حياته وأحواله. وأينما طالعت شعره تلمس جانباً من جوانب

(1) يوسف حسن، الوطن في شعر أبي البحر الخطي، ص35.

الطَّبِيعَةَ وَجَمَالِهَا، مِمَّا يَعْكَسُ أَثَرَهَا عَلَى وَجْدَانِهِ وَأَحَاسِيْسِهِ. كُلُّ ذَلِكَ يَظْهَرُ الْإِمْتِزَاجَ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَالطَّبِيعَةِ.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الشَّاعِرَ الْخَطِيَّ اسْتَجْمَعَ فِي مَعْجَمِ الطَّبِيعَةِ مَا اسْتَطَاعَ مِنَ الْأَلْفَاظِ لِيَصُوِّرَ بَيْتَهُ أَبْلَغَ تَصْوِيرٍ. بَحِثْ شَمَلَتِ الطَّبِيعَةَ الصَّامِتَةَ (السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَالْجِبَالُ، وَالْحَجَرُ، وَالْبَحْرُ، وَالْبَيْدُ، وَالطَّيْنُ، وَالْمَرْعَى، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَالْبَدْرُ، وَالرِّيَّاحُ، وَالْبَرْقُ، وَالنَّبَاتُ، وَالزَّرْعُ وَغَيْرُهُ).

وتلك الألفاظ تعبّر بوضوح عن البيئة المعاشة، وهي تعكس ما يحيط بالشاعر من ظواهر الطبيعة. إذ إنه تمثّلها من جانبين: الجانب الأول استخدم تلك الألفاظ بكثرة لتلائم الغرض الذي يقول فيه الشعر، كالوصف لجمال الطبيعة أو الإشادة بالمدح في علوه ورفعته، وهي من الدلالات التقليدية التي جرى عليها الشعراء الذين سبقوه في العصر الماضي.

مثال ذلك قوله في مدح السيد ناصر القاروني:

[من البسيط]

وَيَا سَحَابَ نَدَىِّ إِنْ شِئْتِ بَارِقَةً
لَمْ تُثْنِي كَفِّكَ حَتَّى بَلَكَ الْمَطَرُ
وَدَوَحَهُ مَا زَكَّتْ أَعْرَافُهَا وَنَمَتْ
إِلَّا وَقَدْ طَابَ مِنْهَا الظُّلُّ وَالثَّمَرُ
مَاذَا عَسَى يَبْلُغُ الْمُثْنِي بِمِدْحَتِهِ
عَلَى أَمْرِيءِ أَبَوَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ⁽¹⁾

أمّا الجانب الآخر، فهو يستخدم تلك الألفاظ ليجعلها مشحونة

(1) انظر: الديوان، ص 45.

بالمعاني الموحية تخطياً لدلالاتها التقليدية، إذ تدفعنا إلى التأمل والتفكير في تلك الطبيعة الموصوفة ودرجة كمالها.

من ذلك قوله:

[من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً
إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ
كَذَلِكَ وَكَو لَمْ يُقْلِعِ الْغَيْثُ لِأَشْتَكْتُ
إِلَى اللَّهِ مِنْهُ الْأَرْضُ أَفْعَالَ مُفْسِدٍ⁽¹⁾

والأمثلة السابقة تؤكّد مدى التصاق الشاعر بالطبيعة المحيطة به، إذ إنّه لم يغادرها في الكثير من أوصافه ومدحه وراثته.

كما شملت تلك الطبيعة الماء بأنواعه: البحر، الغمام، المزن، السراب، الغدران، المطر، الغيث، الجداول، الفرات، عذب المجاجة بارد. وهذه توحى بكثرة الماء ووفرته في منطقة الخليج العربي، وهي من دلالات الخير الوفير والعطاء الطبيعي للمنطقة ممّا انعكس على العطاء الإنساني لأبناء واحات الخليج كأداة للجود والكرم وقد تنوّعت أساليب استخدام هذه الألفاظ بحسب الممدوحين، لكنّه لم يخرج عن أساليب الشعراء السابقين إلا قليلاً.

ومن أمثلة ذلك قوله مهيناً أحد أشراف القطيف:

[من الكامل]

فَسَقَى الْعَمَامُ إِذَا تَحَمَّلَ رَكْبُهُ
تِلْكَ الرَّحَابُ الْفَيْحُ وَالْعَرَصَاتِ

(1) انظر: الديوان، ص 25.

وَاجْتَاذَتْ الْمُرْنَ الْعِشَارُ فَطَبَّقَتْ

بِالسَّقِيِّ مِنْ عُنْكَ إِلَى تَبَكَاتٍ (1)

وقوله أيضاً في مدح بعض الأعيان:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَدِي نَائِلٍ مَا الْغَيْثُ فِي نَاقِعِ الصَّفَا

بِأَنْقَعِ يَوْمًا مِنْهُ لِلْأَمَلِ الصَّدَى (2)

فالشاعر يستحضر الماء ومرادفاته للدلالة على الكرم والعطاء والسَّخَاءِ، لطبيعة البلاد وأهلها.

بالإضافة إلى ما تناثر بكثرة في ديوانه مِنْ أسماء الحيوانات الأليفة والمفترسة: (كالبلابل، والأرانب، والنَّعام، والإبل، والخيل، والثَّعالب، والأسود، والعقارب، والحوت، والجوارح، وغيرها)، فقد استخدم هذه الألفاظ ومرادفاتها استخدامات مختلفة بعضها للدلالة على السُّرعة كالأرانب، والنَّعام (3) ممَّا لا يسمح المقام بذكرها خوف الاستطراد والإطالة.

وأعظم مثال لامتزاج الشَّاعر بالطبيعة وصفه لدولاب القميَّيات، إذ ورد في القصيدة سِتُّ وثلاثون لفظةً مِنَ الألفاظ المباشرة للطبيعة وهي: (يا غاديات السُّحب، السَّقِي، دولاب، سُقيا، ثمر، ليلاتي، روض، مطارف سندسيَّة، نواجم الزَّهرات، شقيقة حمراء، الورقات، عرارة

(1) انظر: الديوان، ص 16.

(2) انظر: م. ن.، ص 25.

(3) كقوله في كلاب الصَّيْد:

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَلَمْ أَرَ كَالِكِلَابِ ذَوَاتِ عَدُوِّ عَلَى إِثْرِ الْأَرَانِبِ وَالظَّبَّاءِ

انظر: الديوان، ص 3.

صفراء، شمس الضُّحى، أبهج منظرًا، الشَّمس، بردًا، أدكن، سنا، البروق، نسامته، بلابل، الحمام، الماء، جداول، الخيل، عناقد كرمة، نواظر الأوراق، خضر البراقع، يا نبتة الأعطاف، شَهد، ماء الفرات⁽¹⁾.

ودولاب القمعيَّات روضٍ مِنْ رياضِ الجَنَّة، نشرت فيه مطارف السُّندس، وبدت عليه نواجم الزَّهر، وهو في تلك الأبهة يستوقف النَّاطِر إليه ما بين شقائق حمراء ياقوتيَّة، وأزهار البَّهار الصفراء البريَّة مع أصوات تغريد البلابل، وتناوح الحمام وأنغام الرِّباب، وضجَّة النَّاي كلُّها تشكِّل أنغاماً موسيقيَّة متناسقة⁽²⁾.

والصورة تعبَّر عن خيال خصب، إذ إنَّها تسجيل فوتوغرافي للطَّبيعة، ومحاكاة لها. وما تلك الألفاظ إلَّا علامة على امتزاج الشَّاعر بعالم الطَّبيعة.

ومِن الطَّبيعة انبثق عالم اللُّون، ليشكِّلا عالماً واحداً، حتَّى غديا مرآة عاكسة لنفسية الشَّاعر مع ذاته، ومع شرائح المجتمع المختلفة، ومع الحياة.

ثانياً: حقل اللون

«إنَّ دراسة المعجم - في كلِّ أبعادها - تحتاج إلى نوعٍ مِنَ الإحصاء الَّذي لا يعمل لحسابه، وإنَّما لحساب الخطاب الَّذي يتَّصل به، ثمَّ مِنَ الإحصاء تتحدَّد النواتج الشعريَّة التي تتجلى على مستوى السَّطح، أو على مستوى الباطن خاصَّةً إذا أدركنا أنَّ دوالَّ اللُّون - غالباً - تؤثر تأثيراً بالغاً في خلق فضاء شعريٍّ يوازي النَّصَّ القائم بالفعل، إذ هي تحيل بالضرورة على مدلولات غائبة عن النَّصِّ، وهذه الإحالة تقتضي التَّحرُّك في الفضاء النَّصِّي للبحث

(1) انظر: الديوان، ص 15، 16.

(2) انظر: أحمد الربيعي، «أبو البحر الخَطِّي»، ص 175.

عنها واستدعائها إلى مجال التلقي ليكتمل للنص وجوده بالفعل وبالقوة على صعيد واحد»⁽¹⁾.

اللون عنصر تنفرد به حاسة من حواس الإنسان الخمس وهي: حاسة البصر. وهذا العنصر المذكور يؤدي دوراً شعورياً لا يُستهان به في حياة الإنسان. كما أن اللون بطبيعته يحدث في النفس أثره المحسوس، فبعض هذه الألوان تبعث في النفس شعوراً بالبهجة والسُرور، وبعضها الآخر يبعث الإحساس بالحزن والكآبة.

ويتمخض من ذلك أن للون صلةً بالإحساس الظاهري والباطني للإنسان فكما استعان الشاعر بالطبيعة ليسقط ذاته فيها، استعان - أيضاً - باللون كمؤثر شعوري للتعبير عن أفراحه وأتراحه جرّاء محدثات الدهر. ومن استخدامات شاعرنا للفظه اللون بعينها قوله:

[من البسيط]

سَوَادٌ فَرَعِ التِّي هَامَ الْفُوَادُ بِهَا
وَحَظٌّ عَاشِقِهَا فِي اللَّوْنِ سَيَانُ⁽²⁾
وقوله في مكان آخر:

[من الخفيف]

وَأَقَادَتْ سُلَافَةَ الْخَمْرِ لَوْنًا
عَنْدَمِيًّا وَمَرَشَفًا سَلْسَالًا⁽³⁾

فالشاعر يعبر في البيت الأول عن حالته النفسية من هيام الفؤاد بالمحبة مما جعل الألوان تمتزج في مخيلته، وتحرك شعوره من حرة الوجد.

(1) انظر: محمد بن عبد المطلب، قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، ص 124.

(2) انظر: الديوان، ص 118.

(3) انظر: م. ن.، ص 99.

أما البيت الثاني فقد أبرز لون الموصوفة (الخمرة) ليجعلها زاهية
حاضرة أمام السامع، أو القارئ ليطرب بها وينتشي بلونها.

وتزداد أهمية اللون عند شاعرنا من خلال ارتباطه بالطبيعة
بمختلف مداركها لتشمل (الروض، والزرع، والكوكب، والبدر،
والقمر، والشمس، والسماء، والبحر، وغير ذلك من عناصر الطبيعة
ومرادفاتها).

تلك الطبيعة هي طبيعة بلاده القطيف، والبحرين بما حوته
من بيئة خضراء زاهية بالألوان. وخير الشواهد على ذلك قوله من
قصيدة تزخر بالألوان:

[من الكامل]

رَوْضٌ كَمَا شَرَقَتْ مَطَارِفُ سُندُسٍ
تَدْكُو عَلَيْهِ نَوَاجِمُ الزَّهْرَاتِ
يَسْتَوْقِفُ الْأَبْصَارَ بَيْنَ شَقِيقَةٍ
حَمْرَاءَ يَأْفُوتِيَّةِ الْوَرَقَاتِ
وَعَرَارَةٍ صَفْرَاءَ أَنْهَتْ صَقْلَهَا
شَمْسُ الضُّحَى دَهْيِيَّةِ الصَّفَحَاتِ

وقوله في القصيدة نفسها:

وَالنَّخْلُ مِثْلُ عَرَائِسِ دَهْيِيَّةِ الْوَقْرِ
أَنْدَاءِ فَيْرُوزِيَّةِ الْوَقْرَاتِ⁽¹⁾

فالشاعر يستحضر الألوان: (الأخضر، والأحمر، والأصفر) لا للوصف
فحسب، بل للدلالة على الخير والخصوبة في بلاده.

وحين تتبّعنا ظاهرة اللون في شعر أبي البحر، وجدناها تتركز في

(1) انظر: الديوان، ص 17.

جوانب أربعة: قصائد المديح ثم قصائد الرثاء ثم الوصف والغزل. وما عدا ذلك فهو مجرد إشارة لونية عابرة، وذلك في الأغراض الأخرى. وقد وردت ألفاظ هذا الحقل على النحو التالي:

في قصيدة يمدح فيها وزير البحرين: (تمحو بضوئها صبغة الليل، دم الكباش، نور وجهها، ظلام الشعر، مستنير، النهار، الإصباح، شمسَيْن، المنير، الليل، بدرَيْن، الوضاح، نور الهلال، ضوء براح، عزّة بيضت، الأوضاح)⁽¹⁾.

ومن قصيدة مدح أخرى جاءت الألفاظ: (الليالي، الثبر، البدر، الروض، الزهر، درّة، ضوء الفجر، اللؤلؤ الثمين، الدرّ، كالبدر، ضوئه يبيض، سواد الحبر، درّة)⁽²⁾.

ومن مدحه السيّد الشريف جعفر بن عبد الجبار ورد ما يلي: (الصباح، الليل، الزهر، الرياض، حُمُر، أبيض، شان أبيض، ظلمة، وريقا، القراطيس)⁽³⁾.

وفي قصيدة مدح الشريف العلويّ عبد الرؤوف الحسينيّ وردت الألفاظ التالية: (درر، لسان، ظلام، الأسود، بحر، ليل حس، صباح، دوحه)⁽⁴⁾.

أمّا في قصائد الرثاء فقد ورد في رثاء عبد القاهر الموسويّ من الألفاظ ما يلي: (دماء، إمساء، الظلام، ظلماتها، سوداً، دماها)⁽⁵⁾.

وفي قصيدة رثاء سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين بن عليّ،

(1) انظر: م. ن.، الأبيات: 3، 5، 17، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 30، ص 19، 20.

(2) انظر: م. ن.، الأبيات: 31، 33، 36، 37، 38، 41، 59، 95، 98، 101، 103، ص 55 وما تلاها، وانظر: م. ن.، ص 43.

(3) انظر: م. ن.، الأبيات: 3، 17، 22، 40، 41، 54، 58، ص 81 وما تلاها.

(4) انظر: الديوان، الأبيات: 6، 7، 8، 18، 24، 29، ص 27 وما تلاها.

(5) انظر: م. ن.، الأبيات: 6، 17، 23، 24، 32، ص 4 وما تلاها.

وردتِ العبارات التَّالِيَة: (لولا احمرار الدَّمع، خضيب الحوامي مِنْ دماه، حمر الدَّماء، وتظلم مِنْه أربع ومشاهد، براقع، بييد اللَّيالي ذكرها)⁽¹⁾.

وفي رثاء شيخ القطيف ورد ما يلي: (دماؤهم حمر، اختفى ذلك البدر، أكفانك البيض، الدَّهب الإبريز، إذا ما دجى ليل)⁽²⁾.

وبمتابعتنا لظاهرة اللَّون في شعر أبي البحر نجد تركيز الشَّاعر على الألوان التَّالِيَة:

أ - ورد اللَّون الأسود ثمان وثلاثين مرَّةً، وتمثَّل في قصائد الرِّثاء مع كثرة مِنْ الألفاظ الدَّالَّة على اللَّون الأسود كمرادفات له كأنَّ يقول كلمة مماثلة أو مرادفة لها في المعنى. وَمِنْ تلك الألفاظ ما يلي: (إمساء، الظَّلَام، ظلمائها، سوداً⁽³⁾، اللَّيالي، مساء⁽⁴⁾، براقع، اللَّيالي)⁽⁵⁾.

وَمِنْ غير الرِّثاء قوله: (ليلة، حنادس، الدُّجى، الغيم، داجي، الغرائز، سواداً)⁽⁶⁾.

كما أنَّه كرَّر الكثير مِنْ هذه الألفاظ الدَّالَّة على الحزن والأسى والمعاناة بمختلف دلالاتها الحزينة، ليقودنا إلى قصده مِنْ استعماله لهذه الألفاظ. إذ ارتبط اللَّون الأسود عند العرب منذ القدم بالحزن والمأساة. لذا وجدنا شاعرنا يستخدم لفظ اللَّون

(1) انظر: م. ن.، الأبيات: 2، 23، 30، 31، 39، 54، ص 36، 37.

(2) انظر: م. ن.، الأبيات: 1، 6، 12، 16، 28، ص 49، 50.

(3) انظر: م. ن.، الأبيات: 17، 23، 24، ص 4.

(4) انظر: م. ن.، البيتان: 19، 21، ص 29.

(5) انظر: م. ن.، البيتان: 39، 54، ص 36 وما بعدها.

(6) انظر: م. ن.، الأبيات: 1، 4، 5، ص 1.

الأسود مباشرة أو باستخدامه الألفاظ غير المباشرة. وتلك في قصائد الرثاء والحنين بشكل أكبر. ونتاجها الدلالي هو الحزن والألم.

ب - أمّا استخدامات شاعرنا للون الأخضر فقد تمثّل - كما مرّ بنا - في قصائد الوصف ووصف الطبيعة بالذات. إذ استخدمه ثلاثاً وعشرين مرّة، مرتبطاً مع عناصر من طبيعتها الخضرة، كالنبات والزهور، وما تنبته الأرض من جمال طبيعيّ يبعث الأمل والتفاؤل والعطاء المتجدّد.

ومن ألفاظ هذا اللون ما يلي: (خضرة الشوارب، أوراق سندسيّة، أغصان، دولا⁽¹⁾ب، روض، مطارف سندسيّة، نواجم الزهرات، النخل، عناقيد الأوراق، خضرة البراقع، نبتة، الجميم، الغصن الرطيب، الثّوار، الورد، نوّاره، روض، نا⁽²⁾جم زهره، خضر الملابس).

ج - ويأتي اللون الأحمر ليقدم واقعاً دموياً بدلالاته الواضحة عن حاله الاجتماعيّ والسياسيّ المؤلمين، إذ ورد في السياقات التّالية: (دم، حمراء، قاني، أحواء⁽³⁾)، في حمرة الوجنات، محمّرة الشّفرات، دم شاة، لهاتي⁽⁴⁾)، وأدمع إن جرت حمراً⁽⁵⁾.

(1) الدّولا⁽¹⁾ب والدّولا⁽¹⁾ب، كلاهما: واحد الدّوايب. وفي المحكم: على شكل التّاعورة، يستقى به الماء، فارسيّ معرّب. ابن منظور، لسان العرب، مادّة: (د، ل، ب)، 377/1.

(2) انظر: الدّيونان، ص 9، 14، 24، 25، 41، 52، 53، 69.

(3) انظر: م. ن.، البيتان: 1، 5، ص 1.

(4) انظر: م. ن.، الأبيات: 14، 15، 19، 21، ص 17.

(5) انظر: م. ن.، 11، 18.

وتعتبر قصيدة «السَّبِيْطِيَّة» خير مثال على حمرة اللَّفْظ: (دماء، دم لم يرق، دم وجهه، دامي الفم والثَّغْر، دامي المحيَّا، يد ذابح، السَّكِين، نَزَف الدِّمَاء، التُّقَط الحمر)⁽¹⁾.

والشَّاعر في هذه القصيدة «يوسِّع مِنْ دَائِرَةِ التَّعْبِيرِ الشُّعْرِي عَنْ حَدْثٍ عَادِي بَلْ إِنَّهُ يَحْمَلُهُ مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِلُّغَةِ الشُّعْرِيَّةِ السَّائِدَةِ فِي عَصْرِهِ، رَاسِماً أَجْوَاءَ مَهْوَلَةٍ وَمَفْزَعَةٍ تَتَقَاطَرُ مِنْهَا الدِّمَاءُ حَتَّى كَأَنَّهُ يَشِيرُ إِلَى حَقِيقَةٍ مَوْضُوعِيَّةٍ أَكْبَرَ مِنَ الشُّعْرِ نَفْسِهِ»⁽²⁾.

د - وأخيراً يأتي اللَّون الأبيض بدالتين مختلفتين، في الأولى بدلالاته على الطَّهَارَةِ والنَّقَاءِ والصِّفَاءِ، حيث يتكرَّر عشر مرَّات في قصائد المدح، وذلك في الألفاظ التَّالِيَةِ: (البدْر، الضِّيَاء، مستنيراً، نور الهلال، ضوء براح، الوضَّاح، غرَّة بيضت⁽³⁾، مضيء، أبيض..)⁽⁴⁾.

وفي التَّانِيَةِ يأتي بلفظ المشيب بلونه الأبيض النَّاصِع كمعادلٍ شبيهه بصورة دلاليَّة مختلفة كقوله:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا هُوَ كَفَّ الشَّيْبَ مِنْهُ تَرَاجَعَتْ
نَوَازِعُ يَسْتَحْوِذْنَ مِنْ غَيْرِ الصِّبَا⁽⁵⁾

وكذلك قوله:

-
- (1) انظر: الديوان، الأبيات، 1، 4، 10، 11، 19، 21، 22، 23، ص 47 وما تلاها.
(2) محمد رضا نصر الله، «قراءة في شعريَّة منحرفة»، ص 205.
(3) انظر: الديوان، الأبيات: 21، 22، 27، 28، 30، ص 19.
(4) انظر، م. ن، البيتان: 15، 17، ص 24، وانظر: م. ن، ص 17، 27، 43، 55، 81.
(5) انظر: م. ن، ص 10.

[مِنَ الخفيف]

لَا أَرَى صَفْقَةً بِأَخْسَرَ لِلْمَرِّ
 وَيَجْرِي الْقَصَا بِمَا لَا يُرِيدُ
 مِنْ هُجُومِ الْمَشِيبِ وَهُوَ دَمِيمٌ
 وَتَوَلَّى الشَّبَابِ وَهُوَ حَمِيدٌ⁽¹⁾

فاليأس مِن طبيعته الرقة الخالصة، كما أنه يستثير مشاعر العطف والحنان.

وَمِنَ اللّافِتِ لِلنَّظَرِ فِي هَذَا الْحَقْلِ التَّدَاخُلِ وَالتَّنَائِيَةِ فِي اللَّوْنِ الْوَاحِدِ. إِذِ إِنَّهَا تَشَكَّلُ ظَاهِرَةً بَارِزَةً فِي شِعْرِ أَبِي الْبَحْرِ. ففِي اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ نَلْحِظُ اسْتِخْدَامَ هَذَا اللَّوْنِ فِي دَلَالَتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ، ففِي الْوَقْتِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْكَآبَةِ وَالْحُزَنِ وَالْمَأْسَاةِ اسْتَغْلَهُ الشَّاعِرُ فِي بُعْدِ آخِرِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْجَمَالِ وَالْمُبْهَجِ، لِيُمَثِّلَ ظَاهِرَةً مِنْ ظَوَاهِرِ الْجَمَالِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قِصَائِدِ الرُّثَاءِ، وَقِصَائِدِ الْحَنِينِ، وَقِصَائِدِ الْغَزْلِ مِنْ ذَلِكَ: (أَحِيلَتْ بِيضُهَا سَوْدًا)⁽²⁾، ظَلَامَ حِطِّي الْأَسْوَدِ⁽³⁾، ظَلَامَ الشُّعْرِ⁽⁴⁾.

كَمَا أَنَّنا نَلْحِظُ التَّنَائِيَةَ فِي اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ أَيْضًا، إِذْ سَبَقَ وَبَيَّنَّا دَلَالَاتِهِ عَلَى الظَّاهِرَةِ الدَّمَوِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ يُمَثِّلُ مِنْ جَانِبِ آخِرِ دَلَالَاتِ جَمَالِيَّةٍ مُمَثَّلَةٍ فِي الْعِبَارَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ: (مَحْمَرَّةُ الشُّفْرَاتِ، حَمْرَةَ الْوَجَنَاتِ)⁽⁵⁾.

وَكذلك اللَّوْنُ الْأَبْيَضُ بِصِفَائِهِ وَرَفَّتِهِ شَكَّلَ ثَنَائِيَّةً وَاضِحَةً. ففِي الْوَقْتِ الَّذِي تَحَدَّثَ فِيهِ الشَّاعِرُ عَنِ النِّقَاءِ وَالطَّهَارَةِ فِي قَوْلِهِ:

(1) انظر: الديوان، ص 35.

(2) انظر: م. ن.، ص 5.

(3) انظر: الديوان، ص 27.

(4) انظر: م. ن.، ص 19.

(5) انظر: م. ن.، البيتان: 14، 15، ص 17.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَمَا سَوَدَّ النَّسَابُ وَجْهَ صَحِيفَةٍ

بَأَبْيَضٍ مِنْهُ وَجْهَ أَصْلٍ وَمُحْتَدٍ⁽¹⁾

يأتي المشيب بلونه النَّاصِع ليشكّل ثنائية معاكسة دلاليّاً في اللّون الواحد.

ثالثاً: حقل النور

يتّسع الحقل الدّلالي لمحور النّور ليعبّر في مضمونه عن الأمل الّذي تجيش به نفسه للعودة إلى وطنه وطموحه للرّاحة والطّمأنينة والعيش الكريم في بلده الّذي طالما بعّد عنها لأسبابٍ سياسيّة.

ويقابل هذا الحنين الجارف شعور حادّ بالاغتراب السّياسيّ - إنّه لا يرضى الإقامة في شيراز رغم استمتاعه بجوّها وارتياحه إلى وجوه بناتها، لذلك يتأوّه «على أوال» ولا يرضى بأنّ تباع أزقة فارس بالفيح⁽²⁾ من عرصاتها والدّور:

رَغْمَ أَنْ شِيرَازَ لَا يَكَادُ

الْوَصْفُ يَأْتِي وَإِنْ تَنَاهَى عَلَيْهَا

لَيْسَ تَذْرِي أُسْرُورُ

النَّفْسِ يَأْتِي مِنْ خَلْفِهَا أَمْ لَدَيْهَا⁽³⁾

لكنّها ليست عنده بأبهج من (أوال) جناباً، ولا يقايض وطناً غيره بوطنه الّذي يسكنه هاجساً وتاريخاً وحياة⁽⁴⁾.

(1) انظر: الديوان، ص 25.

(2) الفيح: خصب الرّبيع في سعة البلاد، والجمع فُيُوح. انظر: لسان العرب، مادّة: (ف، ي، ح)، 550/2.

(3) انظر: م. س، ص 123.

(4) محمد رضا نصر الله، «قراءة في شعريّة منحرفة»، ص 220.

مِنْ هُنَا يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّ الْأَمَلَ كَانَ يَحْدُو الشَّاعِرَ، وَنَفْسَهُ تَضِيءُ لَهُ طَرِيقَ الْعُودَةِ، مِمَّا جَعَلَهُ - بِإِرَادَتِهِ وَغَيْرِهَا - أَنْ يَكْثُرَ مِنْ أَلْفَاظِ النُّورِ، إِذْ مَجْمَعُهَا مَائَتِينَ وَخَمْسَةَ أَلْفَاظٍ كُلِّهَا دَالَّةٌ عَلَى الْأَمَالِ الْمُضِيئَةِ الْمُرْتَقِبَةِ. وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: (التَّجَمُّ، الشَّمْسُ، الْبَدْرُ، الضُّوءُ، الْكَوَاكِبُ، نُورُ الْهَيْلَالِ، الصُّبْحُ، الْمَصَابِيحُ، ذَهَبِيَّةُ الصَّفَحَاتِ، سَنَا الْبُرُوقِ، الْفِرَاقِدُ، شَمْسُ الضُّحَى، الْوَمِيضُ، أَقْمَارُ، ضَوْءُ الْمَصَابِيحِ، الْبَدْرُ الْمَنِيرُ، شِعَاعُ النَّارِ، قَمَرٌ يَضِيءُ، نَجْمُ الدِّينِ، شَمْسُ الدِّينِ... الخ)⁽¹⁾. فَقَدْ تَكَرَّرَتْ لَفْظَتَا النُّجْمِ وَالشَّمْسِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ مَرَّةً.

أَمَّا لَفْظَةُ الْبَدْرِ فَقَدْ تَكَرَّرَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً. كَمَا تَكَرَّرَتْ لَفْظَةُ الضُّوءِ وَمَشْتَقَاتُهَا ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً. نَاهِيكَ عَنِ الْأَلْفَاظِ الْأُخْرَى الدَّالَّةِ عَلَى مَحْوَرِ النُّورِ. وَمِنْ اسْتِخْدَامَاتِهِ لِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ قَوْلُهُ فِي الْحَنِينِ:

[مِنْ الْبَسِيطِ]

يَا وَيْحَ نَفْسِي أَمَا شَيْءٌ يَعْزُّ لَهَا
إِلَّا وَظَلَّ لِبِلْوَاهَا يُعْنِيهَا
إِنْ أَوْمَضَ الْبَرْقُ أَشْجَاهَا وَإِنْ هَتَفَتْ
وَرُقُّ الْحِمَى بَاتَ حَرُّ الشُّوقِ يَحْمِيهَا⁽²⁾
وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ فِي الْغَزْلِ قَوْلُهُ:

[مِنْ الْخَفِيفِ]

ذَاتَ وَجْهِ أَهْدَى سَنَاهُ إِلَى الْبَدْرِ
رِ وَفَرَعٍ أَعْدَى الظَّلَامِ سَوَادُهُ

(1) انظر: الديوان، ص2، 18، 19، 22، 23، 41، 44، 45، 50، 51، 55، 56، 59، 63، 68، 70، 71، 73، 77، 80، 82، 83، 92، 95، 96، 98، 99، 102، 103، 105، 106، 110، 111، 115، 116، 118، 119.

(2) انظر: م. ن.، ص124.

فَهُوَ لَيْلٌ أَطْلَقَ فَوْقَ نَهَارٍ

عُلُوقًا فَوْقَ بَانِيَةِ مِيَادُهُ⁽¹⁾

تعكس هذه الألفاظ الطَّبِيعَةُ المَضِيئَةُ واللَّيْلُ المَقْمَرُ والشَّمْسُ المشعَّةُ تلك التي غادرها الشَّاعِرُ بجسْمه، ولم يغادرها بخياله وبنفسه، فهو يرى بيئته بطبيعتها مِنْ خِلالِ هاجسه النَّفْسِي، وكأنَّها ماثلة أمام عينيه. وَمِنَ المُلَاحِظِ أَنَّ الألفاظ تلك تَرَكَّزَتْ وتغلَّغَتْ في قصائد الحنين، وَمِنْ ثَمَّ المَدْحُ والغزل.

وَأَتَصَوَّرُ أَنَّ هذه الألفاظ ما هي إِلَّا رموز لواقع مشرق مرتقب، كما أَنَّها تحمل في طيَّاتها طموحات الظَّفَرِ، والنَّصْرَ على المستعمر، وَمِنْ ثَمَّ إبعاده عن أرض الوطن.

لذلك جاءت معظم قصائده خاصَّة الحنين إلى الوطن تعبِّرُ عن تجاربه وممارساته الواقعيَّة التي امتزجت مع التَّجربة العاطفيَّة، والحسيَّة بشكل تعبِّرُ عن حيويَّتها وعنفوانها وتواصلها مع الحياة المتفائلة المشرقة.

رابعاً: حقل الشجاعة والبطولة

لحقل الشَّجاعة والبطولة ارتباط وثيق بحقل الأسى والحزن، لذا نجد الألفاظ الموحية بالشَّجاعة والبطولة تَرَكَّزَتْ في قصائد المديح بشكل عام، وفي قصائد الرِّثاء بشكل ملحوظ. إذ نجدها في القصائد المدحيَّة على النَّحو التَّالِي: (ومجرَّ أرسان الجياد، فوق الصَّعيد، الهجمات، دم العِشَار⁽²⁾، السَّهَام، كسرويِّ، رستمِي الكفاح، أسد الفتك، أجدل الخطب، ذيب الكرِّ، فهد الوثوب، كبش النَّطاح، السِّلَاح⁽³⁾،

(1) انظر: الديوان، ص 43.

(2) الدِّيوان، ص 7، الأبيات 1، 2، 19.

(3) م. ن.، ص 20، الأبيات 31، 37، 38، 39، 41.

يد صيقل، متن الحِسام، المَهْنَد⁽¹⁾، يطوي المفاوز، الصوارم⁽²⁾،
القنا، البيض، العتاق، رايات، موكب، لا يعطي الملوك مقادا، قمص
الحديد، عانقوا الآسادا، جماجم، صيده، بيض الصَّفاح⁽³⁾، ومكان آخر
وصف الممدوح بألفاظ (اللَيْث، الهزبر، الأبطال، صرعى الوغى، بدر
الجماجم، جحفل، البيض⁽⁴⁾).

ومِنْ قصيدة يمدح فيها ملك الدَّورق تشعُّ ألفاظ الشجاعة والبطولة
على المنوال نفسه لمناسبة الموقف الَّذي قيلت مِنْ أجله القصيدة ما
يلي: (القنا، سلطان، الوغى، الخيلان، البطل، الحسام، الطعن)⁽⁵⁾.

وكذلك قوله في مدح الإمام المنتظر وردت الألفاظ التَّالية:
(الرَّمح، السَّيف، أسمر عَسَّال، أبيض بَتَّار)⁽⁶⁾.

أمَّا الألفاظ الموحية بالشَّجاعة والبطولة في قصائد الرِّثاء فهي
لا تختلف عمَّا ذكره في المديح إذ سار به على النَّمط نفسه.

وعلى سبيل المثال لا الحصر ما ورد في رثاء ثلاثة مِنَ العلويين ما يلي:
(قنا خطيَّه، سيوف الهند، كالرَّماح، بكل مثقَّفٍ مصقول، بذِي الرُّمحين)⁽⁷⁾.

ومِنْ قصيدته في رثاء سيِّد الشُّهداء أبي عبد الله الحسين بن
عليّ ورد ما يلي: (اللَيْث، الأسود، اللّوابد، سمر الرَّماح، البطون،
الأساود، الرؤوس، البطون، ذو الأشبال، أشجع، السَّيف، رماح، ليوث)⁽⁸⁾.

(1) الديوان، ص24، البيت 4.

(2) م. ن، ص28، البيتان 17، 34.

(3) م. ن، ص44 وما تلاها، الأبيات 18، 34، 35، 36.

(4) م. ن، ص72 وما تلاها، الأبيات 17، 18، 19، 23.

(5) م. ن، ص59 وما تلاها، الأبيات 37، 41، 46، 47.

(6) م. ن، ص63، البيت 52.

(7) الدِّيوان، ص29، الأبيات 25، 26، 50، 51.

(8) م. ن، ص36، الأبيات 10، 12، 13، 14، 20، 26، 44، 66.

وَمِنْ رِثَائِهِ لِأَبِي جَعْفَرِ عَبْدِ الرَّؤُوفِ الْمَوْسَوِيِّ وَرَدَتْ الْأَلْفَاظُ
التَّالِيَةُ: (ليث الغاب، الآساد، طود شامخ، أي امرئٍ صعب القيادة، ري
القنا، سلّوا الصوامر، شرعوا الرّماح، ومهتدأً)⁽¹⁾.

كما جاء في مرثية شيخ القطيف الأكبر الألفاظ (الفرسان،
البيض، والسُّمر، ليث، وغى، المهتدة البتر، المثقفة السمر، مساعير
حرب، الرّماح)⁽²⁾.

وأخيراً مقطوعة رثائية يعزّي بها بعض الأعيان وردت فيها
الألفاظ التّالية: (سيف، رمح، شبل، ضرغام)⁽³⁾.

لقد تأثّر شاعرنا بذوق العصر الذي جعله لا يخرج عن مألوف
عصره - في هذا الجانب خاصّة - في تخيير الألفاظ الشّائعة عند
شعراء عصره ومن سبّوهم في العصور الغابرة، كما أنّه بهذه الألفاظ
يحافظ على موروث اللّفظ القديم هذا من ناحية ويدلّ على سعة
ثقافته للموروث الشّعري من ناحية أخرى. ممّا ألزمه التّقيد به في
المجال نفسه.

وثمة أمر آخر هو طبيعة العيش والحياة التي كان يعيشها في
عصره، والنّظم والأعراف السّائدة في ذلك العصر.

لذا فقد حشد في قصائده المدحيّة، والرثائيّة الألفاظ الدّالة
على طبيعة الحياة المعاشة في عصره، والمستخدمة في موروثه
الشّعري المطلق عليه؛ وذلك للدّلالة على قدرة الشّاعر على توظيف
الموروث اللّفظي توظيفاً محكماً ومؤثراً في الوقت ذاته وذلك في
المدح والرّثاء كسائر الشعراء السّابقين.

(1) الديوان، ص 39، الأبيات 2، 12، 13، 25، 26، 27، 32.

(2) م. ن، ص 49، الأبيات 2، 3، 23، 24، 25، 26، 27.

(3) م. ن، ص 68، البيتان 4، 13.

وبما أنّه ذكر الشّجاعة والبطولة، فلا بدّ وأنّ يذكر السّيف والرّمح والقنا والأسد والضّرغام والشّبل وغيرها من الألفاظ الموحية بالشّجاعة والبسالة؛ لأنّ تلك الألفاظ مرآة عاكسة لقوّة الممدوح. ومن جانب آخر استطاع شاعرنا بما يملك من ثقافة حربيّة أن يجمع أدوات الحرب المستعملة آنذاك بمختلف أنواعها ومترادفاتها؛ فمثلاً ذكر السّيف والحسام، الصيقل والمهتد ليشير إلى القوّة الحربيّة التي يتمتّع بها ممدوحه أو مرثيه. كما أنّها هي الأدوات الواجب توافرها لدى أيّ فارسٍ شجاعٍ عرف في عصره.

ومن الملاحظ أيضاً بأنّ الشّاعر يقرن كثيراً السّيف والرّمح بالأسد والضّرغام والشّبل ليعزّز قوّة ممدوحه.

وثمة أمر يجب الإشارة إليه، إذ يأخذنا الشّاعر بقدرته التّصويريّة إلى جوّ المعركة بما يثبته في القصيدة من أمور الحرب ومقتنياتهما.

فالسّيف والرّمح والقنا وأسمر عسال، وأبيض بتار كلّها أدوات حربيّة دالّة على القوّة والبسالة، واستخدامها يدلّ على الثّقة والإصرار على النّصر. ومن استخداماته لهذه الأدوات في إحدى مدحيّاته:

[من الطويل]

يَعْرِضُ لِلتَّقْيِيلِ خَدًّا كَمَا جَلَتْ

يَدَا صَيْقِلٍ مَتْنِ الحَسَامِ المُهْتَدِ⁽¹⁾

وقوله وهو يعزّي بعض الأعيان:

[من الوافر]

وَسَيْفٍ فُلٌّ قَبْلَ أَوَانٍ سَلٌّ

وَرُمَحٍ دَقٌّ قَبْلَ أَوَانٍ هَزٌّ⁽²⁾

(1) انظر: الدّيان، ص 24.

(2) انظر: م. ن.، ص 68.

خامساً: حقل الجود والكرم

لَمَّا كَانَتْ الشَّجَاعَةُ، البَسَالَةُ، القُوَّةُ صفاتٌ مميِّزةٌ للممدوح أعجب بها الشُّعراءُ، وغيرهم مِنَ النَّاسِ على مختلفِ العصورِ. يجسِّدُ الشُّعراءُ مِنْ خِلَالِهَا القَلْبَ الثَّابِتَ، والثُّقَّةَ الشَّدِيدَةَ، والقُدْرَةَ، والطَّاقَةَ؛ فَإِنَّهُمْ كَثِيراً مَا يَرِبُطُونَ تِلْكَ الصِّفَاتَ بِالْجُودِ، وَالْكَرَمِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الصِّفَتَيْنِ تَمَثَّلَانِ المَاضِي العَرِيقَ للممدوحِ. وصفة الكرم عادةً عربيَّةٌ عريقةٌ توارثتها الأبناء عن الأجداد، وَمِنْ ثَمَّ حرصوا على تمثيلها، وتجسيدها في واقعِ قَاسٍ مَرِيرٍ.

لِذَا كَانَ حَقْلُ الجُودِ وَالْكَرَمِ امْتِدَاداً طَبِيعِيًّا لِحَقْلِ الشَّجَاعَةِ، وَالْبَطُولَةِ، فَقَلَّمَا نَجِدُ فِي مَدْحِ شَاعِرِنَا وَرِثَائِهِ ذِكْراً لِلشَّجَاعَةِ إِلَّا وَقَرْنَهَا بِصِفَةِ الجُودِ، وَالْكَرَمِ على مختلفِ الأنواعِ سواءِ الجُودِ بِالمَالِ، أَوْ الجُودِ بِالنَّفْسِ، أَوْ الجُودِ بِالكَلِمِ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

[مِنَ الكَامِلِ]

أُنْدَى مِنَ العَيْثِ المُلْتِ إِذَا اجْتَدَى

أَحْمَى مِنَ اللَّيْثِ الهَزْبِرِ إِذَا دُعِيَ (1)

فالممدوح يمتاز بشخصية قوية، كل الشجاعة، والعدة للحرب، سيّد شريف جواد معطاء. وَمِنْ قَوْلِهِ أَيْضاً:

[مِنَ البَسِيطِ]

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ أَعْمَاماً وَأُخُوَالاً

وَأَحْسَنَ النَّاسِ أَقْوَالاً وَأَفْعَالاً (2)

أَمَّ الجُودِ بِالنَّفْسِ - وَهُوَ غَايَةُ الكَرَمِ - قَوْلُهُ:

(1) انظر: الدِّيوان، ص 73.

(2) انظر: م. ن.، ص 94.

[مِنَ الكَامِلِ]

قَوْمٌ إِذَا سَلُّوا الصَّوَارِمَ أُغْمِدَتْ
 بِمَقَرِّ تَاجٍ أَوْ مَنَاطٍ نِجَادٍ
 وَإِذَا هُمْ شَرَعُوا الرِّمَاحَ تَبَوَّأَتْ
 أَطْرَافُهُنَّ مَكَامِنَ الْأَحْقَادِ
 يَتَسَابِقُونَ عَلَى السَّوَابِقِ لِلْوَعَى
 كَسَبَاقِهَا بِهِمْ عَلَى الْأَمَادِ⁽¹⁾

وقد تركّز حقل الجود، والكرم في قصائد المدح والرثاء؛ إذ أكثر الشّاعر مِنْ ذِكْرِ الألفاظ الدّالة على ذلك، مِنْهَا: (منهل الندى، يسخو، أكرمه وسخاء⁽²⁾، أندى العالمين يداً⁽³⁾، سماحة كفه⁽⁴⁾، الجود⁽⁵⁾، بحر جوده، ما جاد إلّا وأغنى، أندى كفاً⁽⁶⁾، رقد، وإن كان الأنام بني بنده، يجدي سحائب، مواطرن، أحواض شهد⁽⁷⁾، ماء الغمام، الغيث، مبتذل القرى، مسترفد، ركاب الغنى، أولى الجميل تبرّعاً، نداء المجدد، رفده، مبتدئ بالعرف مِنْ غير موعد⁽⁸⁾، بلّ به يدي، أسدى إليّ يداً، يد المسترفد، كرم أراح مِنْ السُّؤال، كالغيث، ندى العلوى، يد جوده⁽⁹⁾).

(1) انظر: الديوان، ص 40.

(2) انظر: م. ن، البيتان 10، 12، ص 3.

(3) انظر: م. ن، البيت الثاني، ص 6.

(4) انظر: م. ن، البيت 14، ص 7.

(5) انظر: م. ن، البيت 21، ص 10.

(6) انظر: م. ن، البيت 33، ص 20.

(7) انظر: الديوان، الأبيات 8، 9، 26، 27، ص 24.

(8) انظر: م. ن، الأبيات 5، 12، 14، 15، 19، 21، 22، ص 25.

(9) انظر: م. ن، الأبيات 2، 3، 8، 11، 12، 13، 14، 15، 19، 20، 21، 31، 33، 37، ص 27.

مِنَ الملاحظ أنَّ شاعرنا في هذا الحقل يكثر مِن تكرار لفظ اليد، والكفِّ؛ وهما رمزان مِن رموز العطاء، والبذل، وأنَّ يد ممدوحة مفتوحة للطَّالِبين وغيرهم مِن المحتاجين دون انتظار درَّ ذلك الجميل، تلك عادة أهل النِّعم، والفضل. فهو حينما يمدح يمدح قوماً أسخياء شجعان نبلاء نجباء في سعيهم ينظرون إلى البعيد بأمال رحبة، ويطرفِّعون عن الصَّغائر. وهذا توجُّه نحو القيم العربيَّة المتأصِّلة عند العربيِّ منذ قدم التَّاريخ.

كما أنَّ ألفاظه في هذا الحقل تتوسَّع على حسب طبيعة الموقف، فإنَّه يذكر (بحر جوده، ماء الغمام، العَيْث، سحائب، مواطرن، منهل مورد، أحواض) للدِّلالة على كثرة العطاء، والبذل.

مِن ذلك يتَّضح أنَّ شعريَّته ذات طبيعة تواصلية كقوله في مدح صديقين مِن أصدقائه:

[مِن الكامل]

أَخَذًا بِأَسْبَابِ السَّمَّاحِ فَإِنْ تَقَلُّ
هَذَا سَخِيٌّ قُلْتُ ذَاكَ كَرِيمٌ
وَتَسَاوِيًا جُودًا فَذَا عَيْثٌ وَذَا
بَحْرٌ بِهِ سُفُنُ الرَّجَاءِ تَعُومُ⁽¹⁾

لذا يكاد يختزل الرِّمَن فيجمع بين الماضي والحاضر مِن خلال تلك الصِّفات. ولعلَّنا نلمس مِن كثرة ألفاظه في هذا الحقل ما يمكن أن يكون صرخة للعودة إلى فضائل الماضي وتكريسها في واقعه الَّذي غدت فيه الفضائل العربيَّة بطيئة تكاد تنحسر بسبب الواقع المرير. وَمِن ذلك قوله:

(1) انظر: الديوان، ص 106.

[مِنَ الكَامِلِ]

فَكَأَنَّ مَا الْأَيَّامُ آلا صَرَفُهَا

أَنْ لَا يَدُومَ عَلَى الزَّمَانِ كَرِيمٌ⁽¹⁾

وَمِنْ نَاحِيَةِ ثَانِيَةِ نَاحِظِ الْأَلْفَاظِ الثَّلَاثِيَةِ: (الكرم، السَّخَاء، الجود، النَّدى، الجميل، السَّمَاة...)) وَهَذَا تَأْكِيدٌ عَلَى فِضَائِلِ الْمَاضِي الْعَرَبِيِّ الْعَرِيقِ، وَكَذَلِكَ الْمَلِيءُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَالْعَضُّ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ. ثَمَّ الْإِشَارَةُ الْجَسَدِيَّةُ (اليد): (يد وجوه، سَمَاة كَفُّهُ، أُنْدَى الْعَالَمِينَ يَدًا، أُنْدَى كَفًّا، بَلَّ بِهِ يَدِي، أَسْدَى إِلَيَّ يَدًا...); فَالْإِشَارَةُ إِلَى الْيَدِ فِي دَائِرَةِ هَذَا الْمَعْجَمِ رَمَزٌ لِلْعَطَاءِ أَدَّتْ وَظِيفَتَهَا الدَّلَالِيَّةُ بِالْمَسْتَوَى الْمَطْلُوبِ.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ يَلَاظُ عَلَى الشَّاعِرِ أَنَّهُ يَرْبِطُ بَيْنَ الشَّجَاعَةِ، وَالْكَرَمِ، وَبَيْنَ أَسْلِ النَّسَبِ فِي كَثِيرٍ مِنْ قِصَائِدِهِ الْمَدْحِيَّةِ، فَهُوَ حِينَئِذٍ يَمْدَحُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ، لَا بَدَّ أَنْ يَذْكَرَ الْكَرَمَ، وَالشَّجَاعَةَ، وَالْعِلْمَ، وَالتَّقْوَى، وَالزُّهْدَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الشَّرِيفِ الْعَلَوِيِّ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ الْمَوْسَوِيِّ:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

هَنَّاكَ رَبُّكَ مَا أَوْلَاكَ مِنْ نَعَمٍ

يَا خَيْرَ مَنْ أَنْبَتَتْ جُرْثُومُهُ الْكَرَمَ⁽²⁾

أَمَّا فِي قِصَائِدِ الرَّثَاءِ فَإِنَّهُ سَارَ عَلَى عَيْنِ الْمَنَوَالِ السَّابِقِ. فَهُوَ يَتَأَسَّى عَلَى فَقِيدِهِ، وَمَا خَلَفَهُ مِنْ مَعْرُوفٍ، وَإِحْسَانٍ، وَيَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُ لَوْ اسْتَطَاعَ الْمَعْرُوفُ تَخْلِيدَ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَكَانَ هَذَا الْوَاحِدُ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَقْلَدٍ:

(1) الديوان، ص101.

(2) الديوان، ص105.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَوْ خَلَّدَ الْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ وَاحِدًا
لَخَلَّدَ عَبْدَ اللَّهِ نَائِلُهُ الْعُمْرُ⁽¹⁾
وقوله في رثاء القاروني:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

بِوَاحِدٍ مَرًّا فَرْدًا فِي مَكَارِمِهِ
مَا افْتَرَّ عَنْ مِثْلِهِ دَهْرٌ وَلَا ضَحِكًا
وَكَارِعٍ فِي حِيَاضِ الْمَكْرُمَاتِ فَمَا
زَاحَمَهُ لَا وَاعِلٌ فِيهَا وَلَا شُرَكَاءَ⁽²⁾

لذلك كله نجد الألفاظ في هذا الحقل تتكاثر، وتدور حول فضيلة من فضائل العرب الأصيلة، لتشعرنا بأن الشاعر ركز عليها في مدائحه، وراثيًااته لدوافع شخصية، منها: الكسب، والوفاء، والإخلاص للمدوح. ودوافع قومية لتأصيل تلك الصفة التي توارثها الصغير عن الكبير، حتى غدت سنة متبعة عند الإنسان العربي المحافظ على الموروث.

سادساً: حقل الوطن

حمل أبو البحر (وطنه) أو (دياره) كما يسميه في شعره سويداء قلبه وبين جوانحه، وفي خلايا دمه، وخفقان رثيته أينما حل أو ارتحل. ومنح هذا الوطن أجمل ما قاله من شعر على الإطلاق. ولعل أبا البحر هو الوحيد بين شعراء عصره الذي قارب في شعره مفهوم الوطن، وجعل من عناصر المكان، والبيئة، والأشياء والناس، والدور - أي البيوت - موضوعاً شعرياً لقصائده⁽³⁾.

(1) الديوان، ص 50.

(2) م. ن.، ص 84. وانظر: م. ن.، ص 49، 90.

(3) يوسف حسن، الوطن في شعر أبي البحر الخطي، ص 39.

لذا انتشر اللَّفْظ المَكَانِي بِمُخْتَلَفِ مَدَلُولَاتِهِ فِي مَعْظَمِ قِصَائِدِ الشَّاعِرِ لِلإِشَارَةِ إِلَى حُبِّهِ وَتَمَسُّكِهِ بِالوَطَنِ الأُمِّ، وَلا سِيَّما فِي قِصَائِدِ الحَنِينِ؛ لِأَنَّهُ المَكَانَ الطَّبِيعِيَّ لِذَلِكَ. فَقَدْ وَرَدَتْ فِيهَا عَلَى النَّحْوِ التَّالِي: أَوَالِ، البَحْرَيْنِ، جَدْحَفِص، فَارَانَ، مِقَابَةَ، المَنَامَةَ، سِيهَاتِ، القَطِيفِ، عَنكَ، نَبَكَاتِ، بوري، الدَّارِ، الوَطَنِ، أَهْلِ نَجْدِ، الخَطِّ، الدِّيَارِ، البَلَادِ، سَكَانِ المَحَلِّ، أُمِّ الحِصَمِ، النَّارِي، تَارُوتِ، قَرِي البَحْرَيْنِ، مَأَوَانَ، المَنَازِلِ، مَنِي، سَارِ، الجَنَبِيَّةِ، بَرِغِي (بَاربَارِ)، سَلْمَابَادِ، قَرِيَةَ البَلَادِ، كَتكَانِ، تَوْبَلِي، بُوْبَهَانَ، مَرِي، نَزَوِي، شَحْرِ، حَزَوِي، العَذِيبِ، ذِي قَارِ، المُصَلِّي، أُمِّ الشَّيْفِ⁽¹⁾.

وقد وردت بعض الألفاظ الأعجمية، التي تركّز ذكرها في القصائد التي مدح فيها أمراء، وملوك الفرس. من ذلك ما مدح به ملك الدّورق ومن له صلة به، إذ وردت الألفاظ التالية: شيراز، فارس، الدّورق⁽²⁾، كارون، الجراحي⁽³⁾، للدلالة على كثرة ارتياده للأماكن المذكورة وارتباطه بها.

بيد أنّ علاقة الشّاعر بوطنه لا تنحصر في هذه العلاقة المجتمعية المضطربة التي تجيء في ظروف خاصة، وإنما هو يلتزم بمواطنيته التزاماً سياسياً عملياً اضطره إلى الهرب مع جماعة من أشرف القطيف سنة (1590/999) ومن هنا تنقل بين شيراز وأصفهان.. بعيداً عن أهله وأصدقائه.. إنّه يحنُّ إليهم حنيناً

(1) انظر: الدّيوان، ص8، 12، 13، 15، 16، 30، 42، 47، 48، 51، 61، 63، 67، 74، 84، 86، 105، 116، 120، 123.

(2) الدّورق: بفتح أوّله وسكون ثانيه وراء بعدها قاف: بلد بخوزستان وهو قصبة كورة سُرَّق يقال لها دَوْرُقُ الفرس. وقد نُسب إليها قوم من الرّواة منهم أبو عقيل الدّورقي الأزدي. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2/483.

(3) كارون والجراحي: نهران في خوزستان. انظر: م. س، ص20؛ لوريمر، دليل الخليج، 3/1122.

بلاغياً يذكر باستخدامات أبي تمام القرآنية في تركيب الصورة الشعرية (1):

[مِنَ الكامل]

فَارَقْتُكُمْ فَجَعَلْتُ زُفُومَ الْأَسَى
زَاداً وَعَسَاقَ الدُّمُوعِ شَرَاباً
أَكْذَاكَ كُلِّ مُفَارِقٍ أَمْ لَمْ يَكُنْ
قَبْلِي مُحِبُّ فَارَقِ الْأَحْبَابِ (2)

إنه أول شاعر خليجي يحقق الوحدة العربية في هذه المنطقة - عملياً وشعرياً - فبعد سنوات طويلة من التشرّد، والغربة يعود إلى الوطن يسبقه طوفان كاسح من الأشواق والعواطف (3):

[مِنَ الكامل]

هَلَا سَأَلْتَ الرَّبْعَ مِنْ سَيِّهَاتِ
عَنْ تِلْكَمُ الْفِتْيَانِ وَالْفَتَيَاتِ (4)

بهذه المفردات المكانية استطاع الشاعر أن يحقق ما لم يحققه شاعر خليجي قبله، أو في عصره. إذ إنه يحقق الوحدة العربية بما ذكره من أجزاء متقاربة من جسد الأمة العربية. فهو جمع في شعره تلك الأجزاء إشارة إلى الوحدة العربية، وإن كان ذلك على قسم من أقسام الوطن الأم، وهو الخليج العربي.

سابعاً: حقل الحزن والأسى

بعد التَّقْصِي والإحصاء للألفاظ الدالة والموحية بالحزن والأسى،

(1) محمّد رضا نصر الله، «قراءة في شعرية منحرفة»، ص 219.

(2) انظر: الديوان، ص 8.

(3) محمّد رضا نصر الله، م. س.، ص 219.

(4) انظر: الديوان، ص 16.

وجدناها أكثر الحقول الدلالية انتشاراً في ديوان الشاعر، إذ تركّزت تلك الألفاظ في قصائد الرثاء وقصائد الحنين إلى الوطن. إذ تكالبت عليه الهموم منذ نعومة أظفاره؛ حتى أصبحت لا تفارقه، فتراكمت عليه المصائب جرّاء فجعه بفراق أهله، وأحبائه، وكذلك غربته عن وطنه؛ لذلك كثر في رثائه وحنينه ألفاظ وعبارات موحية بالحزن والأسى، وقد وردت على النحو التالي: (وليلة تجلوني حنادسها، مضى بها الدهر، النفس قد طويت على غمائها، شجاءها، رمضا، أكباد، لا يستريح القلب، شجونها، بكائها، غليل الحزن، دموع العين، فسدت بنو الدنيا، صحيحة، تلك النوادب، لتكرهت نفسي البقاء، غارت الأيام، أسى يراوحها، عاث البلا، مجاهر بالنعي، كمد، أترى النعاة، الغضب، زقوم الأسى، غساق الدموع، مفارق، تأسفي، فراقكم، توديعكم، ما ذقت عذب القرب، البعاد، مطا العباد، كأس ميتة، مفارقة الدار، هجر الأهلين، عذاب، تناوحت فيه الحمام، أوجع للحشا، أمض من عيش، بات شجاه لي، هيهات، نوحى، زفرة، وأدمع جرت حمراً، بأجفان مجاريح، غليل ظام، الهم، كفا حزناً، شكوى النوى، يقطع آناء النهار بنوحه، أشجى النوح، وحشتي سجن، أجهشت، الحنين، ملتطم الأمواج، على أنفيس حرى، لحدّ سكن، أرقتموه هجود، أبيت على الجمر... وغير ذلك كثير)⁽¹⁾.

وإن كانت مراثي أبي البحر قد تميّزت بالتفاوت بين مرثية وأخرى إلا أنّها عبّرت بصدق عن ذات الشاعر حرقة، وألماً بنسب متفاوتة. ذلك يعود إلى العلاقة التي كانت تربطه بالمرثي من صحبة، وألفة، ومحبة، مقياسها الإخلاص والوفاء، ولم تكن في ذاتها مبنية على المصلحة النفعية، بل كان إعجاباً، وتعظيماً له.

(1) انظر: الديوان، قصائد الرثاء، ص 4، 29، 36، 39، 49، 68، 76، 79، 84، 89، 91، 100، 113، قصائد الحنين، ص 7، 18، 22، 34، 57، 71، 74، 78، 86، 87، 107، 109، 111، 112، 114، 119، 123.

لذلك جاءت ألفاظه وعباراته الرثائية مصطبغة بالحزن، واللوعة، واستدرار الدُموع.

وأكثر القصائد الرثائية تأسيًا، وحننًا قصيدته في رثاء الحسين بن علي بن أبي طالب، إذ اصطبغت بالألفاظ الحزينة الدالة على الألم، والحزن الشديدين؛ لما أصاب الحسين وأصحابه، وما آل إليه مصير حريم الحسين وأهل بيته نحو قوله:

[مِن الطويل]

إِذَا هُنَّ أَبْصَرْنَ الْجُسُومَ كَأَنَّهَا
نُجُومٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ رَوَاكِدُ
وَشِمْنِ رُؤُوسًا كَالْبُدُورِ تُقْلُهُا
رِمَاحُ كَأَشْطَانٍ⁽¹⁾ الرُّكِيِّ مَوَائِدُ
تَدَاعِيْنَ يَلْطُمْنَ الْخُدُودَ بِعَوْلَةٍ
تُصَدِّعُ مِنْهَا الْقَاسِيَاتُ الْجَلَامِدُ⁽²⁾
وَيَخْمِشْنَ بِالْأَيْدِي الْوُجُوهَ كَأَنَّهَا
دَنَانِيرُ أُنْبَاهُنَّ بِالْحَكِّ نَاقِدُ⁽³⁾

(1) الشَّطْن: الحبل، وقيل الحبل الطويل الشديد القتل تُشَدُّ به الخيل، والجمع أشطان. قال عنترة:

[مِن الكامل]

يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرَّمَا حَ كَأَنَّهَا
أَشْطَانَ بِنْرِ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ
انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ش، ط، ن)، 237/13.
(2) الجلامد: مفردة الجلمد: الرجل الشديد الصوت، والجلامد الصخرة التي تكون في الماء القليل. وهي كناية عن القوة والصلابة الشديتين. انظر: الفيروزآبادي، تاج العروس، مادة: (ج، ل، م، د)؛ لسان العرب، 129/3.
(3) انظر: الديوان، ص 37.

فالشاعر يعبر عن آلامه، ومآسيه بتفجُّع ولوعة حيث نقل إلينا أحاسيسه وعواطفه المؤلمة عبر ألفاظ وعبارات هذا الحقل الدلالي. وبالتالي يمكننا أن نستخلص من ألفاظ هذا الحقل الأمور التالية:

أ - الصبر الشديد الذي تمتع به شاعرنا أمام المصائب، وتقلبات الدهر.

ب - إخلاصه، ووفائه لأصحابه، وذويهم في حياتهم، وبعد رحيلهم.

ج - معاناة الشاعر في غربته، وسهره، وطول تفكيره للعودة إلى أهله، ووطنه.

ثامناً: الحقل الديني

امتلك أبو البحر الخطي ثقافة دينية، ألم بها إمام العارف، لذا كان متمسكاً بدينه وعقيدته، وظهر ذلك جلياً في تعظيمه، لرجال الدين وتوقيرهم. إذ إنَّ جلَّ شعره كان في العلويين مدحاً ورتاءً. علماً بأنَّ شاعرنا نشأ في بيئة اجتماعية تهتمُّ بأمور الدين اهتماماً بالغاً، انعكس تأثيرها على شخصيته، ومن ثمَّ على شعره بشكل بيِّن.

لذلك لا تكاد تقرأ قصيدة من قصائده إلا وتلاحظ جملة من الألفاظ، إسلامية المعجم. فالشاعر استخدم ألفاظاً من صميم معجم الدين الإسلامي الحنيف بصورتيهما المباشرة، وغير المباشرة.

وقد وردت ألفاظ هذا الحقل على النحو التالي:

في قصائد الرثاء بلغ عدد الألفاظ الدينية مائة وخمسة ألفاظ، أمَّا في قصائد المدح فقد بلغت تسعة وثمانين لفظاً. في حين جاءت الألفاظ ذاتها في المتفرقات اثنتين وسبعين لفظة.

فالشاعر يكاد لا يتوقَّف عن ذكر تلك الألفاظ حتَّى يعود إليها،

وذلك تأكيداً للتأثر بالبيئة والواقع الاجتماعي المعاش. فهو يستغل كل لفظة لها تأثيرها الدلّيني كاستعماله لفظ الجلالة، والأسماء المماثلة مثل: الخالق⁽¹⁾، الله⁽²⁾، واحد الآحاد⁽³⁾، المولى⁽⁴⁾، غفور⁽⁵⁾، رعاك الإله⁽⁶⁾، الجبّار⁽⁷⁾، المهيمن⁽⁸⁾، خالق الخلق⁽⁹⁾، سبحانه⁽¹⁰⁾، ربّ العباد⁽¹¹⁾، تعالى⁽¹²⁾، بارئ التسم⁽¹³⁾، إله العرش⁽¹⁴⁾.... والرّسول والكلمات الأخرى المماثلة مثل: (خير المرسلين⁽¹⁵⁾، أحمد⁽¹⁶⁾، النّبي، محمّد⁽¹⁷⁾، الهادي⁽¹⁸⁾، نبيّ الله⁽¹⁹⁾، الرّسول⁽²⁰⁾، المصطفى⁽²¹⁾..).

(1) انظر: الديوان، البيت 7، ص 9.

(2) انظر: م. ن، البيت 19، ص 30.

(3) انظر: م. ن، البيت 47، ص 41.

(4) انظر: م. ن، ص 42.

(5) انظر: م. ن، البيت 15، ص 46.

(6) انظر: م. ن، البيت 96، ص 59؛ البيت 38، ص 91.

(7) انظر: م. ن، البيت 51، ص 65.

(8) انظر: م. ن، البيت 55، ص 65.

(9) انظر: م. ن، البيت 2، ص 76.

(10) انظر: م. ن، البيت 3، ص 77.

(11) انظر: م. ن، البيت 34، ص 92.

(12) انظر: م. ن، البيت 5، ص 99.

(13) انظر: م. ن، البيت 10، ص 104.

(14) انظر: م. ن، البيت 25، ص 114.

(15) انظر: م. ن، البيت 18، ص 25.

(16) انظر: م. ن، البيت 27، ص 28.

(17) انظر: م. ن، البيت 59، ص 38.

(18) انظر: م. ن، البيت 46، ص 41.

(19) انظر: م. ن، البيت 2، ص 66.

(20) انظر: م. ن، البيت 23، ص 92.

(21) انظر: م. ن، البيت 24، ص 114.

ويلاحظ أنّ الشّاعر يراوح في استعماله للقوالب الجاهزة، وتطويع بعض الكلمات لتتلاءم والغرض الذي ينشده.

والمستبّع لذلك يجد تكراراً للقوالب هذه لإثبات ما يريد الشّاعر تحقيقه. من ذلك استعماله للقوالب الجاهزة كقوله: (هذا الدّين، لحي اللّهُ، النّبِي محمّد، اللّهُ شاهد، بنصّ من التّنزيل⁽¹⁾، الحمد لله⁽²⁾، اللّهُ أكبر⁽³⁾، النّبِي الهادي، واحد الأحاد⁽⁴⁾، الماء القراح⁽⁵⁾، فيا قبره⁽⁶⁾، شهادة اللّهُ في التّنزيل، ما رواه جابر وحكى⁽⁷⁾، محتوم القضاء⁽⁸⁾، سقى قبره⁽⁹⁾، أصحاب القبور⁽¹⁰⁾، ربّ العباد⁽¹¹⁾، يا قاتل اللّهُ الحمام⁽¹²⁾).

وقد وردت الألفاظ ذاتها في قصائد المدح، وغيرها ومن هذه الألفاظ:

(صلّى عليه إله العرش⁽¹³⁾، خير المرسلين محمّد⁽¹⁴⁾، ركن الدّين⁽¹⁵⁾)

(1) انظر: الدّيونان، الأبيات: 55، 56، 59، 63، ص 38.

(2) انظر: م. ن، البيت 78، ص 39.

(3) انظر: م. ن، البيت 12، ص 40.

(4) انظر: م. ن، البيتان 39، 47، ص 41.

(5) انظر: م. ن، البيت 11، ص 49.

(6) انظر: م. ن، البيت 31، ص 50.

(7) انظر: م. ن، البيت 14، ص 84.

(8) انظر: م. ن، البيت 23، ص 85.

(9) انظر: م. ن، البيت 37، ص 91.

(10) انظر: م. ن، البيت 30، ص 90.

(11) انظر: م. ن، البيت 34، ص 92.

(12) انظر: م. ن، البيت 45، ص 101.

(13) انظر: م. ن، البيت 25، ص 114.

(14) انظر: م. ن، البيت 18، ص 25.

(15) انظر: م. ن، البيت 25، ص 44.

عماد الإسلام⁽¹⁾، رعاك الإله⁽²⁾، الله جارك⁽³⁾، جزي الله⁽⁴⁾، هنَّاك ربُّك⁽⁵⁾، قضاء الله⁽⁶⁾، نبي الله⁽⁷⁾، إلى الله أشكو⁽⁸⁾، شمس العلا، نجم الهدى، كنز التُّقى⁽⁹⁾، نجم الدِّين، شمس الدِّين⁽¹⁰⁾، تقوى الله⁽¹¹⁾، رمى الله⁽¹²⁾، سقى الله⁽¹³⁾، بسم الله⁽¹⁴⁾.

ثمَّ إِنَّهُ يُوَكِّدُ عَلَى أَنَّ مَمْدُوحِيهِ مَلْتَزِمُونَ بِتَطْبِيقِ الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ زَهْدٍ وَطَهَارَةٍ، وَدِينٍ، وَتَقَى، وَالطَّاعَةِ، وَقَضَاءِ اللَّهِ، وَالذُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ وَالْمَنَاسِكِ وَالْعِبَادَةِ وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ فِي قِصَائِهِ الْمَدْحِيَّةِ وَالرِّثَائِيَّةِ.

وهو بهذه الألفاظ قد كرس مجهوده في خدمة الممدوح ليُعَلِّي مِنْ شَأْنِهِ وَيُظْهِرُهُ فِي مَظْهَرِ الْإِمَامِ التَّقِيِّ، وَالرَّاهِدِ فِي الْحَيَاةِ لِمَا لَهُ مِنْ مَكَانَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الْوَسْطِ الْإِسْلَامِيِّ آنَذَاكَ. وَخَيْرُ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ، تِلْكَ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الشَّيْخُ الْبَهَائِيُّ، وَكَذَلِكَ السَّيِّدُ مَاجِدُ الْعَرِيضِيِّ⁽¹⁵⁾.

(1) انظر: الديوان، البيت 52، ص 57.

(2) انظر: م. ن، البيت 96، ص 59.

(3) انظر: م. ن، البيت 5، ص 73.

(4) انظر: م. ن، البيت 1، ص 103.

(5) انظر: م. ن، البيت 1، ص 105.

(6) انظر: م. ن، البيت 53، ص 118.

(7) انظر: الديوان، البيت 2، ص 66.

(8) انظر: م. ن، البيت 10، ص 46.

(9) انظر: م. ن، البيت 12، ص 80.

(10) انظر: م. ن، البيت 3، ص 5، 119.

(11) انظر: م. ن، البيت 9، ص 104.

(12) انظر: م. ن، البيت 17، ص 122.

(13) انظر: م. ن، البيت 22، ص 123.

(14) انظر: م. ن، البيت 11، ص 124.

(15) انظر: القصيدتان في الديوان، ص 55، 63.

كما أنه ألبس بعض ممدوحيه من غير العلويين الثوب الديني، وذلك لتعظيمهم، والتقليل من مكانة أعدائهم. كقوله في مدح ركن الدين محمود:

[من الكامل]

حَتَّى تَرَجَّلَ لِلصَّلَاةِ وَلَمْ نَجِدْ
أَسَدًا يُصَلِّي قَبْلَهُ فِي مَجْمَعِ
بَيْنَاهُ أَفْتَكُ فَاتِكُ أَنْبَرْتُهُ
فِي النَّسْكِ أَخْشَعُ خَاشِعٌ مُتَخَشِّعٌ (1)

وهذا يفضي بنا إلى الدلالات التي قصد إليها أبو البحر من استخدامه لتلك الألفاظ. بيد أنه لم يستطع الخروج بتلك الألفاظ إلى معانٍ ودلالات جديدة. إذ إنه لم يرد إعطاءها دلالات أخرى أبعد من معانيها الظاهرة، والمباشرة. وأعتقد أن هذه المعاني كافية لإظهار الممدوح، أو المرثي بالشكل المرغوب في عصره.

تاسعاً: حقل الصفات البشرية

من الملاحظ على الشاعر أنه يبدأ من ذاته، وينتهي إليها ليصل إلى الآخرين، لكن تمثيله لسيرته مع ذاته لم تكن على نمط واحد، بل نراه يترك نفسه على طبيعتها فيغدو شعره ممثلاً لمشاعره وعواطفه وأحاسيسه، إلا أنه في بعض الأحيان يراقب ذاته؛ فيأتي شعره تسجيلاً متقناً لموضوعه الشعري، وتظل ذاته دائماً محور شعره. وخير مثال على ذلك قصيدته «السُّبَيْطِيَّة» التي مطلعها:

(1) انظر: الديوان، البيتان: 24، 25، ص 74.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِرَغْمِ الْعَوَالِي وَالْمُهَنَّدَةِ الْبِئْرُ

دِمَاءٌ أَرَاقَتْهَا سُبَيْطِيَّةُ الْبَحْرِ (1)

فينطلق منها إلى الممدوح أو المرثي ذاته، أو غيره بالصفات نفسها ليجسد ذات الآخر في ذاته حزناً أو فرحاً. لذلك وجدنا الصفات البشرية تتضخم لدرجة أن الشاعر لم يترك قصيدة - أو لم يكذب يتركها - إلا واشتملت على مجموعة من أعضاء الإنسان، أو صفة معبرة عن ذلك العضو المذكور؛ للدلالة على شيء في الإنسان ذاته من حيث القوة، أو الضعف، أو غير ذلك من الصفات اللاصقة فيه، وقد وردت على النحو التالي: (معاطف، الغدائر⁽²⁾)، الشعر، فرع، الرؤوس، هام التراقي، الجبين، أذن، وجوه، العيون، حاجب، جفن، اللحاط، أحداق، غرة الجبين، أنياب الفم، الثغر، لهاة اللسان، ريق، العقول، أعناقهن، الطرف، الشنايا، جيدها، دموع، دم وجهه، أنفه، أيدٍ، أذرع، سواعد، متون، أظفار، جيدها، العظم، الحلق، النحر، إصبع، النخاع، مقلة، الصلوع، حشاشة، أشلاء، كهل، غلام، الشوارب، قدمي، الأرداف، لهاتي، خطواتي، أصداغي، كبد، أفئدة، ظهر، بطون، الصدور، بنان، ترائب، وجنات، الإصبع، وسطى، الإبهام، يدي اليمنى وشمالها، وقد شمل الصفات العلاقة بالإنسان وهي: السمع، البصر، الذكاء، الفطنة، الأصم، الأثواب، القناع، درب اللسان، القميص، ذوي الألباب، الكلام، يلظمن الخدود، يخمشن بالأيدي... الخ).

وقد تكررت الألفاظ السابقة بشكل لافت للنظر في الديوان، إذ لا تخلو صفحة من صفحاته عن ذكر اسم عضو، أو صفة من صفات

(1) الديوان، ص 47.

(2) الغدائر: مفردها غديرة: المضمور من شعر النساء. انظر: لسان العرب، مادة:

غ، د، ر، 9/5.

الإنسان المذكورة آنفاً. وتركزت الغالبية في غرض الحنين إلى وطنه،
فالشكوى، فالغزل، فالوصف، ثم الرثاء إلى غير ذلك.

ومن أمثلة ذلك: قوله في الحنين:

[مِنَ الرَّمْلِ]

يَا نَزُولاً بَيْنَ أَجْرَاعِ الْحَمَى
بُعْدُكُمْ عَنِّي النَّوْمَ حَمَى
هَلْ تَعِيرُونَ جُفُونِي هَجَعَةً
أَمْ تَرَوْنَ النَّوْمَ شَيْئاً حَرِّمًا⁽¹⁾

وقوله في الشكوى:

[مِنَ الْوَاغِرِ]

وَأَكْبَاداً وَأَفْئِدَةً مِرَاضاً
بِهَا مِنْ لَاعِجِ الشَّقِيقِ انْصِدَاعٌ⁽²⁾

وقوله في الغزل:

[مِنَ الدُّوَيْبِ]

يَا مُحْرِقَ مُهْجَتِي بِنَارِ الصَّدِّ
هَلْ عَنِّي خَطِئاً قَتْلُكَ لِي أَمْ عَمْدٌ⁽³⁾

وقوله في الوصف:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

لَحْظُ عَيْنٍ كَالسَّهْمِ رُشَّتْ أَعَا
لِيهِ وَأَضَلَّحَتْ نَصْلَهُ وَالْفُوقَا⁽⁴⁾

(1) الدِّيوان، ص 109.

(2) م. ن.، ص 74.

(3) م. ن.، ص 31.

(4) م. ن.، ص 81.

عاشراً: حقل الحرف والمهن

لقد ذكر أبو البحر في شعره أغلب المهن والحرف المعمول بها، والمتعارف عليها في عصره. إذ إنه ذكر ستاً وعشرين مهنةً، يَصوِّر مِنْ خِلالها الواقع العمليّ لأبناء المنطقة في عصره، وتلك الحرف والمهن هي: حرفة الشَّعر في قوله: (فإني وإن أصبحتُ والشَّعر حرفتي)⁽¹⁾، وحرفة الصَّيد في قوله: (متى أرسلتهن وراء صيد)⁽²⁾، وحرفة الحلاقة في قوله: (وحالِقُ أصبح في فنِّ الحلاقِ واحداً)⁽³⁾، ومهنة النَّجارة في قوله: (أنَّ يعبى عبدِي النَّجار بكوره)⁽⁴⁾، ومهنة الغَوْص في قوله: (حوتها يدُ غيِص)⁽⁵⁾.

كما أنَّه أورد في مقطوعة شعريَّة ساخرة مجموعة من المهن، والحرف والأعمال المتداولة في عصره، وذلك في ردِّه على متشاعر بالقطيف ينصحه بالابتعاد عن الشَّعر الَّذي ليس له فيه قدرة ولا موهبة، ثمَّ يعدِّد له أصناف المهن التي يمكن أن يشتغلَّ بها وهي على التَّحو التَّالي: (الحدَّاد)⁽⁶⁾، النَّجار⁽⁷⁾، الصَّانِغ⁽⁸⁾، الطَّبَّال والزَّمَّار⁽⁹⁾، الصَّفَّار⁽¹⁰⁾، الزَّرَّار⁽¹¹⁾،

(1) انظر: الديوان، ص 3.

(2) انظر: م. ن.، ص 3.

(3) انظر: الديوان، ص 42.

(4) انظر: م. ن.، ص 52.

(5) انظر: م. ن.، ص 57.

(6) انظر: م. ن.، ص 57.

(7) انظر: م. ن.، ص 67.

(8) انظر: م. ن.، ص 67.

(9) انظر: م. ن.، ص 67.

(10) انظر: م. ن.، ص 67.

(11) انظر: م. ن.، ص 67.

البزّاز⁽¹⁾، القصّار⁽²⁾، الكيمياء⁽³⁾، البيطار⁽⁴⁾، الجرّار⁽⁵⁾، الحّمّار⁽⁶⁾، الصّياد⁽⁷⁾، البحّار⁽⁸⁾، المؤدّن⁽⁹⁾، المنشد والقارئ⁽¹⁰⁾، بائع القند (السكّر)⁽¹¹⁾، قارئ القرآن⁽¹²⁾، التّاجر⁽¹³⁾.

ولم يكن ذلك شيئاً جديداً ابتدعه أبو البحر، بل إنّه ذكر وتوثيق لمجموع الأعمال، وأكثرها تداولاً من مهن وضيعة، ورفيعة، التي يزاولها أبناء البحرين عامّة في ذلك العهد. ومجموع الأعمال المذكورة آنفاً ما هي إلاّ سجّلٌ تاريخيٌّ دالٌّ على الوضع العملي، والمعيشي الذي بدوره يعكس الحالة المعيشيّة لأبناء المنطقة في فترة زمنيّة غابرة، وهي زمن الشّاعر. ويمكن استشفاف دلالات كثيرة من هذه المهن باعتبارها بؤرة تجلنا نتأمّل ذلك العصر ومعيشة أبنائه، وما زالوه من مهنٍ تُعدُّ بسيطة، وذلك لبساطة الحياة المعاشة، إذا ما قارنّاها بالمهن في عصرنا الحاضر.

كما أنّ بعض هذه المهن متداولة لدى أبناء البحرين حتّى يومنا هذا مثل: صيد السمك، والتّجارة، وغيرهما بأساليب مغايرة

(1) انظر: الديوان، ص 67.

(2) انظر: م. ن، ص 67.

(3) انظر: م. ن، ص 67.

(4) انظر: م. ن، ص 67.

(5) انظر: م. ن، ص 67.

(6) انظر: م. ن، ص 67.

(7) انظر: م. ن، ص 67.

(8) انظر: م. ن، ص 67.

(9) انظر: م. ن، ص 67.

(10) انظر: م. ن، ص 67.

(11) انظر: م. ن، ص 70.

(12) انظر: م. ن، ص 70.

(13) انظر: م. ن، ص 112.

وأدواتٍ حديثةٍ. بالإضافة إلى أن ذكر تلك المهن والحرف ما هي إلا استعراض للواقع العملي المعاش في عصر الشاعر. وهي فائدة تاريخية تعكس التفهق المعيشي. وأكثر تلك المهن بسيطة يستطيع السواد الأعظم من الناس مزاولتها، فهي لا تحتاج إلى جهدٍ عقليٍّ بقدر ما تحتاجه من قوّة عضليّة. لذا فالشاعر من خلال القصيدة المذكورة يرشدُ المتشاعرَ إلى اختيار إحدى هذه المهن وينصحه بالابتعاد عن الشُّعر؛ لأنّه ليس له موهبة ولا قدرة على مجارة الشعراء.

وهذه دلالة على أن الشُّعر موهبة وقدرة، وهي حرفة عالية الشأن ولا يستطيع امتطاءها إلا الفحول من الرجال، وتلك إشارة إلى مدح نفسه، والسُّمو للشُّعر والقريض.

كما أنّه باستطاعتنا اعتبار هذا الحقل فائدة تاريخية تضاف إلى الفوائد الأخرى التي خلّدها شعر أبي البحر. تلك هي الحقول الدلاليّة الأبرز في ديوان أبي البحر الخطّي على مختلف مشاربها.

والخلاصة التي يمكن استنتاجها من تلك الحقول ما يلي:
إنّ تلك الحقول عكست مدى تأثر الشاعر بالطبيعة، لكثرة الألفاظ الدالة عليها وذلك في (حقل الطبيعة، حقل اللون، حقل النور). كما أنّ حقل الحزن والأسى كشف مدى المعاناة التي اكتنفت الشاعر، وراحت ملازمة له في حلّه وترحاله. ناهيك عمّا برز من الإخلاص والوفاء للممدوح في حقل الشجاعة والبطولة، وحقل الجود والكرم. أمّا حقل الوطن فقد أوضحت ألفاظه عن مدى الارتباط الوثيق والحبّ الكبير بين الشاعر ووطنه.

وقد برزت الثنائيات في كل حقل من الحقول الآتية الذكر للدلالة على التناقضات التي عاشها الشاعر في مجتمعه.

الفصل الرابع: المستوى البلاغي

لقد درست في الفصل السابق معجم الشاعر اللفظي، وسلّطت الأضواء الكاشفة على الحقول الدلالية، موضّحاً مقاصد الشاعر المعجمية من خلال ألفاظه، وما تضمّنته تلك الألفاظ من شحنات أسلوبية.

يشكّل الخيال جانباً مهماً من جوانب التعبير الشعري، وإذا ما التحم مع الجانب الموسيقي - الداخلي والخارجي - أنتج عملاً شعرياً ذا صورة شعرية مُبدعة. «والصورة الفنية طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدّثه من معنى من المعاني من خصوصية وتأثير»⁽¹⁾. وقد يحكم على الشاعر من خلال مدى استعماله للخيال، ويصدر الناقد حكماً على شعره من حيث الجودة أو الرداءة.

والوجوه البلاغية تنشأ - طبيعية - في كل لغة، وإنّما تناولها الناقد بالدرس ليبيّن مدى الاستفادة منها في تدعيم الحجّة، وتقوية المعنى، وتحريك المشاعر للعمل عن اقتناع. فهي من متعلّقات الخيال⁽²⁾.

والصورة بطبيعتها الجميلة تنشر الحياة بالصوت، واللون، والحركة في فضاء النصّ الشعري.

(1) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي، ص 392.

(2) محمّد غنيمي هلال، النّقد الأدبي الحديث، ص 235.

مِنْ هَذَا الْمُنْطَلِقِ سَنَدْرُسُ الصُّورَةَ الشُّعْرِيَّةَ عِنْدَ أَبِي الْبَحْرِ
مَبْتَدِئِينَ بِالْمَجَالَاتِ الَّتِي اسْتَقَى مِنْهَا صُورَهُ الْخِيَالِيَّةَ، ثُمَّ الْأَشْكَالَ
الْمُخْتَلِفَةَ لِلصُّورَةِ الْبَيَانِيَّةِ الْمَعْتَمَدَةِ، وَهِيَ التَّشْبِيهِ، وَالاسْتِعَارَةُ،
وَالكِنَايَةُ، وَمَكْمَلِينَ بِاسْتِعْرَاضِ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا الشَّاعِرُ.

أولاً: الصورة الشعرية

استمدَّ شاعرنا صوره الشُّعْرِيَّةَ بِأَشْكَالِهَا الْبَيَانِيَّةَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنْ
تَشْبِيهِ، وَاسْتِعَارَةٍ، وَكِنَايَةٍ مِنْ مَجَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَهِيَ: الطَّبِيعَةُ، وَالْإِنْسَانُ،
وَالْحَيَوَانَ، وَالْحَيَاةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ، وَمِنَ الْعَقِيدَةِ الدِّينِيَّةِ، وَالْمَخْزُونِ التَّارِيخِيِّ.

أ - الطَّبِيعَةُ

استرعت الطَّبِيعَةُ انْتِبَاهَ شَاعِرِنَا، فَاسْتَمَدَّ مِنْهَا أَغْلَبَ صُورِهِ
كَالسَّمَاءِ، وَالْكَوَاكِبِ، وَالنُّجُومِ، وَالْغَيْمِ، وَالسَّحَابِ، وَالظُّلْمَةَ وَالنُّورَ،
وَالْبَحْرَ وَالْأَنْهَارَ، وَكَذَلِكَ الشَّجَرَ، وَالنَّبَاتَ، وَالزَّهْرَ.

«لَوْ تَأَمَّلْنَا دِيْوَانَ الْخَطِّيِّ فَإِنَّا نَتَلَمَّسُ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ الصُّورِ
الشُّعْرِيَّةِ، وَلَكِنْ بَعْضُ هَذِهِ الصُّورِ تَنْقُصُهَا الْخَطُوطُ الْعَامَّةُ مِنْ حَرَكَةٍ،
وَصَوْتٍ، وَلَوْنٍ. فَفِي الْأَغْرَاضِ التَّقْلِيدِيَّةِ كَالْمَدِيحِ، وَالْغَزْلِ، وَالْخَمْرِ،
وَالرِّثَاءِ، يَرَسُمُ لَنَا الشَّاعِرُ صُورًا مُعَادَةً لَا تَخْتَلِفُ عَنْ صُورِ الْأَقْدَمِينَ
فِي وَصْفِ الدِّيَارِ، وَالرَّحْلَةِ إِلَى الْمَمْدُوحِ وَأَوْصَافِ الْمَحْبُوبَةِ، وَوَصْفِ
الْخَمْرِ وَكُؤُوسِهَا، وَحَانَاتِهَا النَّوَاسِيَةِ»⁽¹⁾.

كقولهِ:

[مِنْ الْبَسِيطِ]

وَلَيْلَةٌ بَتُّ تَجْلُونِي حَنَادِ سَهَا
مُدَامَةٌ كَدَمِ الْمَذْبُوحِ حَمْرَاءُ

(1) أحمد حاتم الربيعي، «أبو البحر الخطي، دراسة في شعره»، ص 185.

كَالنَّارِ وَالْمَاءِ إِنَّ شِيمَتُ وَإِنْ لُمِسَتْ
 وَفِي الْحَقِيقَةِ لَا نَارٌ وَلَا مَاءٌ
 شَمْطَاءٌ عَذْرَاءٌ فِي دَنْ وَفِي قَدَحٍ
 فَأَعَجَبَ لَهَا وَهِيَ شَمْطَاءٌ وَعَذْرَاءٌ
 كَأَنَّهَا فِي الدُّجَا وَالرُّقُّ يَفْذِفُهَا
 بَرَقُّ لَهُ مِنْ خِلَالِ الْغَيْمِ لِأَلَاءِ⁽¹⁾
 في حين أننا، ومن خلال تفحصنا الديوان، وجدنا في تلك
 الأغراض من الصور التي تستحق الوقوف عليها، وهي صور لم تطرق
 من قبل، وإن طرقت فإنها تتأطر بإطار جديد.
 من ذلك قوله:

[من الطويل]

أَكْفُ الْبَرَايَا مِنْ تُرَاثِهِمْ صَفْرُ
 وَبَيْضُ الْمَنَايَا مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرُ
 وَخَيْلُ الرَّزَايَا مَا تَزَالُ مُعَدَّةً
 تُقَاتِلُنَا فُرْسَانُهَا وَلَهَا النَّصْرُ
 تَكْرُّ عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالسُّمْرُ بِالرَّدَى
 فَتَبْلُغُ مَا لَا تَبْلُغُ الْبَيْضُ وَالسُّمْرُ⁽²⁾

وهذه صورة يرسم الشاعر من خلالها لوحة فنية تعج بالحركة،
 وتنتشر فيها الأصوات والألوان. فالمنيّة قد جهّزت خيلها، وأعدت
 فرسانها، وتهيّأت للقتال، ثم كرت فرسانها علينا بسيوفها، ورماحها،
 وحممة خيلها، فنالت منّا قتيلاً بعد أن ضرّجته بدمه الأحمر القاني،
 وكان لها النصر الحتمي في هذا القتال.

(1) انظر: الديوان، ص 1.

(2) انظر: م. ن.، ص 49.

وشاعرنا يكثر من التشبيهات في مجال الوصف، من ذلك وصفه لحديقة ممتلئة بالشجر، والزهور، والثمار تلك هي روضة (القميَّات) بالجنبيَّة⁽¹⁾. إذ الألوان الزاهية، والأزهار بمختلف ألوانها الأرجواني، والصفراء الذهبية، وصبير البلابل، وتناوح الحمام، وخير الماء. وهي صورة تكاد تكون في إطارها العام متكاملة، ومتناسقة بين الحركات، والألوان، والأصوات.

كما في قوله:

[من الكامل]

رَوْضٌ كَمَا نَشَرْتُ مَطَارِفُ سُنْدُسٍ
تَبْدُو عَلَيْهِ نَوَاجِمُ الزَّهْرَاتِ
يَسْتَوْقِفُ الْأَبْصَارَ بَيْنَ شَقِيْقَةٍ
حَمْرَاءَ يَأْفُوئِيَّةِ الصَّفَحَاتِ
وَعَرَاةٍ صَفْرَاءَ أَنْهَتْ صَفْلَهَا
شَمْسُ الضُّحَى دَهْبِيَّةِ الصَّفَحَاتِ
أَلْفَتْ بِلَابِلُهُ الصَّفِيرَ فَرَدَّدُوا
مَا قَالَ ذَاكَ تَسَابُبِ الْجَارَاتِ
وَتَنَاوَحَتْ فِيهِ الْحَمَامُ كَمَا تَدَا
وَلَتِ الْيَهُودَ قِرَاءَةَ التَّوْرَةِ
وَالْمَاءَ تُرْسِلُهُ جَدَاوِلُهُ كَمَا
جَارَيْتَ بَيْنَ الْخَيْلِ فِي الْحَلَبَاتِ⁽²⁾

ولكن عند التدقيق في بعض جوانب هذه الصورة نجد فيها

(1) الجنبيَّة: قرية من قرى البحرين، غرب العاصمة، اشتهرت بكثرة البساتين وهوائها النقي، ممَّا جعلها مَصِيْفًا لأهل البحرين آنذاك.

(2) انظر: الديوان، ص 15.

نقصاً. فالتشبيهات التي أعطاها للأزهار، مثل تشبيه شقائق النعمان بالياقوت الأحمر، وتشبيه العرار الأصفر (الترجس البري) بلون الشمس تبدو لنا جامدة، ليست فيها روح تحرُّكها وتعطيها الشعور الإنساني. ولكنّه استدرك في تشبيهاته الأخرى مثل تشبيه صفير البلابل بتسابب الجارات، وتناوح الحَمَام بقراءة التَّوراة، وإرسال الماء بجري الخيل في الحلبات⁽¹⁾.

ومثال أخير للطبيعة، وهو قوله عندما نظر إلى طلوع البدر، فقال واصفاً:

[مِنَ الكامل]

حُذِّهِ إِلَيْكَ كَصَفْحَةِ الْمِرْآةِ
بَدْرًا يَكْشِفُ حَالِكَ الظُّلْمَاتِ
وَكَأَنَّهُ الدِّينَارُ بُبَّتْ حَوْلَهُ
بِيضُ الدَّرَاهِمِ غَيْرُ مُجْتَمَعَاتِ
وَكَأَنَّهُ وَالنَّقْصُ يَأْخُذُ بَعْضَهُ
فُرْصُ اللُّجَيْنِ مَثَلُ الْجَنَبَاتِ
وَكَأَنَّهُ وَالْمَحْوُ فِي أَرْجَائِهِ
وَجْهُ الْفَتَاةِ مُجَدَّرُ الصَّفَحَاتِ⁽²⁾

فهو يصف البدر بصفحة المرآة الصافية في جلائها ووضوحها، كما يصفه بأنه الدينار تتبعثر من حوله الدراهم البيضاء، وحينما يأخذ في النقص يشبهه بقرص اللجين (وهو الفضة) المثلم الجوانب، وعندما يصبح محواً يشبهه بوجه الفتاة المجدّر. إذ إنَّ الشَّاعر يتتبع حالات البدر في تمامه، ونقصانه، ومحوه. وأعتقد أنَّ الشَّاعر في

(1) أحمد حاجم الربيعي، «أبو البحر الخَطِّي»، ص 187.

(2) انظر: م.س.، ص 17.

البيت الرابع، حينما شبّه البدر في محوه بالفتاة المجدّر وجهها قد
أضعف من التشبيه بهذه الصورة المقلوبة.

تلك هي الطبيعة التي تناولها أبو البحر الخطّي في قصائده،
وهذه اللوحات الفنيّة تعبّر عن مدى حبه للطبيعة، وارتباطه الوثيق
بها. إذ إنّ البيئة التي عاش فيها تزدهم بالمظاهر الطبيعيّة، ممّا
جعلها معيّنًا خصباً يهضمه الشّاعر، ويفرز من خلاله ذلك التصوير
الجميل. وبسبب هذا الحبّ للطبيعة لم تبق كائناتها في نظر الشّاعر
مجرد أشكالٍ طبيعيّة جامدة، بل اكتسبت من خلاله طبيعة إنسانيّة.

ب - الإنسان

ومن صورهِ ما يتعلّق بالإنسان من حيث صفاته، وما يتعلّق بها
من قوّة، وشجاعة، وكرم، وسخاء، ووفاء، وغيره، وكذلك ما يرجع إلى
الرحلة والحنين إلى الأهل والخلان.

لقد استطاع الشّاعر بما امتلك من موهبة شعريّة، أن يجعل
الجمادات واللامحسوسات كالإنسان، إذ بتّ فيهما الرّوح والحياة،
وركّب فيهما بعض صفات الإنسان، ممّا جعل تلك الجمادات،
واللامحسوسات تحيا، وكأنّها كائن حيّ. ففروع أغصان الشجر كالأكفّ
التي ترفع للدّعاء، وذلك في قوله:

[من الطويل]

وَلَمَّا اكْتَسَى اللُّوزَ الحَسِينُ مَطَارِفًا
جَدَايِدَ مِنْ أُرَاقِهِ السُّنْدُسيّةِ
أَشَارَ بِأَغْصَانٍ كَأَنَّ فُرُوعَهَا
أَكْفٌ تَصَدَّتْ لِلدُّعَاءِ وَمُدَّتْ (1)

(1) انظر: الديوان، ص 14.

وأما الوزارة فإنها تبتهج وتفرح بالمولود الجديد كما يفرح
الإنسان:

[مِنَ الخفيف]

حَبَّذَا اللَّيْلُ مَا أَظْلَلْ فَلِلَّيْمِ
سَاءَ حَظٌّ مَا كَانَ لِلِإِصْبَاحِ
مَا رَأَيْنَ النَّهَارَ أَطْلَعَ شَمْسِي
سِنِ عَلَيَّ أَنَّهُ الْمُنِيرُ الضَّاحِي (1)

والصَّومُ يقوِّضُ راحلاً كما يرحل الإنسان عن بلده وموطنه،
وعيد الفطر يقدِّم الهدية كما يقدِّمها الإنسان في أيام الأعياد:

[مِنَ الخفيف]

قَوَّضَ الصَّوْمُ رَحِلاً وَأَتَاكَ الْ
فِطْرُ يُهْدِيكَ عِيْدَهُ وَامْتِدَاحِ (2)
والنَّوَى والبعد له أيدٍ يبطش بها:

[مِنَ البسيط]

يَا سَادَةَ أَنْبَعَدَتْ أَيْدِي النَّوَى بِهِمْ
عَنِّي لَدَاذَةَ أَيَّامِي كَمَا بَعُدُوا
بُنْتُمْ فَمَا عَطَفْتُ لِي بِالْوَدَاعِ يَدٌ
مِنْكُمْ وَلَا بَلَّ بِالتَّسْوِيفِ لِي كَيْدٌ (3)

والجبال تسمع وكأنَّها كائنٌ حيٌّ:

(1) انظر: الديوان، البيت 27، ص 20.

(2) انظر: م. ن، البيت 43، ص 20.

(3) انظر: م. ن، البيت 1، ص 34.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

نَوَادِبُ لَوْ أَنَّ الْجِبَالَ سَمِعَتْهَا

تَدَاعَتْ أَعَالِيهِنَّ فَهِيَ سَوَاجِدٌ⁽¹⁾

والزَّمانُ وجودٌ ويبخلُ كما وجودُ الإنسانِ ويبخلُ:

[مِنَ الكَامِلِ]

جَادَ الزَّمَانُ بِهِ وَعَادَ لِأَخْذِهِ

إِنَّ الزَّمَانَ بِهِ لَغَيْرُ جَوَادٍ⁽²⁾

والموتُ يصطادُ الإنسانَ في حالِ انتهاءِ أجله، كما يصطادُ

الإنسانَ طريدته:

[مِنَ الكَامِلِ]

أَلْقَى حَبَائِلَهُ الرَّدَى فَاصْطَادَهُ

فَأَعْجَبَ مِنَ الْمَصَادِ لِلْمُصْطَادِ⁽³⁾

والقصيدَةُ مِنْ جَمَالِهَا وَرُوعِهَا أَصْبَحَتْ كَالْعُرُوسِ الْبِكْرِ:

[مِنَ الخَفِيفِ]

وَعُرُوسٌ بِكْرٌ إِذَا سَامَهَا الْخَا

طِبُّ لَمْ يُثْنِهِ غَلَاءُ الْمَهْرِ⁽⁴⁾

وَالصَّبْرُ كَالْإِنْسَانِ لَهُ وَجْهٌ يُعْرَضُ بِهِ عَنِ غَيْرِهِ:

[مِنَ الكَامِلِ]

وَلَقَدْ دَعَوْتُ وَوَجْهَهُ شَوْقِي مُقْبِلٌ

بِهِمْ وَوَجْهَهُ الصَّبْرُ عَنِّي مُعْرِضٌ⁽⁵⁾

(1) انظر: الديوان، البيت 42، ص 37.

(2) انظر: م. ن، البيت 16، ص 40.

(3) انظر: م. ن، البيت 15، ص 40.

(4) انظر: م. ن، البيت 14، ص 59.

(5) انظر: الديوان، البيت 24، ص 72.

ج - الحيوان

إذ اهتمَّ الشَّاعر بالحيوانات الضَّارية كالأسد، والدَّئب، والفهد، والكلب، وغير الضَّارية كالأرنب، والخيل، والإبل، والكبش، وكذلك الطُّيور كالحمام، والعصافير، والقَطَا، وغيره.

استعمل شاعرنا أبو البَحر الحَيوانَ في كثيرٍ مِنْ صورهِ التَّخيلِيَّةِ، وذلكَ تعبيراً عن مدى تأثير البيئَةِ المعاشة على الشَّاعر في رسمِ صورهِ. وأكثر ما استخدمه مِنَ الحيوانات: الأسد، والذئب، والفهد، وغيرها مِنَ الأسماء، لِيبرزَ الشَّاعر مِنْ خِلالِ هذه الأسماءِ القُوَّةَ والشجاعةَ للممدوح، ومدى صلابَةِ موقفهِ في الحرب والسِّلم. وقد جاء هذا الاستعمال كثيراً في ديوانهِ، وسوف نختار مثالين يوضِّحان ذلك.

كقوله:

[مِنَ الخفيف]

أَسَدُ الْفَتْكِ أَجْدَلُ الْخَطْبِ ذَيْبُ

الكَرُّ فَهْدُ الْوُثُوبِ كَبْشُ النَّطَّاحِ⁽¹⁾

إذ جعل ممدوحه أسداً فتاكاً بالأعداء، وفي كرهه كالذئب في مراوغته، وكالفهد الكاسر في وثوبه، وكالكبش في نطاحه لخصمه، والجَمال في ذلك أنه استطاع أن يجمع كل الصفات المذكورة في بيت واحد.

فهو اللَّيْث في ساحة القتال، ولو أنه قابل الأسد وهو أعزل لتغلب عليه، ولم ينفعه نابهِ ولا ظفره، فهو اللَّيْث الأقوى. وذلك في قوله:

(1) انظر: الديوان، البيت 39، ص 20.

[مِنَ الطويل]

وَلَيْتُ وَعَى لَوْ قَابَلَ اللَّيْتُ أَعَزَّلاً
وَحَارَبَهُ لَمْ يُغْنِهِ النَّابُ وَالظَّفْرُ⁽¹⁾
ويشبهه النياق بالوحش النَّافر. وذلك في قوله:

[مِنَ الوافر]

أَمَا وَالرَّاقِصَاتُ كَأَنَّ وَحْشاً
تُتَدُّ بِمَا حَمَلْنَ مِنَ الرَّجَالِ⁽²⁾
والطيور والحيوانات تشاركه الألم حال التوديع، فهو يشبه نفسه
حال الوداع بفراخ القطا الضعيفة، وبالظباء التي تحوطها السباع،
وذلك تعبير عن الألم والحسرة ساعة التوديع، وبدء الرحيل، وذلك
في قوله:

[مِنَ الوافر]

كَأَنَّ قُلُوبَنَا لَمَّا اسْتَقَلَّتْ
رَكَائِبُكُمْ ضَحَى وَدَنَا الْوَدَاعُ
فِرَاحُ قَطَا تَخَطَّفَهَا بُرَاةً
وَعَرَجُ ظِبَا تُعَاوِنُهَا سَبَاعُ⁽³⁾
وأغلب هذه التشبيهات تقليدية استقاها من الشعر العربي القديم.

د - الحياة الاجتماعية

نمط آخر من الصور كان معبراً عن الحياة المعاشة، من حيث

(1) انظر: الديوان، البيت 23، ص 50. وانظر الأبيات 3، 20، 23، 29، 67، ص 36، 37، 38،
والبيت 11، ص 48، وغيره.

(2) انظر: م. ن، البيت 46، ص 97.

(3) انظر: الديوان، البيتان 8، 9، ص 74.

الحرب والسُّلم، فقد استخدم أدوات الحرب مِنْ سيفٍ وأشباهه، ورمح، وخيل، وغيره، بالإضافة إلى ما يتعلَّق بمعيشة النَّاس في الحياة اليوميَّة.

وممَّا اعتمد عليه الشَّاعر في تشكيل صورهِ ما يلي:

د - 1. أدوات الحرب

تردَّدت على لسان شاعرنا الكثير مِنْ الألفاظ الدَّالَّة على الحرب، إذ استعان بها في مجالات التَّصوير الخيالي. وأكثر استعمالاته جاءت للسَّيف بمختلف مسمَّياته، مِنْ مثل: الرُّمَح (1) الخَطِّي (2)، والسُّمَر (3)، والقنا (4)، والعوالي (5)، وغيرها. واكتفى بذكر نماذج مُعبِّرة عن استخداماته للسَّيف وبعض مسمَّياته، وذلك في قوله:

[مِنْ مجزوء الكامل]

وَسُيُوفٌ عَتَبَتْكَ يَا أَعَدَّ
مَنْزِلَ الْعَالَمِينَ عَلَيَّ سُلَّتْ (6)

وقوله:

[مِنْ الكامل]

وَمَهْتَدًا أَبْلَى الْغُمُودَ ذَلَّاقَةً
فَعَدَا التُّرَابُ لَهُ مِنْ الْأَعْمَادِ (7)

(1) انظر: الديوان، البيت 28، ص 40.

(2) انظر: م. ن، البيت 17، ص 24.

(3) انظر: م. ن، البيت 12، ص 36.

(4) انظر: م. ن، البيت 25، ص 40.

(5) انظر: م. ن، البيت 1، ص 47.

(6) انظر: م. ن، البيت 8، ص 14.

(7) انظر: م. ن، البيت 32، ص 40.

وقوله:

[مِنْ مَخْلَعِ الْبَسِيطِ]

كَأَنَّمَا قَدَّهُ قَضِيْبٌ
وَسُوْدُ الْحَاظِهِ قَوَاضِبٌ⁽¹⁾

وقوله:

[مِنْ الطَّوِيلِ]

يَعْرِضُ لِلتَّقْبِيلِ خَدًّا كَمَا جَلَّتْ
يَدَا صَيْقَلٍ مَتْنِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِ⁽²⁾

كما أنَّ مظاهر القتال مِنْ بِيضِ المَنَايَا، وَخَيْلِ الرِّزَايَا، وَفِرْسَانِهَا، وَسَيُوفِهَا، وَرِمَاحِهَا⁽³⁾ تَعَدُّ أَدْوَاتَ مَعْدَّةٍ لِلْقِتَالِ وَسَفْكَ الدَّمِّ، وَهَذِهِ الأَدْوَاتُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْهَرَ، وَعَلَى الْمَرْءِ الَّذِي يَرِزَا بِهَا أَنْ يَسْلَمَ أَمْرَهُ لِلَّهِ، وَإِلَّا فَإِنَّ إصَابَتَهَا لَيْسَتْ مِثْلَ إصَابَةِ الْبَيْضِ وَالسُّمْرِ الْحَقِيقِيِّينَ⁽⁴⁾.

د - 2. المِهْن

استمدَّ بعضُ صوره اعتماداً عَلَى المِهْنِ المتداولَةِ فِي عَصْرِهِ، وَخَيْرٌ مِثَالٌ لذلِكَ قَصِيدَتُهُ الَّتِي يَرُدُّ فِيهَا عَلَى مِتْشَاعِرٍ بِالْقَطِيفِ⁽⁵⁾. إِذْ إِنَّهُ عَدَدٌ أَغْلِبَ المِهْنِ المتداولَةِ فِي عَصْرِهِ.

وَمِنَ المِهْنِ أَيْضاً الكِتَابَةُ وَاسْتِخْدَامُ الحَبْرِ الأَسْوَدِ لَهَا.

وذلك في قوله:

-
- (1) انظر: الدِّيوان، البيت 3، ص 9.
 - (2) انظر: م. ن، البيت 4، ص 24.
 - (3) انظر: م. ن، الأبيات 1، 2، 3، ص 49.
 - (4) انظر: حَاجِمُ الرَّبِيعِي، «أبو البحر الحَظِي، دراسة في شعره»، ص 187.
 - (5) انظر: م. س، البيت 4، ص 66، 67.

[مِنَ الكَامِلِ]

لَا تَحَسَبُوهَا أَنَّهُا كُتِبَتْ لَكُمْ
بِسَوَادِ جُبْرِي بَلْ سَوَادِ نَظِيرِي⁽¹⁾

وقوله أيضاً:

[مِنَ الخَفِيفِ]

فَأَنْتَضِ كُلُّ دُرَّةٍ مَّا حَوَتْهَا
يَدُ غَيْصٍ وَلَا قَرَارَةٌ بَحْرٍ⁽²⁾

وبما أن الممدوح ذو مواهب موسعة، ويتمتع بقدره عالية على خوض الصعاب وتحمل المتاعب الحياتية، استعار الشاعر له لفظة (غيص)، تشبيهاً له بالغواص الذي يغوص في أعماق البحار بحثاً عن اللؤلؤ الثمين، وهو على معرفة تامة بمخاطر البحر.

هـ - المخزون الثقافي: الديني والتاريخي

والخطي بوصفه عالم دين، فإن بعض صورهِ صُبِغَتْ بصبغة عقائدية، كما أنه استدعى أخبار الأمم السابقة وضمّنها في شعره تدليلاً على سعة ثقافته في المجالين المذكورين.

كما أنه يمتلك ثقافة دينية بارزة، كان تأثيرها واضحاً في شعره، ممّا جعل بعض صورهِ تنطبع بطابع ديني. فيلاحظ على بعض صورهِ بأنها اصطبغت بصبغة القرآن الكريم. أو ما يسمّى أدبيّاً بالافتباس⁽³⁾ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. مثل قوله:

(1) انظر: الديوان، البيت 30، ص52.

(2) انظر: م. ن.، ص57، وانظر: البيت 35، ص49.

(3) الاقتباس: هو أن يُضمّن الكلام شيئاً مِنَ القرآن أو الحديث، لا على أنه منه.

انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح، 575/2.

[مِنَ البسيط]

وَعِبْرَةٌ لِّوَيْدِي نُوحٍ لِيُسَلِّكَهَا
بِقُلُوبِكُمْ قَالَ بِسْمِ اللّٰهِ مُجْرِبَهَا (1)
وقد اقتبس هذا القول من الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَقَالَ آرَتُكُبْرًا
فِيهَا يَسْمُرُ اللّٰهُ جَجْرِنَهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ (2).

وكذلك حين عاتب الشريف ناصر بن سليمان قوله:

[مِنَ الطويل]

فَإِنْ رِشْتِ مِنْ جَنَاحِي فَأَنْتِي
عَلَى نَيْلِ أَسْبَابِ السَّمَاءِ قَدِيرٌ (3)
أخذ هذا المعنى من الآية القرآنية: ﴿لَعَلَّ أَتْلُغُ الْأَسْبَابَ *
أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ (4).
وفي اقتباسه أحياناً، أنَّ الصُّرورة الشُّعريَّة قد تضطرُّه أن يحذف
بعض الحروف من الأثر المقتبس، مثل حذفه حرف (الراء) من الآية
المقتبسة، في قوله حين يصف شجاعة الممدوح:

[مِنَ الكامل]

التَّارِكُ الأَبْطَالَ صَرَعَى فِي الوَعَى
فَكَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعٍ (5)
أخذها من الآية الكريمة: ﴿تَزْعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعٍ﴾ (6).

(1) انظر: الديوان، البيت 11، ص 124.

(2) هُود، 41/11.

(3) انظر: م. س.، ص 46.

(4) غَافِر، 37/40، 36.

(5) انظر: الديوان، البيت 18، ص 73.

(6) القَمَر، 20/54.

و- المظاهر التاريخية

تحتلّ العِبَر والوقائع التاريخية جزءاً يسترعي الانتباه في شعره، فاهتمامه بأيّام العرب، وأعلامهم المشهورين في عصور ما قبل الإسلام، وما بعده، والتّركيز على مفاخر قومه في تلك الأيّام دليل على سعة ثقافته التاريخيّة⁽¹⁾.

وقد وظّف أسماء الأنبياء خيراً توظيف، إذ استوحاها من القرآن الكريم، وذلك لضرب المثل بهم فيما جاؤوا به من معجزات. مثل النبي موسى في مقابلته السّحرة:

[من الخفيف]

وَاحْتِجَاجٌ يَلْقَى الْخُصُومَ بِمَا قَا
بَلْ مُوسَى بِهِ رَجَالَ السُّحْرِ⁽²⁾
والنبي نوح كان نجّاراً في سفينته:

[من البسيط]

أَوْ فَاتَّخِذْ لَكَ مِنْشَاراً وَمِقْشِرَةً
وَكُنْ كَنُوحِ نَبِيِّ اللَّهِ نَجَّاراً⁽³⁾
والنبي إدريس في كبر قدمه:

[من البسيط]

بَيْنَاكَ بِالْأَمْسِ تُعْلِنِي دُرَى رُتَبٍ
شُمَّ تَهْشُّ لَهَا أَفْدَامُ إِدْرِيسِ⁽⁴⁾

(1) انظر: حاجم الرّبيعي، «أبو البحر الحطّبي»، ص 197.

(2) انظر: الدّيوان، البيت 25، ص 56.

(3) انظر: م. ن، البيت 2، ص 66.

(4) انظر: م. ن، البيت 3، ص 69.

والنبي سليمان في تسخير الإنس والجانّ لبناء مُلكه:

[مِنَ البسيط]

مَا أَقْرَبَ الشَّيْءَ مِنْهُ فِي جَلَالَتِهِ

وَمُلْكِهِ بِابْنِ دَاوُودَ سُلَيْمَانَ⁽¹⁾

واستخدام البساط في الطَّيران:

[مِنَ الوافر]

وَلَوْ أَصْبَحْتَ وَحَدَّكَ فِي بَسَاطِ ابْنِ

دَاوُودَ لَمَالَ بِكَ البِسَاطُ⁽²⁾

والنبي يعقوب في عزائه على يُوسُف:

[مِنَ الوافر]

تَعَزَّزْ لَوْ رَقَى يَعْقُوبُ مِنْهُ

بَيْتٍ أَوْ أَقَلَّ لَطَلَّ سَالِي⁽³⁾

والنبي عيسى في معجزته إحياء الموتى:

[مِنَ البسيط]

تُلْقِي لَكُمْ جَسَدًا لَوْ أَنَّ عِلَّتَهُ

يُدْعَى المَسِيحُ لَهَا مَا كَانَ يُبْرِئُهَا⁽⁴⁾

كما أنَّه وظَّفَ أعلام العرب حينما صوَّره في قصيدتي المدح

والعتاب، مثل أبي كَرَب⁽⁵⁾ في ملكه:

(1) انظر: الديوان، البيت 39، ص 117.

(2) انظر: م. ن.، البيت 5، ص 72.

(3) انظر: م. ن.، البيت 55، ص 97.

(4) انظر: م. ن.، البيت 15، ص 124.

(5) هو سعد بن مالك الحميري اليماني، سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة

البكري الوائلي: مِن سُرَاةِ بني بكر، وفرسانها المعدودين في الجاهليَّة. قُتِلَ في

حرب البسوس. الزُّركلي، الأعلام، 173/3.

[مِنَ البسيط]

وَلَوْ عَدَا وَهُوَ أَعْلَى مِنْ أَبِي كَرِبٍ
شَأْنًا وَأَصْبَحْتُ مِنْ فَقْرٍ أَخَا كَرِبٍ (1)
وحاتم الطائي (2) في كرمه:

[مِنَ الكامل]

وَنَدَى إِذَا مَا كَانَ عَامٌ مُجَذِبٌ
وَاسْتَثَقَلَ الطَّائِي ذِكْرَ الضَّيْفِ (3)
وكعب بن مامة (4) في جوده:

[مِنَ الكامل]

كَرَمِيَّةٌ تَدْرُ الْبَخِيلَ كَأَنَّمَا
نَزَلَ ابْنُ مَامَةَ مِنْ يَدَيْهِ بِأَصْبَعٍ (5)
ومادر (6) في بُخله:

(1) انظر: الديوان، البيت 3، ص 6.

(2) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرح الطائي الفحطاني، أبو عدي: فارس، شاعر، جواد، جاهلي، يُضرب المثل بجوده. كان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانیة، ومات في عوارض (جبل في بلاد طيء). وأرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي ﷺ. الزركلي، الأعلام، 151/1.

(3) انظر: الديوان، البيت 4، ص 75.

(4) هو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، أبو دؤاد: كريم، جاهلي، يُضرب به المثل في حُسن الجوار. فيقال: «أجود من كعب بن مامة»، و «جار كجار أبي دؤاد»، وقال أبو عبيدة: أجود العرب ثلاثة: كعب بن مامة، وحاتم طيء، وهرم بن سنان. الزركلي، م. س، 151/1.

(5) انظر: الديوان، البيت 16، ص 106.

(6) هو من بني هلال بن صعصعة. يُضرب به المثل في البخل. حتى يقال: إنّه سقى يوماً إبله من حوض فبقي فيه بقیة فغوّط فيه لئلاً يشرب منه أحد. الديوان، ص 106.

[مِنَ الكَامِلِ]

أَوْ مَادِرٌ كَأَخِ السَّمَاخَةِ حَاتِمٌ
خَطْبٌ لَعَمْرُ أَبِي الْكِرَامِ جَسِيمٌ⁽¹⁾
وامرؤ القيس⁽²⁾ في قريضه:

[مِنَ الخَفِيفِ]

وَقَرِيضٌ لَوْ اسْتَجْلَاهُ امْرُؤُ الْقَيْدِ
سِ تَمَنَّى وَالِدًا دُونَ حِجْرٍ⁽³⁾
والأشجع السلمي⁽⁴⁾ في فحولته للشعر:

[مِنَ الكَامِلِ]

فَلَيْسَ مَعَنَّكَ إِِنْ بَقِيَ لَكَ بَعْدَهَا
مَا تَسْتَبِينُ لَدَيْهِ دُلَّ الْأَشْجَعُ⁽⁵⁾
وقد ذكر حماد عجرد⁽⁶⁾ في بلاغته ذلك في معرض سخريته
مِنَ أَحَدِ الْمُتَشَاعِرِينَ الشَّبَابِ:

(1) انظر: الديوان، البيت 8، ص73.

(2) هو أبو وهب جندح بن حجر بن الحارث بن عمرو بن الأكبر ابن عدي بن معاوية بن مرة بن الحارث الكندي. كان من فحول شعراء الطبقة الأولى، مقدماً على سائر شعراء الجاهلية، وكان أبوه ملكاً على بني أسد فقتلوه غيلة، فهب امرؤ القيس لأخذ الثأر فخذله قومه، فاستعان بقيص الروم. يوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية، 471/3.

(3) انظر: م. س، البيت 26، ص56.

(4) تعريفه في الفصل الثاني، من الباب الأول، ص58.

(5) انظر: م. ن، البيت 34، ص74.

(6) هو حماد بن عمر، من أهل الكوفة، مولى لبني سؤابة بن عامر بن صعصعة. وكان معلماً محسناً. وكان في الكوفة ثلاثة يُقال لهم الحمّادون: حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزُّبرقان النَّحْوِي. وكانوا يتنادمون ويتعاشرون وكانهم نفس واحدة ويرمون جميعاً بالزندقة. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 663/2.

[مِنَ الكَامِلِ]

نَزَلَتْ مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي مَكَانٍ
تَخَادَلُ دُونَهُ حَمَادٌ عَجْرَدٌ⁽¹⁾

وتلك الأسماء وغيرها مِنَ العناصر الأنفة الذُكْر كانت رافداً قوياً لمعاني الشَّاعر إذ تبلورت مِنْ خلالها صورته.

وإذا كان مِنْ حَوَاصِّ الصُّورَةِ الشُّعْرِيَّةِ هُوَ بَثُّ المَتَعَةِ فِي نَفْسِ المُتَذَوِّقِ لِلدُّبِّ، فَإِنَّ أبا البَحْرِ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ، إِذِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُشِيعَ هَذَا الجَانِبَ بِالوصفِ لِمَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ وَغَيْرِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ صُورٍ كَلِّيَّةٍ أَوْ جُزْئِيَّةٍ، إِذْ أَكْسَبَهَا طَبِيعَةَ إِنْسَانِيَّةٍ، وَذَلِكَ بِمَا ضَمَّنَهَا مِنْ صَوْتٍ، وَلَوْنٍ، وَحَرَكَةٍ.

وسنحاول فيما يلي أَنْ نُبَيِّنَ الألوانَ البَيَانِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَيْهَا الصُّورَةُ الشُّعْرِيَّةُ عِنْدَ أَبِي البَحْرِ.

ثانياً: الألوان البيانية

أ - التشبيه

وقد عرّفه ابن رشيّق بقوله: «التَّشْبِيهُ صِفَةُ الشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ، مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ لَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، لِأَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مَنَاسِبَةٌ كَلِّيَّةٌ لَكَانَ إِيَّاهُ»⁽²⁾.

لَقَدْ اعْتَمَدَ أَبُو البَحْرِ كَثِيراً عَلَى التَّشْبِيهِ فِي قِصَائِدِهِ، وَكَانَ مَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ تَقْرِيبَ المَعَانِي وَتَجْسِيمَهَا لِإِدْرَاكِ أبعادِ الصُّورَةِ. وَمِمَّا جَاءَ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ التَّشْبِيهِاتِ:

(1) انظر: الديوان، البيت 2، ص32.

(2) ابن رشيّق، العمدة، 286/1.

أ - 1. التشبيه المفرد

وفيه قوله:

[مِنَ الخفيف]

أَنْتَ تَذْرِي أَنَّ الْمُدَامَةَ⁽¹⁾ نَارٌ

فَأَقْتَدِحَهَا بِالصَّبِّ فِي الْأَقْدَاحِ(3)

ففي هذا البيت تشبيه بليغ، إذ شبّه الشّاعر المُدَامَةَ بالنّار. فالمُدَامَةُ هي المشبّه، والنّار هي المشبّه به، ووجه الشّبه هو الحاصل المشترك ممّا ينتج عن شرب المُدَامَةَ، وما ينتج مِنْ تعرّض مباشر للنّار، وهو الحرقة الداخليّة والخارجيّة. فيأمر صاحبه بإشعالها بالصّبِّ في الكؤوس. إذ يريد الشّاعر بيان حال المشبّه كون المخاطب يجهل حال المشبّه، وقد أراد بهذا التّشبيه تعريف حال المشبّه، فألحق المشبّه بمشبّه به معروف ومحسوس لدى المخاطب بياناً لِمَا في المُدَامَةَ مِنْ لَوْنٍ، وَحَرَكَةٍ، وَحَرَقَةٍ، فَشَبَّهَهَا بِالنّارِ فِي حَمَرَتِهَا، وَاشْتَعَالِهَا، وَمَا تَفْعَلُ فِي شَارِبِهَا مِنْ ذَهَابٍ لِلْعَقْلِ وَغَيْرِهِ. وَالتّشبيه هنا خالٍ مِنَ الْأَدَاءِ. إذ جعل الطّرفين متّحدَيْن، وَأَنَّ المشبّه هو المشبّه به، لا يتميّز أحدهما عن الآخر.

تعتبر أداة التّشبيه الكاف هي الأكثر استعمالاً عند الشّاعر حال التّشبيه.

أ - 2. التشبيه المرسل⁽²⁾

ومِنْ أمثله قول الشّاعر:

(1) المُدَامَةُ: مُؤَنَّثُ الْمُدَامِ، وَهُوَ الْخَمْرُ.

(3) انظر: الدّيوان، البيت الثّاني، ص19، وانظر: البيت 36، ص20، البيت 6، ص49، البيت 23، ص50، البيت 39، ص52، البيت 53، ص53.

(2) التّشبيه المرسل: هو ما ذُكِرَتْ فِيهِ أَدَاةُ التّشْبِيهِ. انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح، ص388، وانظر: عبد العزيز عتيق، عِلْمُ المعاني والبيان والبديع، ص274.

[مِنَ الطويل]

إِذَا هُنَّ أَبْصَرْنَ الْجُسُومَ كَأَنَّهَا

نُجُومٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَائِ رَوَاكِدٌ⁽¹⁾

والحاصل في هذا البيت أَنَّ الشَّاعِرَ شَبَّهَ أَجْسَامَ الشُّهَدَاءِ - مِنْ أَنْصَارِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فِي وَقْعَةِ كَرْبَلَاءَ - بِالنُّجُومِ الزَّوَاهِرِ الَّتِي سَقَطَتْ مِنْ أَعْلَى السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَخَفَّتْ نَوْرُهَا. فَالْمَشَبَّهُ هُوَ أَجْسَامُ الشُّهَدَاءِ الْهَامِدَةِ، الْمُلقَاةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَالْمَشَبَّهُ بِهِ النُّجُومُ السَّاقِطَةُ مِنَ السَّمَاءِ، وَوَجْهَ الشَّبْهِ هُوَ الْهَيْئَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ الْحُسْنِ، الْجَمَالِ، وَالْبَهَاءِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ مِنَ الطَّرْفَيْنِ بَعْدَ خَفْوَتِهِ وَزَوَالِهِ. وَ«كَأَنَّ» هُنَا دَلَّتْ عَلَى مَعْنَى التَّشْبِيهِ، إِذْ جَاءَ بَعْدَهَا الْمَشَبَّهُ بِهِ لَفْظًا. بِذَلِكَ يَكُونُ هَذَا التَّشْبِيهِ تَشْبِيهًا مُرْسَلًا.

وفي التَّمَاذِجِ التَّالِيَةِ مَا يَجْلُو هَذَا الْاِتِّجَاهَ فِي شِعْرِهِ:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

فَأَسْأَلُهَا وَرَدِيَّةً كَدَمِ الْكَبْشِ

أَسْأَلْتُهُ مُدِيَّةً الذَّبَّاحِ⁽²⁾

وقوله:

[مِنَ الطويل]

وَالْأُتْلَانَتَا كَالْحَمَائِمِ جُثْمًا

وَوُؤْيَا عَفْتُهُ الدَّاهِبَاتُ الْعَوَائِدُ⁽³⁾

وقوله:

(1) انظر: الديوان، البيت 18، ص36.

(2) انظر: م. ن.، البيت 5، ص19.

(3) انظر: م. ن.، البيتان 3، 5، ص36. وانظر الأبيات: 10، 11، 43، 44، 66، 67، 68،

[مِنَ الكَامِلِ]

رَوْضٌ يَرِيقُ عَلَيْهِ نَاجِمٌ زَهْرِهِ
كَالصُّحُفِ بَيْنَ قَوَاصِلِ وَعُشُورِ
لَا شَيْءَ أَبْهَجُ مَنظَرًا مِنْ صَحْوِهِ
وَالشَّمْسُ فِيهِ كَدَارَةِ البَلُورِ⁽¹⁾

أ - 3. التَّشْبِيهِ المُوَكَّدُ⁽²⁾

ومنه قوله:

[مِنَ الخَفِيفِ]

وَتَعُورٍ يُخْلَنَ فِي بَارِدِ الظَّلْمِ⁽³⁾
حَبَابًا⁽⁴⁾ يَطْفُو عَلَى وَجْهِ رَاحِ⁽⁵⁾

فهو يُشَبِّهُ ثُغُورَ الحِسانِ حينما تبتسم، وتلوح أسنانها البيضاء الجميلة في رونقها - بالفقايق الطافية على سطح الشَّراب. فالمشبه هو الثغور البيضاء والمشبه به هو الحَبَابُ الطَّافِي على الشَّرابِ في الكأس، ووجه الشَّبه هو اشتراك المشبه والمشبه به في شدة البياض والرونق الجميل. والتشبيه المؤكَّد أبلغ من التشبيه المرسل، وأوجز، أمَّا كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبهًا به من غير واسطة أداء، فيكون إيَّاه⁽⁶⁾.

(1) انظر: الديوان، البيتان 41، 50، ص 53.

(2) التَّشْبِيهِ المُوَكَّدُ: هو ما حُدِّثَتْ مِنْهُ أداة التشبيه، وتأكيد التشبيه حاصل من ادِّعَاءِ أَنَّ المُشَبَّهَ عَيْنَ المُشَبَّهِ بِهِ. انظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني والبيان والبدیع، ص 274.

(3) الظَّلْمُ: ماء الأسنان وبريقها. التَّلَجُّ وجمعه ظُلُومٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ظ، ل، م)، 372/12.

(4) الحَبَابُ: الفقايق تعلو الماء. انظر: ابن منظور، م. ن، مادة: (ح، ب، ب)، 289/1.

(5) انظر: الديوان، البيت 18، ص 19.

(6) عبد العزيز عتيق، علم المعاني والبيان والبدیع، ص 275.

أ - 4. التشبيه التمثيلي⁽¹⁾

وَمِنْ أَمْثَلْتَهُ قَوْلُهُ فِي رِثَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يَكْرُرُ فَيَنْتَالُونَ عَنْهُ كَأَنَّهُمْ

مَهَيَّ خَلْفَهُنَّ الضَّارِبَاتُ شَوَارِدُ⁽²⁾

فهو يشبّه انهزام الأعداء من أمام مرثيته بالمها السريعة الهاربة، عندما أحست بالخطر من الصوّاري في الصحراء. فالحسين بن علي حينما يكرّر على أعدائه في المعركة يهرب الأعداء منه هروب البقرة الوحشيّة، وخلفها السباع المفترسة. فالمشبّه هم المهزومون أمام الحسين - وهم بنو أميّة - في واقعة كربلاء، والمشبّه به صورة المها الهاربة من الصوّاري. ووجه الشبّه فيه الصّورة المنتزعة والمركبة من هروب الأعداء، وهروب المها ومحصلتها السّرعَة في الهروب من الأعداء حال الشّعور بالخطر.

والغرض في هذا التّشبيه إظهار القوّة العالية التي يتمتّع بها مرثيته.

وقد ورد التّشبيه التمثيلي فيما يلي:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَفْتُ بِهَا وَالْوَحْشُ حَوْلِي كَأَنِّي

بِهِنَّ مَلِيكٌ حَوْلَهُ الْجُنْدُ حَاشِدٌ

(1) تشبيه التّمثيل: هو ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدّد أمرين أو أمور. هذا هو مذهب جمهور البلاغيين في تعريفه، ولا يشترطون فيه غير تركيب الصّورة، سواء أكانت العناصر التي تتألّف منها صورته، أو تركيبه حسيّة، أو معنويّة. وكلّما كانت عناصر الصّورة أو المركّب أكثر كان التّشبيه أبعد وأبلغ. انظر: عبد العزيز عتيق، م. ن، ص 280.

(2) انظر: م. س، البيت 18، ص 36.

كَأَنِّي بِهِ فِي ثَلَاثَةِ مِنْ رِجَالِهِ
 كَمَا حَفَّ بِاللَيْثِ الْأَسْوَدُ اللَّوَابِدُ
 إِلَى أَنْ تَوَوَّأَ فِي الْأَرْضِ صَرَغَى كَأَنَّهُمْ
 نَخِيلٌ أَمَالَتْهُنَّ أَيْدٍ عَوَاضِدُ⁽¹⁾
 أ - 5. التَّشْبِيهِ الضَّمْنِي⁽²⁾

وقد تمثل في قوله:

[مِن الطويل]

يُحَامِي وَرَاءَ الطَّاهِرَاتِ مُجَاهِدًا
 بِأَهْلِي وَبِي ذَاكَ الْمُحَامِي الْمُجَاهِدُ
 فَمَا اللَّيْثُ ذُو الْأَشْبَالِ هَيْجٌ عَلَى طَوَى
 بِأَشْجَعٍ مِنْهُ حِينَ قَلَّ الْمُسَاعِدُ⁽³⁾

فالشاعر يصف الحسين بن علي، وهو يقاتل جاهداً بُغيةً حماية الأهل الطاهرات، وهو في جهاده هذا أشجع من الأسد الذي يحامي عن أشباله حينما تتعرض للخطر. وكما هو معروف بأن الأسد يكون أقوى شراسةً عندما يدهام أشباله خطرًا ما، إذ يفتك بالعدو حمايةً عن أشباله. والشاعر أراد أن يوصل فكرته بأن الحسين يحامي عن الطاهرات بقوة الأسد - بل أكثر منه - في دفاعه عن أشباله. فقد لجأ أبو البحر الخطي للتعبير عن فكرته بأسلوب يوحى بالتشبيه من غير أن يصرح به في صورة من صورته المعروفة. إذ فالبيت الثاني تضمن تشبيهاً

(1) انظر: الديوان، الأبيات 3، 10، 15، ص36.

(2) التشبيه الضمني: تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب. وهذا الضرب من التشبيه يُؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أُسند إلى المشبه ممكن. انظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني والبيان والبديع، ص296، 295.

(3) انظر: م. س، البيتان 19، 20، ص36.

غير مصرَّح به. وهذا يكشف شجاعة الإمام الحسين بن عليّ وترفع مكانته، وقوّة موقفه أمام الأعداء.

أ - 6 - التّشبيه المقلوب⁽¹⁾

يظهر هذا التّشبيه في قوله:

[مِن الطويل]

وَظَلَّنَ يُرَدِّدَنَّ الْمَنَاحَ كَأَنَّمَا

تَعَلَّمَ مِنْهُنَّ الْحَمَامَ الْفَوَاقِدُ⁽⁵⁾

فالشاعر جعل المشبّه مشبّهاً به، إذ نلاحظ أنّ الحَمَامَ تَعَلَّمَنَّ النُّوحَ في حالة الفقد من نساء أهل البيت (عليهم السلام) في نوحهن المستمرّ على فقد الحسين وأنصاره. فهذا تشبيه مقلوب، إذ مِنّ المعلوم أنّ الإنسان تَعَلَّمَ النُّوحَ في حالة فقدان العزيز مِنّ الحَمَامِ الفواقِد. والشاعر قلب التّشبيه لغرض المبالغة. ومِنّ الجدير ذكره أنّ هذا اللون مِنّ التّشبيه لم يَرِدْ كثيراً في ديوان الشاعر.

ب - الكناية⁽²⁾

يلجأ الشاعر إلى الكناية بغية التّغطية والتعمية⁽³⁾، ولأنّه يريد أن يذكر الأشياء بصفاتهما مِنّ غير التّصريح بأسمائهما.

(1) التّشبيه المقلوب: هو جعل المشبّه مشبّهاً به بادّعاء أنّ وجه الشّبّه منه أقوى وأظهر. عبد العزيز عتيق، عِلْمُ المعاني والبيان والبدیع، ص 289.

(5) انظر: الدِّيوان، البيت 47، ص 38.

(2) الكناية: لغة؛ ما يتكلّم به الإنسان ويريد به غيره، وهي مصدر: كنيته أو كنوت بكذا أي تركت التّصريح به، واصطلاحاً، هي لفظٌ أطلق لا يُقصد معناه الأصلي بل معنىً آخر مرتبط بالمعنى الأصلي، وليس هنالك ما يمنع إرادة المعنى الأصلي. انظر: محمّد سعيد إسبر، بلال جنيدي، الشّامل، ص 717.

(3) يتعد المتكلّم عن التّصريح إلى الكناية مِنّ أجل التّغطية والتعمية، ومِنّ أجل الرّغبة عن اللفظ الخسيس المفحش على ما يدلّ على معناه مِنّ غيره، ومِنّ =

وأبو البَحْر استخدم الكناية بكثرة في مجمل الدِّيوان، إلا أننا سنقتصر على مجموعة منها فيما جاء ضمن قصائده الأربع المختارة. من ذلك قوله:

[من الطويل]

جَوَادٌ لَهُ فِي كُلِّ أُنْمَلَةٍ بَحْرٌ

بَصِيرٌ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ فِكْرٌ⁽¹⁾

فالشاعر هنا يريد أن ينسب إلى ممدوحه صفة الكرم، أو أن يثبت له هذه الصفة، ولكنه بدل أن ينسب إليه الكرم بصريح اللفظ فيقول: بأنه كريم كنى عن نسبة الكرم إليه بقول: «جواد له في كل أنملة بحر». والفرق شاسع بين التعبيرين في الجمال والتأثير. والصورة الصريحة التي نرى فيها الممدوح كريماً كالبحر في عطائه. والصورة المكناة التي يريد فيها الشاعر أن ممدوحه يغطي البحر من كرمه. إذ إن كل رأس من رؤوس أصابعه بحر من الكرم والجدود. وقوله:

[من الطويل]

سَوَافِرٌ بَعْدَ الصَّوْنِ مَا لِيُجُوهَهَا

بَرَاقِعٌ إِلَّا أَدْرُعُ وَسَّوَاعِدُ⁽²⁾

البيت بأكمله كناية عن صفة الهوان والذل بعد الصون والعفاف. وقوله:

= أجل التعظيم والتفخيم. انظر: المبرد، الكامل في اللغة والأدب، 6/2، 5.

(1) انظر: الدِّيوان، البيت 19، ص 50.

(2) انظر: م. ن.، البيت 39، ص 37.

[مِنَ الطويل]

تَدَايَعْنَ يَلْطَمَنَّ الْخُدُودَ بِعَوْلَةٍ
 تُصَدِّعَ مِنْهَا الْقَاسِيَاتُ الْجَلَامِدُ⁽¹⁾
 كناية عن الحزن والألم.
 وقوله:

[مِنَ الطويل]

أُمِّيَّةٌ هُبِّي مِنْ ذِكْرِكَ فَمَا جَنَى
 كَفَعَلِكَ جَانٍ وَهَوَ مِثْلَكَ رَاقِدٌ
 لِأَعْرَفْتُمْ فِي رَمِي هَاشِمٍ بَعْدَمَا
 أَحْلَوَكُمُ حَيْثُ السُّهَى وَالْفَرَاقِدُ⁽²⁾
 وذلك كناية عن فضل أهل البيت النبويِّ على بني أمية.
 وقوله أيضاً:

[مِنَ الطويل]

وَخَطِيئَةٌ مَلَسُ الْبُطُونِ كَأَنَّمَا
 أَسِنَّتُهَا مِمَّا شَحَذْنَ مَقَاصِدُ⁽³⁾
 وتلك كناية عن موصوف وهي الرِّمَاحُ الْخَطِيئَةُ.

ح - الاستعارة⁽⁴⁾

«تطلق الاستعارة على استعمال اسم المُشَبَّه به في المشبَّه،

(1) انظر: الديوان، البيت 45، ص37.

(2) انظر: م. ن.، البيتان 60، 61، ص38.

(3) انظر: م. ن.، البيت 68، ص38، وانظر: الأبيات 11، 35 وغيرها، ص50، 51، 52.

(4) الاستعارة لغةً: رفع الشيء وتحويله من مكانٍ إلى آخر. يُقال استعار فلان =

فِيُسَمَّى المشبَّه به مستعاراً مِنْه، والمشبَّه مستعاراً له، واللفظ مُستعاراً»⁽¹⁾.

وعيار الاستعارة تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبَّه والمشبَّه به كي يكتفي - بعد - بالاسم المستعار، لأنَّه المنقول عمَّا كان له في الوضع إلى المستعار له⁽²⁾.
ومِنْهَا قوله:

[مِنَ الخفيف]

مَا تَرَى الدَّهْرَ كَيْفَ رَقَّتْ لِيَا

لِيَه فَشَفَّتْ عَن أَوْجِه الأَفْرَاحِ⁽³⁾

شَبَّه الشَّاعر الدَّهر بالإنسان، وقد حذف المُشبَّه به، وأتى بصفة مِنْ صفاته عن طريق الاستعارة المكنيَّة بقوله: (رَقَّتْ لِياليه)، فالرَّقَّة وهي أمر معنوي صفة مِنْ الصِّفات الأخلاقيَّة الَّتِي يتَّصف بها المرء، وقد أعطاهَا الشَّاعر للدَّهر عن طريق الاستعارة.
وقوله:

[مِنَ الخفيف]

فَهَي تَمْحُو بِضُوئِهَا صِبْغَةَ اللَّيْلِ

لِ فَيَعْدُو وَجْهَ الدُّجَى وَهُوَ صَاحِي⁽⁴⁾

= سهماً مِنْ كُناتِه: رفعه، وحَوَّلَه مِنْهَا إلى يده. وعلى هذا يصحُّ أن يُقال: استعار إنسان مِنْ آخر شيئاً، بمعنى أنَّ الشَّيء المُستعار قد انتقل مِنْ يد المُعبر إلى المُستعبر للانتفاع به. ومن ذلك يُفهم ضمناً أنَّ عمليَّة الاستعارة لا تتمُّ إلاَّ بين مُتعارفين تجمع بينهما صلة ما. انظر: عبد العزيز عتيق، عِلْم المعاني والبيان والبدیع، ص 361.

(1) انظر: م. ن.، ص 369.

(2) انظر: محمَّد غنيمي هلال، النِّقد الأدبي الحديث، ص 240.

(3) انظر: الدِّيوان، البيت 19، ص 19.

(4) انظر: م. ن.، البيت 3، ص 19.

والاستعارة في قول الشاعر: «فيغدو وجه الدُّجى»، فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الدُّجى (الظلام) ليس له وجه، إِنَّمَا أَتَى بِهِ الشَّاعِرُ عَنْ طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ، فَأَثْبَتَ لَهُ وَجْهًا، أَي شَبَّهَهُ بِالْإِنْسَانِ، وَالِاسْتِعَارَةُ هُنَا مَكْنِيَّةٌ، وَالْقَرِينَةُ اللَّفْظِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ «وَهُوَ ضَاحِي». وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَسْأَلُهَا عَنْ أَهْلِهَا وَهِيَ لَمْ تُحَرِّ

جَوَابًا وَهَلْ يَسْتَنْطِقُ الْعُجْمَ نَاشِدٌ⁽¹⁾

جَعَلَ الشَّاعِرُ مِنْ أَرْضِ كَرْبَلَاءِ مَنَادِيَّ يَسْأَلُهُ عَنْ طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ، وَالْقَرِينَةُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: «وَأَسْأَلُهَا عَنْ أَهْلِهَا» فَالضَّمِيرُ الْمَتَّصِلُ هُوَ الدَّالُّ عَلَى الْمَشَبَّهِ بِهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَوْرِدٌ هَذَا الدَّهْرِ مُرٌّ وَإِنَّهُ

لَأَعْدَبُ شَيْءٍ عِنْدَنَا ذَلِكَ الْمُرُّ⁽²⁾

حَيْثُ شَبَّهَ الدَّهْرَ بِأَحْدَاثِهِ بِمَوْرِدِ الْمَاءِ الْمُرِّ عَنْ طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ، وَالْقَرِينَةُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ لَفْظَةُ «مَوْرِدٌ» الَّتِي تُطْلَقُ عَلَى الْمَاءِ.

تلك أمثلة مما جاء به الشاعر على سبيل الاستعارة.

ثالثاً: الألوان البديعية

كان الشعر في عصر أبي البحر تتمثل فيه صفات شعر

(1) انظر: الديوان، البيت 6، ص 36.

(2) انظر: م. ن.، البيت 4، ص 49.

الانحطاط. «وألفاظ هذا الشعر وأساليبه هي الدباجة القديمة مع ما أضاف إليها شعر الانحطاط مِنْ إضافات بالية مِنْ مُحسنات، وجناس، وطباق، ومقابلة، وتورية»⁽¹⁾. إِلَّا أَنَّ أبا الْبَحْر نَأى بشعره بعيداً عَمَّا ساد وانتشر بين الشعراء في عصره مِنْ استخدامات متكلّفة، واهتمام كبير بزخرف الألفاظ وتنميقها. وتبيّن ذلك مِنْ خلال ما جاء في شعره.

أ - الطَّباق

هو أن يجمعَ المتكلم بين الشّيء وضدّه في الكلام. وقد اهتمّ شاعرنا - نوعاً ما - بهذا المُحسن البديعي، وقد ورد في قصائده لاستكمال النّعمة الموسيقية للقصيدة.

مِنْ ذلك قوله:

[مِنْ الكامل]

وَأَقْوُلٌ مُعْتَذِرًا إِذَا سَيَّرْتُهَا

لَا يَتْرُكُ الْمَيْسُورُ بِالْمَعْسُورِ⁽²⁾

فقد طابق بين «الميسور والمعسور».

وقوله أيضاً:

[مِنْ الكامل]

بَلَدٌ تَعَادَلَّ صَيْفُهَا وَشِتَاؤُهَا

فِي الطَّيْبِ لِلْمَقْرُورِ⁽³⁾ وَالْمَحْرُورِ⁽⁴⁾

(1) عبد الله الحامد، الشعر في الجزيرة العربية، ص82.

(2) انظر: الديوان، البيت 29، ص52، وانظر: الأبيات 17، 23، 31، ص19، 20، والأبيات 9، 31، 34، ص37، والأبيات 4، 6، 8، 9، ص49، 50.

(3) المقرور: الرّجل أصابه البرد. والمحرور: المغيظ: الذي في جسمه الحمى.

(4) انظر: م. ن.، البيت 35، ص52.

فقد طابق بين «صيفها وشتاؤها»، وكذلك بين «المقرور والمحور». وقوله:

[مِنَ الكامل]

والمَاءُ مِنْهُ مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ

يَلْقَاكَ بِالْمَمْدُودِ وَالْمَقْصُورِ⁽¹⁾

فهو يطابق بين «مطلق ومقيّد»، وأيضاً «الممدود والمقصور». ومِنَ استخداماته للطُّباق السَّلْبِ قوله:

[مِنَ الطويل]

لَعَمْرُ أَبِي الخَطِّي إِنْ عَزَّ نَصْرُكُمْ

عَلَيْهِ فَلَمْ تَعْزُزْ عَلَيْهِ القِصَائِدُ⁽²⁾

فقد استخدم الفعل (عزّ، فلم تعزز) إيجاباً وسلباً. ومِنَ قوله:

[مِنَ الطويل]

وَإِنْ بُلِّيتَ أَكْفَانُكَ البِيضُ فِي الثَّرَى

فَمَا بُلِّيَ المَعْرُوفُ مِنْكَ وَلَا الذُّكْرُ⁽³⁾

وهو يطابق بين «وإن بلّيت» و«فما بلّي المعروف».

ب - الجناس

والجناس مِنَ المحسّنات البديعيّة، وقد قال عنه الأقدمون: «إنّه تشابه اللفظين في اللفظ، واختلافهما في المعنى»⁽⁴⁾. وينقسم إلى

(1) انظر: الديوان، البيت 44، ص 53، وانظر: الأبيات 22، 32، 38، 53، ص 52، 53.

(2) انظر: م. ن.، البيت 70، ص 39.

(3) انظر: م. ن.، البيت 12، ص 49.

(4) انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 535، وانظر: عبد العزيز عتيق، علم

المعاني والبيان والبديع، ص 614.

قسمين: جناس تامّ، وهو «ما اتَّفَقَ فِيهِ اللَّفْظَانِ فِي أَرْبَعَةِ أُمُورٍ وهي: أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئتها الحاصلة مِنْ الحركات والسَّكَنَاتِ، وترتيبها. وغير التَّامِّ هو ما اختلف فِيهِ اللَّفْظَانِ فِي وَاحِدٍ مِنْ الْأُمُورِ الْآتِيَةِ الذِّكْرُ»⁽¹⁾.

ولم يستخدم أبو البَحر هذا المُحسَّن البديعي إلا قليلاً جداً، وبخاصَّة الجناس التَّامِّ، وذلك في قوله:

[مِنَ الْكَامِلِ]

لَا تَحْسَبُوهَا أَنَّهُا كُتِبَتْ لَكُمْ

بِسَوَادِ جُبْرِي بَلْ سَوَادِ نَظِيرِي⁽²⁾

فقد جانس بين سواد الحبر وسواد العين.

ومنه قوله:

[مِنَ الْخَفِيفِ]

مَا شَكَا الْحَيْفَ عِنْدَ أَعْرَازِ النَّدَى

صُرَّةٍ إِلَّا وَعَادَ شَاكِي السَّلَاحِ⁽³⁾

فقد جانس بين الفعل «شكا» واسم الفاعل «شاكِي». إذ تشابه الركنان لفظاً واختلفاً صفة.

أما الجناس النَّاقِص فمثل قوله:

[مِنَ الْكَامِلِ]

إِنْ يُصَبِّئِي ذِكْرُ الدِّيَارِ فَإِنَّهُ

لِإِنَاثِ أَصْبِيَّةٍ بِهَا وَدُكُورِ⁽⁴⁾

(1) عبد العزيز عتيق، م. ن، ص 623، 615.

(2) انظر: الدِّيوان، البيت 30، ص 52.

(3) انظر: م. ن، البيت 41، ص 20.

(4) انظر: الدِّيوان، البيت 9، ص 51.

والجناس هنا بين «ذَكَرَ، وَذُكِرَ».

وقوله:

[مِنَ الخفيف]

عَاطِنِيهَا قَبْلَ ابْتِسَامِ الصَّبَاحِ

فَهِيَ تُغْنِيكَ عَن سَنَا المِصْبَاحِ⁽¹⁾

ح - المقابلة

وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمَّ يقابلهما أو يقابلها على الترتيب⁽²⁾. وللمقابلة أثر في بلاغة الكلام، إذ يضيف عليه رونقاً وجمالاً، كما أنه يقوِّي الرابطة بين اللفظ، والمعنى. وقد وردت المقابلة في شعر أبي البحر بين القوَّة والضعف. ومثله قوله:

[مِنَ الطويل]

وَأَبْكَيْتُمُ جِفْنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

لِيُضْحَكَ كَلْبٌ مِّنْ أُمَيَّةَ قَاعِدُ⁽³⁾

فهو يقابل بين الشَّطر بين بكاء النبي في الشَّطر الأوَّل، وضحك بني أُمَيَّة في الشَّطر الثَّاني. وقوله:

[مِنَ الطويل]

تُضِيءُ بِهِ أَكْنَافُ عَرَصَةِ كَرَبَلَا

وَتُظْلِمُ مِنْهُ أَرْبُعٌ وَمَشَاهِدُ⁽⁴⁾

(1) انظر: الديوان، البيت 2، ص 19.

(2) الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 485.

(3) انظر: م. س، البيت 59، ص 38.

(4) انظر: م. ن، البيت 31، ص 37.

فساحة الحرب كانت مضيئةً به، وحينما استشهد أظلمت
المحلّ والمكان.

ومن جميل مقابله قوله:

[من الخفيف]

فَهِيَ مِنْ نُورِ وَجْهَهَا وَظَلَامِ
الشَّعْرِ فِي حَالَتِي مَسَاءً وَصَبَاحٍ⁽¹⁾
فقد قابل الشاعر بين نور وجهها بالصبح، وظلام الشعر
بالمساء.

وأيضاً قوله:

[من الخفيف]

مَحَوَا آيَةَ النَّهَارِ فَعَادَتْ
آيَةُ اللَّيْلِ مَا لَهَا مِنْ مَاجِي⁽²⁾
وهو قد قابل بين «آية النهار، وآية الليل».
ومن مقابله الحسنة في سائر الديوان قوله:

[من الرجز]

فَرَدَّ رَأْسًا نَاقِصًا
وَرَدَّ وَجْهًا زَائِدًا⁽³⁾
فهو يقابل بين الرأس الناقص والوجه الزائد.
وقوله أيضاً:

(1) انظر: الديوان، البيت 17، ص 19.

(2) انظر: م. ن.، البيت 23، ص 20.

(3) انظر: م. ن.، البيت 6، ص 42.

[مِنَ الكامل]

بَلَدٌ تُهَيِّنُ الْأَكْرَمِينَ لِلْوَمَهَا

شَرَوْى الزَّمَانِ وَتُكْرِمُ الْأَوْعَادَا⁽¹⁾

فهو قابل بين «تهين الأكرمين، وتكرم الأوغادا».

ولمّا كان أبو البَحر الخَطِّي شديد الارتباط بالواقع المعاش مِنْ خلال تأثيرات البيئَة والثَّقافة، فقد جاءت صورُه، وألفاظُه معبّرة عن ذلك، إذ امتزج خياله وشعوره بتأثيرات بيئِيّة واضحة، انعكست على تصوّره الشّعريّ، وأدائه الفنّيّ. كما أنّ الصّورة لديه لم تكن هدفاً في ذاتها، وإنّما وسيلةٌ يُحقّق بها غايته الشّعوريّة.

بذلك استطاع أن يبتّ خياله التّعبيريّ باستخدامه السُّبل المختلفة مِنْ الألوان البلاغيّة والبديعيّة متّكئاً في ذلك على المخزون الثّراثيّ القديم، وشيء مِنْ التّجديد قياساً لشعراء عصره.

(1) انظر: الديوان، البيت 12، ص44.

الخاتمة

عاش جعفر بن محمد الخطّبي في فترة أطلق عليها المؤرّخون «الفترة المظلمة» وهي التي ابتدأت بانتهاء الحكم العبّاسي، وحلّ محلّه الحكم العثماني حتّى أوائل العصر الحديث، إذ ضعّف سلطان اللغة العربيّة بضعف سلطان أهلها، وانطمست معالم العلم والأدب، وبات الشّعْر في غربّة شديدة لدرجة أن وُصِفَ بأنّه «فاسد تمثّل فيه صفات الانحطاط»⁽¹⁾. ولكن الحكم على هذا العصر وشعره بالردّاءة والانحطاط يعتبر حكماً جائراً. ففي أيّ عصر يمكن أن يظهر الإنسان ذو الموهبة والقدرة على التّجديد، والتّخلص من الأمور غير المستحسنة. لذا نجد في أواخر القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، وأوائل القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي بعض الشعراء الذين نظموا شعراً قوياً يتوهج بالأصالة والجودة، وفي مقدّماتهم جعفر بن محمد الخطّبي. لذا من خلال صحبتي لهذا الشاعر، ودراستي لديوانه توصلتُ إلى النتائج التّالية:

1. أنّ الشاعر عاش في عصر مليء بالاضطرابات السّياسيّة، وبين قوم لا يُقيمون للشّعْر وزناً. ممّا جعله ينزح من موطنه الأم إلى البحرين. فقد رأيناه في أشعاره حراً طليقاً، وصافاً يرسل الشّعْر على طبعه بلا تكلف، ولا تنميق في عصر اهتمّ شعراؤه

(1) عبد الله الحامد، الشّعْر في الجزيرة العربيّة، ص 81.

بزخرف القول، والإغراق في المحسنات البديعية، والولع بالألفاظ المزوقة.

2. تبين من خلال الدراسة أنّ الشاعر شخصيّة سياسيّة، وأنّه شارك في ثورة أهالي القطيف والأحساء ضد الأتراك حيث إنّه رافق زعماء القطيف في فرارهم من وجه الأتراك إلى البحرين، كما واصل دوره السّياسي في البحرين فكان برفقة وفد أهالي البحرين رافعين شكواهم من المستعمر البرتغالي إلى الشاه عبّاس الصفوي.

3. ولد في إحدى قرى القطيف، وهي قرية «التّوبي» وقدّرت سنة ولادته ما بين عام (1564 / 972) - (1566 / 974)، أي في الرّبع الأخير من القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي. ودعّمنا ذلك بالأدلة⁽¹⁾. واتّفق جميع من ترجم للشاعر بأنّ وفاته كانت سنة (1618/1028).

4. إنّ سبب كنيته بأبي البحر جاءت من كثرة أسفاره وركوبه البحر، فلا نعلم أنّ له ابناً اسمه (بحر)، ولم يرد هذا الاسم في شعره، وإنّما ورد في شعره اسم ولده (حسّان). أمّا لقبه بالخَطّي فهو نسبة إلى الخَطّ، وهي القرى الواقعة على ساحل البحر كالقطيف وما جاورها.

5. المعلومات عن حياة الشاعر قليلة، يكتنفها بعض الغموض؛ فطفولته غامضة، وحياته الأسريّة أكثر غموضاً، حيث لم يذكر الشّاعر لنا شيئاً عن أسرته، ولا عن أحوالها، أو عدد أفرادها باستثناء ابنه حسّان.

6. شعره ديوان عصره يستنتج منه الباحث الشيء الكثير، فلم يتجنّب

(1) راجع اسمه ونسبه ومولده، ص32.

إلا الأحداث السياسيّة، فقد ضرب عنها صفحاً، وذلك خوفاً على نفسه من عسف حكومات زمانه، كما ضاع الكثير من شعره، ولا سيّما ما قاله قبل نزوحه إلى البحرين. فديوانه الذي بين أيدينا لم يضم كل شعره، بل هناك مجموعة من القصائد مفقودة. ومع ذلك فإنّه ترك لنا تراثاً شعرياً يعتبر سجلاً حافلاً بصوّر الحياة التي رآها، وعاش في وسطها، وشارك في بنائها.

7. وقد انتهى البحث إلى أنّ مدّة عمر الشّاعر في تنقلاته ثلاثون عاماً (1028/999) - (1618/1590)، بين القطيف والبحرين وفارس وغيرها مادحاً الملوك والأمراء والوزراء ثم العلماء من رجال الدين وراثياً، وواصفاً ومتغزلاً. ومن خلال ذلك أقام علاقات متينة مع رجالات البحرين وفارس، وارتبط بهم وبأولادهم من بعدهم كما بينت ذلك بين ثنايا البحث. وقد ارتبطت تلك التنقلات بجانب الحنين إلى الوطن الذي شغل حيزاً ليس بالقليل في الديوان، ومنها أيضاً الشكوى والعتاب.

8. أظهر البحث أنّ الشاعر الخطّي ذو عزّة وإباء، ولم يكن ممن عاشوا في كنف الحكّام، ووسط ترف الملوك وغيرهم من أجل الوصول إلى مأرب دنيوي، بل كان صاحب نفس عزيزة أمام الملوك والأمراء والوزراء والوجهاء.

9. بنى الشّاعر لنفسه علاقات متينة مع رجالات البحرين وعلمائها، وأكثرها مع العلويّين في البحرين. وأقوى تلك العلاقات التي كانت بينه وبين جعفر بن عبد الرّؤوف الحسيني، فقد كان من المقرّبين له ويصحبه في أسفاره إلى شيراز. وكذلك جعفر بن عبد الجبّار الحسيني الذي أمر بجمع ديوان الشّاعر، إذ أشرف الخطّي بنفسه على عمل الغنوي في جمعه، وذلك يدلّ على أواصر الصّحبة وعمق العلاقة، وروابط المحبّة.

10. كان أبو البحر وفياً لأصحابه من الملوك والأمراء والوزراء وكذلك العلماء. وليس أدل على ذلك من حادثة زعيمين من زعماء الحُويزة المشعشعيين وهما السيد مبارك بن عبد المطلب المشعشعي، وأخوه السيد خلف، حينما خاف السيد مبارك من أخيه انتزاع الملك منه فتنازعا، وقد تغلب مبارك على أخيه خلف فسَمَلَ عينيه. وكانت بين السيد وأبي البحر الخطّي صداقة حميمة، وتراسل، فكتب السيد إليه يشكو ما وقع عليه من أخيه، ويستقدمه إليه في مقر إقامته في الهند جان بعربستان فكتب أبو البحر قصيدة مواساة للسيد خلف إلا أنه لم يتمكن من إنشاده إيّاها إلا بعد ثلاث سنوات من الحادثة، وذلك لأسباب سياسيّة قاهرة.

11. إنّ الخطّي واسع الاطلاع على علوم الشريعة الإسلاميّة، وله حظ وافر في الأدب، والتاريخ، واللغة، وأخبار العرب، وأيامهم. وقصائده مملوءة بالأخبار والإشارات التاريخيّة، والاقْتباس من الشعر القديم.

12. وقد توصلنا إلى أنّ أبا البحر عالم دين قبل أن يكون شاعراً، وحصل على إجازة في أمور الدين من عالم عصره الأوحّد «البهائي»، وقد اصطبغ شعره بالصبغة الدنيّة.

13. وخلص البحث إلى أنّ أهميّة ديوانه ترجع إلى مضامينه الرمزيّة، وليس إلى طريقة تشكيله؛ لأنها تحمل كثيراً من صفات التواضع الفني، فالشخصيّة الأدبيّة وحدة واحدة، وإنّ تنوّعت تجاربها.

14. ضمّ ديوان أبي البحر مائة وتسعاً وثلاثين قصيدة وقطعة ومنتفة. جاءت ثلاث عشرة قصيدة منها للمدح، وسبع أخرى

يشكر فيها ممدوحيه، وثلاث في الثناء عليهم. واختلطت قصائد الخمر مع المديح، وهي أربع قصائد: اثنتان للمديح، واثنتان مستقلتان. كما ظهرت قصائد الشُّكوى في المديح والحنين. أمَّا الغزل فقد بلغت قصائده ثماني عشرة قصيدة. وغرض الرِّثاء خمس عشرة قصيدة، ويأتي الوصف في تسع عشرة قصيدة. أمَّا الحنين فهو من الأغراض الكبيرة وقد احتلَّ مكاناً واسعاً حصرناه في تسع عشرة قصيدة.

15. كان للبيئة أثرها الواضح في مفردات الشاعر وعباراته وصوره، فجاءت أكثر صورته تقليديَّة خاصة فيما يتعلق بالممدوحين. فهو يذكر عراقية الحَسَب وشرف النَّسَب، والكرم والبسالة والشُّجاعة وحسن الخُلُق وغيرها من السَّمات النبيلة.

16. أمَّا مذهبه الدِّيني فإنه على مذهب الشِّيعة الإمامية. وقد تبين ذلك من خلال قصائده في المدح والرِّثاء للعلويين من أبناء البحرين وفارس، وكذلك قصيدته في رثاء الحسين بن علي بن أبي طالب، كما أنَّ سيرته الذاتية تكشف النقاب بوضوح عمَّا يتمذهب به من مذاهب الشريعة الإسلامية. فهو شيعيُّ يُدين بمبادئ الشِّيعة الإمامية قولاً وعملاً.

17. نظم أبو البحر الخطيُّ شعره أجمع على تسعة أوزان عروضية، وتنحى بشعره، وذوقه عن سبعة بحور هي على التوالي: المديد، فالهزج، فالمنسرح، فالمضارع، فالمقتضب، فالمجتث، فالمتدارك. وقد بيَّنا سبب ابتعاده هذا كون تلك البحور غنائية بطبيعتها، وكذلك كون الشاعر رجلاً دين.

18. أبرزت الحقول الدلالية المختلفة التناقضات التي عاشها الشاعر في مختلف جوانب حياته، وكذلك مدى تأثره بالطبيعة.

19. ومن خلال بحثنا في المعجم الشعري، لاحظنا الشاعر يهتم، ويركز على ألفاظ معينة في شعره. منها: الألفاظ الدنيئة، والألفاظ الاجتماعية، والألفاظ الإنسانية، والألفاظ التراثية. إذ كان متعلقاً بالتراث الشعري القديم.

20. أما الصور البلاغية فقد جاء بعضها بطابع تقليدي، وبعضها الآخر يحمل سمات الجدة والتغيير. وعلى أية حال فإنه استطاع أن يبتئ المتعة في نفس المتذوق للأدب بما أشاع من مظاهر الطبيعة وغيرها. فهو ينوع بين الصور الكليئة والصور الجزئية، ويكسبها طبيعة إنسانية. وفي أغلبها تتضمن اللون والصوت والحركة.

21. انصب اهتمام الشاعر على ما ينتجه اللفظ من جرس صوتي بديع. فقد اقتفى أبو البحر القدماء في كثير من ألوان الإيقاع الداخلي مثل: التصريح، والتكرار وغيرها.

22. أكثر حروف الروي استخداماً عند أبي البحر هما حرفا الدال والراء، إذ كان لحرف الدال نصيب الأسد، حيث جاء بنسبة 19,60، أما حرف الراء فقد كانت نسبته 18,12. ويأتي بعدهما حرف الميم بنسبة 13,12.

هذا هو أبو البحر الخطي الذي جاء شعره تعبيراً عن حياته، ومصوراً لشؤون عصره المختلفة. وإني لأتمنى مخلصاً أن أكون قد أمطت اللثام بهذا البحث عن جعفر بن محمد الخطي حياته وشعره بشيء من المطلوب. كما أئني أرجو أن يتصدى أحد الدارسين إلى ديوانه لنفض الغبار عنه، ثم يشرع في تحقيقه تحقيقاً علمياً رصيناً.

قائمة المصادر والمراجع⁽¹⁾

1. أبو حسين، علي. - فهرس مخطوطات البحرين. - لا. ط. - البحرين: المطبعة الحكوميّة التابعة لوزارة الإعلام، (1981/1401)، جزءان.
2. ابن خلكان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد (ت1282/681). - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ تحق: إحسان عباس. - بيروت: دار صادر، (1978/1398). - 8 مج.
3. ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني (ت1064/456). - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده؛ تحق محمد محيي الدين عبد الحميد. - ط4. - دمشق: دار الجيل (1972/1392). - جزآن.
4. أبو تّمّام، حبيب بن أوس الطائي. - ديوان الحماسة؛ شرح التبريزي. - لا. ط. - بيروت: دار العلم، لا. ت.
5. أبو نؤاس، الحسن بن هاني (ت814/198). - ديوان أبي نؤاس (ت814/198). - قدّم له وشرحه علي نجيب عطوي. - ط1. - بيروت: دار مكتبة الهلال، (1986/1407).
6. آل سيف، عبد العلي يوسف. - القطيف وأضواء على شعرها المعاصر. - ط1. - الرياض: مطابع الفرزدق التجاريّة، (1985/1406).

(1) حسب الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين بادئاً بالاسم الذي اشتهر به العَلَم.

7. أنيس، إبراهيم. - موسيقى الشُّعر. - ط5. - القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، (1981/1402).
8. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 889/276). - الشعر والشعراء؛ تحق أحمد محمد شاكر. - لا. ط. - مصر: لا. ت، (1966/1386).
9. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت1311/711). - لسان العرب. - لا. ط. - بيروت: دار صادر، لا. ت. - 15 جزءاً.
10. الأحسائي، محمد بن عبد الله آل عبد القادر. - تاريخ الأحساء - المسمّى تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد. - ط1. - الرياض: مطابع الرياض، (1960/1379).
11. الفيروز آبادي، نجد الدين محمد بن يعقوب (ت 1414/817). - القاموس المحيط. - لا. ط. - القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لا. ت. 4 أجزاء.
12. الأمين، حسن. - «شاعر الخليج». - مجلّة العربي، العدد 125، 138، السنة 1389 / أبريل 1969، ص 99 - 103.
13. الأمين، حسن. - دائرة المعارف الإسلامية الشيعيّة. - ط2. - بيروت: دار التعارف للمطبوعات، (1981/1401).
14. الأمين، محسن. - أعيان الشيعة؛ تحق حسن الأمين. - لا. ط. - بيروت: دار التعارف للمطبوعات، (1983 / 1430).
15. الأنصاري، محمد جابر. - «أدب شعب عربيّ بحريّ مغترب». - مجلّة العربي، العدد 131، 1389 / أكتوبر 1969.
16. الأنصاري، محمد جابر. - لمحات من الخليج العربي. - ط1. - البحرين: الشركة العربيّة للوكالات والتوزيع، وأسرة الأدباء والكتاب، (1970/1390).

17. البحارنة، تقي. - «أبو البحر». - مجلة المواقف، البحرين، العدد 1211، السنة 26، صفر 1420 / مايو 1999.
18. البحراني، الشيخ يوسف. - الكشكول. - ط 1. - بيروت: دار مكتبة الهلال، (1986/1407). - 3 مج.
19. البحراني، يوسف بن أحمد الدرازي (ت 1186 / 1772). - لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث؛ تحقق محمد صادق بحر العلوم. - لا. ط. - النجف: مطبعة النعمان، لا. ت.
20. البكري، أبو عبيد. - جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك؛ تحقق: عبد الله يوسف الغنيم. - ط 1. - الكويت: ذات السلاسل، (1977/1397).
21. البلادي، علي ابن الشيخ حسن. - أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين. - لا. ط. - { مصححة } . - لا. ت. - (1986/1407).
22. التاجر، محمد علي. - (ت 1387/1967) عقد اللال في تاريخ أوال. - إعداد إبراهيم بشمي. - لا. ط. - المنامة: مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر، (1415 / 1994).
23. التَّنُوخي، عز الدين.
- أ - «الأدب في البحرين في فاتحة القرن الحادي عشر (1)». - مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)، المجلد الثامن، الجزء الأول، رجب وشعبان 1346 / كانون الثاني 1928، ص 38 - 44.
- ب - «الأدب في البحرين في فاتحة القرن الحادي عشر (2)». - مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)، المجلد الثامن، الجزء الثاني، شعبان ورمضان 1346 / شباط 1928، ص 84 - 90.

- ج - «الأدب في البحرين (3)». - مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)، المجلد الثامن، الجزء الثالث، رمضان وشوال 1346 / آذار 1928، ص 160 - 166.
24. الجاسر، أحمد. - المعجم الجغرافي للبلاد العربيّة (المنطقة الشرقيّة)، البحرين قديماً. ط 1. - الرياض: لا. ت، (1979/1399).
25. الحامد، عبد الله. - الشّعر في الجزيرة العربيّة خلال قرنين (1150/ 1350). - ط 1. - لا. ن، (1981/1402).
26. الحمداني، طارق نافع.
- أ - «دور الرّحالة البرتغاليين في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسّابع عشر» مجلة الوثيقة، العدد 15، السنة الثامنة، ذو الحجة 1409 / يوليو 1989، ص 158 - 173.
- ب - «التّحدي البرتغالي للوطن العربي ووسائل التّخلص منه». - مجلة الوثيقة. - البحرين، العدد 28، السنة الرابعة عشرة، صفر 1416 / 1995.
27. الخطّي، جعفر بن محمد (ت 1618/1028). - ديوان أبي البحر؛ تعليق وإخراج: علي بن الحسين الهاشمي. - لا. ط. - طهران: مطبعة الحيدري، (1953/1373).
28. الخوانساري، محمد باقر الموسوي (ت 1895/1313). - روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات؛ تحق أسد الله إسماعيليان. - لا. ط. - إيران (طهران): مكتبة إسماعيليان، (1971/1391). - 4 أجزاء.
29. الدّهان، سامي. - المديح. - ط 2. - القاهرة: دار المعارف، (1968/1388).
30. الديهي، محمّد آل مكباس. - موسوعة شعراء البحرين. - ط 1. - البحرين: دار التراث البحراني، (1992/1412).

31. الربيعي، أحمد حاتم. - «أبو البحر الخطي: دراسة في شعره». - مجلة الخليج والجزيرة العربية. - (البصرة) العدد 11، السنة السابعة عشرة، (1410/1989)، ص 153 - 201.
32. الرومي، نوريّة صالح. - الحركة الشعرية في الخليج العربي بين التقليد والتطور. - ط 2. - الكويت: مطابع القبس التجارية، (1989/1410).
33. الزركلي، خير الدين بن محمّد بن عليّ الدمشقي (ت 1396/1976). - الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والعجم. - ط 6. - بيروت: دار العلم للملايين. - 8 أجزاء.
34. الزيّاني، أمل. - البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، ط 2. - لا. ن، (1977/1398).
35. السليم، عبد الله بن إبراهيم بن محمّد. - تقويم الأوقات بالتاريخين الهجري والميلادي وبالتوقيتين الغربي والزوالي. - ط 1. - الرياض: المطابع الأهلية الأوفست، (1979/1400).
36. السيّابي، سالم بن حمود بن شامس. - عُمان عبر التاريخ. - ط 2. - عمان: مطابع سجل العرب، (1986/1407)، 3 أجزاء.
37. السير أرنولدت. ويلسون SIR ARNOLD T. WILSON. - الخليج العربي، مجمل تاريخي من أقدم الأزمنة حتّى أوائل القرن العشرين؛ نقله إلى العربية عبد القادر يوسف. - لا. ط. - الكويت: مطبعة الهلال، لا. ت.
38. الشبّاظ، عبد الله أحمد. - «جعفر بن محمد الخطي». - مجلة الفيصل، العدد 195، رمضان 1413 / 1993.
39. الشهرستاني، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم (ت 1153/548). - الملل والنحل؛ صحّحه وعلّق عليه أحمد فهمي محمّد. - ط 1. - بيروت: دار الكتب العلمية، (1990/1410).

40. العاملي، محمد بن الحسن (ت 1104/1692). - أمل الآمل؛ تحقق أحمد الحسيني. - لا. ط. - بغداد: مكتبة الأندلس، جزآن، لا. ت.
41. العبيد، عبد الرحمن. - الأدب في الخليج العربي. - لا. ط. - لا. ت: مكتبة النشاط الثقافي، (1957/1377).
42. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 1004/395). - ديوان المعاني. - لا. ط. - القاهرة: مكتبة القدسي، لا. ت.
43. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 1004/395). - كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر. - ط 1. - القاهرة: مطبعة محمود بيك، (1901/1319).
44. العمران، فرج. - الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية. - لا. ط. - النجف: مطبعة النجف، (1963/1383)، الجزء 3.
45. العناني، أحمد. - «البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر». - مجلة الوثيقة، العدد الرابع، السنة الثانية، ربيع الآخر 1404 / يناير 1984، ص 74 - 116.
46. العوامي، السيد عدنان. - «دفاع عن أبي البحر». - مجلة الواحة، العدد السابع، رجب 1417 / 1997.
47. الفرّج، خالد بن محمد. - «الشاعر المغمور الشيخ جعفر الخطي القطيفي» - مجلة المنهل، السنة العاشرة، الجزء الثاني، (1949/1369).
48. القرآن الكريم.
49. القزويني، الخطيب (ت 739 / 1338). - الإيضاح في علوم البلاغة. - ط 5. - بيروت: دار الكتاب اللبناني، (1983/1403).
50. اللامي، عبد الرحمن كريم. - الأدب العربي في الأحواز. - لا. ط. - بغداد: دار الحرية للطباعة، (1985/1406).

51. المالقي، أحمد بن عبد النور (ت 1302/702).. **رصف المعاني في شرح حروف المعاني**؛ تحق أحمد محمد الخراط.. ط 2. دمشق: دار القلم، (1985/1405).
52. المبرّد، محمد بن يزيد (285 / 898).. **الكامل في اللغة والأدب**.. - لا. ط. - بيروت: مؤسسة المعارف، (1985 / 1405).
53. المجلسي، محمد باقر.. **بحار الأنوار: الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**.. ط 2.. - { مصحّحة }.. - بيروت: مؤسّسة الوفاء، (1983/1403). 110 أجزاء.
54. المحامي، خالد العزي.. **الخليج العربي في ماضيه وحاضره**.. - لا. ط. - بغداد: مطبعة الجاحظ، (1972/1392).
55. المحامي، محمد فريد.. **تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة**.. - لا. ط. - بيروت: دار الجيل، لا. ت.
56. المحبّي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين (ت 1699/1111).. **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**.. - لا. ط. - بيروت: دار صادر، لا. ت. - 5 أجزاء.
57. المحبّي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين (ت 1699/1111).. **نفحة الريحانة ورشحة طلاء أحنانه**؛ تحق عبد الفتاح الحلو.. - ط 1. - القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، (1967/1387).
58. المحيشي، عبد الحميد.. «**الحياة العلميّة في القطيف**».. - **مجلة الواحة**، العدد السابع، رجب 1417 / 1997، ص 61 - 141.
59. المسلم، محمد سعيد.. **ساحل الذهب الأسود: دراسة تاريخيّة إنسانيّة لمنطقة الخليج العربي**.. - ط 2. - بيروت: دار مكتبة الحياة، لا. ت.

60. المسلم، محمد سعيد. - واحة على ضفاف الخليج - القطيف. ط 2 { مزيدة ومثقة }. - الرياض: مطابع الفرزدق، (1991/1411).
61. النّبّهاني، محمد خليفة بن حمد بن موسى. - التّحفة النّبّهانيّة في تاريخ الجزيرة العربيّة. - ط 1. - بيروت، البحرين: دار إحياء العلوم، المكتبة الوطنيّة، (1986/1407).
62. النّجّار، مصطفى وآخرون. - تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر. - بغداد: لا. ن، (1984/1405).
63. النّبويدي، سالم. - أعلام الثّقافة الإسلاميّة في البحرين خلال 14 قرناً. - ط 1. - بيروت: مؤسّسة العارف، (1992/1412). - 3 مج.
64. الهاشمي، أحمد. - جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب. - ط 21. - مصر: مكتبة السّعادة، (1964/1384).
65. بركات، محمود محمد. - شعر ابن عُثيمين: دراسة في الشكل والمضمون. - ط 1. - الكويت: شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، (1985 /1406).
66. حسن، عبّاس. - النّحو الوافي. - ط 8. - القاهرة: دار المعارف، (1987/1408).
67. حسن، يوسف. - الوطن في شعر أبي البحر الخطّي. - ط 1. - الإمارات: اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، (1999/ 1420).
68. حلواني، محمد خير. - المعنى الجديد في علم الصرف. - لا. ط. - بيروت: دار الشرق العربي، لا. ت.
69. سركيس، عادل أحمد. - شخصيات بحرينيّة. - ط 1. - المنامة: مكتبة فخراوي، (1995/1415)، جزءان.
70. سركيس، يوسف بن اليان (ت 1932/1351). - معجم المطبوعات

- العربيّة والمعرّبة.. لا. ط.. القاهرة: مطبعة سر كيس، (1928/1346).
- مجلّدان 11 جزءاً.
71. شبر، جواد. - أدب الطّف أو شعراء الحسين من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر. - ط1. - بيروت: دار المرتضى، (1988/1409). - 5 أجزاء.
72. صدر الدين، علي (ت 1707/1119). - سلافة العصر في محاسن الشّعر بكلّ مصر. - ط2. - قطر: مطابع علي بن علي، (1962/1382).
73. ضيف، شوقي. - عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربيّة - العراق - إيران. - ط2. - القاهرة: دار المعارف، لا. ت. - (تاريخ الأدب العربي؛ 5).
74. عبد المطلب، محمد. - قراءات أسلوبية في الشّعر الحديث. - لا. ط. - القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، (1995/1416).
75. عتيق، عبد العزيز. - علم المعاني - البيان البديع. - لا. ط. - بيروت: دار النهضة العربيّة، لا. ت.
76. عمر، فاروق. - الخليج العربي في العصور الإسلاميّة. - ط1. - دبي: دار القلم، (1983/1403).
77. قلعجي، قدرى. - الخليج العربي. - لا. ط. - دار الكتاب العربي، (1965/1385).
78. لوريمر، ج. ج. - دليل الخليج (القسم الجغرافي). - لا. ط. - الدوحة: مطبعة علي بن علي. - 7 أجزاء للجغرافيا، و 7 أجزاء للتاريخ.
79. متولي، محمد، أبو العلاء، محمود. - جغرافيّة الخليج: الخليج العربيّ وخليج عُمان ودول شرق الجزيرة العربيّة. - ط2 (مزيدة ومنقّحة). - الكويت: مكتبة الفلاح، (1985/1405).
80. مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجلّد الرابع، الجزء الثاني، ربيع الآخر 1378 / نوفمبر 1958، 253 - 255.

81. إبراهيم مدكور وآخرون. - الموسوعة العربية الميسرة. - لا. ط. - دار الشعب، (1987/1407).
82. محمود، حبيب. - «الشعر القطيفي في أربعين عاماً (1410/1370)»، مجلة الموسم (دمشق)، العدد الخامس عشر، (1993/1414)، ص 149 - 212.
83. معروف، نايف وعمر الأسعد. - علم العروض التطبيقي. - ط. 1. - بيروت: دار النفائس، (1987/1408).
84. مناع، هاشم صالح. - الشافي في العروض والقوافي. - ط. 1. - بيروت: دار الفكر العربي، (1993/1414).
85. موسى، محمد العزب. - صفحات من تاريخ البحرين: من ديلمون إلى أوال. - لا. ط. - لا. ت، (1989/1409). - جزآن.
86. موسى، محمد العزب. - صفحات من تاريخ البحرين في العصر الإسلامي. - لا. ط. - لا. ن، (1989/1409). - جزآن.
87. نصر الله، محمد رضا. - «قراءة في شعرية منحرفة لشاعر خليجي من القرن العاشر الهجري». - ندوة الأدب في الخليج العربي، (مجموعة دراسات). - أسرة الأدباء والكتاب بالإمارات. - ط. 1. - الجزء الثالث، (1991/1411). - ص 199 - 222.
88. نوفل، سيد. - الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي. - ط. 1. - بيروت: دار الطليعة، (1969/1389).
89. هلال، محمد غنيمي. - النقد الأدبي الحديث. - ط. 1. - بيروت: دار العودة، (1982/1403).
90. اليازجي، ناصيف. - العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. - لا. ط. - بيروت: دار صادر، لات. - مجلدان.
91. ياقوت الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت (ت 1228/626). - معجم البلدان. - بيروت: دار إحياء التراث العربي، دار الكتاب العربي، لا. ت. - 5 أجزاء.

الفهارس العامة

الفهارس العامة

91، 105، 106، 107، 131، 133، 134،
136، 143، 145، 149، 150، 156،
164، 172، 175، 177، 178، 179،
181، 191، 198، 199، 226، 243،
244، 278، 355، 404.
ابن هشام الأنصاري: 327.
أبو بكر الصديق: 33.
أبو تمام: 63، 71، 173، 252، 370.
أبو حنيفة النعمان: 264.
أبو سعيد الجنابي: 32.
أبو سنان (محمد بن جعفر): 260.
أبو فراس الحمداني: 71.
أبو كرب (سعد بن مالك): 166، 337،
398، 399.
أبو منصور: 56.
أبو موسى الأشعري: 47.
أبو نواس (الحسن بن هاني): 71، 148.
أبو هلال العسكري: 252.
الأثرak: 42، 64، 65، 73، 79، 85، 86،
101، 102، 131، 420.
الأحساء: 20، 24، 32، 34، 42، 47، 58،

(أ)

الآرة: 32.
آل البيت النبوي: 13، 142، 144، 145،
153، 309، 315، 367، 407، 409.
آل قارون: 96، 97، 137.
آل مقلد: 65، 79، 101، 224، 309، 339.
إبراهيم أنيس: 288.
إبراهيم (الغلام): 242.
ابن أبي جمهور: 46.
ابن الأعرابي: 33.
ابن حجر: 264.
ابن خلدون: 34.
ابن خلكان: 147.
ابن رشيقي (القيرواني): 216، 229، 401.
ابن عثيمين: 273.
ابن قتيبة: 59، 87، 135، 147، 252، 400.
ابن المعتز: 71.
ابن معصوم: 14، 19، 20، 24، 26، 47، 55،
57، 57، 86، 88، 91، 92، 96، 108،
111، 117، 130.
ابن منظور: 56، 81، 83، 84، 86، 87، 88،

الأمين (محسن): 25، 66، 89، 90، 95، 96،
98، 109، 117، 118، 123، 124، 129.

أندونيسيا: 39

أنطونيو كوريا: 41.

أوال: 32، 34، 40، 47، 49، 65، 66، 70،

79، 82، 84، 97، 103، 130، 137،

139، 141، 172، 174، 177، 182،

211، 253.

أوس بن حجر: 33.

إيران (الإيرانيون): 16، 44، 46، 68، 90،

93، 108، 115، 117، 119، 120، 122،

187، 213، 230، 264، 309، 358،

369.

أيوب بن عبد الباقي البدري: 68.

(ب)

البحري (الوليد بن عبيد): 71، 252.

البحراني (عبد الصمد بن عبد القادر):

114، 120.

البحراني (يحيى بن عز الدين): 46.

البحراني (يوسف): 66.

البحرين: 15، 16، 18، 19، 24، 25، 26،

28، 29، 31، 32، 33، 34، 35، 36، 37،

38، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 46،

47، 48، 49، 59، 60، 61، 63، 66، 67،

68، 74، 76، 77، 79، 82، 84، 85، 89،

91، 92، 93، 96، 97، 100، 101، 102،

103، 104، 108، 110، 115، 116،

117، 124، 130، 132، 133، 137،

139، 144، 146، 172، 174، 175،

60، 61، 65، 76، 79، 102، 188، 211،
420.

أحمد (ابن الشاعر): 66.

أحمد ابن الإمام موسى الكاظم: 109،

110، 208.

أحمد بن يحيى: 145.

أحمد العناني: 42.

أحنف بن قيس: 168، 310.

الأخطل (غياث بن غوث): 148.

الأزبك: 44، 64.

الانجليز: 103.

الخواجة إبراهيم: 97، 141، 142، 151،

192، 247.

إدريس (النبى): 167، 397.

أرنولد، ديلسون: 34.

الأسد (مكتبة): 16.

الإسكندر المقدوني: 157، 310.

الإسكندرية (جامعة): 16.

أشجع السلمي: 71، 87، 400.

أصفهان (أصبهان): 24، 89، 99، 104،

128، 369.

الأعور الشني: 59.

أكنم بن صيفي: 168، 310.

أم الحصم: 236، 369.

أم الشيف: 369.

امرؤ القيس: 58، 59، 71، 166، 400.

أمل الزياتي: 42.

الأمين (حسن): 34، 41، 56، 61، 74، 186،

187.

بوري (قرية): 67، 180، 275، 276، 308،
309، 314، 321، 369.
البوكيرك (قائد): 39.
بينونة: 32.

(ت)

التاجر (محمد علي): 37، 40، 47.
تاروت: 61، 369.
تركيا: 42.
تغلب بن وائل: 59، 60، 135، 165، 189،
199، 200، 234.
التنوخى (عز الدين): 14، 25، 26، 108،
114، 115، 181، 182، 183، 265،
266، 330.
تهامة: 35.
التهامي (أبو الحسن): 24.
توبلي: 199، 232، 233، 369.
التوبي: 20، 61، 68، 69، 420.
التميمي (إبراهيم): 141.
التميمي (خميمس بن ناصر): 196، 247،
256.

(ج)

جابر بن عبد الله الأنصاري: 144، 375.
الجاحظ: 168.
الجبري (مقرن بن أجود): 41.
جبل عامل: 117.
جدحفص: 66، 77، 91، 179، 369.
الجدحفصي (لطف الله بن علي بن
لطف الله): 115، 116.

176، 177، 183، 184، 187، 196،
203، 205، 207، 210، 212، 214،
229، 232، 233، 236، 242، 246،
248، 256، 272، 302، 303، 307،
309، 310، 311، 313، 314، 316،
330، 336، 341، 343، 346، 352،
353، 369، 381، 386، 419، 421،
423.
بدر بن مبارك خان: 89، 130، 133، 155.
بريغي (باربار): 232، 369.
البرتغاليون: 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43،
44، 45، 46، 49، 64، 65، 85، 103،
104، 133.
البصرة: 14، 33، 34، 35، 58، 61، 87،
114، 213.
بغداد: 42، 44، 46، 64، 87، 119، 147،
252.
بكر بن وائل: 59، 60، 64، 165، 189،
200، 204، 220، 234، 259، 281،
309، 398.
البكري (أبو عبيدة): 34، 36، 399.
البلاذري: 33.
بلال جنيدى: 407.
بنو أمية: 148، 309، 405، 409، 415.
بنو سعد: 264.
بنو وائل: 79.
بهبهان: 213.
بوههان: 199، 369.
بوالو Boileau (الشاعر الفرنسي): 266.

405، 406، 407، 423.
الحسيني (جعفر بن عبد الرؤوف): 94،
203.
حماد بن الزبرقان: 400
حماد الراوية: 400.
حماد عجرد: 166، 400، 401.
حميد بن زامل: 41.
الحموي (ياقوت): 33، 34، 35، 39، 56،
61، 73، 82، 106، 107، 114، 135،
213، 369.
حنيفة: 234.
الحويزة: 90، 98، 133، 138، 213، 422.
الحيرة: 135.

(خ)

خالد الفرّج: 14، 23، 62، 68، 79، 80، 81،
82، 92، 102، 107، 108، 109، 145،
146، 194.
خديجة بنت عبد الرؤوف: 209، 214.
خراسان: 64، 102، 119.
الخَطّ: 32، 33، 35، 47، 58، 65، 306،
309، 324، 369، 420.
الخطي (1)
الخطيب القزويني: 402، 413، 415.
خلف بن عبد المطلب: 98، 130، 133،
134، 135، 151، 191، 422.

(1) أسقطت مسمى الخطي من فهرس
الأعلام لأنه تكرر كثيراً في صفحات
البحث .

الجدحفصي (ماجد بن هاشم الصادقي): 66،
76، 91، 93، 128، 139، 153، 161، 163،
165، 208، 211، 213، 215، 247، 249،
258، 259، 310، 376.
جراح (نهر): 159، 309، 369.
الجرجاني (عبد القاهر): 292.
جرير (الشاعر): 59، 311.
جرير بن عبد المسيح: 59.
جعفر بن أبي طالب: 145.
جعفر بن عبد الجبار العلوي (الموسوي):
25، 95، 100، 112، 122، 140، 149،
154، 155، 161، 247، 353، 367، 421.
جعفر بن يحيى: 87.
جمال الدين بن سليمان: 209، 214، 215.
الجنبية (قرية): 230، 369، 386.
جوا (مدينة): 38.
جواثا (مدينة): 33.
جواد شبر: 89، 91، 94، 98، 99، 114، 116.

(ح)

حاتم الطائي: 166، 168، 234، 399.
الحجاز: 35، 91، 188.
حزوي: 99، 369.
حسان (ابن الشاعر): 66، 67، 195، 199.
حسان بن ثابت: 71، 112.
الحسين بن علي: 107، 143، 146، 203،
212، 228، 272، 285، 295، 298،
300، 302، 303، 304، 305، 307،
310، 311، 312، 314، 316، 341،
342، 343، 353، 361، 372، 403.

(ز)
الرَّأْرَاءُ (مدينة): 32.
الزجاج: 191.
الزُّرْكَلي (خير الدِّين): 56، 59، 99، 107،
168، 203، 398، 399.

(س)
سار (قرية): 369.
السَّابور: 33.
سعد بن مالك: 58، 398.
السَّعُودِيَّة: 15.
سفيان بن سعد بن مالك: 59.
سلماباد (قرية): 232، 369.
سَلَيْمَان (النَّبِيَّ): 167، 398.
سَلَيْمَان باشا: 42.
سليمان بن مظفر: 135.
سَنُو (أهيف): 16.
سَنُو (هبة): 16.
سورية (بلد): 16، 117.
سيد نوفل: 41، 43.
سيهات (مدينة): 61، 73، 174، 369، 370.

(ش)
الشاخورة: 205.
الشام: 135، 148، 252، 399.
شحر: 369.
الشَّرِيف الرُّضِيَّ: 71، 207.
شماخير (شماخي): 45، 104.
الشَّمْر بن ذي الجَوْشَن: 107، 310.
شن بن أقصى: 59، 60، 199.

خميس بن ناصر (أمير): 196، 247، 256.
الخواجة (إبراهيم): 97، 142، 151.
الخوانساري: 60، 92، 99، 109.
خوزستان: 90، 159، 213، 309، 369.

(د)

دارين: 33.
داود: 398.
الدراز: 232.
الدبزي (محمد): 115.
دمشق: 14، 25، 99، 120، 147.
الدورق: 90، 98، 130، 133، 361، 369.

(ذ)

ذريح بن سعد بن مالك: 58.
ذو القرنين: 232.
ذي قار (معركة): 99، 189، 369.

(ر)

الرِّباط: 16.
ربيعة (قبيلة): 164، 189، 309.
ربيعة بن سفيان: 59.
الرَّيْبِعي (أحمد حاجم): 21، 62، 109،
110، 384، 387.
رُكن الدِّين محمود (وزير): 43، 84، 85،
101، 130، 136، 146، 157، 158،
162، 164، 172، 310، 336، 375،
377.
الرِّياض (جامعة): 15.

،143، 138، 108، 104، 103، 100، 75
،376، 194، 193، 167، 161، 146
422
عبّاس الصّفوّي (الشّاه عبّاس): 44، 45،
420، 133، 105، 104، 103، 99، 46
عبد اللّٰه (ابن الشّاعر): 66.
عبد الله بن خالد الخليفة: 43، 44.
عبد اللّٰه بن علي آل عبد القادر: 32.
عبد اللّٰه بن مقلّد: 65، 79، 84، 205،
204، 205، 219، 226، 367، 368.
عبد اللّٰه بن منصور: 112.
عبد الحميد المحيشي: 71، 76.
عبد الرحمن العبيد: 46.
عبد العزيز عتيق: 278، 402، 404، 405،
406، 407، 410، 413، 414.
عبد العلي يوسف آل سيف: 48.
عبد القاهر بن عبد الرّؤوف: 141، 210،
353.
عبد القيس (قبيلة): 35، 54، 55، 57، 58،
59، 188، 189.
عبد الوهاب حسن المهدس: 111.
العبيدي: 59.
العثمانيون: 42، 65، 131.
عدن: 42.
العُدّيب (اسم مكان): 99، 369.
العراق: 42، 47، 60، 79، 91، 110، 112،
116، 120، 135، 147، 252، 309.
عربستان: 422.
العرجي (شاعر): 63، 71.

الشّنفرى: 71.
الشهرستاني: 100.
الشوكاني: 264.
شيبان: 165، 189.
شيراز: 21، 24، 44، 47، 48، 89، 91، 94،
103، 104، 108، 109، 176، 177،
178، 181، 185، 203، 210، 213،
236، 243، 282، 358، 369، 421.

(ص)

صحار: 135، 136، 199، 323.
الصّفوّية (دولة): 98.
الصلتان العبيدي: 45، 46، 59.
الصيمري (محمّد بن صالح بن جار اللّٰه):
114.

(ض)

ضَيْف (شوقي): 24، 58، 69، 93، 223.

(ط)

طارق بن نافع الحمداني: 39، 40.
طرفة بن العبد: 58، 59.
طهران (مدينة): 81، 119، 120.
الطهراني: 89.

(ظ)

الظّاهريّة (مكتبة): 16.

(ع)

عادل أحمد سرّكيس: 38.
العالمي (بهاء الدّين): 14، 19، 24، 68.

الغنويّ (الحسن بن محمّد): 25، 54، 57،
75، 82، 95، 100، 112، 113، 122،
421

(ف)

فاران: 369.
فاطمة الزهراء: 145.
فاطمة بنت المنذر: 59.
الفرات: 252.
الفرزدق: 59.
الفرس (فارس): 18، 34، 38، 43، 45، 47،
77، 98، 105، 108، 110، 138، 144،
180، 182، 184، 186، 369، 421،
423.
فرهاد مرزة: 119.
الفيروزآبادي (كمال الدين بن يحيى): 56،
372

(ق)

القارونيّ (عائلة): 207.
القارونيّ (عبد الرّؤوف بن ماجد): 154،
250.
القارونيّ (ناصر بن سليمان): 96، 97،
138، 163، 247، 258، 347، 368.
القارونيّ (محمّد بن سليمان): 207.
القانونيّ (سليمان): 42، 64.
القاهرة (جامعة): 16.
قثم بن خبيثة: 59.
القدس: 99.
قدامة بن جعفر: 170، 228.

الرّعِيص (عبد الجليل): 15.
عسير: 188.

عقيل بن أبي طالب: 145.
العلويّ (أحمد عبد الصّمّد): 213، 221.
العلويّ (عبد الله بن الحسين بن عبد
الرّؤوف): 253.
العلويّون (سلالة بني هاشم): 93، 94،
137، 139، 144، 156، 162، 203،
214، 253، 373، 377، 421، 423.
علي بن أبي طالب: 100، 107، 145.
عمّان: 32، 33، 34، 35، 38، 58، 135.
عمّان (جامعة): 16، 33، 34، 35، 38، 39،
58، 61، 135.

عمر (الخليفة): 33.
العمران (فرج): 70، 106، 228.
عمرو بن قميّة: 58.
عمرو بن كلثوم: 135، 165، 199.
عمرو بن هند: 59، 135.
العمرى: 249.
عَنك: 73، 175، 349، 369.
العوّامي: 15، 25، 26، 76، 81، 82، 103،
104، 111، 117، 133.
عيسى (النّبّي): 136، 167، 398.
عيسى (الغلام): 243.
العيوني (ابن المقرّب): 74.

(غ)

الغابة: 33.
الغريفي (الحسين بن الحسن): 205،
221.

(ك)
 كارون (نهر): 159, 309, 369.
 كتكان: 199, 207, 369.
 كربلاء: 107, 143, 213, 298, 300, 309,
 310, 312, 342, 403, 405, 411.
 كسرى أنوشروان: 310.
 كعب بن مامة: 166, 168, 310, 399.
 كمال أبو ديب: 271.
 كمال الدين بن يحيى الكردى: 103.
 الكوفة: 107, 400.
 الكوَيْت: 15, 112, 116, 188.

(ل)

لبنان: 120.
 لؤي بن غالب: 287.
 لوريمر: 39, 40, 73, 213, 369.

(م)

ماثنا: 207.
 مادر: 166, 234, 235, 369.
 مأوان: 326, 369.
 ماوية بنت حجر: 399.
 مبارك بن عبد المطلّب: 98, 422.
 المتلمس: 59.
 المتنبّي (أبو الطيّب): 71, 87, 112, 113,
 191, 192, 194, 214, 215, 222,
 256, 263, 264, 265, 324.
 المتوكل العباسي: 252.
 المثقب العبدى: 59.
 المجلسي (محمّد باقر): 55.

قرواش بن مقلد: 79.
 قريات: 39.
 قرَيْش: 152, 165.
 قس بن ساعدة: 168.
 قشم: 40, 45.
 قطر: 42.
 القطيف: 15, 18, 20, 24, 32, 33, 34,
 35, 38, 42, 47, 48, 58, 61, 64, 65,
 66, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 76, 77,
 79, 80, 82, 84, 85, 88, 101, 102,
 108, 109, 110, 112, 117, 124,
 130, 131, 132, 136, 144, 174,
 175, 176, 184, 186, 187, 188,
 189, 197, 204, 211, 214, 216,
 235, 239, 245, 253, 258, 260,
 264, 272, 302, 303, 306, 307,
 314, 316, 341, 343, 348, 352,
 354, 362, 369, 380, 394, 420,
 421.
 القطيفيّ (إبراهيم بن سلّيمان): 116.
 القطيفيّ (رضوان بن حسن بن عبد الله):
 116.
 قلجعي (قدرى): 36, 39.
 قلهاث: 39.
 قم (مدينة): 16, 115.
 القميعيات (دولاب): 230, 349, 350.
 قيس بن زهير: 310.
 قَيْس عيلان: 309.

- المسهلة: 80.
- المشعشعيون (آل المشعشع): 90، 103، 133
- مشهد: 64.
- مصر: 16، 42، 99، 147، 264.
- مصعب بن الزبير: 168.
- مصطفى النجار: 45.
- المصلّى (قرية): 369.
- مضر: 309.
- معاوية: 148.
- معبد (مغني): 166.
- مقابة (قرية): 369.
- مكة: 264.
- ملوك بنت عبد الرّؤوف: 208، 209، 214، 215
- المملكة المغربية: 16.
- المنامة: 41، 42، 67، 236، 369.
- متاع (صالح): 15، 273، 274، 284، 285.
- منبج: 252.
- المنصور (أنيسة): 15.
- المهلب بن أبي صفرة: 59.
- مهنا بن هُدَيْف: 130، 135، 136، 165.
- موسى (النّبي): 167، 397.
- الموسويّ (أحمد بن عبد الصمد): 213، 221
- الموسويّ (جعفر بن عبد الجبّار): 25، 95، 100، 112، 122، 140، 161، 247، 353، 421.
- الموسويّ (عبد الرّؤوف الحسيني): 89،
- المحبّي (محمّد أمين): 14، 19، 51، 55، 56، 86، 91، 96.
- محسن المعلم: 62.
- محمد بن الحسن (الحر العاملي): 19، 26.
- محمّد بن عبد الله (الرّسول): 58، 100، 144، 145، 154، 156، 161، 168، 310، 375، 399، 415.
- محمّد بن عبد المطّلب: 15، 351.
- محمّد الخامس: 16.
- محمد رضا نصر الله: 266، 289، 356، 358، 370.
- محمد فريد المحامي: 44، 64.
- محمد الفلفل: 61.
- محمد متولي: 35.
- محمد النبهاني: 46.
- محمود محمد بركات: 273.
- مرثد بن سعد: 58.
- المرعشي النجفي (مكتبة): 16، 115، 117.
- المرقش الأصغر: 59.
- المرقش الأكبر: 59.
- مريم بنت عليّ بن منصور: 209، 214.
- المسعودي: 73.
- مسقط: 38، 42.
- المسلم (سعيد): 32، 40، 41، 46، 47، 51، 58، 61، 64، 65، 72، 73، 85، 104، 109.
- مسندم: 35.

هرات: 44، 62.
هرم بن سنان: 168، 399.
هرمز: 38، 39، 40، 43، 44، 64.
هلال (محمد غنيمي): 14، 284، 383،
410.
همدان: 143.
الهند: 34، 38، 39، 43، 44، 45، 47.
هوغو فكتور: 182.

(و)

واسط: 213.

(ي)

يافش بن نوح: 131، 158.
يزبل: 177.
يزيد: 148
يعقوب (النَّبِيّ): 167، 398.
اليقوبيّ (محمد علي): 112، 115، 116.
اليمامة: 34، 87.
اليمن: 35، 42.
يوسف (النبي): 167، 398.

90، 91، 93، 133، 137، 139، 158،
203، 206، 208، 214، 215، 218،
220، 222، 328، 353، 362.
الموسويّ (عبد القاهر): 141، 200، 353.
الموسويّ (ناصر بن عبد الجبار): 141،
151، 152، 212، 221.
المهديّ (المنتظر): 100، 143، 330، 361.
الموصل: 44، 64.
ميثم بن عليّ: 60.

(ن)

نبات: 73، 175، 349، 369.
النابعة الذيباني: 252.
نايف معروف: 274، 275، 277.
نجد: 35، 135، 177، 369، 399.
التَّجَف (مدينة): 15، 18، 112، 116، 119.
التَّحِيلِي (أحمد سعيد): 114.
النعمان بن المنذر: 252.
نوح (النَّبِيّ): 131، 167، 265، 397.
نور الله التستري: 264.
النويدري (سالم): 57، 62، 66، 68، 94،
96، 205، 212، 213.

(هـ)

هاشم بن عبد مناف: 144، 154، 194،
250، 309، 315، 317، 409.
الهاشميّ (عليّ بن الحسين): 15، 18، 19،
109، 115، 118، 119، 120، 121،
122، 123، 428.
هجر: 32، 33، 34، 35، 47، 59.

فهرس الأشعار⁽¹⁾

رقم الصفحة	الشاعر	عدد الأبيات	البحر	القافية	أول البيت
حرف الهمزة					
384، 149	الخطبي	2	البيسط	حَمْرَاءُ	وَلَيْلَةٌ بُتُّ
385، 329	=	2	البيسط	مَاءٌ	كَالْتَارِ وَالْمَاءِ
33	=	1	الطويل	نُوَائِي	وَلَوْلَا وَجُوهٌ
254، 192، 129	=	4	الطويل	الشُعْرَاءِ	فَأَنِي وَإِنْ
210	=	3	الكامل	يَعَائِهَا	أَتَرَى النُّعَاةَ
254	=	2	الطويل	وَلَائِي	أَلَا قُلْ
255	=	2	الطويل	أَنَاءِ	وَأَنْتَ الَّذِي
287	=	1	الكامل	عَمَائِهَا	مَا بَالُ عَيْنِكَ
334	=	1	الكامل	إِعْقَائِهَا	أَلْقَعَلَى
349، 232	=	3	الوافر	الطَّبَّاءِ	وَلَمْ أَرِ
حرف الباء					
176، 103	الخطبي	2	الرجز	أَصْحَابَا	لَا تَحْسَبِ الْبَحْرَيْنُ

(1) رُتِبَتِ القوافي حسب الحركة من الأضعف إلى الأقوى : السَّاكن، فالمتفوح، فالمضموم، فالمكسور .

162	الْخَطْبِيُّ	3	الطَّوِيل	أَشْيَبَا	عَجِبْتُ
281, 259, 165	=	2	الرَّجَز	الْفُرْبَا	رَعَتْ فُرَيْشُ
370, 173	=	2	الْبَسِيط	شَرَابَا	فَارَقْتُكُمْ فَجَعَلْتُ
275, 262	=	2	الْكَامِل	رَبَّا	لَوْ عَبَدَ النَّاسُ
286	=	2	الْبَسِيط	آرَابَا	يَا مُنْتَهَى الْأَرَابِ
287	=	1	الطَّوِيل	تَأْدُبَا	تَأَخَّرَ قَلِيلًا
290	=	1	الْبَسِيط	عَدَابَا	مَا دُفْتُ
356	=	1	الطَّوِيل	الصَّبَا	إِذَا هُوَ
330	=	1	الْوَافِر	أَنْجَبَا	لَا عَزْوُ أَنْ
185, 48	=	3	الطَّوِيل	قَرَيْبُ	أَسْلَمُ مِنْ
394	=	1	مخلع البسيط	قَوَاضِبُ	كَأَنَّمَا قَدَّهُ
102	=	3	الخفيف	شِبَابِي	فَلَعَعُرِي لَقَدْ
105	=	3	الْكَامِل	أَسْبَابِهِ	يَا مَنْ نَأَتْ
196	=	4	الطَّوِيل	بِصَاحِبِ	لَقَدْ جَاءَكَ
335, 197	=	3	الخفيف	إِهَابِي	غَيْرَ أَنِّي
243	=	3	مخلع البسيط	الشَّوَارِبِ	وَيُلَاهُ مِنْ
248	=	1	الْبَسِيط	يَهَبِ	وَهَا أَنَا
253	=	1	الخفيف	الجَوَابِ	قُلْ لِأَحْفَى
255	=	2	الْبَسِيط	بِحَاصِبِ	أَلَسْتَ الَّذِي
256	=	3	الطَّوِيل	كَادِبِ	أَلَا أُبْلِغَا
287	=	1	الطَّوِيل	المَوَاهِبِ	خَلِيلِيَّ
399, 337	=	1	الْبَسِيط	كَرْبِ	وَلَوْ غَدَا

257	الخطِّي	2	الخفيف	الكذَابِ	إنني واليمين
278	=	2	مخلع البسيط	الكواكِبِ	جاء سمي
حرف التاء					
393	=	1	مجزوء الكامل	سَلَّتْ	وسيوفُ
254	=	2	مجزوء الكامل	ذَلَّتْ	أَحْسَيْنُ أَنِّي
256	=	4	مجزوء الكامل	وَجُلَّتْ	يَا سَيِّدًا
388, 231	=	2	الطَّوِيلِ	السُّنْدُسِيَّةِ	وَلَمَّا اكْتَسَى
370, 174, 72	=	2	الكامل	وَالْفَتَيَاتِ	هَلَا سَأَلْتُ
72	=	7	الكامل	الهِجَمَاتِ	وَمُجَدِّ فَاتٍ
193, 129	=	2	الرجز	شَبَاتِي	فَإِنَّا وَإِنْ
386, 352, 230	=	5	المنسرح	الرَّهْرَاتِ	رَوْضُ كَمَا
387, 231	=	3	الكامل	الظُّلَمَاتِ	خُذْهُ إِلَيْكَ
248	=	3	الوافر	المُشْكَلَاتِ	يَمِينُكَ لَاتَشُلُّ
251	=	2	الوافر	المَكْرَمَاتِ	أَمْوَالِي كُلِّ
348	=	2	الرجز	العَرَصَاتِ	فَسَقَى العَمَامِ
387	=	1	الكامل	الصَّفَحَاتِ	وَكأنه وَالْمَحْوُ
183	=	2	البسيط	طوياتي	لو أن لي
حرف الحاء					
43	الخطِّي	5	الخفيف	القِدَاحِ	حَازَ أَوْفَى
402, 297	=	2	الخفيف	الأَقْدَاحِ	أَنْتَ تَدْرِي
296, 177, 45	=	3	البسيط	الرُّوحِ	يَا نَازِلِينَ عَلَيَّ
139, 92	=	2	الوافر	الوِشَاحِ	تَوَسَّحَتِ السَّمَاءُ
415, 132	=	1	الخفيف	المِضْبَاحِ	عَاطِنِيهَا قَبْلَ

166، 157، 44، 307	الخطي	2	الخفيف	الكَفَاحِ	كُسْرَوِي الْعَدَالَةِ
159	=	2	الخفيف	ارْتِيَاحِ	أُرِيحِي مَا جَادَ
310، 44	=	1	الخفيف	السَّمَاحِ	أَحْنُفُ الْحُكْمِ
332	=	1	الخفيف	الأَنْزَاكِ	وَإِذَا مَا أَحَاطَ
323	=	1	الخفيف	صَاحِي	يَا خَلِيلِي
329	=	1	الخفيف	رَوَاحِ	لَا أَعْبُ الْوَزِيرَ
336	=	1	الخفيف	الْوَصَاحِ	فَنَنْتُ رُبَّهَ
337	=	1	الوافر	ضَاحِ	فَهِيَ تَمُحُو
338	=	1	الخفيف	سَرَاكِ	أَلْحَفْتُ بِالسُّؤَالِ
299	=	3	الخفيف	سَبَّاحِ	وَاعْتَنِمِ أَجْرَ
301	=	1	الخفيف	الصَّبَّاحِ	كَفَلَا بِالصَّبَاءِ
389، 302	=	1	الخفيف	وَامْتِدَّاحِ	فَوَضَّ الصَّوْمُ
302	=	1	الخفيف	الأَوْضَاحِ	فَاجْتَلَى النَّاسُ
304	=	1	الخفيف	اللَّقَّاحِ	جَاءَهَا بَعْدَ مَا
308	=	1	الخفيف	اضْطَبَّاحِ	أَلِفَ الرِّاحِ
389	=	3	الخفيف	الإِضْبَاحِ	حَبِّذَا اللَّيْلُ
391، 44	=	1	الخفيف	النُّطَّاحِ	أَسْدُ الْفَتْكِ
403	=	1	الخفيف	الذَّبَّاحِ	فَأَسْلَهَا وَرْدِيَّةَ
404	=	1	الكامل	رَاحِ	وَتُعُورٍ يَحْلَنَ
410	=	2	الخفيف	الأَفْرَاحِ	مَا تَرَى الدَّهْرَ
414، 44	=	2	الخفيف	السَّلَاحِ	مَا شَكَى الْحَيْفَ
416	=	2	الخفيف	صَبَّاحِ	فَهِيَ مِنْ نُورِ

حرف الدال

235	الْحَطِّي	2	الوافر	تَجَرَّدُ	نسيم بارد
401	=	1	الوافر	عَجْرَدُ	نَزَلْتُ مِنَ الْبَلَاغَةِ
417، 131	=	6	الكامل	الأَوْعَادَا	بَلَدٌ نُهَيْنُ
172، 133	=	1	الخفيف	جَادَا	لَأَفَارِقَنَّ الْخَطَّ
157	=	2	الكامل	يِلَادَا	مَا سِيرْتُ
159	=	3	الكامل	أَجَادَا	وَلَاذْكَرَنَّ
198	=	2	الكامل	الآسَادَا	قَسَمًا بِخَوْضِ
232	=	2	الطويل	الْقَصْدَا	وَطَرِقِي سَلَكْنَاهَا
281، 233	=	6	الرجز	وَاحِدَا	وَحَالِقِي أَصْبَحَ
349	=	1	الطويل	الصدى	وذي نايِلِ
236	=	3	الطويل	جديدا	وَجُوهًا لَوْ اسْتَجَلِي
238	=	2	الخفيف	رَشَادَه	حَسَنْتُ غَيْهُ
239	=	2	الكامل	فَتَادَا	لَعَبْتُ بِعِطْفِيه
359، 240	=	4	الخفيف	سَوَادَه	ذاتَ وَجِهٍ
260	=	1	الطويل	عَبْدَا	سَلَامٌ عَلَيَّ
261	=	1	الطويل	عَدَا	وَسَوْعَنِي
322، 299	=	1	الكامل	الحُسَادَا	وَأَسَلَمَ وَدُمُ
336	=	1	الكامل	أَجْيَادَا	رِيمٌ أَعَارَ
416	=	1	الرجز	زَائِدَا	فَرَدَّ رَأْسًا
76	=	3	الطويل	طَارِدُ	إِذَا شِئْتُ
107	=	4	الطويل	تُطَارِدُ	فَأَيُّ فِتْنَى
139	=	3	المنسرح	جَسَدُ	يَا لَيْتَ أَرَوَّاحَنَا

212، 143، 285، 274	الْحَطِّي	2	الطَّوِيل	الْمَعَاهِدُ	مَعَاهِدَهُم بِالْأَبْرَقِينَ
198	=	1	الطَّوِيل	الْأَمَاجِدُ	يَزِيرُكُمْ مَهَا مِنْ
237	=	3	المنسرح	جُمُودُ	أَلْجَفِنِ أَرْقَتُمُوهُ
246	=	4	المنسرح	الْبَيْدُ	وَيَنْفِسِي تِلْكَ
304	=	1	الطويل	المعانِدُ	يُدَافِعُهَا
258	=	1	الطَّوِيل	الْيَدُ	لَقَلَّدَتْ نِيهَا
357	=	2	المنسرح	يُرِيدُ	لَا أَرَى
403، 372	=	4	الطَّوِيل	رَوَاكِدُ	إِذَا هُنَّ
318، 297، 411، 338	=	1	الطَّوِيل	نَاشِدُ	وَأَسْأَلُهَا عَنْ
413، 325	=	1	الطَّوِيل	الْقَصَائِدُ	لَعَمْرِي أَبِي
294	=	4	الطَّوِيل	وَاحِدُ	وَلَا سَمِعْتُ
300	=	1	الطَّوِيل	رَاقِدُ	أُمِّيَّةَ هُبِّي
301	=	1	الطَّوِيل	خَالِدُ	فِيهَا وَقَعَهُ
312، 308، 306	=	1	الطَّوِيل	سَاجِدُ	إِلَى أَنْ أَسَالَ
406، 312	=	2	الطَّوِيل	اللَّوَابِدُ	كَأَنِّي بِهِ
389	=	2	البسيط	بَعْدُوا	يَا سَادَةَ
390	=	1	الطَّوِيل	سَوَاجِدُ	نَوَادِبُ لَوْ
403	=	1	الطَّوِيل	العَوَائِدُ	وَالْأَثْلَاثُ
405	=	1	الطَّوِيل	شَوَارِدُ	يَكْرُ فَيَنْثَالُونَ
406	=	3	الطَّوِيل	المُجَاهِدُ	يُحَامِي وَرَاءَ
408	=	1	الطَّوِيل	سَوَاعِدُ	سَوَافِرُ بَعْدَ
409، 305	=	4	الطَّوِيل	الْجَلَامِدُ	تَدَاعَيْنَ يَلْطَمَنَّ
415	=	1	الطَّوِيل	قَاعِدُ	وَأَبْكِيْتُمْ جَفَنَ

245، 239، 63	الخطِّي	2	البيسيط	الزَّمْدِ	لَمَّا رَأَيْتِ
259، 39	=	2	البيسيط	العُودِ	أُهْدِي ثَنَاءً
218، 95	=	3	الكامل	بِالْمِرْضَادِ	فَلْتَنْ مَضَى
138	=	2	الكامل	العُرْدِ	وَلَأَجْلُونَ عَلَيْهِ
142	=	2	الوافر	عَهْدِي	لِإِبْرَاهِيمَ خَالِصَتِي
153	=	2	الطَّوِيلِ	وَمُحْتَدِ	فَمَا سَوَدَّ
160	=	4	الطَّوِيلِ	تَعْبُدِ	عَوَامِدُ لِلْبَيْتِ
162	=	2	الكامل	الحُسِّدِ	إِنَّ الْعُلَى
190	=	4	الوافر	فَرْدِ	فَيَا بْنَ مُحَمَّدٍ
195	=	2	الخفيف	اليَهُودِ	مَا مَقَامِي
206	=	4	الكامل	جلادِ	فِي فَتْيَةٍ
279، 209	=	3	الوافر	التَّعْدِي	أَلَا يَا قَوْمُ
215	=	4	الوافر	وَمَجْدِ	فَيَا لِكْرِيمَتِي
220، 91	=	2	الكامل	الأَطْوَادِ	يَا فَجَّعَةً
222	=	5	الكامل	عَادِي	عُدْرًا لَوْ
224، 222	=	2	الكامل	عِمَادِ	اللَّهُ أَكْبَرُ
226	=	2	الكامل	الثَّادِي	أَحْمَدَتْ صَوَاءً
235	=	2	الطَّوِيلِ	رُشْدِ	وَأَعْرَبُ مَا
379، 244	=	2	الدوبيت	عَمْدِ	يَا مُخْرِقَ
259	=	2	الطَّوِيلِ	الوُدِّ	سَلَامٌ يَفُوقُ
260	=	3	الطَّوِيلِ	وَالْحَمْدِ	وَيَعْدُ فَقْدُ
275، 262	=	1	البيسيط	معجُودِي	لَوْ سَاعَ أَنْ
348	=	2	الطَّوِيلِ	سَرْمَدِ	أَلَمْ تَرَ أَنَّ

90	الْحَطِّي	2	الكامل	سيدي	حَتَّامٌ أَمَطْلُ
394, 363	=	1	الطَّوِيل	المُهَنَّدِ	يُعْرَضُ لِلتَّقْيِيلِ
365, 331	=	3	الكامل	نَجَادِ	قَوْمٌ إِذَا سَلُّوا
318	=	1	الرَّمَل	الأَعْوَادِ	أَعْلَمْتُ مِنْ
331	=	1	الوافر	أُسْدِ	إِذَا اسْتَصْرَخْتَهُمْ
358	=	1	الطويل	محتدِ	فَمَا سَوَّدَ
332	=	1	الطَّوِيل	يَصْعَدِ	فَتَىٰ إِنْ
333	=	2	الوافر	جلدي	فَقَوْلًا أَنْ
322	=	1	الكامل	مُرَادِ	قُولُوا لِمَرْجِي
323	=	1	الكامل	فَافْعِدِ	يَا أَيُّهَا السَّاعِي
324	=	1	الوافر	تعدي	أَلِإِبْرَاهِيمَ
325	=	1	الكامل	واحدِ	مَوْلَايَ دَارَكَ
325	=	1	الطَّوِيل	مُحَمَّدِ	لَعَمْرُ أَبِي
328	=	5	الكامل	المَوْعِدِ	وَأَنَا الَّذِي
330	=	1	الطَّوِيل	مَوْلِدِ	لَا غَزْوَ أَنْ
335	=	1	الوافر	وَحَدِي	تُحْرَمُ أُسْرَتِي
337	=	1	الوافر	مَهْدِ	فَلَمْ يَعْرِفَنَّ
390	=	1	الكامل	جوادِ	جَادَ الزَّمَانُ
393	=	1	الكامل	الأَعْمَادِ	وَمُهَنَّدًا أَبْلَى
390	=	1	الكامل	للمُّصْطَادِ	أَلْقَى حَبَائِلَهُ

حرف الراء

63	العرجي	2	البيسط	شَرُّرَا	وَلَمَّا رَأَيْتُ
206, 83	الْحَطِّي	4	الكامل	فِخَارَا	يَا قَبْرُ إِنَّكَ

265	الْخَطِّي	3	الْبَسِيط	عَطَّارًا	اعْمَلْ لِنَفْسِكَ
288, 265	=	3	الْبَسِيط	مِسْمَارًا	أَوْ فَاتَّخِذْ سِنْدَانًا
397	=	1	الْبَسِيط	نَجَّارًا	أَوْ فَاتَّخِذْ لَكَ
324, 306, 65, 33	=	1	الطَّوِيل	جَبْرٌ	وَيَا بَلَدَ الْخَطِّ
193, 96, 57	=	1	الْبَسِيط	الْبَصْرُ	لَقَدْ رَفَعْتَ
261	=	1	الْبَسِيط	مُضْرٌ	لَوْلَا تَقَدَّمَ
97	=	1	الْبَسِيط	يَحْقُرُ	إِنَّ الثَّنَاءَ
128	=	4	الْكَامِل	الْتَمَرُ	وَدَوْحُهُ مَا
138	=	2	الْبَسِيط	الْقَمْرُ	مَاذَا عَسَى
275, 262, 163	=	2	الْبَسِيط	الثَّنْرُ	وَدُونَكُمْ مَنْ
191	=	2	الطَّوِيل	حُمْرٌ	أَكْفُ الْبِرَايَا
385, 204	=	2	الطَّوِيل	بَكَرٌ	خَلِيلِي مَنْ
220, 204, 82	=	3	الطَّوِيل	الضَّرُّ	بَنِيهِ اصْبُرُوا
218	=	2	الطَّوِيل	الضَّفْرُ	تَوَى بِكَ
339, 224	=	4	الطَّوِيل	الظَّفْرُ	وَلَيْتُ وَعَى
392, 303, 225	=	1	الْكَامِل	الْبَدْرُ	وَبَدْرًا تَرَاءَى
296, 226, 83	=	1	الطَّوِيل	حَقِيرٌ	كَفَى لَكَ أَنْ
302	=	2	الطَّوِيل	لَيْكُنْتُ	وَمَتَى يَقْلُ
248	=	1	الْكَامِل	الْمَطَرُ	وَيَا سَحَابَ
260	=	3	الْبَسِيط	خَبِيرٌ	فَإِنْ أَنْتَجِعَ
347	=	1	الطَّوِيل	الْحِفْرُ	لِيَهْنِكَ فَحِرًّا
332	=	1	الطَّوِيل	الْغَمْرُ	لَوْ خَلَدَ الْمَعْرُوفُ
299	=	1	الطَّوِيل		
368, 301	=	1	الطَّوِيل		

304	الْحَطِّي	1	الطَّوِيل	السُّدْرُ	وَهَلَّا اسْتَحَارَ
396	=	1	الطَّوِيل	قَدِيرُ	فَإِنْ رِشَّتْ
408، 225	=	1	الطَّوِيل	فِكْرُ	جَوَادٌ لَهُ فِي
411	=	1	الطَّوِيل	المُرُّ	وَمَوْرِدٌ هَذَا
99	=	1	الطَّوِيل	العِطْرِ	أَبَا هَاشِمٍ
249	=	3	الخفيف	صُفْرُ	أَنْتَ تَدْرِي
199، 60	=	4	الطَّوِيل	وَتِرِ	فَوَيْلٌ بَنِي
70	=	2	الطَّوِيل	التَّمْرِ	لَكَ الْخَيْرُ
94	=	2	الخفيف	ذِكْرِ	طَوْدٌ حَلِيمٌ
88	=	4	الخفيف	الأفراح	ما ترى الدهر
161	=	1	الخفيف	العصرِ	يا عماد
332، 182، 68، 414	=	4	الكامل	وَدُكُورِ	إِنْ يُصْبِنِي
54	=	2	الطَّوِيل	ذِكْرِي	أَنَا الرَّجُلُ
99	العالمي	1	الطَّوِيل	ذي قاري	سَرَى الْبَرْقُ
100	الْحَطِّي	1	الطَّوِيل	للدَّارِ	هِيَ الدَّارُ
277، 128، 93	=	2	الخفيف	فَخَرِي	قُلْ لِكُنْزِي
134	=	3	الطَّوِيل	نَشْرِ	ظَلِيمٌ رَعَى
161، 138	=	1	الطَّوِيل	وإصدارِ	سَمِي النَّبِي
143	=	2	الطَّوِيل	أَطْهَارِ	إِمَامٌ هُدَى
151	=	1	الطَّوِيل	الكَسْرِ	وَأَشْكُو لَكَ
153	=	2	الخفيف	القَدْرِ	طَاهِرُ الْأَصْلِ
163	=	6	الخفيف	النُّثْرِ	أَدَبٌ بَارِعٌ

165	الْخَطْبِيُّ	1	الخفيف	الْوَثْرُ	وَوَيَّانُ لَوْ
169	=	4	الخفيف	الدَّهْرُ	رُوحُ جِسْمٍ
180	=	2	الكامل	النُّورِ	إِنْ أَنْسَ
321 ، 180	=	4	الكامل	سُرُورِي	عُجٌّ بِالْمَطِيِّ
191	=	1	البسيط	الْوَقْرِ	فَقُولَا لَهُ
195	=	2	الطَّوِيلِ	نَصْرِي	فَلَوْ هُمْ غَيْرُ
289	=	1	الكامل	هَجِيرِ	وَأَلْقَيْنَ
378 ، 233	=	1	الطَّوِيلِ	الْبَحْرِ	يَرْعُمُ الْعَوَالِي
253	=	1	الطويل	العطْرِ	سَلَامٌ
395	=	1	الخفيف	بَحْرِ	فَانْتَضِ
319	=	1	الخفيف	كُفْرِ	أُذْرَانِي تَبَذْتُ
330	=	1	الطَّوِيلِ	إِبْكَارِ	لَا زَالَ تَسْلِيمٌ
335	=	1	الكامل	مَسِيرِي	يَأْمَنُ أُسَيْرٌ
298	=	2	الكامل	بَحُورِ	لَأَجْشَمَنَّ النَّاجِيَاتِ
313 ، 308	=	1	الكامل	عَبِيرِ	وَأَسْتَنْشِ رِيَّاهَا
313	=	1	الكامل	بُكُورِي	أَنَا أَسْعُدُ
390	=	1	الخفيف	المَهْرِ	وَعَرُوسٌ بِكْرٌ
414 ، 395	=	1	الكامل	نَظِيرِي	لَا تَحْسَبُوهَا أَنَّهَا
397	=	1	الخفيف	السَّحْرِ	وَاحْتِجَاجٌ يَلْقَى
400	=	1	الخفيف	حِجْرِ	وَقَرِيضٌ لَوْ اسْتَجَلَّاهُ
404	=	2	الكامل	عُشُورِ	رَوْضٌ يَرِيقُ
412	=	2	الكامل	المَعْسُورِ	وَأَقُولُ مُعْتَدِرًا
413	=	1	الكامل	المَقْصُورِ	وَالْمَاءُ مِنْهُ

338	الْحَطِّي	1	الكامل	البلور	لا شيء أبهج
حرف الزاي					
211	الْحَطِّي	2	الوافر	الأعزُّ	عزيزٌ أمرنا
217	=		الوافر	المنز	وطفلاً مات
363	=		الوافر	هزُّ	وسيفٌ فُلٌّ
حرف السين					
243	الْحَطِّي	3	الوافر	رسيسا	ألا تستخبر
397، 167	=	1	البيسط	إدريس	بيبتاك بالأمس
حرف الشين					
241	الْحَطِّي	4	البيسط	حشا	أهدى لنا طيفه
حرف الصاد					
390	الْحَطِّي	1	الكامل	معرض	ولقد دعوت
حرف الطاء					
398	الْحَطِّي	1	الوافر	البيساط	لو أضبحت
حرف العين					
392	الْحَطِّي	2	الوافر	الوداع	كان قلوبنا
379	=	1	الوافر	انصداع	وأكباداً وأفندة
318	=	1	الوافر	انتفاع	رحلتكم بالنفوس
146، 130، 86	=	9	الكامل	تسمع	ماذا يفيدك
87	=	2	الكامل	أبرع	فأضمم عليه
101	=	2	الكامل	يتبع	يا من يفر
377، 162	=	2	الكامل	مجمع	حتى ترجل
164، 86	=	1	الكامل	مطمع	ملكاً رقى

396، 87	الْخَطِّي	1	الكامل	مُنْقَع	التَّارِكُ الْأَبْطَالَ
399	=	1	الكامل	إِضْبِع	كَرْمِيَّةٌ تَذُرُ الْبَخِيلَ
400، 87	=	1	الكامل	الْأَشْجَع	فَلْيُسْمَعَنَّكَ
364، 87	=	1	الكامل	دُعِي	أَنْدَى مِنَ الْغَيْثِ

حرف الفاء

135	الْخَطِّي	3	البسيط	خَافِ	لَمَّا تَفَكَّرْتُ
199، 165، 136	=	4	الكامل	هُدَيْفِ	مَوْلَى مُوَالِي
152	=	3	الكامل	الْحَيْفِ	إِنَّا إِذَا جَارَ
154	=	1	الخفيف المدوّر	الصَّيْفِ	يَا أَخَا هَاشِمِ
250، 321	=	1	الكامل	الْخَيْفِ	مَنْ لِي يَحْضُرْتَهُ
208	=	2	المنسرح	الشَّرْفِ	إِنْ نَقَلْتَ
323	=	1	الكامل	الطَّيْفِ	يَا رَبُّ إِنْ لَمْ
399	=	1	الكامل	الضَّيْفِ	وَوَدَّيْ إِذَا مَا كَانَ

حرف القاف

161، 96	الْخَطِّي	1	الكامل	المُسْتَقَى	العَالِمُ العَلَمَ
140	=	2	الخفيف	صَدِيقًا	يَا سَمِيَّ
154، 144	=	1	الخفيف	الطَّلِيقَا	يَا أَخَا هَاشِمِ
149	=	5	الخفيف	مَشُوقًا	بَعَثْتُ طَيْفَهَا
150	=	3	الخفيف	حَلِيقًا	إِنَّ أَوْلَى الْوَرَى
155	=	2	الخفيف	عُرُوقًا	يَا بَنَ عَيْدَ الْجَبَّارِ
379	=	1	الخفيف	الْفُوقَا	لَحْظُ عَيْنٍ كَالسَّهْمِ
322	=	1	الكامل	الْبَقَا	فُمْ غَيْرَ مَأْمُورٍ
242	=	2	الكامل	العَرَقِ	يَا وَرَدَاتِي حَدِيثِهِ
214	=	2	الطويل	الأَفْقِ	لعمرك

حرف الكاف

144	الْحَطِّي	1	البيسط	حَكَى	شَهَادَةُ اللَّهِ
207	=	4	البيسط	فَتَكَ	تَبَّتْ يَدُ الدَّهْرِ
225	=	1	البيسط	وَكَا	مَا صَمَّ يَوْمًا
368	=	2	البيسط	صَحَكَ	يُوحِدِ مَرَّ

حرف اللام

364، 159، 137	الْحَطِّي	1	البيسط	أَفْعَالًا	يَا أَكْرَمَ النَّاسِ
241، 238	=	2	الخفيف	اعْتَدَا	فُلٌ لِمَنْ فَاقَتْ
244	=	2	البيسط	مَعْلُولًا	وَشَادِنٌ مَرِضَتْ
280	=	2	مجزوء الرَّمَل	سَهْلًا	يَا أَحَا هَاشِمَ أَهْلًا
351	=	1	الخفيف	سِلْسَالًا	وَأَقَادَتْ سُلَاقَةً
245	=	2	البيسط	الْوَلَه	لَا بُورُكُ فِي
151	=	2	الوافر	الرَّحِيلُ	تَبَّتْ بِي
90	=	2	الطَّوِيل	بَحِيلُ	إِلَى الْمَلِكِ الْوَهَّابِ
134	=	3	الطَّوِيل	قُبُولُ	سَلَامٌ كَمَا
144	=	3	الطَّوِيل	عَقِيلُ	جَمَعَنَ إِلَى عَقْلِ
215، 209	=	4	الطَّوِيل	نُزُولُ	وَعَائِدَةٌ مِنْ حَجَّهَا
213	=	1	الطَّوِيل	لَقِيلُ	وَرَاءَ كَمَا إِنْ
221	=	4	الطَّوِيل	يَقُولُ	مَعَارِفُ لَوْ تَأَجَى
317، 227	=	2	الطَّوِيل	دُخُولُ	بَنِي هَاشِمٍ هَلْ
228	=	1	الطَّوِيل	تَمِيلُ	وَإِنِّي لَتَلْخُلُ الَّذِي
265	=	2	الخفيف	جَلِيلُ	يَا حُمَاةَ الْقَرِيضِ
288	=	1	الخفيف	الْحَلِيلُ	يَا خَلِيلِي مِنَ

288	الْحَطِّي	1	الطَّوِيل	رَسُولُ	يَا ابْنَةَ مَنْ
330	=	1	الطَّوِيل	أَصِيلُ	وَلَا زَالَ تَسْلِيمُ
218	=	2	الطَّوِيل	دُيُولُ	سَقَى قَبْرَهُ
158	=	6	الطَّوِيل	نُكُولُ	صَلِيبٌ عَلَى عُجْمٍ
156	=	3	الطَّوِيل	طَوِيلِ	يَمْتُ إِذَا اسْتَنْسَبْتَهُ
160	=	1	الطَّوِيل	قُقُولِ	كَرِيمٌ مَتَى أَلْقَى
211	=	3	الوافر	السُّوَالِ	أَوَالِدَهُ وَوَسَتْ
216	=	2	الوافر	المَعَالِي	عَدَاةٌ نُعِي
320	=	1	الوافر	حَالِ	سَلُّ الْأَجْدَاثِ
392	=	1	الوافر	الرَّجَالِ	أَمَا وَالرَّاقِصَاتُ
145	=	1	الطويل	وعقيلِ	يَضُمُّ عَلِيًّا
398	=	1	الوافر	سَالِي	تَعَزَّزْ لَوْ رَقَى

حرف الميم

236	الْحَطِّي	2	البيسط	النَّعَمُ	لَا يَوْمَ كَيْوَمَتَا
106	=	3	السَّريع	قَسَمُ	لَا أَتَعَاطَى
282	=	1	السَّريع	الجِكَمُ	نَصَحْتُ لِلَّهِ فَلَا
320، 175	=	3	الرَّمَل	انْصِرَامَا	مَا لَكُمْ بَدَلْتُمُونِي
185	=	2	الطَّوِيل	أَرَاكُمَا	خَلِيلِي حَالِ
205	=	1	البيسط	فَانْهَدَمَا	جَدُّ الرَّدَى
223	=	2	البيسط	عُلَمَا	لَوْ عَلِمَ الْوَحْشُ
224	=	1	البيسط	وَالتَّطَمَا	نَبَّكِي خِضَمٌ
227	=	2	البيسط	الرُّجَمَا	لَهْفِي عَلَى كَوْكِبِ
379، 280، 184	=	2	الرَّمَل	حَمَى	يَا نُزُولًا بَيْنَ

318، 184	الْخَطْبِيُّ	1	الرَّمْلُ	حُرْمًا	هَلْ تُعِيرُونَ
321	=	1	الْبَسِيطُ	رَمَمَا	فَكَمْ تَخَطَّفَ
333	=	1	الْبَسِيطُ	كِرْمًا	لَوْ أَتَصَفَّ الدَّهْرُ
69	=	1	الطَّوِيلُ	الشَّمُّ	تَصِيحُ الْمَقَالِي
151، 97	=	3	الْكَامِلُ	عَظِيمٌ	لِي إِنْ تَحَامَانِي
400، 166	=	1	الْكَامِلُ	جَسِيمٌ	أَوْ مَادِرُ
169	=	2	الْكَامِلُ	فَهِيمٌ	إِنْ قُلْتُ ذَا
192	الْمُتَنَبِّي	1	الْبَسِيطُ	صَمَمٌ	أَنَا الَّذِي نَظَرَ
213	الْخَطْبِيُّ	1	الْكَامِلُ	رُسُومٌ	هَتَفْتُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ
221	=	3	الْكَامِلُ	ضُمُومٌ	أَخِّي لَا لِأَبٍ
226	=	2	الْكَامِلُ	قَسِيمٌ	قَمَرُ الْمَحَافِلِ
289	=	1	الْكَامِلُ	الْإِفْلِيمُ	قَلَمُ تَحَاطُ بِهِ
366	=	2	الْكَامِلُ	كِرِيمٌ	أَخَذًا بِأَسْبَابِ
67	=	2	الرَّمْلُ	عَرَامِي	يَا مَنْ يُبْلُ
70	=	1	الْكَامِلُ	بِدْرَهَمٍ	أَصْبَحْتُ مُنْدُ
155	=	2	الْبَسِيطُ	فَمٌ	يَا بَنَ الذَّيْنِ تَوَلَّى
194	=	2	الْخَفِيفُ	كِرَامٌ	يَا أَحَا هَاشِمِ
234	=	4	الْبَسِيطُ	صَنَمٌ	بَاءَتْ حَنِيفَةٌ
367، 95	=	1	الْبَسِيطُ	الْكِرَمُ	هَنَّاكَ رَبُّكَ
326	=	1	الْخَفِيفُ	النِّيَامُ	مَا مَقَامِي فِيهِمْ

حرف التَّوْنِ

282، 178	الْخَطْبِيُّ	6	الْمُتَقَارِبُ	عِنْدَنَا	حَمَامَاتُ شِيرَازِ
80	=	3	الْكَامِلُ	بِالْحُسْرَانِ	مَوْلَايَ لَوْ قَرَعَ

164، 88	الْخَطِّي	2	الْبَسِيط	تَانِ	إِنَّ الْوَزِيرَ
147	=	4	الْبَسِيط	عُنْمَانِ	يَا صَاحِبِي
132	=	3	الْبَسِيط	عَيَّانِي	وَشَدَّ أَزْرِي
277، 179	=	3	الْبَسِيط	يَعْشَانِي	أَهْبْتُ بِالْدَمْعِ
351، 242	=	2	الْبَسِيط	سَيَّانِ	سَوَادُ قَرَعِ التِّي
250	=	1	الْبَسِيط	تَعُودُونِي	لَوْ تَمْرُصُونَ
319	=	1	الْبَسِيط	طِينِ	لَوْ أَنَّ بِالرَّاسِيَاتِ
326	=	1	الْبَسِيط	بِمَأْوَانِ	خُلِفْتُ لَمْ أَدِرْ
398	=	1	الْبَسِيط	سُلَيْمَانِ	مَا أَقْرَبَ الشَّبَهَ

حرف الهاء

358	الْخَطِّي	2	الْخَفِيف	عَلَيْهَا	إِنَّ شِيرَارَ
359	=	2	الْبَسِيط	يُعْنِيهَا	يَا وَحِجْ نَفْسِي
333	=	1	الْبَسِيط	فِيهَا	وَرَفَرَةً لَوْ تَوَى
396	=	1	الْبَسِيط	مُجْرِيهَا	وعبرة لو دعي
398	=	1	الْبَسِيط	يُبْرِيهَا	تلقي لكم
105	=	3	الْكَامِل	أسبابه	يا من إذا
140	=	2	الطَوِيل	بفعاله	جزى الله
69	=	1	الْكَامِل	سِوَاهُ	طَابَ الْجَوَافُ
179، 103	=	1	الطَوِيل	طوامحه	بلاد أقام
181	=	5	الطَوِيل	منادحه	أحبابنا

حرف الياء

67	الْخَطِّي	1	الطَوِيل	فُؤَادِيَا	وَأَفْلَازَ أَكْبَادِنَا
67	=	1	الطَوِيل	مُرَادِيَا	يَتَأَلَّ الْجَفَا

أَدْوَقْلَعَلْ أَوْلَاتِ تَأْوِيهِ
فَلَا جَنَّتْهَا فَعَزَّ كَثِيرٌ

عاشت بلدان الجزيرة العربيّة منذ القرن الرابع عشر الميلادي حياة مضطربة سببها التقسيم السياسي، إذ إنهار كيان المدينة ممّا أثر سلبيًا على الحياة الفكرية، وأخذ البدو يُسيطرون على القسم الواقع في هذه الجزيرة، والأعاجم يسيطرون على الجزر الواقعة في الخليج.

مع القرن السادس عشر الميلادي بدأت شواطئ الخليج تستقبل الجيوش التركيّة، وسيطر البرتغاليون على الجزر وبعض الموانئ، وساد الركود الثقافي فيها إلا قلاعًا غدت منارةً للفكر والأدب، كان أبو البحر جعفر بن محمد الخطي (ت 1619/1028) واحدًا من شخصيات هذه القلاع المميزة.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 3422 - 5



9 789953 034225 >



مركز أوال للدراسات والتوثيق

AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION